

من محاضرات الدكتور الشيخ أحمد الوائلي

١٣٤٦ هـ - ١٤٢٤ هـ



إعداد

مصطفى آل مرهون

منشورات


سيرة أهل البيت عليهم السلام
من محاضرات الدكتور الشيخ أحمد الوائلي


بسم الله الرحمن الرحيم



سيرة أهل البيت عليهم السلام

من محاضرات الدكتور الشيخ أحمد الوائلي

١٣٤٦هـ - ١٤٢٤هـ

إعداد

مصطفى آل مرهون

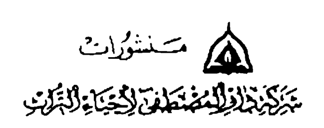
الجزء الأول

منشورات

شركة دار المصطفى لإحياء التراث

الطبعة الأولى
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

يطلب من:
لبنان ـ بيروت ـ جادة السيد هادي ـ مفرق الرويس ـ بناية اللؤلؤة ط١ ـ
هاتف: ٠٠٩٦١١٥٤٠٦٧٢ - ٠٠٩٦١٧٠٠٦٦٦٩١
سوريا ـ ص.ب: ٧٣٣ ـ السيدة زينب محمول: ٠٠٩٦٣٩٤٤٣٥٦٥٨٤ و٠٩٩٤٠٧٣٥٥٤
مؤسسة المصطفى: إيران ـ قم ـ خ سمية ـ ١٦ متری عباس آباد بلاك ٢٤
هاتف : ٠٠٩٨٢٥١ ـ ٧٧٣٨٨٥٥
البريد الإلكتروني: E-mail: mnmnmn3@hotmail.com



الشيخ الوائلي في سطور

اسمه ونسبه وولادته

أحمد ابن الشيخ حسون ابن الشيخ سعيد بن حمود الليثي النجفي.

ولد في النجف الأشرف يوم الجمعة ١٧ / ٣/ ١٣٤٦ هـ ـ ١٩٢٧م. ودرس في المدارس الرسمية ثم التحق بكلية الفقه وتخرج منها، انتقل إلىٰ بغداد لمواصلة دراسته في معهد العلوم الإسلامية، ونال منه شهادة الماجستير، وحصل علىٰ شهادة الدكتوراه من القاهرة في العلوم الإسلامية.

أقام في الشام لدوافع سياسية، مواصلاً طريقه في التأليف والتصنيف والبحث. وهو عالم وخطيب ومتكلم وشاعر يشنّف الأسماع بأدبه الجم وقريحته الوقادة؛ فقد عرف بجودة البيان والاطلاع الواسع[١].

مكونات خطابته:

١ـ الدراسة الأكاديمية والحوزوية.

٢ـ اطلاعه الواسع ومتابعاته العلمية.

٣ـ البيئة التي ترعرع ونشأ فيها.

٤ـ الملكة الشخصية والأدب الرفيع، مما ساهم في تطويره للمنبر الحسيني الذي تربع علىٰ قمته. وكان منفتحاً علىٰ جميع قطاعات الأمة، وكان يحضىٰ بثقة الجميع واحترامهم حتىٰ من يختلف معه، وكان متواصلاً مع كل المسلمين في دول عديدة، وكان من الوعي والعبقرية بمكان يجعل الكل يحترم موضوعيته وإنصافه.

مؤلفاته

١ـ الشعر الواله ج ١ ـ ٢ (ديوان شعر).

---

(١) للمزيد انظر: مقدمة موسوعتنا (محاضرات الوائلي).

٢ـ هويّة التشيّع.

٣ـ أحكام السجون بين الشريعة والقانون.

٤ـ من فقه الجنس في قنواته المذهبيّة.

٥ـ الأوليّات في حياة الإمام علي عليه السلام.

٦ـ جمعيّات حماية الحيوان في الشريعة الإسلامية.

٧ـ الخلفيّة الحضاريّة لموقع النجف قبل الإسلام.

٨ـ تجاربي مع المنبر.

٩ـ إيقاع الفكر.

١٠ـ استغلال الأجير وموقف الإسلام منه.

١١ـ منتجع الغيث في الصحابة والأعلام من بني ليث.

وفاته

عاد من منفاه بعد (٢٤) عاماً، وكان راغباً في العودة إلىٰ الوطن، وأن يدفن فيه بعد موته، حيث كان يعاني من مرض عضال، توفي رحمه الله مساء الاثـنين (١٤ / ٥ / ١٤٢٤ هـ) (١٤ / ٧ / ٢٠٠٣م) في الكاظمية، وشيعته الجماهير في حشد منقطع النظير، ودفن في النجف الأشرف، وبفقده خسرت الأمة عظيماً لا يعوض.

وتلبية للطلب الحثيث علىٰ تقديم البحوث الموضوعية تسهيلاً للتناول، فسوف نتواصل معكم إن شاء الله بتلبية طـلبكم، كـما نشكـر لكـم مـتابعتكم مشـروعنا (موسوعة محاضرات الوائلي) الذي لازلنا نواصل إنتاج مجلداته القيمة.

مؤسسة المصطفىٰ صلى الله عليه وآله قم المقدسة

مصطفىٰ آل مرهـون

١/ ١/ ١٤٣١ هـ

الفصل الأول

الرسول ﷺ

﴿١﴾

ذكرى الرسول الأعظم ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِـلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾[1].

مراحل حياة الرسول الأعظم ﷺ

وفي هذا اليوم سيكون مجلسنا الطاهر في ذكرى الرسول الكريم، نبينا وشفيعنا محمد المصطفى ﷺ، وللتعرّف على حياته وسيرته (صلوات اللّه عليه وعلى آله) لابدّ من المرور بمراحل ثلاث من هذه الحياة الشريفة، وهي مراحل ملؤها العطاء:

المرحلة الأولى: من ولادته حتى بعثته ﷺ

ولد ﷺ في مكّة المكرّمة[2]، وقد اعتاد المؤرّخون أمراً هو أنهم إذا مرّوا بولادته ﷺ فإنهم يذكرون إرهاصات وأُموراً جرت معها وساوقتها. لكن

---

(١) البقرة: ١٥٦ ـ ١٥٧. وقد نعىٰ ﷺ في هذه المحاضرة: استشهاد آية الله العظمىٰ السيد السبزواري ﷺ. للمزيد انظر: كتابنا محاضرات الوائلي ج ٤: ص ٥٩.

(٢) في ١٧ / ربيع الأول من عام الفيل.

نقول: إن الواقع أن هذه الأُمور لا تزيد الرسول صلى الله عليه وآله شيئاً فوق ما هو عليه.

إرهاصات ولادته صلى الله عليه وآله

ومن هذه الأُمور التي يذكرها المؤرخون أنْ فاضت بحيرة السماوة، وغاضت بحيرة ساوة، ومنعت الشياطين من استراق السمع[١]، وغيرها[٢]. وهذا التماس للمناقب من خارج ذات الرسول صلى الله عليه وآله، وهو غني عن ذلك، فكل لحظة من لحظات حياته عطاء ومكسب من المكاسب لهذه الأُمة ما زال يمدّها ويرفدها. فسواء غارت النجوم أو منع الشياطين من استراق السمع أو غاضت بحيرة ساوة أو لم يكن، فإن ذلك لا يعطي النبي صلى الله عليه وآله شيئاً أكبر مما أعطاه الله، فهو صلى الله عليه وآله منذ ولادته ولد في أقدس الحجور وأطهر البيوت، فبيت الرسول صلى الله عليه وآله ـ وهذا معروف على تسلسله ـ ما خضع لنكاح من أنكحة الجاهلية، يقول البوصيري رحمه الله:

لم تزلْ في ضمائر الكون تُختا	رُ لك الأُمهاتُ والآباءُ
تتباهى بك العصور وتسمو	بك علياء بعدها علياءُ
وبدا للوجود منك كريمٌ	من كريمٍ آباؤه كرماءُ
نسبٌ تحسبُ العُلا بحُلاها	قلّدتها نجومَها الجوزاءُ
حبّذا عقدُ سؤددٍ وفخارٍ	أنت منه اليتيمةُ العصماءُ[٣]

فرسول الله صلى الله عليه وآله ولد في بيت طاهر، ولم يتطرّق إلى نسبه شيء من العقود

(١) قال تعالى على لسان الجن: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَدًا﴾. الجن: ٩.
(٢) انظر كل ذلك في مناقب آل أبي طالب ١: ٢٧ ـ ٣١، أُسد الغابة ٥: ٥٢.
(٣) ديوان البوصيري: ٩.

التي كانت في الجاهلية.

وأُلفت النظر هنا إلى أن الإسلام لم يقدح بالعقود التي كانت في الجاهلية: «لكل قوم نكاح»[١]. فأقرّهم على ما هم عليه، وكان معظم الصحابة مولودين من زواج على غير الصيغة الإسلامية، فكان العقد في الجاهليّة أن يوجّه الإنسان باب خباء إلى باب خباء، أو باتّباع اصطلاحات أُخرى بحيث لو صدرت الآن فإننا لا نقرّها، لكنها صادرة منهم، و«لكل قوم نكاح». وبتعبير آخر إن إبراز الإرادة تارة يكون لفظياً وأُخرى يتمّ عملياً، وهذا مثل البيع المعاطاتي الذي يتم دون إجراء لفظ العقد بصيغته الشرعية التي ينبغي أن يقول البائع فيها: بعتك، ويقول المشتري: اشتريت. وكذلك العقود التي كانت في الجاهلية فإنها مبرزة للإرادة، فأقرّها الإسلام. ولكن عرف عن بيت رسول اللّه ﷺ أنه انتقل من الأصلاب الطيّبة إلى الأرحام الطاهرة: «أشهد أنكم كنتم نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة، لم تنجّسكم الجاهلية بأنجاسها، ولم تلبسكم من مدلهمّات ثيابها»[٢].

فترعرع ﷺ في ذلك البيت الذي حنا عليه؛ لأنه عاش يتيم الأبوين، فقد توفّي أبوه وهو في بطن أُمه، وتوفيت أُمه وعمره ستة أشهر، فحرم من عطف الأبوين. ولكن شاء اللّه أن يستبدله بحجر عوَّضَهُ ذلك العطف بل زاد على ما كان متوقعاً، وهو حجر جده عبد المطلب ؑ، وبيت عمه أبي طالب ؑ، وحجر هذه المرأة الطاهرة الرائدة في دنيا الإسلام فاطمة بنت أسد (رضي اللّه عنها) التي كفلته وحملته. وكان ﷺ ينقل عنها أن

---

(١) تهذيب الأحكام ٧: ٤٧٢ / ١٨٩١، المهذب (ابن براج): ٢٥٥.

(٢) مصباح المتهجد: ٧٢١ / ٨٠٧.

أولادها يصبحون وقد يكون أحدهم مترباً، في حين أنه صلى الله عليه وآله يصبح وقد دُهن شعره ورُجِّل وغسل وأُلبس ثياباً جدداً. وكانت تحرم أولادها من الطعام وتقدّمه له صلى الله عليه وآله. ولذلك كان يقول عنها: «أُمي»[1].

وعندما توفيت شيّعها صلى الله عليه وآله وقال لأمير المؤمنين عليه السلام: «إذا أدخلتها إلى القبر فأخبرني». فنزل عليه السلام إلى القبر، ونزل رسول الله صلى الله عليه وآله معها، فكفّنها بردائه، وأضجعها بيده، وخرج والتأثر بادٍ على وجهه، ثم قال: «أردت أن يخفف الله عنها ضغطة القبر وأن يقيها بردائي»[2].

أما عمه أبو طالب عليه السلام فقد وقف معه مواقف سوف نعرفها عندما نمرّ بالدور الثاني من حياته صلى الله عليه وآله.

فنشأ صلى الله عليه وآله وترعرع في هذا البيت الطاهر، ولم يألف مجتمعاً من مجتمعات قريش التي كانت في مكّة، وكان يتحنّف في طفولته. ويختلف المفسّرون والكتّاب في أنه صلى الله عليه وآله هل كان يتحنّف على الحنيفيّة التي هي ملّة إبراهيم الخليل عليه السلام، أو أن اللّه ألهمه أن يتحنّف على طريقته، لهم في هذه المسألة رأيان، وكل رأي له جماعته وأنصاره. لكن المهم أن النبي صلى الله عليه وآله كان يخرج فيطيل النظر إلى السماء، ويقلب طرفه في الكواكب كأنه يتوقّع حدثاً جديداً.

وكان صلى الله عليه وآله يخرج قبيل بعثته إلى غار حراء فيأخذ الإمام علياً عليه السلام معه آنذاك وهو لا يزال طفلاً صغيراً، يقول البوصيري في همزيّته:

---

(١) المعجم الكبير ٢٤: ٣٥١، المعجم الأوسط ١: ٦٧، كنز العمّال ١٣: ٣٣٥ ـ ٣٣٦ / ٣٧٦٠٧.

(٢) قريب منه في عين العبرة: ٦٨، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٠٨، كنز العمّال ١٣: ١٣٥ ـ ٦٣٦ / ٣٧٦٠٦ ـ ٣٧٦٠٧.

أَلِفَ النُّسكَ والعبادة والخَلـ ـوةَ طفلاً وهكذا النجباءُ
وإذا حلَّت الهدايةُ قلباً نشطت في العبادة الأعضاءُ[١]

فكان ﷺ يخرج هناك يدعو الله ويتضرع إليه، ويتأمل في الكواكب ويقلب طرفه فيها. ومكث هذه الفترة الطويلة في مجتمع قريش وليس هو معهم. وكان ﷺ يلقب بالصادق والأمين؛ لأنه كان متّصفاً بكلّ صفات الصدق والأمانة، بحيث إن قريشاً كانت إذا أهمّها أمر رجعت إلى رأيه، وكانت تسميه المبارك.

الرسول ﷺ يفضّ النزاع في رفع الحجر الأسود

فمن المعروف أنه هو الذي فضّ النزاع بين قريش في موضوع وضع الحجر الأسود في الكعبة، وإلّا فإن الأمر كان قد وصل إلى القتال بين قبائل قريش، فكلّ قبيلة تريد أن تضع الحجر بنفسها، وجاء رسول اللّه ﷺ فأمرهم أن يضعوا إزاراً ويضعوا عليه الحجر، وتتوزّع القبائل على جوانبه الأربعة فيحملوه دفعة واحدة، فلما رفعوه وضعه بيده الشريفة في مكانه[٢].

لقد عرف بسداد الرأي وحصافة الفكر منذ طفولته، وعرف بالطهر الطاهر، فقد كان بعيداً عن آثام قريش ولم تدنّسه أوضار الجاهليّة، وإنما كان يخرج وليس له من لِدَةٍ يألفها إلّا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ؑ، وبعض اللّدات الذين لم يُلقِ التاريخ عليهم كثيراً من الأضواء، ولكن المعروف عنه أنه كان يألف علي بن أبي طالب ؑ، فكان يحمله على

(١) ديوان البوصيري: ٩.
(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ٢٠٠، المستدرك على الصحيحين ١: ٤٥٨.

صدره ويطوف به شعاب مكّة ويقول: «أخي ووزيري وناصري وخليفتي من بعدي»[١]. وكان إذا عاد إلى البيت عاد بعلي عليه السلام معه.

وقد قضى صلى الله عليه وآله هذا الدور إلى أيام زواجه من خديجة عليها السلام، وكان يصرّ خلال هذه الفترة على أن يعمل ولا يأكل إلّا من عمله، فاشتغل صلى الله عليه وآله في كثير من الأعمال كان آخرها العمل في التجارة مع خديجة عليها السلام التي كان لها الكثير الكثير من الأموال، وكان التجار القرشيّون يضاربون بأموالها ويقترضون منها. ويقول بعض المؤرّخين عن أموال خديجة: لو أن رجلاً وقف بهذا الجانب، ووقف رجل آخر بذاك الجانب ووضعت بينهما أموال خديجة عليها السلام لما رأى أحدهما الآخر لما تشكّله هذه الأموال من تلّ من بدر الدنانير والدراهم[٢]، وقد ساقتها بأجمعها إلى بيت النبي صلى الله عليه وآله، وساقت معها ثمانية آلاف ناقة، ومن الحلي والحلل ما أطنب التاريخ في وصفه، كلّ ذلك كان في خدمة الإسلام[٣]، وآل بها الأمر أن تضطجع مع

---

(١) ورد هذا الحديث عن الصادق الأمين صلى الله عليه وآله في حق أمير المؤمنين عليه السلام بصيغ كثيرة ومناسبات عدّة، انظر: الكافي ١: ٣٢١ / ٧، الأمالي (الصدوق): ٣٥٤ / ٤٣٢، السنن الكبرىٰ (النسائي) ٥: ١٢٦ / ٨٤٥١، المعجم الكبير ١٢: ٣٢١.

(٢) قريب منه في بحار الأنوار ١٩: ٦٢ ـ ٦٣.

(٣) انظر ذلك في محاجّة أسماء بنت عميس (رضي الله عنها) مع عمر، وذلك أنه حين رأى أسماء قال لها: نحن سبقناكم بالهجرة؛ فنحن أحقّ برسول الله صلى الله عليه وآله منكم. فغضبت وقالت: كلّا والله، كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وآله يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم، وكنا في دار أو في أرض البعداء البغضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسوله صلى الله عليه وآله. وأيم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله صلى الله عليه وآله، ونحن كنا نؤذى ونخاف، وسأذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وآله، وأسأله والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه.

فلما جاء النبي صلى الله عليه وآله قالت: يا نبي الله، إن عمر قال كذا وكذا. قال صلى الله عليه وآله: «فما قلت له؟». قالت: قلت له كذا وكذا. قال صلى الله عليه وآله: «ليس بأحقّ بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهلَ السفينة هجرتان».

النبي ﷺ على جلد كبش، فقد أنفقت كلّ ذلك في سبيل الله.

نعم لقد اشتغل النبي ﷺ مع خديجة بأن ذهب في تجارة لها مع غلامها ميسرة، وقد أوصت غلامها ميسرة أن يراقب النبي ﷺ في بيعه وشرائه، فكان يراقبه فيرىٰ أنه إذا مشى في الصحراء انفصلت غمامة من الغمام فتظلّل على رأسه وتدفع عنه حرّ الشمس، وتميل معه أينما مال. فأخبر ميسرة خديجة عليها السلام وقال لها: واللّه لقد رأيت صدقه وعفافه وأمانته، ورأيت الغمامة تظلّله، يقول البوصيري:

ورأته خديجةُ والتُّقى والـ	ـجودُ منه سجيّة والحياءُ
وأتاها أن الغمامةَ والسر	ح أقلّتهُ منهما أفياءُ
فدعته إلى الزواج وما أحـ	ـسنَ ما يبلغُ المنى الأذكياءُ
وإذا سخّر الإلهُ أناساً	لسعيدٍ فإنّهم سُعداءُ[1]

خطب له عمه أبو طالب خديجة عليها السلام، وساق لها ثلاثمئة من الإبل نُحرت، وساق لها المهر، فتزوّج ﷺ من خديجة عليها السلام فأرسلت منادياً لينادي في الناس: كلّ مال لي فهو تحت تصرف محمد ﷺ يفعل به ما يشاء. فأخذ النبي ﷺ تلك الأموال وأنفقها في طريق الإسلام بأجمعها. ثم أعقب منها القاسم والطاهر والزهراء عليها السلام التي لقّبها ﷺ بـ «أم أبيها»[2]؛ لأن الأم هي أصل الأشياء، ومن هنا عُبّر عن مكة بـ «أم القرى»، وعن الفاتحة بـ «أم

انظر: صحيح البخاري ٥: ٨٠، صحيح مسلم ٧: ١٧٢، السنن الكبرى (النسائي) ٥: ١٠٤. ومعلوم أنه ﷺ كان فقيراً؛ فهو ﷺ كان ينفق من أموال خديجة عليها السلام، ويؤيّده ما في المصدر السابق.

(١) ديوان البوصيري: ٩، وانظر: كمال الدين: ١٨٧، المستدرك على الصحيحين ٢: ٦١٦.

(٢) مقاتل الطالبيّين: ٢٩، المعجم الكبير ٢٢: ٣٩٧، أُسد الغابة ٥: ٥٢٠.

القرآن»، وكذلك فاطمة عليها السلام؛ لأنها الأصل، فلولا أولاد فاطمة عليها السلام لانقطع أصل النبي صلى الله عليه وآله ونسله. ولذلك كان صلى الله عليه وآله يقول عنهما: «ابناي»[١].

وهذا ما احتجّ به الإمام موسى بن جعفر عليه السلام على الرشيد حيث قال له: «لو بُعث رسول الله صلى الله عليه وآله حياً وخطب منك ابنتك أكنت مزوّجه؟». قال: بلى والله، وأفتخر بذلك على العرب والعجم. فقال الإمام عليه السلام: «وهل يسعني أن أُزوجه؟». قال: لا. فقال الإمام عليه السلام: «لماذا؟». قال: لأنك داخل في صلبه. قال الإمام عليه السلام: «فهذا هو الذي دعانا إلى أن نقول: نحن أبناء رسول الله صلى الله عليه وآله»[٢].

وقد درج القاسم والطاهر في حياة النبي صلى الله عليه وآله، أما ربائبه الثلاث غير فاطمة فتختلف آراء المفسّرين والمؤرّخين في كونهن بناتِه أو ربائبَه، ويميل ظاهر التحقيق إلى كونهن ربائبه[٣]، وهناك روايات بأنهن بناته[٤].

وبقيت هذه النسمة الطاهرة التي قال عنها النبي صلى الله عليه وآله: إنها «أم أبيها» مبعث سلوة لرسول الله صلى الله عليه وآله يلمس في جبينها جبين أُمها خديجة عليها السلام التي ما ذكرها إلّا وانتفض واهتزّ من قرن إلى قدم، حتى قالت له بعض نسائه يوماً: ما الذي يدعوك إلى الإكثار من ذكر خديجة؟ وهل هي إلّا امرأة حمراء

---

(١) تحفة الأحوذي ١٠: ١٨٧، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥١٢ / ٢٢، خصائص أمير المؤمنين (النسائي): ١٢٣، صحيح ابن حبان ١٥: ٤٢٣، المعجم الصغير ١: ٢٠٠، كنز العمّال ١٣: ٦٧١ / ٣٧٧١١، تاريخ مدينة دمشق ١٣: ٢٥، ٢٦، ١٩٩، ١٤: ١٥١، ١٥٥ تهذيب الكمال ٦: ٥٥، وغيرها كثير.

(٢) انظر الاحتجاج ٢: ٣٣٨ / ٢٧١.

ومثلها مناظرة الإمام الرضا عليه السلام مع المأمون، انظر بحار الأنوار ١٠: ٣٤٩ / ٩، ٩٤: ١٨٧ / ١٩.

(٣) انظر كتاب: الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: سيرة وتاريخ (آل ياسين): ٢٧.

(٤) الطبقات الكبرى ١: ١٣٣، ٨: ٢١٧، تاريخ مدينة دمشق ٣: ١٢٥، ١٢٨، ١٢: ١٢٨، أُسد الغابة ٥: ٤٥٦.

الشدقين أبدلك اللّه بخير منها؟ فقال ﷺ: «كلا إن اللّه لم يبدلني بخير منها، إنها آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذب بي الناس، ورزقني اللّه منها ولداً إذ حرمني أولاد سائر النساء»[١].

المرحلة الثانية: من بعثته المقدّسة حتى هجرته الشريفة

مر الدور السابق على رسول اللّه ﷺ قبيل البعثة وهو في هذه الأجواء التي رسمتُها لك؛ ابتداءً من طفولته وتحنّفه في غار حراء واستمراره على هذا النوع وابتعاده عن مجتمع قريش وترقبه لعطاء السماء إلى أن أراد اللّه تعالى لهذه الأرض أن تزدهر بنور النبوّة، وأن يغمرها عطاء السماء، وأُريد للنبي ﷺ أن يحمل قبس الهداية. خرج ﷺ من بيته قاصداً غار حراء، فنزل الوحي بأول سورة كانت إيذاناً ببعثته ﷺ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[٢].

وهنا يقول المؤرّخون: إن علياً ؑ كان مضطجعاً إلى جانبه، وقد أشارت إلى ذلك خطبته الغرّاء التي يقول فيها: «أرى نور الوحي والرسالة، وأشمّ ريح النبوّة. ولقد سمعت رنّة الشيطان حين نزل الوحي عليه ﷺ»[٣].

---

(١) بحار الأنوار ١٦: ١٢، مسند أحمد ٦: ١١٨، المعجم الكبير ٢٣: ١٣، سير أعلام النبلاء ٢: ١١٢، الإصابة ٨: ١٠٣، كنز العمال ١٢: ١٣٢ / ٣٤٣٤٨.

(٢) العلق: ١ ـ ٥.

(٣) نهج البلاغة / الخطبة: ١٩٢، المعروفة بالخطبة القاصعة.

وفيها: «ولقد كان يجاور في كلّ سنة بحراء، فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله ﷺ وخديجة وأنا ثالثهما؛ أرى نور الوحي والرسالة، وأشمّ ريح النبوّة. ولقد سمعت رنّة الشيطان حين نزل الوحي عليه ﷺ، فقلت: يا رسول الله، ما هذه الرنة؟ فقال: هذا الشيطان أيس من عبادته. إنك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى

فخرج الرسول ﷺ من غار حراء يحمل هذا العبء: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾[١]، ويرى أن الدنيا قد أُنيط به إصلاحها، وهو عبء حمله ذلك الكتف العملاق، فما إن نزلت الآية حتى رفع عقيرته: «قولوا: لا إله إلّا الله تفلحوا»[٢].

إن رسول الله ﷺ حمَلنا عبئاً، فلنحمله فكراً، وحمَلنا جاهلية فينبغي أن نحمله هداية، وعشنا في همومه فينبغي أن يعيش في همومنا. وأنتم الآن في بلد ليس من بلدان الإسلام، فأولادكم هنا أمانة في أعناقكم، فلا يبعدوا عن الإسلام وعن سيرة نبيّنا محمد ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[٣]. فعليكم تقع المسؤولية بالتضامن والتكاتف.

إني أتّصل في بعض الأحيان بقسم من الأُخوة هنا، فيجيبني أبناؤهم تلفونياً وهم لا يعرفون العربية، أو يتعثّرون في أدائها، وهؤلاء بالتدريج سوف ينسون القرآن والأحكام والقيم والأخلاق، ونحن مهما ربحنا لكن حين نخسر الأخلاق فإننا لم نربح شيئاً. لا تخسروا أولادكم وبناتكم والأُسرة الإسلاميّة، وحاولوا الاتّصال بالمؤسّسات والجماعات الإسلاميّة، وخصّصوا في الأُسبوع ولو يومين لهم للدراسة في مدارس تُنشِئُونها باللغة العربية، لتدريس اللغة والقرآن. وفي الوقت نفسه على الآباء أن يدفعوا أبناءهم، بشتى الوسائل إلى تعلّم دينهم وأخلاقهم، وأن

إلّا إنك لست بنبي، ولكنك وزير، وإنك لعلى خير».

(١) المزّمّل: ٥.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ٥١، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٨: ٤٤٢ / ٦.

(٣) التحريم: ٦.

يكون ذلك مصحوباً بالإصرار منهم إن لزم الأمر.

قد تقول لي: إنني مضطرّ إلى البقاء هنا، وإذا ذهبت إلى مكان آخر فقد لا يتوفّر لي رغيف الخبز.

وأقول لك: لكن علينا ألّا نكون كمن قال فيه الشاعر:

أبُنَيَّ إن من الرجال بهيمةً ... في صورة الرجل السميعِ المُبصِرِ

فَطِنٌ لكلِّ رزيّةٍ في ماله ... فإذا أُصيب بدينه لم يشعُرِ

وهناك نقطة أُخرى مهمة أرجو أن تتنبّهوا إليها، وهي أن الغرب يحنُّ إلى مؤسّساتنا الإسلامية، ويريد الأُسرة الإسلامية، فلا ينتهين بكم الأمر إلى حد أنه إذا وصل الابن إلى السن القانوني ترك أباه يصارع آلامه وحده، و إذا كبرت البنت فلتت وملكت زمامها بيدها. وهذا المصير عليكم أن تتوقّعوه وتضعوه أمام أعينكم؛ لأنني أعرف أن الحالة في بلداننا لا تشجّعكم على الرجوع حتى لو حُلّت مشكلتنا؛ لأنكم وجدتم هنا خدمات لا تتيسّر لكم هناك. وأنا أشك في أن الكثير ممن خرج سوف يرجع مرة أُخرى.

فإذا كان الأمر كذلك فعليكم أن تضعوا أمام أعينكم الحل الذي يحفظ لكم أُسركم وأبناءكم بأي طريق كان، ولا تلقوا التبعات على غيركم، فأنتم مسؤولون مباشرة في أن تتعاونوا على حفظ أُسركم وأبنائكم. وهذا الصوت أرفعه من هنا، وآمل من اللّه أن يستجيب له مَن يقوى على الاستجابة بقليل أو كثير.

نعم، رجع النبي ﷺ من غار حراء، فهبط عليه جبرئيل يحمل السورة الثانية: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ**﴾[1]. فخرج، وخرج من ورائه الساعد الذي

---

(١) المدّثر: ١ ـ ٢.

ما فارقه، والسيف الذي ما ابتعد عنه، والنفس التي ما برحت إلى جانب روحه ليل نهار، وهي نفس علي ابن أبي طالب عليه السلام. فكان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «قولوا: لا إله إلّا الله تفلحوا»، والحجارة تأخذه، ويد علي عليه السلام على سيفه يناله قسط من الحجارة التي تنال النبي صلى الله عليه وآله، ويناله الألم، ويتعرض الى ما يتعرض له رسول الله صلى الله عليه وآله، فيذود عنه ويدافع، ولا يكاد يترك قائم السيف حتى يعود إلى البيت.

ويندر أن يعود النبي صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام خاليين من الجراح، فقد كانت الجراح والحجارة تستوعبهما، وكان النبي صلى الله عليه وآله بما عرف عنه من النفس الكبيرة يمسح الدم ويشخص ببصره إلى السماء فيقول: «اللهم اغفر لقومي؛ إنهم لا يعلمون»[1]. إلى أن اضطروه يوماً من الأيام من كثرة ضغط الحجارة أن يخرج إلى الطائف، فوقف له أهل الطائف ثلاث فرق، وقال له أحد رؤسائهم: أما وجد الله نبياً غيرك يبعثه؟ فأغضى النبي صلى الله عليه وآله وسكت عنه؛ لأن السكوت في بعض الأحيان هو أبلغ جواب. وقال له الآخر: أنت يتيم أبي طالب، وتريد أن تسود العرب؟ ألا يسرق ثياب الكعبة إن كان الله بعثك؟ ولم يجبه النبي صلى الله عليه وآله أيضاً. والتفت له الثالث فقال: أنت بين أمرين: إما أن تكون نبيّاً، وإما أن تكون كذّاباً، فإن كنت نبيّاً فأنت أكبر من أن أكلمك، وإن كنت كذّاباً فأنا أكبر من أن أُكلّمك.

ثم أشاروا إلى أطفالهم فأخذته الحجارة من كلّ جانب ومكان حتى أدمته، فرفع رأسه إلى السماء وقال: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوّتي وقلّة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت ربّ المستضعفين، وأنت

---

(١) الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ٣٨٤، بحار الأنوار ٩٥: ١٦٧.

ربّي، لمن تكلني؛ إلى عبد يتجهّمني، أو إلى عدوّ ملّكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا اُبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك من أن ينزل بي غضبك، أو يحلّ علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلّا بك».

ونظر إليه عتبة عن بعد، وقد عطفته عليه أواصر الرحم، فالتفت إلى غلام له اسمه عُداس من أهل الموصل وقال له: احمل بيدك شيئاً من العنب، واذهب إلى هذا الجالس، واطرح العنب بين يديه وابتعد عنه، وإياك والدنو منه؛ فإنه ساحر، وأخاف أن يسحرك بسحره. فأقبل إليه عُداس، فرفع إليه النبي ﷺ بصره وقال: «عُداس هذا؟». قال بلى، من الذي أخبرك باسمي؟ قال ﷺ: «أوليس قد أسمتك أمك بهذا الاسم عندما وضعتك؛ لأنك كنت ثقيلاً في بطنها؟». قال: بأبي أنت وأُمي، من الذي أخبرك بهذا؟ قال ﷺ: «أولست أنت من قرية العبد الصالح يونس بن متى من نينوى بالموصل؟». قال: وما أدراك بهذا؟ قال ﷺ: «ذاك نبي وأنا نبي». فقال عداس: واللّه إني لأرى عليك سيماء النبوّة. ثم انحنى على أقدامه يقبّلهما، فنظر عتبة إلى بعض من كان حوله وقال: قد سحر علينا غلامَنا فلا ننتفع به[١].

ثم رجع رسول اللّه ﷺ، وفي الطريق وجد علياً وخديجة عليهما السلام يبحثان عنه، وقد حملت خديجة وعاءً فيه طعام وماء وهي تنادي: بأبي أنت وأُمي يا رسول الله، أين أنت يا ثمال اليتامى؟ فلمّا التقياه أخذت

---

(١) انظر: مناقب آل أبي طالب ١: ٦١، مجمع البيان ٩: ١٥٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٣٦ ـ ٣٧، تاريخ الطبري ٢: ٨٠، السيرة النبوية (ابن هشام) ٢: ٢٨٦، السيرة النبوية (ابن كثير) ٢: ١٥، الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٢١١.

خديجة ﷺ تضمّد جراحه، ثم سقته ماء وأطعمته الطعام، ورجع يتّكئ على علي ﷺ إلى البيت.

وهكذا كان رسول الله ﷺ بين سيف علي ﷺ يقوم بوظيفة توفير الحماية له، وبين عطف أبي طالب يدافع عنه، فكان يجن الليل على أبي طالب ولا يذوق النوم، وقد جند أولاده الأربعة في شعب أبي طالب في خدمة النبي ﷺ، فكان النبي ﷺ ينام ساعة في مكان ثم ينقله أبو طالب عنه إلى مكان آخر، ويأتي بأحد أبنائه ليضجعه مكانه، وهكذا إلى الصباح لا يذوق النوم[١]. وكان يمرّ فيجد النبي ﷺ يصلّي، وعلي ﷺ يأتم به، ولم يكن على وجه الأرض آنذاك من يعبد الله غير هذين، فيقول لولده جعفر: صِل جناح ابن عمك، ثم يقول:

إن علياً وجعفراً ثقتي	عند مُلمّ الزمان والنوبِ
لا تخذلا وانصرا ابن عمكما	أخي لأمي من بينهم وأبي[٢]

إلى أن لفظ أبو طالب ﷺ أنفاسه الطاهرة ولحق بربه.

المرحلة الثالثة: من هجرته الشريفة إلى لحوقه بالرفيق الأعلى

ثم توفيت خديجة ﷺ فهبط جبرئيل على النبي ﷺ وقال: «اخرج من مكة؛ فليس لك فيها ناصر»[٣]. وأوحى الله له أن يخرج في تلك الليلة من بيت أبي طالب ﷺ الذي ما انفكّ عنه، ولما نزل عليه جبرئيل بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ

(١) روضة الواعظين: ٥٣.
(٢) الأمالي (الصدوق): ٥٩٨ / ٨٢٥، شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٦٩، ١٤: ٧٦.
(٣) الكافي ١: ٤٤٩ / ٣١، الفصول المختارة: ٢٨٣.

الْمَاكِرِينَ﴾[١]، استدعى علياً عليه السلام وقال له: «المولىٰ عزَّ وجلَّ أمرني أن أُهاجر من مكّة إلى المدينة، وأمرني أن أُضجعك مكاني». فقال: «يارسول اللّه، لو اضطجعت مكانك أوَ تسلم؟». قال: «بلى». قال: «روحي لروحك الفدا، ونفسي لنفسك الوقا»[٢].

ورحم اللّه الكعبي حيث يقول:

ومناقب لك دون أحمدَ جاوزتْ ... بمقامِك التحديدَ والتعديدا

فعلى الفراشِ تبيتُ ليلك والعدىٰ ... تُهدي إليك بوارقاً ورعودا

فرقدتَ مثلوج الفؤاد كأنما ... يهدي القراعُ لسمعك التغريدا

ووقيت ليلته وبتّ معارضاً ... بالنفس لا طفلاً ولا رعديدا

رصدوا الصباح لينفقوا كنزَ الهدىٰ ... أوَ ما دروا كنز الهدىٰ مرصودا[٣]

وخرج رسول اللّه ﷺ ومعه أبو بكر، وقد صنعت لهما أسماء شيئاً من الطعام حمله أبو بكر معهم؛ إذ كان معه أيضاً أيمن ابن اُم أيمن وابن أبي اُريقط، فوصل النبي ﷺ إلى الغار فأوحى اللّه إلى حمامتين وحشيّتين فعشّشتا وباضتا في الغار، وأوحى إلى العنكبوت أن تنسج على باب الغار، يقول أحد الشعراء:

ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على ... خير البرية لم تنسج ولم تحم[٤]

فتبعته قريش حتّىٰ الغار لكنها يئست أن يكون قد دخل إلى هذا الغار.

---

(١) الأنفال: ٣٠.

(٢) التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام: ٤٦٦ ـ ٤٦٧.

(٣) ديوان الكعبي: ٤١.

(٤) البيت للبوصيري في قصيدة البردة. ديوان البوصيري: ١٦٥.

ووصل صلى الله عليه وآله إلى المدينة، وأبى أن يدخلها حتى وصل إليه الإمام علي عليه السلام بالظعينة، فقد كتب صلى الله عليه وآله إلى علي عليه السلام أن يرد الودائع، فردّها ولحق بالنبي صلى الله عليه وآله، وكان للمدينة يوم مشهود عند دخوله صلى الله عليه وآله إليها، وبادر الأنصار يضربون الأكبار بأيديهم وينشدون:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع[(١)]

ودخل ومعه علي عليه السلام، فناخت ناقته بباب بيت أبي أيوب رضي الله عنه الذي هدمه الأُمويون بعد ذلك ولم يبقوا له أثراً ولا عيناً.

وابتدأ الدور الثالث من حياته الشريفة، وحمل عبء إنشاء المجتمع المدني. فهو في مكّة كان يخطِّط لترسيخ العقائد، ثم انصرف في المدينة إلى ترسيخ الدولة الإسلاميّة.

فجاهد في سبيل اللّه حقّ جهاده، وذلك أن خاض أربعاً وثمانين غزوة حتى لحقه أذى القتال، فكان صلى الله عليه وآله يرجع وبجسده الجراحات، وقدَّم الأضاحي من صحابته وأهل بيته، حتى نزل عليه قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾[(٢)]. فأدّى رسالة ربّه، وأكمل دينه حتى نزل به الوجع في يوم السبت الحادي والعشرين من صفر. وكان صلى الله عليه وآله قبل ذلك قد صعد على المنبر وخطبهم قائلاً: «أيها الناس، أي نبيّ كنت لكم؟ ألم أربط حجر المجاعة على بطني؟ ألم أُجاهد الكفار والمنافقين؟ ألم أُقاتل في سبيل اللّه؟ ألم؟... ألم؟...». ثم قال: «إن ربي أقسم

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٩٤، فتح الباري ٧: ٢٠٤، ٨: ٩٨.
(٢) المائدة: ٣.

ألّا يفوته ظلم ظالم، فأيّما امرئ منكم له ظلامة عند محمد فليقم إليّ يأخذها، فإن القصاص في دار الدنيا أحبّ إلي من القصاص يوم القيامة على رؤوس الأشهاد».
فقام إليه أحدهم فقال: كنت طالباً منك أن تساعدني في زواج وقد وعدتني بأوقيّتين. فأشار النبي ﷺ إلى الفضل بن العباس فقال: «نَحّله ما وعدته به». وقام له سوادة بن قيس فقال: يا رسول اللّه، لي عندك شيء. قال ﷺ: «ما هو؟». قال: كنتَ راجعاً من الطائف، فرفعت القضيب الممشوق لتضرب الناقة فوقعت الضربة على بطني. وأنا أُريد القصاص.
فالتفت إلى بلال فقال: «يا بلال، قم إلى المنزل فائتني بالقضيب الممشوق».
فذهب إلى بيت فاطمة ؑ، فقال: يا بنت رسول اللّه، أعطيني هذه القطعة. فقالت: «لماذا؟». قال: إن رسول اللّه يريده. قالت: «وماذا يصنع والدي بالقضيب، وليس هذا يوم القضيب؟». قال: أوما علمت أنه يودّع أهل الدين والدنيا. فصاحت: «واغمّاه لغمّك يا أبتاه! من للفقراء والمساكين وابن السبيل يا حبيب اللّه وحبيب القلوب؟».
ثم أخرجته له، فجاء به فتناوله النبي ﷺ بيده فأعطاه له وقال: «خذ يا سوادة». فقال: يا رسول الله اكشف لي عن صدرك. فكشف له النبي ﷺ. فقال: يا رسول اللّه، أتأذن لي أن أُقبّله؟ فقال: «افعل». فوضع فمه عليه وقال: أعوذ بموضع القصاص من بطن رسول اللّه من النار يوم النار. فقال ﷺ له: «أتعفو أم تقتص؟». فقال: بل أعفو يا رسول اللّه. فقال ﷺ: «اللهم اعف عن سوادة بن قيس كما عفا عن نبيك محمّد».
ثم أُرجع النبيّ ﷺ إلى البيت وهو مثقل ويدعو: «ربِّ سلّم أُمّة محمّد من النار»، فلمّا أضجعوه على فراشه أقبلت إليه ابنته فاطمة وهي تنادي: «واغمّاه لغمّك يا أبتاه». ثم جلست إلى جانبه ورأسه في حجر أمير

المؤمنين عليه السلام، يقول أمير المؤمنين عليه السلام مخاطباً إياه: «ولقد وسدتك في ملحودة قبرك، وفاضت روحك بين صدري ونحري». فقد كان رأسه صلى الله عليه وآله بين صدر أمير المؤمنين عليه السلام ونحره، وبين الآونة والأُخرى كان الإمام عليه السلام يأخذ شيئاً من الماء ويمسح به جبين رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يرفع رأسه فيقول: «رفقاً بي ملائكة السماوات، رفقاً بي ملائكة ربي، لمثلها فليعمل العاملون». وكان يقول: «حبيبي جبرئيل، عند الشدائد لا تخذلني»[1].

وخرج رسول الله صلى الله عليه وآله في اليوم الثاني إلى البقيع، ووقف على أهل البقيع فصاح: «السلام عليكم يا أهل البقيع، لقد جاءت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها». ثم استغفر لهم وقرأ شيئاً من القرآن ورجع. وأخذت العلّة تشتدّ عليه، فصاح: «عليَّ بعلي بن أبي طالب». فأقبل إليه، فسارَّه طويلاً، واستدعى ابنته فاطمة عليها السلام، فسارها طويلاً، فبكت وضحكت، فلما سُئلت أجابت: «اني إذن لبذرة». ولما سُئلت بعد ذلك قالت: «لقد بكيت في الأولى؛ لأنه نعى إلي نفسه، وضحكت في الثانية؛ لأنه أخبرني أنني أول أهل بيته لحوقاً به».

حتى إذا اشتدّت الحالة عليه أقبل الحسن والحسين عليهما السلام فوقعا على صدره، فأراد الإمام علي عليه السلام أن يبعدهما عنه؛ لئلا يضايقاه، فقال صلى الله عليه وآله: «لا، لا يا علي، دعهما أتزوّد منهما ويتزوّدا مني»[2].

ثم أخذ يضمّهما إليه وهو في آخر لحظات حياته:

يومان لم أرَ بالأيام مثلَهُما	قد سرَّني ذا وهذا زادني أرَقا
يوم الحسينُ رقى صدرَ النبي به	ويوم شمر على صدر الحسين رقى

***

(١) الأمالي (الصدوق): ٧٣٦ / ١٠٠٤. (٢) الأمالي (الطوسي): ٦٠٢ / ١٢٤٤.

ومرّ يحزُّ النحرَ غيرَ مراقِب　　　من الله لا يخشى ولا يتوجلُ

ولكن لمّا اشتدّ عليه الأمر سجّاه أمير المؤمنين ﷺ إلى القبلة، وأقبلت إليه ابنته فاطمة ﷺ فألقت بنفسها عليه وهي تصيح: «وا لوعتاه، وا ثكلاه بعدك يا رسول الله». فأقبل إليها أمير المؤمنين ﷺ، وأقامها من على جسد أبيها برفق[1]. نعم نحّاها ﷺ عن صدر أبيها برفق، وليته يرى ولده الحسين ﷺ لما سقطت اُخته زينب ﷺ على صدره، فقد نحّاها شمر عنه بسوطه:

بسرضاك يسو رغماً عليك　　　يجرني العدو من بين ايديك

(١) انظر: الأمالي (الصدوق) ٧٣٢ـ٧٣٦ / ١٠٠٤، مناقب آل أبي طالب ١: ٢٠١ـ٢٠٣.

﴿٢﴾

هجرة الرسول ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: في تحديد مفهوم الهجرة وأقسامها

ترتبط الآية الكريمة بموضوع الهجرة النبوية الشريفة، والهجرة فيها دروس كثيرة وعبر ضخمة. وقد حدثت الهجرة بعد بعثة النبي ﷺ بثلاث عشرة سنة، حيث إن جبرئيل ؑ هبط على النبي ﷺ وأمره بها. وكان عمره الشريف عندما هاجر ثلاثاً وخمسين سنة. وقد سبقت هجرته الشريفة بعض القضايا، كما أن بعضاً منها وقع بعدها؛ فهنا مرحلتان: الأُولىٰ ـ أي مرحلة ما قبل الهجرة ـ وكانت مرحلة تأصيل العقائد، أمّا المرحلة الثانية ـ أي مرحلة ما بعد هجرته ﷺ ـ فكانت

---

(١) الأنفال: ٣٠.

مرحلة تأسيس الدولة.

وقد سارع النبي صلى الله عليه وآله إلى الهجرة؛ لأن المشركين قد ألجؤوه إلى ذلك، حيث إنهم عقدوا اجتماعاً لهم في دار الندوة ـ وهو ما يعبّر عنه باصطلاح اليوم «البرلمان» ـ لتدارس فكرة اغتيال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

ولم تكن دار الندوة حينذاك تقتصر على الرجال فقط، بل اشترك فيها حتى النساء؛ حيث كانت أُخت أبي سفيان (عمّة معاوية) وزوجة أبي لهب عضواً فيها، وكانوا يتبادلون الآراء، فأجمع رأيهم على قتل النبي صلى الله عليه وآله؛ لأنه يشكّل خطراً عليهم. فهؤلاء أرادوا أن يحصّنوا أنفسهم منه بأحد طرق ثلاثة: فجماعة طرحت فكرة الحبس، وجماعة أُخرى قالت: نبعده عنّا، وجماعة ثالثة قالت: نقتله. وطريقة القتل أن يقتلوه جميعاً بسيوفهم دفعة واحدة فيضيع دمه بين القبائل، فلا يستطيع بنو هاشم وبنو الفضل أن يطالبوا بدمه صلى الله عليه وآله.

فاستقرّ الرأي على الأخير وصار القرار أن ينفّذوه في الليلة التي هاجر فيها صلى الله عليه وآله، فهبط جبرئيل عليه السلام فأنزل الآية: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾. والمكر من الإنسان: الحيلة والتصرّف الغادر، لكنه من الله: إبطال الحيلة. وهو من باب المقابلة، فنحن نقرأ في القرآن: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[1]، فهذه سيّئة من باب التقابل؛ جرياً على قاعدة العرب؛ حيث يقول شاعرهم:

ألا لا يجهلنْ أحدٌ علينا فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا[2]

(١) الشورى: ٤٠.

(٢) البيت لعمرو بن كلثوم من معلقته. الأمالي (المرتضى) ١: ٤٢، ٢: ٨، شرح نهج البلاغة ١٦: ١٠١، ١٩: ٢٢١، الجامع لأحكام القرآن ١: ٢٠٧، ٢: ٢٥٦.

فيسمون التقابل باسم الفعل. فهنا المكر من الله ردّ لمكرهم إلىٰ أعناقهم.
ثم بيّن له جبرئيل عليه السلام أنه لابدّ أن يخرج ويبقي أحداً مكانه؛ حتىٰ يوهمهم أنه ما يزال نائماً في فراشه، وقال له: «إن الله يأمرك أن تضجع علياً مكانك».
فاستدعى النبي ﷺ علياً عليه السلام، وقال له: «ياعلي، إن الله أمرني أن أُضجعك مكاني هذه الليلة وأن تعتجر بردائي وتنام مكاني». فقال له الإمام عليه السلام: «يا رسول الله، إذا نمت مكانك أو تسلم؟». قال: «بلىٰ». قال: «روحي لروحك الفدا، ونفسي لنفسك الوقا»[1]. ثم أخذ سيفه واضطجع مكانه.

عمليّة الهجرة اشترك فيها أكثر من صحابي

وعملية الهجرة اشترك فيها عدّة أشخاص؛ فأبو بكر خرج مع النبي ﷺ وعلي نام في فراشه، وقسم من الصحابيّات هيأن طعاماً للنبي ﷺ، وآخرون هيّؤوا الراحلة. فهذا إسهام في العملية، فلا بدّ من ذكر أي فضل أو إسهام لأي أحد في هذه العملية. وهذا هو التاريخ السليم، حيث تسلط فيه الأضواء علىٰ الأشخاص كافّة، وأما التسليط علىٰ جزء دون آخر فهذا عيب ونقص، وهذا ما نجده عند بعض المؤرّخين، وهو شيء يؤسف له. فالنبي ﷺ خرج بهذه العملية الجماعيّة في حين أن الضوء لم يسلط علىٰ علي بن أبي طالب عليه السلام.

ولتقريب المعنىٰ بحدث آخر نذكر أن ابن كثير حينما يمرّ بحادثة الدار يذكر أنه عندما نزل قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[2]، أرسل النبي الأعظم ﷺ خلف أمير المؤمنين عليه السلام وقال له: «اصنع طعاماً لأربعين رجلاً».

---

(١) الأمالي (الطوسي) ٤٧١ ـ ٤٧٢، شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٦٢، التفسير الكبير ٥: ٢٠٤.
(٢) الشعراء: ٢١٤.

فصنع لهم علي عليه السلام طعاماً، وكان فخذ جزور وعسّاً من اللبن، وكان عددهم أربعين فأصدرهم شباعاً، ولم ينقص من الطعام شيء، ثم قال لهم رسول الله: «لو قلت لكم وراء هذا الجبل قوم يريدون غزوكم، هل كنتم تصدقونني؟».
قالوا: بلىٰ، لأننا ما عرفنا منك كذبة وأنت الصادق الأمين. قال: «والله لقد جئتكم بخير ما جاء به وافد إلىٰ قومه، قولوا: لا إله إلّا الله تفلحوا».
فقام إليه عمّه أبو لهب وقال له: ألهذا جمعتنا؟ تبّاً لك. فهبط القرآن الكريم ليقول: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[1].
ولم تؤثّر تلك الواقعة في نفس النبي صلى الله عليه وآله أبداً، فكرّر الدعوة وأمر علياً عليه السلام بصنع الطعام ففعل، ووقف رسول الله صلى الله عليه وآله ليقول لهم: «من منكم يتبعني علىٰ هذا ليكون أخي ووزيري وخليفتي من بعدي؟». فلم يقم إلّا علي عليه السلام، وهو أصغر القوم سنّاً، يقول عليه السلام: «قلت: أنا يا رسول الله. فقال: اجلس. وفي الثانية قمت فقلت: أنا يا رسول الله. فقال: اجلس». وفي الثالثة أمسكه من رقبته فقال: «هذا أخي ووزيري وخليفتي من بعدي، فاسمعوا له وأطيعوا».
فخرج القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: إنه يأمرك بطاعة ولدك[2].
لكننا نجده يقول: لقد أمسكه من عنقه وقال كذا وكذا، فهل يظن أنه بقوله يهدمه؟ الحقيقة أنه إنما يسيء لنفسه ولتاريخه. إن عندنا نجوماً مضيئة تعطي تاريخنا روحاً، فعليّ عليه السلام رجل صنعته السماء ولا يمكن أن تقضي عليه الأرض، فهذا عبد العزيز بن مروان يقول: ما بنت الدنيا شيئاً إلّا وهدمه الدين، وما بنى الدين شيئاً واستطاعت الدنيا أن تهدمه[3]. يقول

---

(١) المسد: ١. انظر مناقب آل أبي طالب ١: ٤٣.
(٢) شرح الأخبار ١: ١٠٧.
(٣) اختلف المؤرّخون في نسبتها لقائلها؛ ففي بحار الأنوار ٤٢: ١٩، أنه الوليد بن عبد الملك،

أحد الأدباء:

سـيدي كـلما تـلبّد أفـق	وتـجنّى بـعصفه الديـجورُ
وتـمادت صـحائف خـطّ منها	قـلم الحـقد والهـوىٰ والزورُ
فحباهم عـطفاً وطـيباً كـما يـفـ	ـعل إن زج بـاللهيب البـخورُ
وتـمهّل أبـا تـراب فـدون الـ	ـشتم من حولك الفضائل سورُ
إن أشادت بك السـما وأفـاضت	أيّ ضـير لو سـبّك الماجـورُ

المبحث الثاني: إفرازات الهجرة الشريفة

وهكذا استدعى النبي ﷺ الإمام علياً ؑ فأضجعه مكانه، وخرج. ولنا أن نسأل: ما هي الخطوات التي خطاها رسول الله ﷺ؟ وهل كان فيها إيحائية وتدريب الناس؟ نعم كان كلّ ذلك ممّا يمكن إجماله بالآتي:

أولاً: وضع قاعدة إنسانية على مستوى الممارسة الفعلية

فالرسول الأكرم ﷺ بهجرته الشريفة يكون قد وضع لنا قاعدة إنسانية ربما احتجنا أن نمارسها في حياتنا العملية. فنحن عندما نزرع أرضاً ولا تنبت يجب أن ننتقل لأرض أُخرىٰ نزرعها، وهذا عين ما فعله النبي الأعظم ﷺ؛ حيث إنه بقي في مكة ثلاث عشرة سنة ولم يجنِ إلّا الحجارة، ولم يتّبعه إلّا قليل، فرأى أن التربة غير صالحة لبذر الرسالة ونموّها، وأن المناخ غير صالح، فلا بدّ أن ينتقل إلىٰ مناخ آخر. ذلك أن الناس معادن؛ فبعضهم خسيس كالأرض البور، يقول القرآن الكريم:

وفي شرح نهج البلاغة ٩: ٦٤، المحاسن والمساوئ (البيهقي): ٧٧، البيان والتبيين ٢: ١٧٣، أنه لعبد الله بن عروة بن الزبير.

﴿وَكَانُوا قَوْماً بُوراً﴾[(١)].

أي أنهم أرضية ليس فيها خير ولا تعطي أي نتيجة. فهؤلاء تذهب معهم كلّ الحلول سدى وإن تكرّرت عدّة مرّات. وفي مثل هذا الحال يجب تركهم: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[(٢)]؛ ولذا اضطرّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أن ينقل الدعوة من بيئة إلىٰ أُخرىٰ. وهذا سلوك إنساني يفعله المصلحون حينما يرون أنهم لم يفلحوا في مكان فيعمدوا إلى أن ينقلوا حركتهم إلىٰ مكان آخر.

فنبينا صلى الله عليه وآله أراد أن يوصّل هذا المعنىٰ في نفوسنا، فقنّن لنا فكرة أن الناس كالأرض ليس لبعضهم القابلية على الإنبات، فانتقل بحركته الشريفة إلىٰ دار أُخرىٰ.

وهذا ـ ببالغ الأسف ـ ما حصل مع إمامنا علي بن أبي طالب عليه السلام، فلم تعطِه التربة حقّها، وكان مظلوماً، (نسأل الله أن يجعلنا ممّن يبجّل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأصحابه، لأنهم الواسطة بيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وآله للوصول إلىٰ عقائدنا)، لكن ينبغي ألّا نتعدّى القرآن الكريم حيث وضع لنا منهجاً في ذلك فقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾[(٣)]. فمن أصحاب النبي الأعظم صلى الله عليه وآله من يعبّر عنهم القرآن الكريم بقوله: ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً﴾[(٤)] وعبّر عن جماعة أُخرى بقوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾[(٥)]. وبهذا فإن منهجنا منهج القرآن لا يعدوه، وهو قد ذكر أنه: ﴿لا

---

(١) الفرقان: ١٨، وقال تعالىٰ: ﴿وَكُنتُمْ قَوْماً بُورًا﴾ الفتح: ١٢.

(٢) القصص: ٥٦.

(٣) الواقعة: ١٠ ـ ١١.

(٤) التوبة: ١٠٢.

(٥) التوبة: ١٠١.

يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الجَنَّةِ ﴾[١] و ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾[٢].

فهذه أول خطوة للرسول ﷺ، وهي نقل الدعوة، وقد أثمرت في البيئة الجديدة ثمراً رائعاً؛ حيث إن الأنصار احتضنوها وقاموا بها.

ثانياً: أنها أصبحت مبدأ للتاريخ الإسلامي

فالهجرة الشريفة مثّلت منطلقاً جديداً في التاريخ: فكانت بداية التاريخ الإسلامي، وأصبح المسلمون يؤرّخون بالهجرة. وكان هذا الأمر بإشارة من الإمام علي عليه السلام[٣].

والتاريخ هو عمليّة تقطيع الوقت، وهو مرتبط بالمعاملات الأساسية، فعندما يشتغل العامل يحدّد له وقت (٨) ساعات مثلاً، فلا يسرق منه حقّه: ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾[٤]. وعندما يعالج بعض الفقهاء قوله تعالى: ﴿وَالحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ﴾[٥] يقرّر أن الوقت الذي يحدّد للعامل لا ينبغي أن يزاد عليه، ولا ينبغي للعامل أن ينقص دقيقة منه؛ فكلاهما يحاسبان أمام الله. فالتاريخ إذن هو عمليّة تقطيع الوقت، والوقت بعد من الأبعاد، مثل الطول والعرض والعمق؛ فلذا لا بدّ من المرور بالزمن وقطعه حتى تضبط المعاملات والتصرفات ومواسم الزرع والعبادات: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ ﴾[٦].

---

(١) الحشر: ٢٠. (٢) الزمر: ٩.

(٣) تاريخ الطبري ٢: ٣، الكامل في التاريخ ١: ١١.

(٤) الأعراف: ٨٥، هود: ٨٥، الشعراء: ١٨٣.

(٥) البقرة: ١٩٤. (٦) البقرة: ١٨٩.

ثالثاً: إزالة العقبات النفسية من المجتمع الإسلامي

فمنذ السنة الأُولى التي هاجر فيها نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله عمد إلى أن يزيل العقبات النفسية من المجتمع الإسلامي، ونجح في ذلك نجاحاً باهراً. إن البعض من الناس يظن نفسه أفضل من الآخرين، وأنه سيّد على غيره وأنه عبقري. وهذه النظرة لايقتصر وجودها على العرب فقط، بل تتعدّاهم إلى الأوروبيّين؛ فهي موجودة عندهم؛ إذ أنهم يركّزون على الجنس الأشقر، ويذكرون أقسام الدماء، ويقولون: إن الدماء الزرقاء أفضل من الدماء الأُخرىٰ، ويذكرون أن بعض الأُمم لم يرسل الله لهم نبيّاً؛ لأنهم ليس لديهم القابلية على استيعاب هذا الأمر. وهذا كلام غريب؛ فالله تعالى هو ربّ العالمين، وهم كلّهم عبيد له، وقد ساوىٰ فيما بينهم وإن اختلفوافي الأجواء الحضارية والثقافية والقابليات الذهنية، فمعلوم أن هناك فرقاً بين إنسان وآخر.

مظاهر تطبيق مبدأ المساواة في الإسلام

ولتأكيد مبدأ المساواة جاء النبي الأعظم صلى الله عليه وآله ببلال الحبشي وآخىٰ بينه وبين رويحة الخثعمي، وهو رئيس قبيلة من القبائل الكبيرة.. آخىٰ بين السيّد والمولى. لكنه صلى الله عليه وآله آخىٰ بين المسلمين جميعاً وترك الإمام علياً عليه السلام وحده، يقول عليه السلام: «جئت وعيناي تطفحان دموعاً، فقلت: يا رسول الله أراك آخيت بين أصحابك وتركتني؟». قال: «إنما ادّخرتك لنفسي، أنت أخي في الدنيا والآخرة»[1].

---

(١) ورد هذا الحديث بطرق كثيرة وصيغ مثلها، انظر الطبقات الكبرىٰ ٣: ٢٢، المعجم الكبير ١١: ٦٣، تاريخ مدينة دمشق ٤٣: ٨، كنز العمّال ١١: ٥٩٨ / ٣٢٨٧٩، ٦٠٨ / ٣٢٩٣٩، ٦١٠ / ٣٢٩٥٥، ١٣: ١٤٠ / ٣٦٤٤٠.

لو رأى مثله النبيّ لآخا ... ه وإلّا فأخطأ الانتقادُ[(١)]

يقول عبد الباقي العمري:

يا أبا الأوصياء أنت لطه ... صهره وابنُ عمّه وأخوهُ

إن لله في معانيك سرّاً ... أكثر العالمين ما عرفوهُ

أنت ثاني الآباء في منتهى الدو ... ر وآباؤه تُعدّ بنوهُ

خلق الله آدماً من تراب ... فهْوَ ابنٌ له وأنت أبوهُ[(٢)]

فنبينا ﷺ أزال هذه العقبة من خلال هذا التحرك، وخلع من المجتمع هذا الشعور بالتفاضل، وأكده بلسانه فقال: «كلكم لآدم وآدم من تراب»[(٣)]، وقال: «ليس لأحد على أحد فضل إلّا بالتقوىٰ»[(٤)]. فالذي يميّز أحداً على غيره هو التقوىٰ.

الهدف من إزالة العقبات النفسية

والمراد من نزع هذه العقبة من نفوس المسلمين أُمور، منها خلق عامل تكافؤ الفرص؛ فمن حقّ أي مسلم أن يحصل علىٰ عمل كمثل غيره دون فرق، وكذلك في مسألة الزواج؛ فليس هناك عقبة تقف بوجه أحد دون أحد؛ فالمسلمون تتكافأ نفوسهم وأموالهم وأعراضهم[(٥)]. وربما يقول

---

(١) البيت للسيد محمد الهندي. الأنوار العلوية: ٣٤٠.

(٢) الغدير ٦: ٣٣٨.

(٣) تحف العقول: ٢٤، شرح نهج البلاغة ١: ١٢٨، الدرّ المنثور ٦: ٩٨.

(٤) الكافي ٢: ٣٢٩ / ٣، ٨: ٣٦١ / ٥٥١، مسند أحمد ٥: ٤١١، قريب منه.

(٥) قال رسول الله ﷺ: «المؤمنون تتكافأ دماهم، ويسعى بذمّتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم». دعائم الإسلام ٢: ٤٠٤ / ١٤١٥، الخصال: ١٤٩ / ١٨٢، مسند أحمد ٢: ٢١٥، سنن ابن ماجة ٢: ٨٩٥ / ٢٦٨٣ ـ ٢٦٨٥، سنن أبي داود ١: ٦٢٥ / ٢٧٥١.

البعض: هذه المثالية لا نجدها في كتب الفقه في باب الكفاءة؛ فمثلاً جاء أحدهم إلىٰ قاضي قضاة المسلمين وقال له: أشكو إليك فلاناً. قال: ماذا فعل؟ قال: شتمني وقال لي: سفلة. قال: ما عملك؟ قال: أنا حجام. فقال له القاضي: أنت سفلة سفلة سفلة. أي أنه شتمه كذلك، فلماذا هذا الشتم؟ ومانقص الطبيب الذي عنده مبضع ويمارس الجراحة؟

ولو رجعنا إلىٰ كتب الفقه عند الشيعة لوجدنا أنهم يقولون: المسلم كفء المسلم، ويستدلون بالآية الكريمة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1]، أما المذاهب الإسلامية الأُخرىٰ في باب الكفاءة فيعتبرها البعض منهم الثروة والبعض الآخر يعتبرها المهنة في حين أن بعضاً منهم يعتبرها القبيلة.

وهكذا توضع عقبات عديدة في سبيل إزالة التفاوت بين المسلمين، وهذا خطأ؛ فالنبي صلى الله عليه وآله جعل المسلمين إخوة تتكافأ دماؤهم وأموالهم وأعراضهم، وكان المسلمون يحملون هذا الشعور. فالنبي صلى الله عليه وآله آخىٰ بين المسلمين؛ بين المهاجرين والأنصار، وبين المهاجرين أنفسهم، وبين الأنصار أنفسهم، وآخىٰ بين الأسود والأبيض، وأعلن الوثيقة الشهيرة لحقوق الإنسان في حجة الوداع.

رابعاً: زرع أمر الصلاة في نفوس المسلمين

وكانت العملية التالية مباشرة أمر الصلاة وزرعها في المجتمع الإسلامي، فشرّع صلاة الحضر التي هي أربع ركعات، وصلاة السفر التي هي ركعتان، وهذا في الرباعية فقط. ودليلها ما يروى من أنه دخل محمد بن

---

(١) الحجرات: ١٣.

مسلم وزرارة على الإمام الباقر عليه السلام وقالا له: ما تقول في صلاة السفر؛ كيف هي؟ وكم هي؟ فقال عليه السلام: «إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾[(١)]، فصار القصر من الصلاة واجباً كوجوب التمام في الحضر». قالا: إنما قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا﴾، ولم يقل افعلوا، فكيف أوجب ذلك كما أوجب التمام في الحضر؟ فقال عليه السلام: «أو ليس قد قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾[(٢)]؟ ألا ترون أن الطواف بهما واجب مفروض؟»[(٣)].

فالقصر: التنقيص، والرسول ﷺ نصّ على أن صلاة السفر ركعتان، تقول السيدة عائشة: أول ما فرضت الصلاة كانت ركعتين ركعتين، وبعد ذلك أُقرّت صلاة السفر ركعتين، وأُتمّت صلاة الحضر أربع ركعات[(٤)].

---

(١) النساء: ١٠١. (٢) البقرة: ١٥٨.

(٣) الفقيه ١: ٤٣٤/١٢٦٥، وسائل الشيعة ٨: ٥١٧ ـ ٥١٨، أبواب صلاة المسافر، ب٢٢، ح٢.

(٤) في (الدرّ المنثور) من حديث الإسراء والمعراج عن الرسول الأكرم ﷺ أنه قال: «ثم صعد بي إلى فوق السبع سماوات، وأتيت سدرة المنتهى، فغشيتني ضبابة فخررت ساجداً، فقيل لي: إني يوم خلقت السماوات والأرض فرضت عليك وعلى أُمّتك خمسين صلاة، فقم بها أنت وأُمتك. فمررت على إبراهيم فلم يسألني شيئاً، ثم مررت على موسى فقال لي: كم فُرض عليك وعلى أُمّتك؟ قلت: خمسين صلاة. قال: إنك لن تستطيع أن تقوم بها أنت ولا أُمّتك، فاسأل ربّك التخفيف. فرجعت فأتيت سدرة المنتهى، فخررت ساجداً فقلت: يا رب، فرضت علي وعلى أُمّتي خمسين صلاة، فلن أستطيع أن أقوم بها أنا ولا أُمّتي، فخفّف عني عشراً. فمررت على موسى فسألني فقلت: خفّف عني عشراً، قال: ارجع إلى ربّك فاسأله التخفيف: فخفّف عني عشراً ثم عشراً، حتى قال: هنّ خمس بخمسين، فقم بها أنت وأُمّتك. فعلمت أنها من الله، فمررت على موسى فقال لي: كم فرض عليك؟ فقلت: خمس صلوات. فقال: فُرض على بني إسرائيل صلاتان فما قاموا بهما. فقلت: إنها من اللّه، فلم أرجع». الدر المنثور ٤: ١٣٨، ١٣٩، وفي الفقيه ١: ١٩٩،

وقال النبي صلى الله عليه وآله: «صلّوا كما رأيتموني أصلّي»[١].

اختلاف المذاهب الإسلامية حول فعل النبي صلى الله عليه وآله

وكان النبي صلى الله عليه وآله يقصر من الصلاة في السفر؛ ولهذا فإن المذاهب الإسلامية ينقسمون حول هذا الفعل إلى قسمين:

الأول: استحباب القصر في السفر

وأصحاب هذا الرأي يفهمون من هذا الدليل الاستحباب؛ فعندهم أنه يجوز للمصلّي أن يتمّ أو يقصر في السفر. وهؤلاء هم الشوافع[٢] والحنابلة[٣].

الثاني: وجوب القصر في السفر

وأصحاب هذا الرأي يفهمون من هذا الدليل الوجوب؛ ولذا فإن عندهم أن المصلّي يجب عليه أن يقصر من الصلاة، ويرون أن القصر في السفر عزيمة وليس رخصة، أي أن القصر واجب ومتعيّن على المصلّي. وهؤلاء هم الأحناف[٤] والموالك[٥] والشيعة[٦]، فهم يرون أن الله عزّ وجلّ أراد أن يعطي رخصة لعباده للتخفيف عنهم.

وهذا التعليل وارد في الروايات: «تلك فرصة فاغتنموها»؛ فالحاضر تسهل عليه الصلاة وهو في بيته أو في المسجد، أما المسافر فقد تدركه الصلاة وهو في الطريق أو في بلد بعيد، فربما أقعده السفر عنها. فالسفر حالة

التوحيد: ١٧٧ إشارة إليه.

(١) عوالي اللآلي ١: ١٩٨ / ٨، ٣: ٨٥ / ٧٦، السنن الكبرى (البيهقي) ٢: ٣٤٥.

(٢) كتاب الأم ١: ٢٠٨.

(٣) الشرح الكبير ٢: ٩٠.

(٤) المبسوط ١: ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

(٥) المدوّنة الكبرى ١: ٢٠٨.

(٦) المقنع: ١٢٤ ـ ١٢٥، شرائع الإسلام ١: ١٠١ ـ ١٠٢.

استثنائية أراد الله تعالى أن يخفّف فيه من عبادته عن عباده.

فالنبي ﷺ أكّد على هذا المعنىٰ عند هجرته، وهذا يدلّ على الاهتمام بالصلاة؛ فالصلاة في حالة الخوف ـ أي حينما يخاف المصلّي أن يصيبه مكروه؛ فإنه لا يترك الصلاة ـ لا تسقط، لكن إذا استطاع أن يصلّي للقبلة صلّاها وإن لم يقدر فيتوجّه إلى القبلة ويصلّي بالنيّة فقط: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[1]، فإذا استطاع أن يقرأ الحمد والسورة فليقرأهما، وإن لم يستطع فالحمد فقط، وإن لم يستطع فليقرأ ما يتيسّر من القرآن، وإن لم يستطع فبالإيماء.

ثمرة الخطاب بلسان الجمع في سورة الحمد

وهذا الإصرار على الصلاة لأنها الرابط الوحيد الذي يشدّ الناس إلى عوامل الخير، فعندما يقرأ المصلّي سورة الحمد يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[2]، لكن هو واحد، فلماذا يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وهي صيغة جمع؟ إن المفروض به ابتداء أن يقول: «إيّاك أعبد». إن معنى الجمع وثمرته هنا أمور، منها:

الأول: قبول الصلاة التي يتطرّق إليها النقص

أن المصلّي يضمّ صلاته إلى صلاة المسلمين كافّة، وثمرة هذا أنها إن كان بها نقص فإنها حينئذٍ ستكون مع المجموعة وتقبل بقبولها.

الثاني: التأكيد على الهويّة الإسلاميّة

كما أن المصلّي يريد أن يعبّر بهذا عن كونه جزءاً من المسلمين الذين يصلّون، ويريد للرحمة التي ستنزل على المسلمين أن تشمله.

---

(١) البقرة: ١١٥. (٢) الفاتحة: ٥.

فليسمع دعاة السوء الذين يريدون تمزيق شمل المسلمين، فهؤلاء ما إن يروا أن أحداً يخالفهم في الفكر حتى يسارعوا إلى إعطائه لقب كافر ومشرك، مع أن المفروض هو توجيه الأخطاء وإصلاحها. وهذه كانت سيرة النبي صلى الله عليه وآله حيث إنه كان يراقب الصحابة في صلاتهم وفي تصرّفاتهم، فإذا لم ينههم النبي صلى الله عليه وآله عرفوا أن صلاتهم صحيحة.

فالصلاة إذن هي صلة بين العبد وربّه، ومهمّتها أن تصنع الفرد، والنبي صلى الله عليه وآله قد صنع المجتمع المدني من خلال المواطن الصالح. وهذا يبيّن حرص الإسلام على أن يبني المجتمع بناء سليماً؛ فإن الإنسان إذا استشعر الصلاة على أنها صلة بينه وبين ربّه ومجتمعه فإنه سيكون إنساناً مرتبطاً بالقيم والأخلاق، ونطمئنّ إليه.

فهذه الكيفية للصلاة أقرّها النبي صلى الله عليه وآله، فعندما نزل المدينة أتمّ صلاته ـ أي صلّاها صلاة حضر ـ وأعلن القصر في صلاة السفر.

خامساً: تزويج الإمام علي من فاطمة عليهما السلام

وفي السنة نفسها زوّج النبي الأعظم صلى الله عليه وآله ابنته فاطمة من الإمام علي عليه السلام، حيث إن المفسّرين الشيعة يروون أن قوله تعالىٰ: ﴿الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً﴾[1] نزل في علي بن أبي طالب عليه السلام[2]؛ لأنه اجتمع له مع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله النسب والصهر. لكنه بما أن التاريخ قد كتب في أيام الأمويّين، وبما أن هؤلاء كانوا لا يطيبون لهذا الرجل نفساً أبداً فقد وأد كلّ فضيلة لأمير المؤمنين عليه السلام. ومن ذلك أنه حينما جاء سليمان بن عبد

(١) الفرقان: ٥٤.

(٢) تفسير فرات الكوفي: ٢٩١، خصائص الوحي المبين: ٢٢٨.

الملك ـ وكان ولياً العهد ـ للحج ومرّ بالمدينة التقى أبان بن عثمان بن عفان، وكان من الأعلام الذين يكتبون التاريخ، فقال له: اكتب لي السيرة والتاريخ. فقال له: إنها مكتوبة عندي، وهي من أوثق المصادر والكتب. فلما قرأها سليمان، وجد فيها فضائل للأنصار في بيعة العقبة الأولىٰ والثانية، وكفالة النبي ﷺ، والجهاد، فقال له: إن للأنصار فضائل في هذه الكتب؛ فإما أن يكون آبائي قد غمط حقّ هؤلاء، أو أن هذا التاريخ كذب، فلا أقبله حتىٰ أرىٰ رأي عبد الملك فيه. ثم أخذ الكتب ومزّقها، ولمّا جاء إلى الشام ودخل على أبيه عبد الملك قال له: إن القصّة كذا وكذا، وقد مزّقت الكتب. فقال له: نِعْمَ ما صنعت. أي لا ينبغي أن تجلب شيئاً للشام يجب ألّا يُقرأ؟

وكلّ هذا الموقف المتشنّج من الأنصار لأنهم كانوا إلى جانب الإمام علي عليه السلام، فكيف يكون الحال مع علي بن أبي طالب عليه السلام نفسه؟ ولذا فإنهم كانوا إذا رأوا اسماً لعلي في التاريخ أحرقوا الأرض. ولكن هل استطاعوا أن يضيّعوا ذكر الإمام علي عليه السلام؟ طبعاً لا؛ لأن ما كان لله ينمُ.

وممن روىٰ أن هذه الآية نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام القرطبي، حيث إنه نقل عن ابن سيرين أنها نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام، وهناك مصادر أُخرىٰ [1] تؤكّد ذلك.

زواج النور من النور تطبيق عملي لنظريّات الإسلام

ولعلّ هناك من يسأل فيقول: ما هي الخطوة الضخمة في هذا الزواج؟

إن هذه الخطوة الضخمة تتمثّل بأُمور منها:

---

(١) تفسير الثعلبي ٧: ١٤١، ١٤٢، شواهد التنزيل ١: ٥٣٨، زاد المسير ٦: ١٩.

أولاً: مسألة الكفاءة

أن فاطمة عليها السلام بنت رئيس الدولة.. بنت رسول الله صلى الله عليه وآله الذي كان يحمل رسالة السماء بيد ويحمل قيادة الأرض باليد الأُخرىٰ. فالرسول صلى الله عليه وآله جمع بين السلطتين السياسيّة والدينية، وكان الناس من الصحابة وأهل المكانة والجاه يتسابقون لخطبة ابنته عليها السلام، وكان النبي يردّهم، ولم يلبِّ أحداً منهم، حتى آذوه صلى الله عليه وآله، فأخبرهم أنه سيشكو من يخطب إليه فاطمة عليها السلام إلى ربّه؛ ذلك أن المسألة ليست بيده. إلىٰ أن جاءه أمير المؤمنين عليه السلام وقد بدا عليه التعثّر والتلعثم والحياء، فقال له الرسول صلى الله عليه وآله باسماً: «ما حاجة ابن أبي طالب؟». فقال عليه السلام: «ذكرت لي فاطمة». فبشَّ له النبيّ صلى الله عليه وآله، وقال: «أبشر يا علي، فإن الله قد زوّجك بها في السماء، قبل أن يزوّجك بها في الأرض»(١).

وعظمة هذه الخطوة أنه صلى الله عليه وآله خالف جملة من الأعراف الاجتماعيّة، فالناس كانوا قد عيّروا خديجة لأنها تزوّجت النبي صلى الله عليه وآله وهو الفقير اليتيم؛ حيث إنه صلى الله عليه وآله كان قد ربي عند أبي طالب عليه السلام. فخديجة صاحبة المكانة والأموال تلج مثل هذه الزيجة؛ ولذا فقد قاطعوها زمناً طويلاً، ثم يفعل الرسول صلى الله عليه وآله الشيء نفسه مع أمير المؤمنين عليه السلام وفاطمة، وبأي مهر؟ إن المهر الذي ساقه مروان بن الحكم لأمرأة بلغ (٥٠) ألف دينار، وساق مصعب بن الزبير مهراً قدره مليون، فقال أحد الشعراء:

أبلغ عميد بني الزبير رسالة	من مؤمن لك لا يريد خداعا
بضع الفتاة بألف ألف كامل	وبنات سادات الجنود جياعا

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٢٣، بحار الأنوار ٤٣: ١٠٩.

أمّا المهر الذي زوّج به النبي ﷺ فاطمة عليها السلام فكان أربعمئة وستّين درهماً، وقد اشترىٰ به بعض الصحابه طيباً، وسريراً مزمّلاً بشرائط النخل، وحصيراً هجريّاً، وستراً من صوف، ومخضبة من نحاس، وقعباً للّبن، وشنّاً للماء. فهذا هو كلّ الأثاث، ولمّا جاؤوا به طرحوه بين يدي رسول الله ﷺ، والنبي يقلبه ويقول: «بأبي وأُمّي قوم جلّ إنائهم الخزف»[1].

ثانياً: القضاء على الشعور بالعار من تزويج البنت

والعرف الثاني الذي قضى عليه الرسول الأكرم ﷺ هو النظرة التي كان العرب ينظرون بها إزاء تزويج البنت، فالرسول ﷺ عاش في قلب الجزيرة العربيّة.. في مكّة.. في مجتمع يقول أحد الرؤوساء فيه وهو عقيل المري:

إنـي وإن سـيق إليّ المهرُ ... ألفٌ وعبدانٌ وذودٌ عشرُ
أحبُّ أصهاري إلىٰ القبرُ[2]

فهذا لا يطيق أن تُخطب ابنته إلىٰ رجل، في حين أن النبي الأعظم ﷺ يقود موكب عرس فاطمة عليها السلام بنفسه، وحتى أزواجه ﷺ اشتركن في زفاف فاطمة عليها السلام. وكان لأم المؤمنين عائشة في هذه المناسبة هذه المقطوعة:

يا نسوةُ استترنَ بالمعاجرِ ... واذكُرنَ ما يحسنُ في المحاضرِ
والحمدُ للهِ علىٰ أفضالِهِ ... والشكرُ للهِ العزيزِ القادرِ
سِرنَ بها فاللهُ أعلىٰ ذكرَها ... وخَصّها منهُ بطُهرٍ طاهرِ

وكذلك كان لحفصة دورها فقالت:

---

(١) دلائل الإمامة: ٨٧، بحار الأنوار ١٠١: ٨٨ / ٥٣.

(٢) الأمالي (المرتضى) ٢: ٤٠، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٣٢.

فـاطمةُ خـيرُ نسـاءِ البشـرِ ومَـن لهـا وجـهٌ كـوجهِ القـمرِ
زوّجكِ اللهُ فـتىً فـاضلاً أعـني عليّاً خيرَ مَن في الحضرِ
فسِـرنَ جـاراتـي بـها إنـها كـريمةٌ بـنتُ عـظيمِ الخـطرِ

وقالت معاذة (أمّ سعد بن معاذ):

أقـولُ قـولاً فـيهِ مـا فـيهِ وأذكـرُ الخـيرَ وأُبـديهِ
مـحمّدٌ خـيرُ بـني آدمٍ مـا فـيه مِـنْ كِـبْرٍ ولا تِـيهِ
بـفضلِهِ عـرّفَنا رُشْـدَنا فـاللهُ بـالخيرِ يـجازيهِ
ونـحنُ مـعْ بـنتِ نـبيّ الهُـدىٰ ذي شـرفٍ قـد مُكّـنت فـيهِ
فـي ذروةٍ شـامخةٍ أصـلُها فـما أرىٰ شـيئاً يـدانـيه

وأنشدت أُمّ سلمة تقول:

سِـرنَ بـعونِ اللهِ جـاراتـي واشكـرنَهُ فِـي كـلِّ حـالاتِ
واذكـرنَ مـا أنـعمَ ربُّ العُـلا مِـنْ دفْـعِ مكـروهٍ وآفـاتِ
وسِـرنَ مـعْ خـيرِ نسـاءِ الورىٰ تُـفدىٰ بـعمّاتٍ وخـالاتِ
يـا بـنتَ مَـنْ فـضّله ذو العُـلا بـالفَضلِ مِـنْه والرسـالاتِ

وكان زمام الناقة بيد سلمان الفارسي رضي الله عنه، وإلىٰ جانب الناقة عمار بن ياسر رضي الله عنه، وأبو ذر رضي الله عنه من وراء الناقة يسوقها، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأصحابه أمامها، ثم يقف بباب الحجرة ويُقنع بالشيبة الكريمة إلى السماء ويقول: «يارَبّ إنّك باركت علىٰ آل عمران، فبارك علىٰ آل محمد». ويأخذ يد علي بن أبي طالب ويضعها بيد فاطمة ويقول: «هذه وديعتي عندك». ثم يتلو قوله تعالىٰ: ﴿رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[1]. ويخرج من

(١) هود: ٧٣.

عندهما وهو يدعو لهما[١].

فالنبي ﷺ يري المسلمين بهذا الفعل أنه يسحق أعراف الجاهلية، فليعمل كل مسلم لأجل إنشاء الأسرة السعيدة.

ثالثاً: التأكيد على بنوّة الحسنين عليهما السلام

وهنا أراد الرسول الأكرم ﷺ ألّا يبارح بيت أمير المؤمنين وفاطمة عليهما السلام بعد ذلك، ليؤكّد على مسألة حيوية وهامّة في آن واحد، وهي أن يكون أولاد أمير المؤمنين وفاطمة عليهما السلام أولاده هو ﷺ، وأن يظلّوا مشدودين إليه. وأهم ما في هذه الخطوة أنه ﷺ أوجد للمسلمين دار الأمان والعزّة، فكل مسلم يدخل الآن المدينة يلمح بيت فاطمة الزهراء عليها السلام والموقف الذي وقفه رسول الله ﷺ فيه، يقول أحد الشعراء:

وعفَّرتُ خَدّي في ثرىً مسَّ عفرَهُ	لجبريلَ من جِنحَيه رِيشٌ مُزَغَّبُ
وفيه محاريبٌ لآلِ محمّدٍ	بِهِنَّ ضَراعاتٌ إلى الله تُنصبُ
وآثارُ أقدامٍ صِغارٍ ومَهجَعٌ	إلى الحَسَنين الزّاكيينِ ومَلعبُ
وصوتُ رَحى الزَّهراءِ تَطحنُ قُوتَها	إلى جلدِ كبشٍ حيثُ تجلسُ زَينبُ
رُؤىً سوف يَبقى الدّهرُ يَروي جَلالَها	وتَبقى على رَغمِ البَساطةِ تَأشَبُ[٢]

ويدرك أن دخول النبي ﷺ للمدينة قد جلب لها وللمسلمين مجد الدنيا والآخرة، وفعلاً كانت فرحة غامرة عمّت الدنيا، وخرجت المدينة بأهلها تطفو على موجة من الفرح من السرور؛ لأن النبي ﷺ دخل ومعه الفواطم (فاطمة بنت حمزة بنت عبد المطلب ﵁، وفاطمه بنت أسد، وفاطمة بنت رسول الله ﷺ).

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٩٣ ـ ٤٠٥، بحار الأنوار ٤٣: ١١١ ـ ١١٧، ١٢٥ ـ ١٢٧.

(٢) ديوان المحاضر ١: ١٥، وتأشب: تجتمع. لسان العرب ١: ٢١٤ ـ أشب.

وقد دخلت الفواطم إلى المدينة مرّة اُخرىٰ بعد واقعة الطفّ، فكيف استقبلت المدينة ظعينة رسول الله صلى الله عليه وآله؟ لقد كان استقبالاً يهزّ المشاعر، ويؤجّج الزفرات في النفس:

مدينةَ جدِّنا لا تقبلينا فبالحسراتِ والأحزانِ جينا

خرجنا منك بالأهلين جمعاً رجعنا لا رجالَ ولا بنينا[١]

وفعلاً رجعت حرم الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بغير الرجال والبنين، فكل من رجع كانوا مجموعة من الأرامل واليتامى.

وبعد أن أدّت زيارة قبر جدّها رسول الله صلى الله عليه وآله، وقفت أمام دار أخيها أبي عبد الله الحسين عليه السلام وراحت تخاطبها:

اخوي من اطب عندك دار أرد عيني وأصد فكري

أخاف تشوف ملعبنا الدرجنا بيه من صغري

تمرّ اطيوفك اعليّه مثل عذب الهوى تجري

* * *

وحكّك لو جهبت الدار أناجيها بدمع سچّابْ

أشوف ارسومكم بيها واشتَم ريحة الأحبابْ

واتذكّر ثناياكم وتكوّم كبال البابْ

* * *

بالأمس كانوا معي واليومَ قد رحلوا وخلّفوا في سويدا القلب نيرانا

نذر علي لئن عادوا وإن رجعوا لأملأن طريقَ الطفّ ريحانا[٢]

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ١٩٨، ينابيع المودّة ٣: ٩٤.

(٢) شجرة طوبىٰ ١: ٩١.

﴿٣﴾

أُمّية الرسول ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: أقسام الأمّيّة ومعنى أمّية الرسول ﷺ

الأُمّيون: جمع الأُمّي، وهو الذي لا يقرأ ولا يكتب. وفي الأيّام الأخيرة نشأ عند الكتّاب والمتكلّمين اصطلاح هو أن الامّيّة صنفان: الأُمّية الأبجدية، وهي أن المرء لا يعرف القراءة والكتابة. والأُمّية الحضاريّة وهي خلو الذهن الإنساني من المعلومات. فقد تجد إنساناً لا يقرأ ولا يكتب لكنه يمتلك معلومات كثيرة، وتجد له أُفقاً واسعاً ومعرفة واطلاعاً، وكل ما في الأمر أنه لا يستطيع أن يسطرها أو يقرأها في كتاب.

طبيعة أمّية الرسول ﷺ

والآية بالتأكيد تعني الصنف الأول من الأُمّية، فالنبي ﷺ لم يمارس القراءة

---

(١) الجمعة: ٢.

والكتابة، يقول تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾[١]. وكأن القرآن الكريم يعلّل ذلك بأن النبي ﷺ لو كان يمارس القراءة والكتابة لقيل له: إن هذا القرآن من عندك، وأنت الذي اخترعته وليس وحياً من السماء. وحتى مع كون النبي ﷺ أمّياً فإن هذه المقولة إلى الآن موجودة خصوصاً لدى المستشرقين والمجامع العلمية الأوربية، فإنهم عندما يمرون بمسألة تقييم رسالات السماء والكتب السماوية يقولون: إن هذا القرآن من اختراع محمد. مع العلم أنه من المفترض في الإنسان أن يكون ابن البيئة التي يعيش فيها، فهو ابن المنطقة والحضارة السائدة. والزمن الذي عاش فيه النبي ﷺ كانت فيه الحضارة بدائية. فنحن نعرف أن مجموع من كان يقرأ ويكتب في الجزيرة العربية كما ينصّ عليهم البلاذري[٢] كان (١٧) فرداً؛ قسم منهم كان يحسن القراءة والكتابة، وقسم كان يحسن القراءة فقط، ونعرف أن الجهل كان يلفّ المجتمع الذي كان حول النبي ﷺ والذي عاصره.

فالمجتمع بأجمعه كان جاهلاً لا يملك أي معلومات، والمعلومات التي جاء بها القرآن معلومات ضخمة، فكلّما جدت العصور وتقدّمت الدنيا وتعمّق الفكر واتّسعت الثقافة فنحن نجد أن القرآن يتفجّر عطاء، وفي كلّ

---

(١) العنكبوت: ٤٨.

(٢) وهم كما نصّ عليهم: علي بن أبي طالب، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وأبو عبيدة ابن الجراح، وطلحة، ويزيد بن أبي سفيان، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وحاطب بن عمرو العامري، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وأبان بن سعيد بن العاص، وخالد بن سعيد أخوه، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري، وحويطب بن عبد العزّى العامري، وأبو سفيان بن حرب بن أمية، ومعاوية بن أبي سفيان، وجهيم بن الصلت بن مخرمة بن المطّلب بن عبد مناف، ومن حلفاء قريش العلاء بن الحضرمي. فتوح البلدان ٣: ٥٨٠ / ١١٠٤.

عصر تجد فيه مكامن لاستفادة البشرية تأخذ منه من العلوم ما تريد. والباحث لو أراد الآن أن يبحث عن الكثير من النظريّات الحديثة لوجدها ضاربة الجذور في القرآن الكريم. فمن أين جاء محمد وهو الأُمّي بهذه المعلومات حتى يسطرها في القرآن؟ فلو فرضنا أن النبي ﷺ عنده معلومات عامّة، فهي لا تتعدّى محيطه الذي يعيش فيه؛ لأن الإنسان إنما يأخذ معلوماته وثقافته من بلده بما فيه من عطاء علمي.

العلم يصدّق القرآن

فالقرآن الكريم يقول: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾[١]، وما يتّسع له أُفقنا الذهني وهو الذي نستطيع أن نفهمه من هذه الآية وفق المعارف التي نعيش فيها هو أن القرآن يضرب مثلاً في الصوت الخشن المزعج، ولكن العلم اليوم يقول على لسان أحد علماء الأكاديميّة الفرنسيّة: إن أعظم المطارق إذا وضعت جنب الأُذن البشرية فإنها لا تحدث ضرراً في السمع بقدر ما يحدثه صوت الحمار من ضرر به. وهذا لم يُتح لأحد أن يكتشفه إلا بعد (١٤٠٠) سنة من نزول القرآن، فمن أين أخذ النبي ﷺ ذلك، وهو الذي كان يعيش في مجتمع بدائي بما للكلمة من معنى؟

إذن لا قيمة لدعوى أن النبي ﷺ جاء بالقرآن من عنده كما يدعي المستشرقون وتلامذتهم. وقد يكون بعض أبنائنا ممّن ينقلون أفكار الأجنبي ويكونون ترجمة صادقة للأجنبي في أفكاره يحملون مثل هذا الرأي.

فالنبي ﷺ كان أُمّياً بمعنى الأُمّية الأبجدية.

---

(١) لقمان: ١٩.

المبحث الثاني: وجوب بعثة الأنبياء وعدمه

والنقطة المهمّة التي ينبغي أن نعرّج عليها هي أن بعثة الأنبياء عليهم السلام هل هي واجبة على الله تعالى أو مستحبّة؟ علماء المسلمين في هذه المسألة فريقان: فريق يقول: إن مثل البعثة أو غيرها لا يمكن أن يأخذ صفة الوجوب على الله، فلا يمكن أن نقول: إن هناك شيئاً واجباً على الله أبداً. فالله يمكن أن يترك الناس سدىً بدون دين، ويمكن أن يعذّب بعض الناس بدون مبرّر، فيمكن أن يعذّب المطيع وينعّم العاصي؛ لأن القرآن يقول: ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[1]، فلا يمكن أن نوجب على الله شيئاً[2].

وهذا اللون من الفكر خطر على الإسلام، لأنه يفتقر إلى مقوّمات الأصالة، فالله تعالى عندما خلق العقل فإنما خلقه ليكون مقياساً لنا لا أن نجمّده في رؤوسنا، وخلقه لنُعمله ونستفيد منه ونفهم به، وليس من الممكن أن يخلق الله العقل كي نعطّله عن العمل. والعقل يحكم بقبح تعذيب المطيع وحسن تعذيب العاصي، والله سيّد العقلاء وخالق العقل، والمقياس العقلي مقياس صحيح ترجع إليه كلّ الأُمور. فلا يمكن أن نحكم على الله أنه من الممكن أن يترك مجتمعاً سدىً. يقول تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[3]. فلابدّ من وجود نبيّ يحمل الرسالة إلى الناس، ويشرح لهم التكاليف وفلسفة وجودهم، ويجيب عن الأسئلة التي لا يستطيع العلم أن يجيب عنها.

---

(١) الأنبياء: ٢٣.

(٢) انظر: الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد: ٤٠، الصراط المستقيم ١: ٤٠.

(٣) الإسراء: ١٥.

شبهة البراهمة حول إرسال الرسل، وردّها

وإحدى الشبهات حول بعثة الأنبياء عليهم السلام مثلاً شبهة البراهمة، فهم يقولون: لا داعي لأن يبعث الله نبيّاً ؛ فهذا النبي الذي يبعثه الله هل سيأتي بأحكام توافق العقل أم تخالفه؟ فإن كانت توافق العقل فلا قيمة لها؛ لأنها أصبحت مكرّرة، فالعقل كان يقول بها قبل مجيء النبي، وإن جاء بأحكام تخالف العقل فيجب علينا ردّه؛ فلا ضرورة إذن إلى بعثة الأنبياء عليهم السلام [١].

وقد انطلت هذه الشبهة على الكثير من الناس، ولكن الواقع غير ذلك، فالله يبعث النبي بما لا يخالف العقل، وهذا صحيح، لكن هناك أشياء كثيرة لا يستطيع العقل أن يصل إليها، فنحن نستطيع أن نكلّف العقل ما يستطيع، كأن نسأل عالم الكيمياء حول قوله تعالى عن العسل: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾[٢]، فهو يحلّل العسل في المختبر ويقول لنا: إن فيه موادَّ وعناصرَ نافعة، لكن لو أردنا أن نكلّف العلم أن يحلّل لنا ما بعد الموت، وهل إن الإنسان يُبعث أو لا، وهل إنه يُسأل إذا بعث أو لا، وأين يكون البعث والنشور، وكم هي البقعة التي سوف يحشرون عليها، فلدينا الآن عشرات المليارات من الناس منذ آدم وإلى الآن، ولو حشروا كما يقول القرآن: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾[٣]، فأية رقعة تتّسع لهم؟ فإن العلم لا يستطيع أن يجيب عن ذلك، والعقل لا يهتدي إلى ذلك، لأن ذلك ليس من شأنه. فهذا من علوم ما وراء الطبيعة، وهو من اختصاص الوحي والنبوات. فنحن إذن بمسيس الحاجة إلى النبوّة باعتبار أنها تجيب عن أسئلة لا

---

(١) شرح المواقف: ٢٣٥ ـ ٢٣٦ (حجري). (٢) النحل: ٦٩.

(٣) الكهف: ٤٧.

يجيب عنها العلم ولا العقل؛ فهذه الشبهة إذن ليست مستقيمة.

عدم وجوب الوصيّة يساوق عدم وجوب البعثة

إذن هذا الرأي في عدم وجوب البعثة والنبوّة على الله لا يمكن أن يقبله العقل. ونحن عندما نسمع هذا الرأي، فإننا لا نستغرب إذ نسمع رأياً آخر يقول: إن النبي صلى الله عليه وآله مات ولم يوصِ[١]؛ لأنك عندما تسمع أن الله لا يجب عليه أن يبعث النبي، فليس من الغريب أن تكون الوصيّة على النبي غير واجبة. مع أن هذا خلاف المعهود من أُسلوب الإسلام، فنحن نعرف أن أُسلوب الإسلام يفرض الوصيّة حتى في الأشياء البسيطة، يقول النبي صلى الله عليه وآله: **«حقّ على المؤمن ألّا يبيت إلّا ووصيّته تحت رأسه»**[٢]. فكيف يمكن أن يخرج النبي صلى الله عليه وآله من الدنيا دون أن يوصي؟

وتعال إلى التناقض في هذه المسألة، فتارة يقال: إنه خرج من الدنيا ولم يوصِ نهائيّاً، مع العلم أنه كان عندما يخرج خارج المدينة قليلاً ولو ليلة واحدة فإنه يعيّن شخصاً ينوب عنه عليها[٣]. فكيف يخرج

---

(١) انظر: صحيح مسلم ٥: ٧٥، نيل الأوطار ٦: ٤٤، فتح الباري ٥: ٢٦٩، كنز العمال ٦: ١٧٠٦٢/٦٠٠.

(٢) مصباح المتهجّد: ١٤، المدوّنة الكبرى ٦: ١٠.

(٣) أحصى الخطيب الشيخ عبد الحميد المرهون في كتابه (رانق الضمير) ١: ٢٠٤ ـ ٢٠٨ غزوات الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله التي كان يستخلف فيها أحد أصحابه على المدينة، نذكر منها:

١ ـ استخلف عليها سعد بن عبادة عندما خرج إلىٰ غزوة الأبواء.

٢ ـ استخلف عليها السائب بن عثمان بن مضعون عندما خرج إلىٰ غزوة بُواط.

٣ ـ استخلف عليها أبا سلمة المخزومي عندما خرج إلىٰ غزوة العُشيرة.

٤ ـ استخلف عليها زيد بن حارثة رضي الله عنه عندما خرج خلف كرز بن جابر الفهري.

٥ ـ استخلف عليها عبد الله بن أُبي بن سلول عندما خرج إلىٰ غزوة بدر والسويق وبني قينقاع.

من الدنيا ويترك الناس سدىً دون وصيّة؟

وتارة يقال: إنه وصّىٰ لكننا لا نأخذ بوصيّته؛ لأنه كان (يهجر)؛ لأنه في ساعة مرض[1]. فكيف يمكن الجمع بين هذين الادّعاءين؟

أوصى النبيُّ فقال قائلُهم قد راحَ يهجرُ سيدُ البشرِ

لكنْ أبو بكرٍ أصابَ فلمْ يهجرْ وقد أوصى إلى عُمرِ[2]

فالاثنان أوصيا؛ النبي ﷺ وأبو بكر، وكلتا الوصيّتين كانتا في وقت المرض، فالمرض الذي غلب على النبي ﷺ وجعله يهجر لمَ لم يغلب على الخليفة الأوّل أيضاً ويجعله يهجر؟ إن هذا اللون من الفكر نستطيع أن نسميه تزييفاً للتأريخ والحقائق. مع أن الإسلام يربّي فينا الموضوعيّة، ويريد منا أن نكون كذلك عند البحث، وألّا تغلب علينا العاطفة فتجعلنا

٦ ـ استخلف عليها سُباع بن عرفطة الغفاري عندما خرج إلىٰ غزوة كدر.
٧ ـ استخلف عليها أبا دجانة الساعدي عندما خرج إلىٰ حجّة الوداع.
٨ ـ استخلف عليها ابن أُمّ مكتوم عندما خرج إلىٰ غزوة نجدان وأُحد وحمراء الأسد والخندق وبني لِحيان وذي قَرَد.
٩ ـ استخلف عليها عثمان بن عفّان عندما خرج إلىٰ غزوة ذات الرقاع، وقيل: ذي أمد.
١٠ ـ استخلف عليها أبا ذرّ الغفاري عندما خرج إلىٰ غزوة ذات الرقاع وغزوة بني المصطلق.
١١ ـ استخلف عليها عبد الله بن رواحة عندما خرج إلىٰ غزوة بدر الثانية.
١٢ ـ استخلف عليها نميلة بن عبد الله الليثي عندما خرج إلىٰ غزوة الحديبية وخيبر.
١٣ ـ استخلف عليها عوف بن الأخبط الدؤلي عندما خرج إلىٰ عمرة القضاء.
١٤ ـ استخلف عليها أبا رهم الغفاري عندما خرج إلىٰ فتح مكّة.
١٥ ـ استخلف عليها علي بن أبي طالب عليه السلام عندما خرج إلىٰ غزوة تبوك، وفيها قال له: «إن المدينة لا تصلح إلّا بي أو بك، فأنت خليفتي في أهلي ودار هجرتي وقومي، أما ترضىٰ أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلّا إنّه لا نبي بعدي؟». فعاد عليه السلام قرير العين.

(١) مسند أحمد ١: ٣٥٥، صحيح البخاري ١: ٣٦، ٧: ٩، صحيح مسلم ٥: ٧٥ ـ ٧٦.

(٢) البيتان للديلمي. انظر الصراط المستقيم ٣: ٧.

نلوي المقاييس ليّاً؛ فنمسخ وجه الدنيا.

فهذا الفريق من العلماء ـ وهم الأشاعرة، وهو الذي عليه المذاهب الأربعة ـ يقولون: إن الله لا تجب عليه النبوّة[١].

أمّا المعتزلة[٢] والإماميّة[٣] والفلاسفة[٤] والمتكلّمون[٥] كلّهم فيذهبون إلى وجوب بعثة الأنبياء؛ لأن ما لا يتمّ الواجب إلّا به يكون واجباً، أي أن مقدّمة الواجب واجبة أيضاً. فنحن نعرف أن نظام المجتمع يتوقّف على وجود شريعة سماويّة، فإذا لم يُنزل الله لنا شريعة توضح لنا الأشياء فإن نظامنا سيبقى متخلخلاً. فليس من الممكن أن يترك الله الناس سدىً، وليس من الممكن أن يخلقهم ولا يعلّمهم وينظّم شؤونهم. فلا بدّ من إنزال شريعة تنظّم الدنيا، وهذه الشريعة لا يحملها إلا النبي، ولا يصلح لها أحد؛ إذ أن الله لا بد أن يختار لها عنصراً يحمل القابليّة والكفاءة والمرونة والطاقات العظيمة حتى يصلح لحمل النبوّة والرسالة. ولذا أصبحت بعثة الأنبياء واجبة على الله.

المبحث الثالث: دلائل النبوّة

ولكن كيف يمكن لنا أن نعرف النبي؟ وما هي الدلائل على نبوّته؟ هناك ثلاث علامات لابدّ أن تتوفّر كي نعرف أن هذا نبي:

الأولى: ألا يأتي بما يخالف العقل والواقع والفطرة

فمن الأمثلة على ما يخالف العقل أن يقول: إن الآلهة متعدّدة؛ لأن العقل يحكم

---

(١) الصراط المستقيم ١: ٤٠.

(٢) المصدر نفسه، شرح المواقف: ٢٣٠ (حجري).

(٣) شرح تجريد الكلام: ٣٧٥ ـ ٣٨١ / المسألة: ٥ ـ ٦.

(٤) شرح المواقف: ٢٣٠ (حجري). (٥) المصدر نفسه.

بأن الآلهة إذا تعدّدت تضاربت الإرادات؛ وبالتالي يضطرب الكون ولا يمكن أن يستقيم. قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[1]، فلو كان هناك أرباب متعدّدون فإنه يلزم من هذا أن أحدهم يريد شيئاً ويريد الآخر خلافه؛ فتتعارض إراداتهم؛ فيتعطّل الكون. يقول أمير المؤمنين عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام: «لو كان لربك شريك لأتتك رسله»[2].

وأما ما يخالف الواقع فكأن يقول: إن الأرض مسطّحة لا كرويّة. فهذا خلاف الواقع؛ لأن غروب الشمس وطلوعها دليل على كرويّتها. وعندما تقف على البحر وتتأمّله تعرف أن الأرض كرويّة[3]. فإن قال النبي: إن الأرض مسطّحة فهذا ممّا يخالف الواقع.

وأما ما يناقض الفطرة فكأن يقول: إن الزواج محرّم. ولذلك نحن لا نقبل ما ينسب إلى النبي عيسى عليه السلام في هذا الميدان، ولا يمكن أن يقول عيسى عليه السلام: إن الإنسان إذا أراد أن يكون قريباً من الله فعليه أن يبتعد عن المرأة. فالإنسان غريزة، وعندما وضع الله الغريزة عنده لم يضعها عبثاً، وإنما وضعها ليمدّ المجتمع بالأجيال. فليس من الممكن أن يخلقها ثم يقول له: لا تتزوّج وابتعد عن المرأة كي تكون قريباً منّي. فهذا تناقض، وهو خلاف الفطرة. فإذا كان الله قد وضع عندي الاستعداد لإشباع غريزة ما، فلماذا يكلّفني بخلافها؟

وممّا يخالف الفطرة أن يقول النبي: إن العلم قبيح، فهذا مستحيل؛ لأن الله

---

(١) الأنبياء: ٢٢. (٢) نهج البلاغة / الوصية: ٣١.

(٣) فإن البواخر التي تمخر عبابه حينما تقدم من بعيد أوّل ما يتراءى منها أعلى جزء فيها، ثمّ بعد ذلك تبدأ السفينة بالظهور شيئاً فشيئاً من جزئها العلوي حتى تستبين كلّها؛ مما يدلّ على تكوّر سطح الماء الناشئ عن تكوّر الأرض.

خلق عندنا حبّ العلم والاستعداد لطلبه، فكما أن المعدة تحتاج للأكل فإن العقل أيضاً يحتاج للمعلومات. فالإنسان عندما يخرج إلى الدنيا يسأل نفسه: من أين أتيت؟ وإلى أين سأذهب؟ وما هذا الكون المحيط بي؟ فيجب على النبي ألّا يأتي بما يناقض الفطرة.

الثانية: أن تكون بعثته خيراً للناس وطاعة لله

فلا يمكن أن يأتي الأنبياء بشرّ للناس. وإذا كنّا نحن لا نعرف الخير، فهذا بحث آخر، فالمجتمع قد لا يعرف الخير فيسميه شرّاً، ولا يعرف أسرار البعثة أحياناً، لكن هذا بحث آخر كما قلنا؛ وعليه فالنبي ﷺ لا يأتي إلّا بالخير.

والمرء قد يجد من يسأل عن حكمة الصوم وآلامه، ويقول: لمَ الصوم في هذا الصيف الحارّ وأفواهنا جافة؟ وكيف يكون هذا خيراً؟ لكن هذا لا يعرف معنى الخير، فلو كان يعرف أن الله هو الذي خلق الجسم وهو أعرف بمصلحته ومفسدته، لعرف الخير، ولعرف أن بعثة الأنبياء خير محض، ووَكلَ أمر كلّ شيء إلى الله؛ لأن النبي ينفذ أوامر السماء، فهو يطيع الله بهذا.

الثالثة: أن يكون مسلّحاً بالمعجزة

والمعجزة تكون في الإتيان بما هو خلاف المعتاد، فنحن نعرف مثلاً أن الإنسان لا يمكن أن يصعد إلى الجو إلا بالطائرة، أو أن يكون عنده جناحان يطير بهما. لكن عندما أعرف أن النبي ﷺ صعد واخترق الجوّ كما يقول القرآن: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى**﴾[1]، وأعرف أنه يجتاز الأفق ويشقّه بهذا الإعجاز فإنّي أرىٰ أن

---

(١) الإسراء: ١.

هذا دليل على نبوته.

ولكن ألفت نظرك هنا إلى أن هناك فرقاً بين المعجزة والكرامة، فالكرامة مثل ولادة النبي عيسى ﷺ من غير أب، لأن مريم ﷺ حملت به من دون زوج، أما المعجزة فشرطها التحدّي، فإن لم يكن بها تحدٍّ فلا تعتبر معجزة. فالنبي يتحدّاهم أن يأتوا بما يأتي به هو.

المبحث الرابع: من معجزات النبي ﷺ

المعجزة الأولى: تنظيم المجتمع

وأول معجز للنبي محمد ﷺ أنه استطاع أن ينظّم الدنيا وهو أُمّي، فقد استطاع أن ينظم ذلك المجتمع البدوي الذي يقول عنه التاريخ: إن التخلّف كان يسوده في الأبعاد؛ فلا علم ولا أخلاق ولا اقتصاد ولا تنظيم. لكن النبي ﷺ بدأ معهم من الصفر كما نقول اليوم في لغتنا، فقد جاء إلى مجتمع أقلّ ما فيه أنه وصلت به الحالة أن يقف أحدهم على النبي ﷺ في سنة جدباء لا مطر فيها ولا زرع ولا خيرات، وكانت البيوت تنام على الطوى والجوع، فيقول:

أتيتك والعذراءُ تبكي بِرَنّةٍ ... وقد ذُهلت أمّ الرضيع عن الطفلِ

وأختٌ وبنتانِ وأمٌّ كبيرةٌ ... وقد كِدت من فقري أُخالَط في عقلي

وليس لنا ما يأكلُ الناسُ عندنا ... سوى الحنظلِ العامي والعِلهز الفَسلِ[1]

---

(١) العلهز: شيء يتّخذون منه طعاماً في سنيّ المجاعة، حيث يخلطون الدم بأوبار الإبل ثم يشوونه بالنار ويأكلونه. وقيل: كانوا يخلطون فيه القردان، ويقال للقراد الضخم: علهز. وقيل: العلهز شيء ينبت ببلاد بني سليم له أصل كأصل البردي. والفسل: الرديء الرذل من كلّ شيء. المصدر نفسه.

وليس لنـــا إلّا إليك تـــقرّباً وأيـن فِـرارُ النـاس إلّا إلى الرسُلِ[١]

ويقف كعب بن مالك فيقول:

زعمت سُخَينَةُ أن ستغلبُ ربَّها وليـغلَبَنَّ مُـغالبُ الغـلّابِ[٢]

ويـعني بسخينة: قـريشاً؛ فـقد كـانوا مـن جـوعهم يأكـلون السَّـخينة، ويعتبرونها من الأكلات الراقية عندهم، وهي أن يؤتى بالماء فيغلى ثـمّ يلقى فيه شيء من طحين الحنطة إذا كان عندهم، ويضاف إليه شيء مـن الحلو. فهذه أكلتهم المفضلة.

ونجد الزهراء عليها السلام ترسم صورة أكثر براعة من هذا، فـتقول فـي خـطبتها: «وكنتم على شفا حفرة من النار، أذلّة خاسئين، تقتاتون القِدّ وتشربون الطَّرْق[٣] فأنقذكم الله بأبي محمد صلى الله عليه وآله منها»[٤]. والقدّ هو جلد الخروف بعد أن يؤخذ لحمه[٥]؛ فهم يضطرّون أحياناً لأكل الجلد، وقد يضطرّهم الأمر أحياناً لأكل الحشرات.

فالنبي صلى الله عليه وآله انطلق من هذه النـقطة، وإذا بك تـدخل بـعد أيّـام إلى مـطابخ المسلمين فتجد فيها ما لذّ وطاب، في حين أن فترة البعثة هي (٢٣) سنة فقط. فهل يستطيع أحدنا أن يربّي في مثل هذه الفترة ولداً واحداً فقط؟ فكيف بتربية مجتمع معقّد غاية التعقيد؟ لقد جاء النبي صلى الله عليه وآله إلى الاقتصاد

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ٣: ٢٩٣ ـ علهز، ٣٢٣ ـ عول، ٤٤٦ ـ فسل، لسان العرب ٥: ٣٨١ ـ علهز، ١١: ٥١٩ ـ فسل.

(٢) غريب الحديث (ابن قتيبة) ٢: ١٤٠، لسان العرب ١٣: ٢٠٦ ـ سخن، طبقات فحول الشعراء ١: ٢٢٢ / ٢٠٥.

(٣) الطرْق: ماء السماء الذي تبول فيه الإبل وتبعر. لسان العرب ٨: ١٥١ ـ طرق.

(٤) شرح الأخبار ٣: ٣٥.

(٥) لسان العرب ٣: ٣٤٥ ـ قد.

فعالج الموانع عن تنمية الاقتصاد، فجعل النفوس تتقبّل العمل بعد أن كانت تأنف منه[١]، وجعل المجتمع ينزل إلى العمل بمختلف أصنافه. وحمل شعار «من لا يعمل لا يأكل»[٢]. وهذا الشعار أوّل من طرحه هو

---

(١) والرسول الكريم ﷺ لم يكن يقول ذلك فقط، بل كان يطبقه بالفعل على الواقع كما سنراه في الأمثلة التالية:
١- فمن المعلوم أن الرسول ﷺ مارس الرعي والتجارة بنفسه كما هو المشهور من سيرته.
٢- كما أنه ﷺ كان يؤكّد عليه بقوله: «لأن يحمل الرجل حبلاً فيحتطب به ثم يجيء فيضعه في السوق فيبيعه ثم يستغني به فينفقه على نفسه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه». الكافي ٤: ٢٠ / ٣، مسند أحمد ١: ١٦٤، ٢: ٤٩٦.
٣- وبقوله ﷺ: «والله لأن يأخذ أحدكم حبلاً فيحتطب على ظهره فيأكل ويتصدّق خير له من أن يأتي رجلاً أغناه الله عزّ وجلّ من فضله فيسأله أعطاه أو منعه». مسند أحمد ٢: ٣٠٠.
٤- وقد جاء رجل إلى النبي ﷺ، فشكا إليه الفاقة، فقال ﷺ له: «انطلق حتى تجد من شيء». فانطلق فجاء بحلس وقدح، فباعهما له رسول الله ﷺ، وقال له: «اشترِ بدرهم فأساً وبدرهم طعاماً لأهلك، وانطلق إلى هذا الوادي فلا تدع شوكاً ولا حطباً، ولا تأتني إلّا بعد خمسة عشر يوماً». فانطلق فأصاب عشرة: فعاد إليه فقال له: «فانطلق فاشترِ بخمسة طعاماً لأهلك». فقال: يا رسول الله، لقد بارك الله لي فيما أمرتني. فقال ﷺ: «هذا خير من أن تجيء يوم القيامة وفي وجهك نكتة المسألة. إن المسألة لا تصلح إلّا لثلاثة: لذي دم موجع، أو غرم مفظع، أو فقر مفقع». انظر: بحار الأنوار ١٠٠: ١٠، السنن الكبرى (البيهقي) ٧: ٢٥.
(٢) ليس المراد أنه مبدأ إسلامي بمنطوقه، بل المراد: بمفهومه، ذلك أن الإسلام حثّ على العمل، ومنع من التصدّق على القادر على العمل كيلا يُتسبّب في إعانته على خلق طبقة غير منتجة، وبالتالي زيادة نسبة البطالة في المجتمع. ومن مصاديق حثّ الإسلام على العمل وترغيبه فيه ما روي من أحاديث عن الرسول الأكرم ﷺ ممّا مرّ بعضه في الهامش السابق. ويلاحظ أنه يجب التفريق بين تطبيق هذا المبدأ في الإسلام وفي غيره؛ فالمقصود به في الإسلام: القادر على العمل، أو من تتوفّر له فرص العمل لكنه لا يعمل، في حين أن من لم يكن كذلك فإن الإسلام يضمن له حاجاته الحياتية حتى يتمكن من العثور على عمل بالنسبة للقادر عليه أو حتى يتوفّاه الله بالنسبة للعاجز. أمّا في غير الإسلام من الأنظمة الوضعية فالمراد به كلّ أولئك؛ سواء كان قادراً على العمل أو لا. وهذا ما أراده المحاضر ممّا مرّ في موضوع «المبادئ لا ترتبط بالقائمين عليها»، ولأجله نوّهنا.

الإسلام؛ لأن الله جنّد الناس إلى العمل في مختلف الميادين: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً»[١]. ثم كرّم العمل والعامل[٢]، ثم أعاد توزيع الثروة[٣]، ثم استفرغ وسع المجتمع كلّه في استثمار الطاقات.

وإذا بنا بعد فترة نلاحظ مثلاً أن الزبير يموت وعلى مربطه من الخيل ألف فرس[٤]، ويموت زيد بن ثابت فيترك من الذهب والفضة ما يكسر بالفؤوس[٥]، ويموت عبد الرحمن بن عوف فيأتون بتركته إلى مجلس

---

(١) الفقيه ٣: ١٥٦ / ٣٥٦٩ عن العالم عليه السلام، وروي عن الرسول صلى الله عليه وآله بلفظ «احرث لدنياك ...». النهاية في غريب الحديث والأثر ١: ٢٤٦ ـ حرث.

(٢) قال الصادق عليه السلام: «الكادّ على عياله كالمجاهد في سبيل الله». الكافي ٥: ٨٨ / ١، الفقه المنسوب للإمام الرضا عليه السلام: ٢٠٨، وفيه: عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

(٣) كما في مسألتي الزكاة والخمس، والمساواة بين المسلمين في العطاء، وغير ذلك.

(٤) تاريخ ابن خلدون ١: ٢٠٤ ـ ٢٠٥، ونصّ عبارته: في أيّام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال، فكان له يوم قتل عند خازنه خمسون ومئة ألف دينار، وألف ألف درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مئتا ألف دينار، وخلّف إبلاً وخيلاً كثيرة. وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلّف ألف فرس وألف أمة. وكانت غلّة طلحة من العراق ألف دينار كلّ يوم، ومن ناحية السراة أكثر من ذلك. وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس، وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم، وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفاً. وخلّف زيد بن ثابت من الفضّة والذهب ما كان يكسر بالفؤوس، غير ما خلّف من الأموال والضياع بمئة ألف دينار. وبنى الزبير داره بالبصرة وكذلك بنى بمصر والكوفة والاسكندريّة. وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيّد داره بالمدينة، وبناها بالجصّ والآجرّ والساج. وبنى سعد بن أبي وقّاص داره بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها، وجعل على أعلاها شرفات. وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلها مجصّصة الظاهر والباطن. وخلّف لعلي بن منبّه خمسين ألف دينار وعقاراً وغير ذلك ممّا قيمته ثلاثمئة ألف درهم. وانظر المنتخب من ذيل المذيّل (الطبري): ١٣، وفيه: اقتُسم ميراث الزبير على أربعين ألف ألف.

(٥) مروج الذهب ١: ٤٣٤، وروي أن عثمان أعطاه يوماً مئة ألف مرّة واحدة. انظر أنساب الأشراف ٥: ٣٨، ٥٢، وروي كذلك أنه قال: كان عمر يستخلفني على المدينة، فوالله ما رجع

الخليفة الثالث فيقف رجلان كلّ واحد في جهة من التركة فلا يرى أحدهما الآخر[١]. وقد انعدمت الحاجة تماماً في عهد النبي ﷺ، ولا أقول انعدم التفاوت؛ لأن انعدام التفاوت نظرية طوبائية لا يمكن أن تكون على أرض الواقع. فليس من الممكن أن يكون هناك مجتمع ينعدم فيه التفاوت، فالله تعالى خلق البشر متفاوتين بالعقول والإدراك والأجسام. فلابد من وجود تفاوت في المعاش أيضاً، لكن ينبغي أن يكون تفاوتاً معقولاً لا أن يصل إلى درجات مرعبة. فالنبي ﷺ ركّز الحالة الاقتصادية ووضع أُسسها وقواعدها العامّة، ثم ذهب إلى ربه.

أما على الصعيد الاجتماعي فقد جاء النبي ﷺ والأرحام تُقطع، والدماء تسفك، فيجنّ الليل على الإنسان وليس عنده إلّا النهب والسلب والاعتداء، وإذا بالنبي ﷺ يجنّد هؤلاء للعبادة، فالذي كان إذ جنّه الليل ينهب ويسلب إذا به يفترش محراباً من الحصباء عند هجوع الأنفاس ويستقبل القبلة ويتّجه إلى الله يستوحي منه الخير. فهو ﷺ وجّهه إلى الصلاة: **﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾**[٢].

وإذا بهذه المدينة التي كنت إذا مررت بها في الليل تسمع صكصكة اللجم وضرب السيوف وسنّ الرماح وتعديل الأسلحة صرت تمرّ بها ليلاً فتسمع القرآن في البيوت: **﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ**

من مغيب قط إلّا قطع لي حديقة من نخل. انظر: الإصابة ١: ٥٦٢، سير أعلام النبلاء ٢: ٤٣٤، أخبار القضاة ١: ١٠٨.

(١) مروج الذهب ٢: ٣٤٠، حلية الأولياء ١: ١٦٠.

(٢) الإسراء: ٧٨.

رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً * وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾[١]، وتسمع فيها ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً ﴾[٢]، وإذا المجتمع مجتمع قرآن، وإذا الليل يمرّ عليهم بين باكٍ وشاكٍ ومتضرّع ومتأوّه ومتقرّب إلى الله، ويصبح عليهم الصباح وقد استعدّوا للجهاد دفاعاً عن كلمة التوحيد:

سمةُ العبيدِ من الخشوعِ عليهم ... لله إن ضمّتهم الأسحارُ
وإذا ترجّلت الضحى شهدت لهم ... بيضُ القواضبِ أنهم أحرارُ[٣]

نعم، جاء النبي إلى تلك الأمّة التي كانت مسحوقة من عروش كسرى وقيصر فجعلها تسحق عروش كسرى وقيصر، وترفع لواء «لا إله إلّا الله». فالنبي ﷺ إذن ابتدأ من الصفر، وأول معجزة له أنه استطاع أن يخلق ذلك المجتمع التكافلي وهو أُمّي لا يقرأ ولا يكتب.

المعجزة الثانية: القرآن الكريم

فالنبي ﷺ جاء في معدن الفصاحة والبلاغة، وهذا القرآن بين أيدينا منذ (١٤٠٠) سنة، وله من الأعداء ما لا يعدّ ولا يحصى، بل إن الدنيا لا زالت تعيش إلى اليوم الحملات الصليبية؛ فإن ذهبت إلى أوربا لمست ذلك الحسّ الصليبي بأوضح صوره، فهم لازالوا يبحثون عسى أن يجدوا سقطة في القرآن، ويحركون أتباعهم ويحثّونهم على ذلك. فقد رأيت مثلاً أحد المسيحيين اللبنانيين يحمل الدكتوراه ـ وإني لأستغرب كيف نال هذه الشهادة ـ يقول: إن هذا القرآن في غاية الضحالة، فهو يتحدّث عن

---

(١) الفرقان: ٦٤ ـ ٦٧. (٢) لقمان: ١٨.
(٣) ديوان السيّد حيدر الحلّي ١: ٨٢.

ناقة صالح مرّة، وعن الذبابة مرّة أُخرى، وعن العنكبوت مرة ثالثة؛ فهذا الكتاب كلّه أساطير.

وهذا اللون من التفكير ضحل جداً؛ لأن القرآن اشتقّ أمثلة من المحيط أراد بها أن يقدّم المعنى، فيجعل منه صورة متحرّكة محسوسة شاخصة أمام أعين الإنسان، فعندما يريد القرآن أن يصف من يحمل علماً ولا ينتفع بعلمه ـ فإن بعض الناس يحمل العلم لكنه ليس أكثر من أنه يخزّن العلم في رأسه، فيستعمل الدجل ليسرق وينهب ويكذب، ويدعي ادعاءات أكبر من حجمه، فهو يحمل العلم لكنه لا يستفيد منه ـ فإنه يقرب هذا المعنى إلى البسطاء فيقول: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾[1]. وهذا أروع تمثيل، فهذا أولاً كلّه خسّة؛ لأنه يلوّث جبين العلم والصلاح فهو مثل الكلب. وثانياً أن الكلب يلهث سواء حملت عليه أو لم تحمل، وهذا مِثله لأنه لا يستفيد من علمه؛ فهو سيّئ؛ سواء كان عنده علم أم لا.

فالقرآن أراد أن يقرّب الصورة المعنوّية بهذه الصورة الحسّيّة، فصوّر هؤلاء الذين يسخّرون علمهم للجبابرة وتحت أحذية الظالمين ويخدمون به حكماً متهرّئاً، أو يعملون ما يلوّث جبين العلم، صوّرهم بأنهم مثل الكلب الذي يلهث في كلّ وقت. فأية صورة أروع من هذه الصورة؟ وهل هذا كتاب أُسطورة، أم أنه يحاول أن يلبس المعنى صورة شاخصة ليقرّبه إلى الذهن؟

فالقرآن جاء بما يحمل من روعة ليبني المجتمع الإسلامي، ولا يزال

---

(١) الأعراف: ١٧٦.

مصدر عزّتنا وأحكامنا وحضارتنا، ولا يزال شعارنا ومجدنا، (نسأل الله تعالى أن يجعلنا دائماً ممّن يحمل كتابه الكريم فكراً ومضموناً، وممّن يعيشه في حياته وسلوكه ولسانه).

المعجزة الثالثة: خلقه الكريم ونفسه الرحيمة

فهاتان المعجزتان واضحتان للنبي ﷺ، ومن بعد ذلك فكلّ جانب من جوانب حياة النبي ﷺ معجزة، فقد حمل هذا الرجل نفساً وسعت الدنيا بأجمعها، فهو كما يقول عنه أنس بن زنيم:

وما حملتْ من ناقةٍ فوقَ كُورِها ... أبـرَّ وأوفـى ذِمّةً من محمدِ

فهذا الرجل وسع الدنيا بتلك النفس، والآن ـ ونحن إذ نعيش في القرن العشرين ـ لو ذهب أحدنا إلى الصحراء وجلس إلى جنب البدوي المتأصّل في البداوة، فهل يستطيع أن يحتمله خمس دقائق من الزمن؟ وانظر إلى رسول الله ﷺ كيف يصبح عليه الصباح فيجدونه في معاطن الإبل، وحوله الأعراب الجفاة مستلقين على بطونهم ويلعبون بأرجلهم، وهو إلى جانبهم يهديهم ويرشدهم ويبنيهم، إلى أن استطاع أن يخلق من هؤلاء عباقرة يتملاهم التاريخ بإعجاب. فقد نظر إليهم النبي ﷺ على أنهم مرضىٰ يجب أن يداوَوا، فوسعهم بخلُقه، وهم أُولئك الذين كانوا يدخلون إلى بيته فيستخدمون معه أغلظ وأخشن الأساليب[1].

جاء سهيل بن عمرو في واقعة الحديبية مفاوضاً النبي ﷺ من قبل قريش، فلمّا جلس وضع ركبته على صدر النبي ﷺ، وأمسك لحيته بيده وراح

(١) كمثال علىٰ ذلك انظر: المحاسن ٢: ٣٣١ / ٩٦، الفقيه ٣: ١٠٧ / ٣٤٢٦، شرح الأخبار ١: ٢٣١، المسند (الشافعي): ٢٠، سنن ابن ماجة ٢: ٧٦٧ / ٢٢٨٦.

يهزّه هزّاً، ويقول له: يا محمد. والنبي ﷺ ساكت، والصحابة واضعون أيديَهم على مقابض سيوفهم يريدون أن يضربوه، وهو ﷺ يشير إليهم ألّا يفعلوا. فلما أرادوا أن يكتبوا المعاهدة قال النبي ﷺ لعلي عليه السلام: «اكتب: هذا ما تعاهد عليه رسول الله محمد بن عبد الله...». فقاطعه سهيل قائلاً: مهلاً، لو كنت أعرف أنك رسول الله لأطعتك، ولكن من قال: إنك رسول الله؟ اكتب: (محمد). يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «فقلت: هو والله رسول الله وإن رغم أنفك، لا والله لا أمحوها. فقال ﷺ لي: أما إن لك مثلها، ستأتيها وأنت مضطرّ»[(١)].

وفعلاً مرّ أمير المؤمنين عليه السلام بمثلها، وذلك في واقعة صفين، فقد أجبره عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري وأشباههم على ذلك[(٢)].

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٦٥ ـ ٣٦٦، سنن النسائي ٥: ١٦٧ / ٨٥٧٦.

(٢) قال ابن حجر مفسّراً رفض الأمير عليه السلام محو كلمة رسول الله مع أمر الرسول ﷺ إيّاه بذلك بقوله: وكأن علياً فهم أن أمره له بذلك ليس متحتّماً، فلذلك امتنع من امتثاله.
وفسّر قول رسول الله ﷺ: «أما إن لك مثلها، ستأتيها وأنت مضطرّ»، بقوله: يشير ﷺ إلى ما وقع لعلي يوم الحكمين، فكان كذلك. فتح الباري ٧: ٣٨٦.
وقول ابن حجر: «فكان كذلك»، يفسّره ما رواه ابن قتيبة الدينوري في (الإمامة والسياسة) عند ذكر صلح أمير المؤمنين عليه السلام ومعاوية بن أبي سفيان، حيث قال: «فلما جيء بالكتاب ـ يعني كتاب الصلح ـ قال علي: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحمن. هذا ما تقاضى عليه علي ابن أبي طالب أمير المؤمنين، ومعاوية بن أبي سفيان». فقال معاوية: علام قاتلناك إذا كنت أمير المؤمنين؟ اكتب: علي ابن أبي طالب. فقال الأشعث: اطرح هذا الاسم فإنه لا يضرّك. فضحك علي، ثم قال: «دعاني رسول الله ﷺ يوم الحديبية حين صدّه المشركون عن مكّة، فقال: يا علي اكتب: هذا ما تقاضى عليه محمد رسول الله ومشركو قريش، فقال سهيل بن عمرو: لقد ظلمناك إذا يا محمد إن قاتلناك وأنت رسول الله، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال ﷺ: اكتب محمد بن عبد الله، وإني رسول الله. وكنت إذا أمرني رسول الله ﷺ بشيء أسرعت، وإذا قال مشركو قريش أبطأت به، وإذا كتبت نبي الله، قال: امحُها، فتعاظمني ذلك». فدعا بمقراض فقرضه، وكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان». فقال أبو الأعور: أو معاوية وعلي. فقال الأشعث: لا لعمر

فهكذا كان سهيل بن عمرو مع النبي صلى الله عليه وآله، ومن بعد ذلك وفي يوم الفتح يقول سهيل: انقمعت في بيتي وأرسلت ابني عبد الله وقلت له: اذهب إلى محمد وخذ لي منه الأمان، فأقبل ابنه فقال: سهيل بن عمرو تؤمنه يا محمد؟ قال: «نعم، له الأمان». وسهيل له عقل وله رأي وله حكمة، وما أظنه يكون بعيداً عن الإسلام. والتفت إلى أصحابه قائلاً: «لا يحدنَّ أحد منكم النظر إلى سهيل».

وبقي سهيل ينعم بذلك الأمان، مع أنه كان يقول: ما تركت سوءاً إلّا أسأت به إلى محمد. ثم أسلم يوم الجعرانة وحسن إسلامه وكان من خيار المسلمين.

وكذلك التقاه صلى الله عليه وآله أعرابي فأمسكه من تلابيبه، ثم قال له: بعتك فرساً ولم تدفع لي الثمن. فقال النبي صلى الله عليه وآله: «بل اشتريت وأعطيتك الثمن». فقال الأعرابي: كلّا، لم تسدّد، هات الشهود. فانفعل الصحابة من الأعرابي، وانتظروا أن يسمح لهم النبي بدفعه أو قتله، فقال النبي صلى الله عليه وآله: «دعوه، إن لصاحب الحقّ مقالاً». ثم قال: «من منكم يشهد لي؟» فلم يشهد له أحد. فجاء خزيمة بن

الله، ولكن نبدأ بأوّلهما إيماناً وهجرة.

الإمامة والسياسة ١: ١١٤ ـ ١١٥.

والأنكى أن رسول الله صلى الله عليه وآله قد أرهص بهذا الأمر لأبي موسى الأشعري حيث قال عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى: مررت مع أبي موسى الأشعري بدومة الجندل فقال: حدثني حبيبي ـ يعني: رسول الله صلى الله عليه وآله ـ: «أنه حكم في بني إسرائيل في هذا الموضع حكمان بالجور، وأنه يحكم في أُمّتي في هذا المكان حكمان بالجور».

قال: فما ذهبت إلّا أيام حتّى حكم هو وعمرو بن العاص بما حكما. قال: فلقيته فقلت: يا أبا موسى، قد حدثتني عن رسول الله صلى الله عليه وآله بما حدثتني. فقال: والله المستعان. معجم البلدان ٢: ٤٨٩ ـ دومة الجندل.

وهذا يعني أن أمير المؤمنين عليه السلام قد جرى عليه كلّ ما جرى على الرسول صلى الله عليه وآله.

ثابت الأنصاري فلمّا رأى الجمع سأل عنه فقيل له: أعرابي يطلب من النبي ﷺ ثمن فرس وقد حبسه في الشمس يطالب بحقّه، والنبي ﷺ يطلب الشهود فلم يشهد له أحد. فقال خزيمة: أنا أشهد.

فناداه النبي ﷺ فقال له: «كيف تشهد وأنت لم تكن معنا ولم تسمع ولم ترَ؟». قال خزيمة: صدقناك على الوحي وأخبار السماء وما تنقل عن الله ولم نصدّقك في هذا؟ فإما أن تكون صادقاً فيكون قولك كلّه صدقاً، وإما أن تكون غير صادق فإن نبوتك كلّها غير صادقة. أي أنه يريد أن يقول له: نحن عندما صدّقناك صدّقناك بكلّ شيء باعتبار أنك صادق، فأنا أعلم أنك صادق من حيث أعلم أنك نبي. فقال النبي ﷺ: «قد أجزت شهادتك وجعلتها بشهادتين». فلقب خزيمة من ذلك اليوم بذي الشهادتين[1].

فهذا الصدر وسع العالم، وهذه الروح الكريمة تعاملت مع ألدّ أعدائها.

ومـمّا يـؤسفني أن الكثير من أبنائنا لم يستوعب تاريخ النبي ﷺ، والمفروض أنه بدل أن تذهب مطالعاته إلى أشياء تافهة عليه أن يدرس سيرة النبي ﷺ ليرى كيف أن هذا الرجل العظيم يتفجّر عبقرية. فكل مسلم ملزم أن يأخذ فكرة كاملة عن حياة النبي ﷺ؛ لأنه إن استوعب حياة النبي ومواقفه ﷺ، واطّلع عليها فإنه سيطّلع على عالم كلّه بهجة وإشراق ونور وعطاء. فكلّ شابّ مسلم ملزم أن يمدّ يده إلى هذا النبع الهادر الذي لا يقف عند حد، والذي يقول فيه أحَد الشعراء:

قطعتُ إليك البيدَ شاسعةَ المَدَى ... إذا ما تقضّى سَبسَبٌ جدّ سبسبُ[2]

---

(١) الانتصار: ٤٩١، سنن أبي داود ٢: ١٦٦ ـ ١٦٧ / ٣٦٠٧.

(٢) السبسب: المفازة. لسان العرب ٦: ١٥٢ ـ سبسب.

تـخايلَ فـيها الرَّمـلُ أن صـارَ مَـعبَراً — إليك ودربٌ للـحبيبِ مُـحَبَّبُ
ولاحَ عـليها رسـمُ أخـفافِ نـاقةٍ — غـزوتَ عـليها يـومَ لله تـغضَبُ
وقـافِلةٌ مـا زالَ رَجـعُ حـدائِـها — يُـغرِّدُ فـي بَـدرٍ وأُحـدٍ ويُـطرِبُ
عـليها مـن الأصـحابِ مَحضُ عَزائِمٍ — إلى الآن بـالصحراء مـنها تَـلَهُّبُ

إلى أن يقول:

وعـفَّرتُ خـدِّي فـي ثَـرىً مسَّ عـفرَهُ — لجـبريلَ مـن جِـنحَيه رِيشٌ مُـزَغَّبُ
وفـيه مَـحاريبُ لآلِ مُـحَمَّدٍ — بِـهِنَّ ضَـراعـاتٌ إلى الله تُـنصبُ
وآثـارُ أقـدامٍ صِـغارٍ ومَـهجَعٌ — إلى الحَسـنينِ الزَّاكـييـنِ ومَـلعَبُ
وصـوتُ رَحـى الزَّهـراءِ تَطحنُ قُوتَها — إلى جِـلدِ كـبشٍ حـيثُ تـجلسُ زَيـنبُ
رُؤىً سوفَ يَبقى الدَّهرُ يَروي جَـلالَها — وتَـبقى عـلى رَغـمِ البَساطةِ تأشَبُ[1]

المبحث الخامس: فترات حياة النبي صلى الله عليه وآله التبليغيّة

فالنبي صلى الله عليه وآله عاش هذه الفترة على ثلاث مراحل: مرحلة في مكّة، وأُخرى في المدينة بعد هجرته قبل مرضه، والمرحلة الثالثة لما ألمّ به المرض في يوم السبت، الحادي والعشرين من شهر صفر. وقد خرج في ذلك اليوم كما تقول أُمّ المؤمنين عائشة يشكو وهو يتكئ بيد على كتف الفضل بن العباس وبأُخرى على كتف رجل آخر. فحتى اسم علي عليه السلام لا يطاق ذكره، وهو ذلك العبقري الذي هيّأ لها يوم الجمل أربعين خادمة يخدمنها[2]، لكنها لا تطيق أن تقول: إن يده الأُخرى صلى الله عليه وآله على عاتق علي بن أبي طالب عليه السلام.

(١) تأشب: تختلط. لسان العرب ١: ١٤٩ ـ أشب.

(٢) تاريخ الطبري ٥: ٢٠٤ ـ ٢٠٥، الفتوح (ابن أعثم) ٢: ٣٤١، الفتنة ووقعة الجمل: ١٨٢.

نعم، خرج حتى وصل إلى قبور أهل البقيع فصاح: «السلام عليكم يا أهل القبور، السلام عليكم يا أهل البقيع، ليهنِكم ما أصبحتم فيه ممّا أصبح فيه الناس، لقد أقبلت الفتن كأنها قطع الليل المظلم يتبع آخرُها أوّلَها». ثم استغفر لهم وقرأ لهم شيئاً من القرآن ثم رجع فأوى إلى بيته[1].

يقول المؤرخون: إنه ﷺ قال: «ادعوا لي حبيبي». فقالت عائشة: ادعوا له أبا بكر. فرفع ﷺ رأسه ثم وضعه وقال: «ادعوا لي حبيبي». فقالت حفصة: ادعوا له عمر. فرفع ﷺ رأسه ثالثة ووضعه، وقال: «ادعوا لي حبيبي». فقالت أُمّ سلمة: لا تؤذوه، إنكم تعلمون من يريد، ادعوا له عليّاً. فدُعي له علي ﷺ، فاستدناه إليه فسارّه، تقول أُمّ سلمة: وضع صدره على صدره وراح يسارّه طويلاً إلى أن خرج[2].

واستمرّت به الحالة فترة من الزمن، فقال يوماً: «مروا أحدكم فليصلِّ بالناس». إذ لم يستطع أن يصلي بالناس، إلى أن وجد يوماً في نفسه نشاطاً، فخرج وصعد المنبر وقد أسندوه، فقال: «أيها الناس، أي نبيّ كنت لكم؟ ألم أربط على بطني حجر المجاعة؟ ألم أُجاهد الكفار والمنافقين؟ ألم أُقاتل في سبيل الله؟ ألم؟... ألم؟». ثم قال: «إن ربي أقسم ألّا يفوته ظلم ظالم، فأيّما امرئ منكم له ظلامة عند محمد فليقم إليّ يأخذها، فإن القصاص في دار الدنيا أحبّ إليّ من القصاص يوم القيامة على رؤوس الأشهاد». فقام إليه أحدهم فقال: كنت طالباً منك أن تساعدني في زواج وقد وعدتني بأُوقيّتين. فأشار النبي ﷺ إلى

(١) الإرشاد ١: ١٨١، شرح نهج البلاغة ١٠: ١٨٣.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ٢٠٣، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٣٩٣، مناقب أمير المؤمنين (الخوارزمي): ٦٨ / ٤١، جواهر المطالب (ابن الدمشقي) ١: ١٧٥، ينابيع المودّة ٢: ١٦٣ / ٤٦٢.

الفضل بن العباس فقال: «نَحّله ما وعدته به». وقام له سوادة بن قارم فقال: يا رسول الله، لي عندك شيء. قال ﷺ: «ما هو؟». قال: كنتَ راجعاً من الطائف، فرفعت السوط لتضرب الناقة فوقعت الضربة على بطني. وأنا أُريد القصاص. فالتفت إلى بلال فقال: «يا بلال، اذهب إلى بيت ابنتي فاطمة وعليّ وائتني بقطعة الخيزران».

فذهب إلى بيت فاطمة. فقال: يا بنت رسول الله، أعطيني هذه القطعة. فقالت: «لماذا؟». قال: إن أباك يريدها. قالت: «وماذا يريد بها؟». قال: أوما علمت أنه يودّع أهل الدين والدنيا. فصاحت: «واغمّاه لغمّك يا أبتاه!». ثم أخرجت له قطعة الخيزران، فتناولها النبي ﷺ بيده فأعطاها له وقال: «خذ يا سوادة». فقال: يا رسول لله اكشف لي عن صدرك. فكشف له النبي ﷺ. فقال: يا رسول الله، أتأذن لي أن أقبّله؟ فقال: «افعل». فوضع فمه عليه وقال: أعوذ بموضع القصاص من بطن رسول الله.

ثم أُرجع النبيّ ﷺ إلى البيت وهو مثقل، فلمّا أضجعوه على فراشه أقبلت إليه ابنته فاطمة وهي تنادي: «واغمّاه لغمّك يا أبتاه». فأدناها النبي إليه وسارّها طويلاً فبكت، ثم سارّها فضحكت، فلما خرجت سألتها بعض نساء النبي: ما سبب ضحكك وبكائك؟ قالت: «إني إذاً لبَذِرة». ولما سئلت بعد ذلك قالت: «نعى إليّ نفسه فبكيت، ثم أخبرني أنني أول أهل بيته لحوقاً به فضحكت؛ لأنني فرحت أن ألحق بأبي».

ثم جلست إلى جانبه ورأسه في حجر أمير المؤمنين عليه السلام، يقول أمير المؤمنين عليه السلام مخاطباً إياه: «ولقد وسدتك في ملحودة قبرك، وفاضت روحك بين صدري ونحري». فقد كان رأسه ﷺ بين صدر أمير المؤمنين عليه السلام ونحره، وبين الآونة والأُخرى كان الإمام عليه السلام يأخذ شيئاً من الماء ويمسح به جبين

رسول الله ﷺ وهو يرفع رأسه فيقول: «رفقاً بي ملائكة السماوات، رفقاً بي ملائكة ربي، لمثلها فليعمل العاملون». وكان يقول: «حبيبي جبرئيل، عند الشدائد لا تخذلني»[١]. حتى إذا اشتدّت الحالة عليه كما يقول أمير المؤمنين ؑ: أقبل الحسن والحسين ؑ فوقعا على صدره، فأراد الإمام ؑ أن يبعدهما عنه لئلا يضايقاه، فقال ﷺ: «لا، لا يا علي، دعهما أتزوّد منهما ويتزوّدا مني»[٢].

ثم أخذ يضمّهما إليه وهو في آخر لحظات حياته، ولكن لمّا اشتدّ عليه الأمر سجّاه أمير المؤمنين إلى القبلة... وا رسول الله، وا نبي الله، أغمض عينيه ومدّد يديه ورجليه، وفاضت روحه الشريفة الطاهرة، فأقبلت إليه ابنته فاطمة ؑ فألقت بنفسها عليه وهي تصيح: «وا لوعتاه، وا ثكلاه بعدك يا رسول الله». فأقبل إليها أمير المؤمنين ؑ، وأقامها من على جسد أبيها برفق[٣].

نعم هذه فاطمة لمّا وقعت على جسد أبيها أقامها علي برفق، وجلس تلك الليلة عندها يهدهدها؛ لأن رسول الله ﷺ لا زال مسجّىً والبيت مظلم، فكان أمير المؤمنين ؑ يبعث السلوى والعزاء في نفس الزهراء ؑ وهي تنتحب انتحاباً عالياً وتقول:

«نفسي على حسراتِها محبوسةٌ ... يا ليتها خرجت مع الحسراتِ
لا خيرَ بعدك بالحياةِ وإنما ... أبكي مخافةَ أن تطولَ حياتي»[٤]

---

(١) الأمالي (الصدوق): ٧٣٦ / ١٠٠٤. (٢) الأمالي (الطوسي): ٦٠٢ / ١٢٤٤.

(٣) انظر: الأمالي (الصدوق) ٧٣٢ـ ٧٣٦ / ١٠٠٤، مناقب آل أبي طالب ١: ٢٠١ ـ ٢٠٣.

(٤) مناقب آل أبي طالب ١: ٢٠٧، بيت الأحزان: ١١٨، تنبيه الغافلين: ٤١، وفي الجميع نسب لأمير المؤمنين ؑ.

هذا وفاطمة الزهراء عليها السلام لا تريد أن تفارق النعش. وجرياً على عادة أهل البيت عليهم السلام منذ زمن النبي صلى الله عليه وآله أنه إذا قضى عندهم أحد كانوا يسرجون ضياء تلك الليلة في المكان الذي يقضي فيه نحبه، فأسرج أمير المؤمنين عليه السلام الضياء في المكان الذي توفي فيه رسول الله صلى الله عليه وآله.

وليتك ترى يا أبا الحسن مخيّم ولدك الحسين ليلة الحادي عشر من المحرم، هل كان فيه ضياء؟ لقد باتوا في الظلماء، والأطفال يتصارخون وقد جن عليهم الليل:

يبويه عليّه الليل هـوّذ وآنه غريبه وما لي اخذ

وممّا ينصّ عليه الفقه الإسلامي[1] أن اليتيم ليلة يتمه يستحبّ مواساته، وألّا يترك وحده يجترّ الآلام؛ لذا راح أمير المؤمنين يواسي الزهراء عليها السلام، ولكن ليلة الحادي عشر من المحرّم من الذي واسى أيتام الحسين عليه السلام؟ وما كانت مواستهم؟ كانت السياط تتلوّى على أكتافهم:

وإن يبكِ اليتيمُ أباهُ شَجواً قَرَعْنَ سِياطُهم رأسَ اليَتيمِ

(١) انظر: مستدرك وسائل الشيعة ٢: ٤٧٤ ـ ٤٧٤ / ب ٧٨، ١٥: ١٢٢ ـ ١٢٣ / ب ١٠، الجامع الصغير ١: ٢٠ / ٩٧، ٢٥١ / ١٦٤٥.

﴿٤﴾

مزايا الرسول الأكرم ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾[1].

مباحث النص الشريف

في هذه الآية الكريمة مجموعة أبحاث أعرض لها إن شاء اللّه تعالى على التوالي:

المبحث الأول: معنى التوكّل وموضوعه

إن موضوع التوكّل من المواضيع التي يكثر حولها التساؤل، وإثارة علامات الاستفهام؛ لما ينطوي عليه من مورد خلاف بين المسلمين. ونحن قد اعتدنا في حياتنا اليوميّة وفي معاملاتنا على أن نقول عند كلّ مناسبة منها: توكلت على اللّه، فالمجتمع عندما يكثر من ترديد هذه الكلمة والتأكيد عليها عند كلّ حركة أو فعل فهو يعني أنه يعتمد في أموره كلّها على اللّه تعالى. ولنا هنا أن نتساءل عن ماهية التوكّل هذا، وعن

---

(١) الشعراء: ٢١٧ ـ ٢١٩.

معناه الشرعي، إنّ التوكّل بمفهومه العامّ يعني تفويض الأمر، فحينما نقول: توكّلنا على اللّه فإن هذا يعني أننا نفوّض اُمورنا كلّها إليه تعالى يتصرّف فيها كما يشاء ويريد.

التوكل بين الوعي واللاوعي

لكن بناء على هذا التعريف يرد إشكال هو أن التوكّل بهذا المعنى هل يعدّ توكّلاً واعياً، أم أنه توكل غير واعٍ؟ بمعنى هل إنه عملية عقلية إرادية واعية، أو إنه عملية من متبنّيات اللاوعي عند الإنسان؟ سوف أنقل هذه الحادثة التي تلقي الضوء على هذه المسألة وتزيدها إيضاحاً كي نتمكن من أن نخلص إلى النتيجة الصحيحة حول هذا الإشكال. دخل أعرابي على النبيّ صلى الله عليه وآله في المسجد فقال له النبي صلى الله عليه وآله: «أين تركت راحلتك؟». قال: يا رسول اللّه، أرسلتها وتوكّلت على اللّه. فقال له النبي صلى الله عليه وآله: «اعقل وتوكّل»[1].

أي أن على الإنسان أن يحصّل الأسباب الطبيعية أولاً ثم بعد ذلك يتّجه إلى التوكّل؛ كي يكون حينئذ عملية واعية يتحكّم بها العقل والشعور. فبعد أن يكمل الإنسان الأسباب الطبيعية التي يجب عليه مراعاتها فإنه حينئذ يترك الباقي على اللّه تعالى ليدبّر له أمره ويدير له حياته. فالأسباب الطبيعية لابدّ من تحصيلها أوّلاً في كلّ حال؛ باعتبارها القدر العقلائي الذي يعتمد عليه الإنسان في تحصيل مقدّمات العمل الذي يقدم عليه وفي تصريف اُموره.

وينبغي التنويه إلى أنه يجب ألّا يفهم من هذا أن الأسباب الطبيعيّة لها

---

(١) شرح نهج البلاغة ١١: ٢٠١.

الأثر الكامل في حياة الإنسان، أو أنها علّة تامّة لحدوث مجرياتها، فهذا الاعتقاد غير صحيح مطلقاً، فهي مطلقاً لا تكون العلّة في ذلك أو في حفظ الإنسان متعلّقاته. فالأعرابي حينما يعقل ناقته فهذا لا يعني أنه قد أمن عليها من السرقة أو التعدّي أو الموت، لكن هذه المقدّمات هي من مسؤوليّة الإنسان وواجباته؛ لأنه لو لم يعقلها في مكان أمين ثمّ تعرّضت للتعدي فإنه سيجعل من نفسه عرضة للوم أهله وأصحابه، أما لو عقلها كذلك ثم توكل على اللّه لكنها تعرضت للسرقة أو التعدّي فإنه حينئذٍ لا لوم عليه. فهذا التصرّف (عدم عقل الناقة) يعدّه المشرع تصرّفاً خالياً من الشعور بالمسؤولية.

وعليه فإن الإنسان يجب أن يتصرّف دائماً بداع من الشعور بالمسؤولية في كلّ مجالات تصرّفه، وليس في بعضها دون البعض الآخر؛ فكلّ ما يصدر عن الإنسان من فعل يجب أن يكون خاضعاً لهذا الشعور. وهذا هو معنى التوكّل الصحيح، أي الذي تتوفّر فيه المقدّمات وتحصيلها دون التوكّل الخالي عنها إلّا الأشياء التي تكون خارجة عن قدرة الإنسان لظرف يقسره أو لحالة ألجأته إليها طبيعته.

إذن فالأغلب من أُمور الإنسان لا يكفي فيها التوكّل وحده، فأن يقول الإنسان: توكّلت على اللّه، ويكتفي ثم ينتهي الأمر لهو اعتقاد باطل غير صحيح، بل لابدّ من عمل معه، ثم بعد ذلك يأتي دور التوكّل. سأل أبو الأسود الدؤلي أحد أبنائه ـ وهو أبو حرب ـ عن سبب عدم خروجه لطلب الرزق، وكان قد لزم منزل أبيه بالبصرة؛ فلم يكن ينتجع أرضاً، ولا يطلب الرزق في تجارة ولا غيرها، وعاتبه على ذلك ليحثّه على العمل، فقال له أبو حرب: إن كان لي رزق مقدّر فسيأتيني. فقال له أبوه:

وما طلب المعيشة بالتمني ولكن ألقِ دلوك في الدلاءِ
تجئك بملئها يوماً ويوماً تجئك بحمأة وقليل ماءِ[(١)]

فالمهم أن على المرء أن يعرض نفسه على مواطن الكسب ولا يظلّ حِلس بيته ينتظر قدوم رزقه كما ينتظر قدوم موته. إن مثل هذا التصرّف من الإنسان يعدّ تصرّفاً غير واعٍ وغير مقبول، لأنه ينطوي على لون من تأخير الأسباب الطبيعية عن مجال تحرّكها، وعزلها عن ميدان عملها.

ثم إن المفترض بالإنسان أنه كائن منتج، وطبيعة الكائن المنتج تحتّم عليه أن يحرز مقدّمات الإنتاج التي يتطلّبها هذا المشروع؛ فعليه أن يهيّئ نفسه وفق قواعد السنن الكونية لتحقيق هذا الأمر، ثم يترك المتبقّي على اللّه جلّ وعلا.

إذن لا شك في أن التوكل على اللّه تعالى نوع من الأعمال النفسية العامة، والجانب النفسي أمر ضروري للإنسان، والإنسان لا تكفيه صحته الجسدية في أداء دوره في الحياة ما لم تصاحبها الصحة النفسية التي تعد أساساً مهماً جداً في استقامة السلوك وتوازن الفرد، وبانعدامها لا يمكن للإنسان أن يعيش حياةً مطمئنة. وينبغي التنويه إلى أن الصحّة النفسية لا يمكن لأي شيء في الوجود أن يهيئها للإنسان سوى العقيدة، ولا يمكن أن توجد إلّا في ثناياها وثنايا الدين؛ لأنهما الطرفان الوحيدان اللذان يوفران الطمأنينة للفرد والمجتمع، وهما اللذان يمتصّان من النفس شعورها بالألم.

ويمكن تقريب هذا بما لو أن إنساناً أصابته مصيبة فإنه سينهار تحت

---

(١) مستدركات أعيان الشيعة ١: ٦٣، خزانة الأدب ١: ٢٨٠.

وطأتها وضغوطها ما لم يكن متسلحاً بعقيدة وإيمان باللّه تعالى، ويعتقد اعتقاداً تطمئنّ معه نفسه إلى أن اللّه سيعوّضه عن مصيبته هذه وسيلهمه الصبر عليها. إن اعتقاد الإنسان هذا هو لون من ألوان الإيمان بأن هناك من يمدّه بالقوة عند مصيبته، وسيمنحه الطاقة على امتصاص الشعور بالألم والتمزّق الذي سوف ينتابه فيما لو لم يكن متسلحاً بهذا الإيمان. ولذلك فإن القرآن الكريم يسعى إلى أن يشبع هذه الظاهرة عند الإنسان وإلى أن يحيي هذا الجانب النفسي عنده: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[1]، أي أننا جميعاً عائدون إلى اللّه تعالى.

المبحث الثاني: في متعلّق التوكل وصفاته

تقول الآية الكريمة: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾، فهي تأمرنا بالتوكل على اللّه جلّ وعلا، وعلينا أن نتوقف عند هاتين الصفتين ﴿الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ وإلى وجه الجمع بينهما، وهو أمر هام جدّاً وضروري. ومنشأ هذه الأهمية أن هذه الآية الكريمة بعد أن أمرتنا بالتوكّل، بيّنت لنا صفات الذي ينبغي أن نتوكّل عليه، فقالت: ﴿الْعَزِيزِ﴾، أي القوي الذي يصحّ الاعتماد عليه، ثم قالت: ﴿الرَّحِيمِ﴾، أي أن من نتوجّه إليه لنتوكّل عليه عزيز، وفي الوقت نفسه رحيم بعباده عامّة ومن يتوكّل عليه خاصّة. فهذه الرحمة تقابل العزّة وتعادلها دون أن تمسخها.

إن بعض ذوي الرحمة يصل بهم الأمر في مواطن معيّنة إلى درجة أنهم يفقدون معها الحزم في معالجة الأمور وإلى درجة من الرقّة لا يخاف منه،

---

(1) البقرة: 156 ـ 157.

وكذلك إن البعض من ذوي القوة أو العزّة يصل بأحدهم الأمر أنه يفقد الإحساس بالرحمة تجاه الآخرين فينتصف لنفسه ولا يُنتصف منه، أما عند اللّه تعالى فإن الأمر مختلف، فهو رحيم عزيز.. رحيم في موقف يقتضي أن تكون فيه رحمة ولين، وعزيز في موقف يقتضي أن يكون فيه حزم وشدّة واتخاذ قرار مناسب. وهذا لأجل تحديد صورة تحقّق للإنسان معنى التوازن وطبيعته؛ فيبيّن له أن اللّه تعالى من جهة قوي عزيز وحازم، ومن جهة أُخرى هو رحيم رفيق بالآخرين يتعامل معهم على ضوء هذه الرحمة والرفق واللين. فالجمع بين هاتين الصفتين يهدف من ورائه إيجاد معنى التوازن هذا.

ولو تتبّعنا التاريخ لوجدنا أن فيه الكثير من الأعزّاء الذين تصل بهم عزّتهم إلى مرحلة القسوة التي أراقوا معها الدماء وانتهكوا الأعراض والحرمات[1] دون أن تغشاهم ذرّة من رحمة بأولئك المظلومين. أمّا رحمة البارئ جلّ وعلا فيمكن أن تشمل حتى فرعون نفسه، حينما فرض اللّه تعالى الزكاة على النبي موسى عليه السلام وأوجبها على بني إسرائيل، أبى قارون أن يدفعها، فصالحه نبي اللّه موسى عليه السلام عن كلّ ألف شيء على شيء واحد، فلمّا رجع قارون إلى بيته وحسب مقدار المبلغ وجده كبيراً هائلاً مع أنه يعادل (٠٠١ر٠)، من ثروته، فلم تطب له نفسه بدفعه.

وربما كان هنا عنصر مبالغة في تصوير هذه الثروة الضخمة، بل ربما كان وصفاً أُسطورياً، لكن الغرض أنه ورد بهذا التعبير ليبيّن لنا الصورة التي رسمتها الرواية لهذه الثروة.

---

(١) كمسرف بن عقبة وسمرة بن جندب والحجّاج بن يوسف وغيرهم.

على أية حال لم يرُق الأمر قارون، فجمع بني إسرائيل وقال لهم: يا بني إسرائيل، إن موسى قد أمركم بكلّ شيء فأطعتموه، وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم. فقالوا له: مرنا بما شئت. فقال: آمركم أن تجيئوا بفلانة البغي، فنجعل لها جعلاً على أن تقذف موسى بنفسها، وتتّهمه بأنه قد زنى بها، فإذا فعلت ذلك خرج عليه بنو إسرائيل ورفضوه فاسترحنا منه.

فأتوا بها، فجعل لها قارون حكمها على أن ترمي النبي موسى ﷺ بممارسة الخطيئة معها، وأن تقذفه بالزنا. فلمّا كان الغد أتى بنو إسرائيل، ثم أتى النبي موسى ﷺ، فقال له قارون: إن بني إسرائيل قد اجتمعوا ينتظرون خروجك؛ لتأمرهم و تنهاهم، ولتبين لهم أعلام دينهم وأحكام شريعتهم. فخرج ﷺ إليهم، فقام فيهم خطيباً، فوعظهم وقال: «يا بني إسرائيل من سرق قطعنا يده، ومن افترى جلدناه ثمانين، ومن زنى وليست له امرأة جلدناه مئة، ومن زنى وله امرأة رجمناه حتى يموت». فقال له قارون: وإن كنت أنت؟ فقال ﷺ: «وإن كنت أنا». فقال قارون: فإن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة. فقال ﷺ: «أنا؟». قال: نعم. قال ﷺ: «ادعوها، فإن قالت فهو كما قالت».

فلما أن جاءت قال لها نبي اللّه موسى ﷺ: «يا فلانة، أنا فعلت لك ما يقول هؤلاء؟». فتداركها اللّه تعالى بالتوفيق، وقالت في نفسها: لأن أُحدث اليوم توبة أفضل من أن أُوذي رسول اللّه ﷺ، ثم قالت: لا، كذبوا، ولكن قارون جعل لي جعلاً على أن أقذفك بنفسي.

فلما قالت هذا أُسقط في يد قارون، ونكس رأسه، وسكت الملأ، وعرف أنه وقع في مهلكة، وخرّ نبي اللّه موسى ﷺ ساجداً يبكي ويقول: «يا رب، إن عدوّك قد آذاني وأراد فضيحتي، اللهم إن كنت رسولك فاغضب لي وسلّطني

عليه». فأوحى اللّه سبحانه إليه أن «ارفع رأسك، ومر الأرض بما شئت تطع».
فقال النبي موسى عليه السلام: «يا بني إسرائيل، إن اللّه تعالى قد بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون، فمن كان معه فليثبت مكانه، ومن كان معي فليعتزل».
فاعتزلوا قارون، ولم يبقَ معه إلّا رجلان، ثم قال النبي موسى عليه السلام: «يا أرض خذيهم». فأخذتهم إلى كعابهم، ثم قال: «يا أرض خذيهم». فأخذتهم إلى ركبهم، ثم قال: «يا أرض خذيهم». فأخذتهم إلى حِقوهم، ثم قال: «يا أرض خذيهم». فأخذتهم إلى أعناقهم، وقارون وأصحابه في كلّ ذلك يتضرّعون إلى النبي موسى عليه السلام، وقارون يناشده اللّه والرحم. حتّى روي في بعض الأخبار أنه ناشده سبعين مرة، وموسى عليه السلام لا يلتفت إليه لشدّة غضبه، ثم قال: «يا أرض خذيهم». فانطبقت عليهم الأرض، فأوحى اللّه سبحانه إلى موسى: «يا موسى، استغاثوا بك سبعين مرّة فلم ترحمهم ولم تغثهم، أما وعزّتي وجلالي، لو إياي دعوني مرّة واحدة لوجدوني قريباً مجيباً»[1].
وهذا هو الواقع ـ كما أشرنا ـ من أمر القسوة التي يكون عليها بعض ذوي العزّة والقوّة والمنعة، وهذه هي رحمة الله تعالى: «لوجدوني قريباً مجيباً».
وهؤلاء يتنامى رصيدهم من السيئات كلّ لحظة، لكن اللّه تعالى مع ذلك أعطاهم القوّة والعافية والصحّة والأموال وكلّ المؤهلات الدنيوية؛ لأنه «إنما يعجل من يخاف الفوت»[2]، واللّه جلّ وعلا لا يخاف الفوت؛ ولذا فإنه لا يعجل أبداً ولا يعاجل أحداً بالعقوبة، فكل الدنيا بسمائها وأرضها

---

(١) بحار الأنوار ١٣: ٢٥٦ – ٢٥٧، تفسير الثعلبي ٧: ٢٦٤ – ٢٦٥، تفسير البغوي ٣: ٤٥٧ـ ٤٥٨.
(٢) الصحيفة الكاملة السجادية: ٢٨٤، دعاؤه عليه السلام في ردّ كيد أعدائه، مصباح المتهجّد: ٣٧٠ / ٥٠١.

في قبضته[١]: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[٢]. فللّه رحمة تسع البرّ والفاجر.

إذن ينبغي على الإنسان في ضوء حالة التوازن التي تحاول هذه الآية الكريمة أن تثبتها في أذهاننا وتبيّنها لنا أن يعرف أن الرحمة التي يشار إليها في جميع موارد الإشارة في القرآن أو السنة يجب ألا تفارقها حالة من العزّة والحزم في اتّخاذ القرارات والمواقف الصحيحة. فاللّه تعالى إذا أراد أن يأخذ أحداً بذنبه فعل من غير أن يستطيع أحد الحيلولة دونه هذا، ولو أراد أن يعاقب مدينة لقلب عاليها سافلها[٣].

إننا نرى الآن ما تفعله الزلازل والبراكين من تدمير لمدن بكاملها وطمرها، فكم من مدينة تنعم بوسائل الراحة والرفاهية والترف وإذا بها وقد ابتلعتها الأرض تحت وطأة بركان أو تهاوت تراباً من شدّة زلزال خربها: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[٤].

فالرحمة لابدّ أن تلازمها القوّة ويقارنها الحزم؛ كي تسير الأُمور على خير، ولتعمر الأرض. وهنا تكمن دقّة التعبير القرآني الذي يهدف إلى تركيز هذه الحالة في الأذهان، والتي تقترن فيها الرحمة بالحزم، وأن هذا يجب أن يكون شأن كلّ من يتصدّى للمسؤولية أو غيرها. فالإنسان يجب عليه ألّا يفرّق بينهما في جميع مستلزمات حياته ومواطن اتّخاذ القرارات

---

(١) ورد في الحديث القدسي الإلهي: «من لم يرضَ بقضائي، ولم يصبر على بلائي، ولم يشكرني على نعمائي، فليخرج من أرضي وسمائي، وليطلب ربّاً سواي». الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة ٨: ٣٨٠، المعجم الكبير ٢٢: ٣٢١.

(٢) الزمر: ٦٧.

(٣) كما يحدّثنا التاريخ عن سدوم وعاموراء، انظر تاريخ مدينة دمشق ٥٠: ٣٠٩.

(٤) هود: ١٠٢.

والمواقف.

المبحث الثالث: فضل الصلاة

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾، ربما يحمل من لا إلمام له بالأهداف والأساليب القرآنية في التعبير كلّ لفظ قرآني على ظاهره دون أن يحاول النظر إلى ما بين السطور واستخراج المعنى المراد من النصّ القرآني. ومن هذا قوله تعالى: ﴿تَقُومُ﴾ من آية المقام؛ فالقيام لغة هو الكيفيّة المضادّة للقعود[1]، لكنه هنا يراد به صلاة الليل التي كان صلى الله عليه وآله يقومها، أي أن اللفظ لم يؤخذ على ظاهره.

والقرآن الكريم في هذه الآية المباركة يبيّن لنا أن قيام النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ليله هو قيام لوجه الله تعالى ولأجله كما يشير إليه الخطاب القرآني له صلى الله عليه وآله. ودليل هذا أن المرائي لا يمكن أن يقوم ودونه ستر من ظلمات الليل، فالمرائي لا يصلّي إلّا أمام الحشود من الناس، فهو لا يقوم في السحر، بل يقوم في وضح النهار، فيعرض نفسه لأنظار الناس ليبيّن لهم أنّه من أهل الدين والتقوى، في حين أن الإنسان المخلص في دينه وتقواه، والذي يعزم على الانقطاع إلى الله تعالى خلاف ذلك تماماً.

انقطاع أمير المؤمنين عليه السلام

يروى أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يخرج ليلاً إلى بصيلات النخل ـ البصيلات: هي النخل الذي لا ينبت قرب مجرى الماء، أو نهر يشرب منه، بل إنه يشرب الماء عن طريق جذوره التي تمتدّ في الأرض ـ لينقطع إلى الله تعالى. وهذه العبارة تعني أن هذا النخل يقع بأطراف المدينة،

(١) لسان العرب ٣: ٣٥٧ ـ قعد.

فلا عمران قربه ولا ماء. فهو ﷺ كان يقصد ذلك المكان مبتعداً عن الرقباء والعيون؛ ليخلو إلى ربّه تبارك وتعالى، يناجيه ويدعوه ويعبده. وهنا نعرف أن في عبارة «بصيلات النخل» كناية عن انقطاع الإنسان لربّه بعيداً عن الأنظار.

وهذا الخلق والالتزام ممّا اكتسبه من الرسول الأكرم ﷺ؛ فقد كان ﷺ ملازماً له لا يكاد يفارقه، وقد كان ﷺ إذا أراد أن يقوم إلى اللّه سبحانه وتعالى قام في أعماق السحَر مناجياً عابداً حتى تورّمت قدماه من كثرة العبادة، فهبط عليه الأمين جبرئيل ﷺ يحمل قوله تعالى: ﴿طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾[1]، أي أن اللّه تعالى لم ينزل عليك القرآن لتعذّب نفسك كلّ هذا العذاب، وتقف إلى أن تتورّم قدماك وينتفخ ساقاك. وهنا يأتي الردّ النبوي الشريف معبّراً عن محض العبودية للّه تعالى والإذعان له: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟».

فهو ﷺ يخاطب جبرائيل ﷺ مبيّناً له جملة من الحقائق، فقال: إن اللّه تعالى قد وهبني النعم الجزيلة، ومنحني عطاياه الكثيرة، فلابدّ أن أشكره، ومن مظاهر شكره تمجيده وتقديسه وعبادته. فاللّه تعالى حينما أفاض على الإنسان الوجود وجب عليه أن يشكره حقّ شكره وأن يشعر أنه لو لا هذا الخالق لما كان له وجود من أصل.

أقسام النعمة

إن الإنسان العالم الواعي لا يمكن إلّا أن يعتقد أن هذه النعم لابدّ أن تكون صادرة من خالق حكيم مريد. وإنه ليعلم كذلك أن أعظم نعمة أنعم بها

---

(١) طه: ١ ـ ٢.

اللّه تعالى عليه هي نعمة الحياة أو نعمة الوجود: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئاً﴾[1].

والنعمة نعمتان:

الأولى: نعمة العوض

وهي أن يصنع أحد طرفي المعادلة معروفاً للطرف الثاني أو ينعم بنعمة عليه، فيحاول الطرف الثاني أن يردّ هذا المعروف أو يشكر هذه النعمة؛ فينعم عليه بنعمة تقابلها.

الثانية: نعمة الابتداء والامتنان

وهي النعمة التي تكون من اللّه تعالى لمخلوقاته؛ فهي نعمة ابتداء؛ لأن هذه المخلوقات لم تتقدّم إليه تعالى بنعمة سابقة حتى يقال: إن نعمة اللّه عليها نعمة عوض، فاللّه جلّ وعلا ينعم نعمة ابتداء أبداً؛ فهو تبارك وتعالى الذي أفاض عليها الوجود والحياة بعد أن كانت تراباً جماداً دون سابق نعمة منها كما ذكرنا: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئاً﴾. فهذه النعمة التي يراها الإنسان ويشعر بها هي هبة من اللّه له ومنّة منه عليه.

الحركات الإصطلاحية والتزمّت الديني

إن أي إنسان له مسكة من علم لا يمكن أن يعدو هذا التقرير ـ أن الحياة والوجود هبة وإفاضة من اللّه وحده ـ ولا يمكن أن يكون هناك عالم بالمعنى الدقيق لا يؤمن بهذه الحقيقة. فحتى «دارون» كان يؤمن بوجود اللّه تعالى، وأنه خالق الكون، لكنه لمّا تعرّض إلى هذه الحملة الكنسيّة

---

(١) مريم: ٩.

التي أُثيرت ضدّه نتيجة مواقفه العلمية التي تخالف متبنّيات الكنيسة؛ ممّا أدّى إلى أن تتّخذ الكنيسة منه موقفاً، ولأنه راح يسلّط الأضواء على عقائد الكنيسة، راحت الأقلام تتناوله بالانتقاد والتجريح ونسبة الكفر والإلحاد إليه. بل وأكثر من هذا أننا نجد أن نظريته في التطوّر لا تصطدم مع الدين إطلاقاً.

نقد نظرية التطوّر

ولو أننا تتبعنا تاريخ الحركات الإصطلاحيّة في العالم لوجدنا أنها جميعاً تجابه بهذا النمط العدائي من المجابهة، وتواجه تحت ستار الدين، مع أن المسألة ليست مسألة دين، وإنما هي مسألة سياسة تتستّر بغطاء الدين. ومعنى هذا جرّ الدين إلى ساحة النزاع السياسية وإقحامه فيها؛ لجعله يخدم أهدافها وأغراضها. وهذا اللون من الممارسة المتستّرة تحت غطاء الدين يعدّ توجّهاً خطراً؛ لأنه يضع الدين في موقف يجعل الناس تتّخذ منه موقفاً عدائيّاً، ومن ثم تبتعد عنه. ومن هذا ما يروى من أنه في خلافة المهدي كان كلّ من تغضب عليه السلطة يرمى بالزندقة ويقتل[١]، وفي أيّام المأمون كانت مسألة خلق القرآن وقدمه سبباً في إراقة الكثير من دماء الخصوم[٢].

---

(١) سيأتي مثال هذا في الحادثة التي وقعت بين المهدي هذا وبين ابن عبد القدّوس بعد أن اتّهمه بالزندقة، ثم حكم عليه بالقتل والصلب في هذه المحاضرة تحت عنوان (بين المهدي وابن عبد القدّوس).

(٢) حتى وصل الأمر إلى تكفير بعض علماء السنة لمن يقول بخلق القرآن. انظر: البحر الرائق ٥: ٢٠٩، المغني ١٢: ٣٠، حاشية در المختار ٤: ١٤.

نظرية التلخيص

وعليه فإن «دارون» ليس هو الأول ولا الأخير في مسلسل توجيه الحملات الغريبة ضدّ العلماء والمجدّدين في تاريخ البشريّة. وحينما نقرأ الأصل الإنجليزي لكتابه نجد أنه كان يؤمن بوجود اللّه تعالى إيماناً واضحاً بيّناً، وكان يؤمن بحقيقة أنّ اللّه جلّ وعلا هو واهب الحياة، وغاية ما في الأمر أنه قال: إن الإنسان قد تكوّن من خليّة، وإن هذه الخلية تطوّرت. وهذا كما أشرنا إليه لا يصطدم مع الدين أبداً، فالجنين في بطن أمّه يسير وفق نظرية التلخيص، وهي نظرية وضعها العالم «يونك» وتنصّ على أنّ الحويمن بعد أن يلقح البويضة تتطوّر إلى ما يسمى بالزايگوت «ZYGOTE»، ومن ثم ينمو ويتطوّر حتى يصبح إنساناً سوياً، وهو تطوّر يلخّص مراحل مسيرة الإنسان التطوريّة. وهي نظرية ضخمة يبحثها علماء الاجتماع بصورة مفصّلة.

على أية حال فإن دارون يعتقد بأن الحياة هبة من اللّه تعالى الذي خلق الخليّة الحيّة ووهبها الحياة باعتبار أن فاقد الشيء لا يهبه لغيره، فالحياة لا يمكن أن تأتي من شيء ميّت، بل إنها لابدّ أن تأتي من حيّ. وكل ما في الأمر أن نظرية التطور ترسم صورة للخلق تختلف عن الصورة الكلاسيك التي ترسمها كتب الدين عندهم مثلاً.

والقرآن الكريم ربما يشير إلى هذه القاعدة؛ ولذا فإننا نجد فيه تنويهاً إلى مثلها كما في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾[1]، والعلق: الدودة الصغيرة التي تكون في الطين باستثناء أبينا

---

(١) العلق: ١ ـ ٢.

آدم ﷺ وخلقه؛ فإن اللّه تعالى خلقه ابتداء، غير أن ما بين أيدينا من التاريخ الطبيعي لا يمكن أن يعطي حقائق واقعية في هذا المجال.

رجـع

إذن فليس هناك من عالم له أدنى مسكة من علم وهو ينكر وجود اللّه سبحانه وتعالى ويقول بالصدفة التي تتعارض مع منطق الرياضيات وكل متبنّياتها.

وما دام اللّه تعالى هو مفيض الوجود والحياة، وهو المنعم المتفضّل على خلقه فلابدّ من شكره، وأحد مظاهر شكره هو الانقطاع إليه، فعلى العبد أن يخلو بنفسه مع خالقه أوقاتاً يتّصل بها معه. وهذه الأوقات هي الجزء الحقيقي من الحياة وما عداه أوهام، والحياة كلّها وهم لولا لحظات الانقطاع الخالص إلى اللّه تعالى والتواصل معه.

رأي النظريّة التسمويّة في نشوء المعرفة

وفي هذا المضمار أودّ أن أذكر أن إحدى النظريات التي تفسّر نشوء المعرفة عند الإنسان تذكر أن كلّ هذه الموجودات الخارجية هي في الواقع لا وجود حقيقيّ لها، بل هي موجودة في مخ الإنسان فقط. وهي نظرية كما هو واضح من مذهبها فيها مبالغة؛ كونها تذهب إلى أن كلّ الموجودات هي عبارة عن صورة مرتسمة في الذهن وليس لها أي وجود خارجي متحيّز، وأن الحياة هي طيف خيال في كلّ أبعادها. صحيح أنه ليس هناك من يملك تفكيراً سليماً وعقلاً صحيحاً وهو يعتقد بأن هذه الدنيا لها صفة الدوام، لكن لا على النحو الذي تذهب إليه هذه النظرية.

إذن فالدنيا في حقيقتها ليست إلّا ظلاً زائلاً، يقول المعري:

خلق الناس للبقاء فضلّت أمّة يحسبونهم للنفادِ
إنما ينقلون من دار أعما ل إلى دار شقوة أو رشادِ[١]

فهم يُنقلون من عالم إلى آخر.. من عالم الوهم والخيال إلى عالم الحقيقة وكأنهم لم يعيشوا هذا العالم إلّا لحظات بعدها انداح كلّ شيء: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[٢]، كما عبر عنها القرآن الكريم، وكما عبر عنها كذلك بقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٣]. والواقع الذي ينبغي التسليم به هو أن من يعقل نفسه ووجوده وما حوله فلابدّ أنه يؤمن بأن الدار الآخرة هي الحيوان.

إذن فإن اللّه تعالى يريد من عباده التواصل معه والانقطاع إليه، لأنه هو الأحق بأن يشكر، وهذا الفعل مظهر من مظاهر الشكر كما أسلفنا.

ولحظات الانقطاع والتواصل لا تتأتّى للإنسان كلّ حين، فهناك لحظات قليلة يحسّ الإنسان فيها بالتجلّي، وهي لحظات عظيمة، غير أن النبي صلى الله عليه وآله كان يعيشها في كلّ جزئيّات حياته وعبادته؛ ولذا فإن القرآن الكريم يقول له: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾، فكان صلى الله عليه وآله إذا جنّ عليه اللّيل صفّ قدميه واتّجه إلى اللّه عزّ وجلّ.

وهكذا كانت ليالي أهل بيته عليهم السلام، وهي الصورة التي يرسمها لنا أبو فراس الحمداني في ميميّته الرائعة، وهو يقارن بين البيوت العلوية وبيوت العبّاسيّين، فيقول:

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢٠: ١٨١ - ١٨٢، تاريخ بغداد ٤: ٤٦٤، الوافي بالوفيات ٧: ٦٧.
(٢) العنكبوت: ٦٤. (٣) الأنعام: ٣٢.

تبدو التلاوة من أبياتهم سحراً وفي بيوتكمُ الأوتار والنغمُ
إذا تلوا سورة غنّى خطيبُكم قف بالديار التي لم يعفِها القدمُ[(١)]

فقصر الخلد (دار الرشيد)، كان يصبحه الصباح بمحضر الرشيد والأغاني تصدح فيه عوض ذكر اللّه تعالى، يصحب ذلك عزف القيان ورقص الجواري ومعاقرة الخمور، أمّا دور آل محمد ﷺ فكانت عامرة بذكر اللّه جلّ وعلا، فلا يمر عليها الليل دون أن يُسمع منها رنين التوجّع والخوف من اللّه تعالى والفزع منه إليه، ولا يعانقها السحر دون أن تبهج الكون منها أنوار تلاوة القرآن الكريم والبكاء وملامح الاتّصال باللّه جلّ وعلا.

فهل يستوي هذان البيتان؟ أبداً، لا يمكن أن يستويا بحال من الأحوال، ولا يمكن أن يقول به عاقل. ودليل هذا أن بيت العلويّين بقي خالداً مع الدهر، بل إنه بيت افترع الخلود افتراعاً، أما بيت العباسيّين فقد اندثر وانقطع أثره ،ولم يعد يذكره ذاكر، يقول أحد الشعراء:

هنيّا بنا لربى الزوراء نسألها عن ثلّتين هما موتى وأحياءُ
فقد مشت وبنو العبّاس سامرة في ألف ليلةَ حيث العيشُ سرّاءُ
دار الرقيق وقصر الخلد طافحة بما يلذّ فأنغام وصهباءُ
ومِل إلى الكرخ وانظر قبّة سمقت تجاذبتها الثريّا فهي شمّاءُ
وحيِّ فيها إماماً من أنامله سحابة الفضل والإنعام وفّاءُ

المبحث الرابع: في معنى التقلّب في الآية

ثم قالت الآية: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾، وللمفسرين في التقلّب رأيان:

---

(١) ديوان أبي فراس الحمداني: ٢٥٥.

الرأي الأوّل: عبادته صلى الله عليه وآله في الأسحار

ويذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن المقصود بهذا المقطع الشريف هنا: عبادة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في جوف الليل، وعين اللّه تراه. وهذا المعنى لا يمكن أن يكون غريباً؛ لأن بيت النبي صلى الله عليه وآله كان بيت ركّع وسجود. وهذه الآية الكريمة توحي بأن من حوله على غير شاكلته في العبادة والانقطاع، فمن بين كلّ هؤلاء هو صلى الله عليه وآله وحده الذي كان يقيم ليله حتى ورمت قدماه.

الرأي الثاني: طهارة آبائه عليهم السلام

وبناء على هذا الرأي فإن المقصود هنا بالتقلّب هو الانتقال من صلب إلى صلب. أي أنه صلى الله عليه وآله كان يتنقّل في الأصلاب الطاهرة والأرحام المطهّرة. وهذا الرأي مرويّ عن الإمام الباقر عليه السلام[1]؛ لأن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله لابدّ أن يكون كذلك؛ لئلّا يتطرّق إليه العيب والنقد من الناس، فهو صلى الله عليه وآله لم تدنّسه أرحام الشرك والجاهلية.

التهافت في روايات العامّة

وهذه المسألة من المسائل التي وقع فيها الخلاف بيننا وبين المذاهب الإسلاميّة الأُخرى التي تجيز وقوع ذلك ولاترى به بأساً، ويروون أنه صلى الله عليه وآله كان قد مرّ بالأبواء (المكان الذي دفن فيه أبواه)، ونزل على قبر أُمّه، فناجى ربّه طويلاً ثم بكى حتى اشتدّ بكاؤه، وبكى المسلمون لبكائه وقالوا: ما بكى نبي الله صلى الله عليه وآله بهذا المكان إلّا وقد حدث في أُمّته شيء لا نطيقه. فقال صلى الله عليه وآله لهم: «ما يبكيكم؟». قالوا: يا نبي اللّه، بكينا لبكائك. فقال: «نزلت على قبر فدعوت الله أن يأذن لي في شفاعته يوم القيامة، فأبى الله أن

(١) مجمع البيان ٧: ٣٥٨.

يأذن لي، فرحمتها وهي أُمي فبكيت. واستأذنت ربّي في أن أستغفر لها فلم يأذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي. ثم جاءني جبريل عليه السلام فقال: تبرّأ من أمّك كما تبرّأ إبراهيم عليه السلام من أبيه»[١].

ونحن في هذا المضمار نطالب من يروي هذه الرواية أن ينظر إلى الروايات الأُخرى الواردة في المقام قبل أن يرويها؛ كيلا يحصل تصادم أو تعارض بين هذه الروايات والرواية التي يرويها. ومن هذا القبيل ما يروى عن أبي هند الحجام الذي كان يحجم لرسول اللّه ﷺ، فاحتجم رسول اللّه ﷺ عنده، فلما فرغ دفع إليه دمه، وقال له: «اذهب به فوارِه حيث لا يراه أحد». فذهب به فشربه، فلما رجع قال له رسول اللّه ﷺ: «أين الدم؟». أو قال له: «ما صنعت به؟». قال: جعلته في مكان أظنّ أنه أخفى مكان عن الناس. فقال ﷺ: «فلعلّك شربته؟». فقال: نعم. فقال ﷺ: «ما كان ينبغي لك أن تفعل، وقد جعله اللّه عزّ وجلّ حجاباً لك من النار. فلا تعد»[٢].

ونحن لا نعوّل على هذه الرواية؛ لأننا نقول: إن ابن النبي نفسه لو عصى اللّه دخل النار. هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فإن من يروي هذه الرواية يرى عدم دخول أي جسد إلى النار ما دام فيه جزء من جسد الرسول ﷺ، في حين أن أمّه وأباه ﷺ يعذّبان بالنار مع أنهما جزء منه وهو جزء منهما؛ لأنهم من بعض، فلحمه لحمهما ودمه دمهما، والعكس كذلك، إن هذا

---

(١) مسند أحمد ٢: ٤٤١، صحيح مسلم ٣: ٦٥، سنن ابن ماجة ١: ٥٠١، المستدرك على الصحيحين ١: ٣٧٤، ٣٧٥، ٢: ٦٠٥، تفسير البيضاوي ٣: ١٧٩، صحيح مسلم بشرح النووي ٧: ٤٥، مجمع الزوائد ١: ١١٧.

(٢) لم نعثر على هذا الحديث بزيادة قوله ﷺ: «وقد جعله اللّه عزّ وجلّ حجاباً لك من النار» فيما بين أيدينا من مصادر. انظر: شرح نهج البلاغة ٢٠: ١٠٩، أُسد الغابة ٢: ٢٤٧، قال: «وقد أخرجه الثلاثة». كنز العمّال ١٥: ٤٣٦ / ٤١٧٢٨.

إلّا تناقض.

طهارة آباء الإمام عليه السلام

على أية حال فإن آباء النبي صلى الله عليه وآله يمكن أن يكونوا مشركين على رأي المذاهب الإسلامية، أمّا نحن فلا نذهب إلى هذا الرأي، بل إننا نعدّي موضوع طهارة الآباء للإمام عليه السلام، لأنّ العلة في نصب الإمام عليه السلام هي عينها العلّة في نصب النبي صلى الله عليه وآله وبعثته، والمفروض أن النبي صلى الله عليه وآله يجب ألّا يكون عنده ما ينفّر الطباع منه وكذلك الإمام عليه السلام حكمه حكمه. فالنبي صلى الله عليه وآله يرفع شعار التوحيد وكذلك هي وظيفة الإمام عليه السلام؛ لئلّا يعترض معترض على النبي أو الإمام ويقول: كيف تدعو إلى التوحيد وكنت بالأمس مشركاً، أو كان آباؤك مشركين؟

إن مثل هذه التهمة تعدّ نقصاً في حقّ الرسول أو الإمام عليهما السلام، والله تعالى يأبى لأنبيائه وأوصيائهم عليهم السلام أن تكون فيهم جهة نقص، أو أن يولدوا من مصدر فيه جهة نقص. وهذا هو الأمر الذي حدا بنا إلى القول بأن أبا طالب مات مسلماً مؤمناً.

دليل إسلام أبي طالب عليه السلام

ولإثبات هذا الأمر لابدّ من سرد تمهيدي له، ولنذكر في هذا الباب قصتين يذكرهما التاريخ:

الأولى: بين المهدي وابن عبد القدوس

إن عند العقلاء كافّة أن إقرار العاقل على نفسه حجّة، ومن ذلك أن صالح بن عبد القدوس البصري ـ وكان أحد الشعراء ـ اتّهمه المهدي العبّاسي بالزندقة، فأمر بحمله إليه، فلمّا أحضروه بين يديه وخاطبه أعجب بغزارة

أدبه وعلمه، وبراعته وحسن بيانه، وكثرة حكمته، فأمر بتخلية سبيله، فلمّا ولّى ردّه وقال له: ألست القائل:

والشيخ لا يترك أخلاقه	حتى يوارى في ثرى رمسِهِ
إذا ارعوى عاد إلى جهله	كذا الضنى عاد إلى نكسِهِ

قال: بلى. قال: إذن فأنت لا تترك أخلاقك ولا عقيدتك، وقد كنت زنديقاً وسترجع زنديقاً، ونحن نحكم فيك بحكمك في نفسك. ثم أمر به فقتل، وصلب على الجسر[1].

الثانية: بين أمير المؤمنين عليه السلام وأعشى همدان

صعد أمير المؤمنين عليه السلام المنبر مرّة فقال: «سلوني قبل أن تفقدوني، فإنكم لا تسألونني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة، ولا عن فئة تهدي مئة أو تضلّ مئة إلّا حدّثتكم بناعقها وسائقها حتى يخرج الدجّال». فقام إليه أعشى همدان الشاعر فقال: من لا يحسن أن يقول مثل هذا؟ إن هذا لحديث خرافة.

والواقع أن هذا الرجل العظيم جاء في غير أوانه وسابقاً لعصره؛ لأنه جاء في عصر معاوية وأمثال معاوية[2] .. معاوية الذي حينما أراد أن يأخذ ولاية العهد ليزيد قام يزيد بن المقنع العذري فقال: هذا أمير المؤمنين، وأشار إلى معاوية، فإن هلك فهذا، وأشار إلى يزيد، ومن أبي فله هذا، وأشار إلى سيفه. فقال معاوية: اجلس؛ فأنت سيّد الخطباء[3].

في حين أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يتعامل مع هؤلاء الأجلاف بمنتهى

---

(١) تاريخ بغداد ٩: ٣٠٤ / ٤٨٤٤، تاريخ مدينة دمشق ٢٣: ٣٤٦ - ٣٤٧.

(٢) حتى إنه عليه السلام قال: «أنزلني الدهر حتىٰ قيل: معاوية وعلي». الإمام جعفر الصادق عليه السلام: ٤٥، لقد شيّعني الحسين: ٢٣٥.

(٣) الكامل في التاريخ ٣: ٥٠٣.

الديمقراطية والانفتاح والحرّية .. وهذا الأمر بطبيعة الحال مصيبة وبلاء، ولذا فإنه عليه السلام كان يشعر بغربة وألم، فكان يخرج إلى الصحراء لينفس من كربه، يقول ميثم رضي الله عنه: كنت أتفقّده عليه السلام فأراه جالساً في الجبّانة، وهو ينكت الأرض بإبهامه ويقول:

وفـــي الصَّـــدرِ لُـبانـاتٌ	إذا ضـاق بـهـا صـدري
نكتُ الأرضَ بـــالكفّ	وأبـــديتُ لهـــا سِـرّي
فـــمهما تُـــنبِتُ الأرضُ	فذاك النبتُ من بَـذري[1]

وكان يصعد على المنبر فيقول: «أين إخواني الذي ركبوا الطريق ومضوا على الحق؟ أين عمار؟ وأين ابن التيهان؟ وأين ذو الشهادتين؟... أوّه على إخواني الذي تلوا القرآن فأحكموه...»[2].

فهؤلاء القلائل هم الذين كان عليه السلام يأنس بهم، لكن الحروب أخذتهم، وهذا اللون من الصحبة الذي كان ينشده عليه السلام لهي الصحبة الحقّة التي كان عليه السلام يعيش معها، وهي التي كانت تتفهّمه، لكن ما حصل هو أن أصحابه تركوه يعيش الغربة.

على أية حال فإن أعشى همدان هذا قال له عليه السلام: هذا حديث خرافة، فتبسّم الإمام عليه السلام وقال له: «لو شئت لنلتك بطرف سيفي، ولكن سيسلّط الله عليك غلام ثقيف». فقالوا: يا أمير المؤمنين، ومن غلام ثقيف؟ قال عليه السلام: «غلام لا يدع لله حرمة إلّا انتهكها، ولا عظيمة إلّا ارتكبها».

ثم أخذ في وصف الحجّاج بن يوسف الثقفي، وفعلاً أدرك هذا الرجل

---

(١) فضل الكوفة ومساجدها (المشهدي): ٦٥، بحار الأنوار ٤: ٢٠٠، ٩٧، ٩: ٤٥٢. وقد مرّ في ج ٢ ص ٥٥.

(٢) نهج البلاغة / الخطبة: ١٨٢.

الحجّاج فقتله ؛ حيث إنه كان خرج مع ابن الأشعث فأُتي الحجاج به أسيراً، فقال له: يابن اللخناء ، أنت القائل لعدوّ الرحمن، يعني عبد الرحمن بن الأشعث :

يـابن الأشـج قـريع كنـ ـدة لا أُبـالي فـيك عـتبا
أنت الرئـيس ابـن الرئيـ ـس وأنت أعلى الناس كعبا
نـبئت حـجّاج بـن يـو سـف خـرّ مـن زلق فـتبّا
فـانهض هـديت لعـلّه يـجلو بك الرحـمن كـربا
وابـعث عـطية فـي الحـرو ب يكـبّهن عـليه كـبّا

فقال: أيها الأمير، وأنا القائل:

أبـى اللّـه إلّا أن يـتمّ نـوره ويـطفئ نـار الكـافرين فـتخمدا
ويـنزل ذلّاً بـالعراق وأهـله كما نقضوا العهد الوثيق المؤكّدا
وما لبث الحـجاج أن سل سيفه عـلينا فـولى جـمعنا وتـبدّدا

فالتفت الحجاج إلى من حضر، فقال: ما تقولون؟ قالوا: لقد أحسن أيها الأمير، ومحا بآخر قوله أوله، فليسعه حلمك. فقال : لاها اللّه ! إنه لم يرد ما ظننتم، وإنما أراد تحريض أصحابه. ثم قال له: ويلك ، ألست القائل:

إن نلت لم أفرح بشيء نلته وإذا سبقت بـه فـلا أتـلهّفُ
ومتى تصبك من الحوادث نكبة فـاصبر فكلّ غـيابة تـتكشّفُ

أما واللّه ، لتطلعن عليك غيابة لا تنكشف أبداً، يا حرسيّ اضرب عنقه[1].

(١) لم نعثر عليها أنها مع أعشى همدان ، ولا بهذه الكيفيّة ، انظر هذه المصادر مجتمعة : بصائر الدرجات : ٣١٧، شرح الأخبار ٢ : ٣٩، المحتضر : ١٥٧ ، المسترشد : ٦٧٢ / ٣٤١، مناقب

وقد قال بعضهم: نالته دعوة العبد الصالح، يعنون أمير المؤمنين عليه السلام.

فمثل هذا يُستنتج من شعره أنه يذهب هذا المذهب فيلزم به، ويعاقب عليه. وهنا سوف ندخل إلى موضوعنا الذي مهّدنا له، وهو موضوع إيمان أبي طالب عليه السلام، فما دام كلّ من المهدي والحجاج قد استدلّا على ابن عبد القدوس والهمداني من شعرهما فإن أبا طالب عليه السلام كذلك من الحقّ أن يستدلّ له من شعره على إيمانه، فهو الذي يصدح بشعره قائلاً:

ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً ... نبياً كموسى خُطَّ في أول الكتبِ[1]

ونسمعه يقول:

كذبتم وبيتِ الله نخلي محمداً ... ولما نطاعنْ دونه ونناضلِ[2]

ونسمعه يقول:

نبيّ أتاه الوحيُ من عندِ ربّهِ ... ومن قال لا، يقرعْ بها سنّ نادمِ[3]

ويقول:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أُوَسَّدَ في التُّراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك مخافة ... وابشر وقرّ بذاك منك عيونا

آل أبي طالب ٢: ١١٣، شرح نهج البلاغة ١: ٢٢٠ - ٢٢٢.

(١) سيرة ابن إسحاق ٢: ١٣٨، السيرة النبويّة ١: ٢٣٥، البداية والنهاية ٣: ١٠٧، ١٠٨، المقتفى من سيرة المصطفى ١: ٦٧.

(٢) سيرة ابن إسحاق ٢: ١٤١، أخبار مكّة ٢: ٣٧٥، السيرة النبويّة ٢: ١١١، ٢١٧، ٣: ٢٩٢، ٥: ٤٧، تاريخ الطبري ٢: ٥٧٧، الكامل (ابن عدي) ٣: ٤٠٩، أعلام النبوّة ١: ١٧٢، دلائل النبوّة ١٨٥، الفائق في غريب الحديث ١: ١٠٥، الاستيعاب ٢: ٤٦٨، الاكتفاء (الكلاعي) ١: ٢٢٠، ٢٦٧، ٢: ٥٦، المقتفى من سيرة المصطفى ١: ٥٧، تاريخ مدينة دمشق ٨٣: ٢٥٨، البداية والنهاية ٦: ٢٠٦، فتح الباري ٧: ١٤٨، باختلاف في رواية البيت.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٤: ٧٣، مناقب أهل البيت عليهم السلام (الشيرواني): ٥٨.

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا[1]

إن من يقرأ ديوان أبي طالب عليه السلام يجده طافحاً بملامح التوحيد والإيمان والعقيدة المخلصة للّه تعالى. ولست أدري ما هو الفرق بين من يقول: «أشهد ألّا إله إلّا وأشهد أن محمداً رسول اللّه» نثراً، وبين من يقولها شعراً!

سرّ تكفير أبي طالب عليه السلام

إن التاريخ الأسود كلّ يوم يطلع علينا بمدّعٍ جديد يعلن عبره أن أبا طالب عليه السلام مات كافراً مشركاً، وكأنه قد فتح فتحاً كبيراً في مجال التاريخ، مع أن السبب واضح، وهو أنه أبو أمير المؤمنين عليه السلام ولو لا أنه أبوه لما تعرّض لهذه الحملة الشعواء عليه. لقد ذكرت في إحدى المحاضرات أن مجموعة من العلماء الأزهريّين نشروا بحثاً انتهوا فيه إلى أن من يذهب إلى كفر أبي طالب فهو كافر؛ لأنهم توصّلوا إلى نتيجة أن من يكفره يؤذِ النبي الأكرم ﷺ، ومن يؤذِ النبي ﷺ يؤذِ اللّه تعالى، ومن يؤذِ اللّه فهو كافر.

هذا هو الاستنتاج الذي انتهوا إليه، والواقع أنه كذلك؛ لأن رسول اللّه ﷺ

---

(1) سيرة ابن إسحاق ٢: ١٣٦، السيرة الحلبيّة ١: ٤٦٢، البداية والنهاية ٣: ٤٢، تاريخ اليعقوبي ٢: ٣١، السيرة النبوية ١: ٤٦٤، الجامع لأحكام القرآن ٦: ٤٠٦، زاد المسير ٣: ١٧، البداية والنهاية ٣: ٥٦، فتح الباري ٧: ١٤٨، شرح نهج البلاغة ١٤: ٥٥.

ورحم الله ابن أبي الحديد حيث يقول:

ولولا أبو طالبٍ وابنُهُ لما مُثِّل الدّين شخصاً فقاما
فذاك بمكّة آوى وحامى وهذا بيثرب جسّ الحماما
فللّه ذا فاتحاً للهدى وللّه ذا للمعالي ختاما

شرح نهج البلاغة ١٤: ٨٤.

شيّعه ووقف على قبره واستغفر له. وهناك روايات في هذا الصدد من أهل البيت‰ يذكرون فيها أن أبا طالب كأصحاب الكهف أظهر الشرك وأضمر الإيمان فآتاه اللّه أجره مرّتين[١]، وأنه كمؤمن آل فرعون يكتم إيمانه[٢]. لكن مع كلّ هذا يخرج علينا سمرة بن جندب.. الأجير الذي امتلأ جوفه خمراً، وتلوّثت يداه بالإثم وتلطّختا بالدم، والذي خالط السحت رأسه فيروي عكس هذا، والسبب معروف كما ذكرنا، وهو صلته بالإمام علي بن أبي طالب‰.

رجع

إذن فنحن نقول: إن العلّة التي توجب أن يكون النبي‰ طاهر الآباء هي العلّة عينها التي نقولها في الإمام‰؛ فكما أن النبي‰ لابدّ فيه من صفة طهارة الآباء وعدم شركهم فكذلك الإمام. وهذا هو الذي يريد القرآن الكريم من خطابه للرسول الأكرم‰ بقوله: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾. يقول البوصيري:

لم تزلْ في ضمائر الكون تُختا ... رُ لك الأُمهاتُ والآباءُ
تتباهى بك العصور وتسمو ... بك علياء بعدها علياءُ
وبدا للوجود منك كريمٌ ... من كريمٍ آباؤه كرماءُ
نسبٌ تحسبُ العُلا بحُلاها ... قلّدتها نجومَها الجوزاءُ
حبّذا عقدُ سؤددٍ وفخارٍ ... أنت منه اليتيمةُ العصماءُ[٣]

ويقول آخر:

(١) الكافي ١: ٤٤٨ / ٢٨، الأمالي (الصدوق): ٧١٢ / ٩٨٠.
(٢) وسائل الشيعة ١٦: ٢٣٢ / ٢١٤٤٠. (٣) ديوان البوصيري: ٩.

لو لم يكن قلباً لكلّ ساجد بالساجدين الغرّ ما تقلّبا

فهو ﷺ تقلّب في الأصلاب الطاهرة والأرحام المطهّرة، ولذا فإننا نخاطبه في الزيارة الشريفة بمخاطبتنا عترته؟ﷺ: «أشهد أنك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرّة»[١]. وظلّت تجلّيات هذا النور تنتقل في ذرّيّة الرسول ﷺ، يقول هلال بن نافع: مررت على الإمام الحسين عليه السلام فرأيت شفتيه تتحركان وهو في لحظاته الأخيرة، فوالله، لقد شغلني نور وجهه عن التفكير بقتله، فأقبلت إليه، وقلت: إن كان يدعو علينا هلكنا وربّ الكعبة. فدنوت منه فسمعته يقول: «صبراً على قضائك يا رب، يا غياث المستغيثين، لا معبود سواك»[٢]:

تركت الخلق طرّاً في هواكا وأيتمت العيال لكي أراكا
فلو قطّعتني بالحبّ إرباً لما مال الفؤاد إلى سواكا[٣]

وافتقدته نساؤه، فقالت إحداهن: مالي لا أرى لأبي عبد اللّه شخصاً ولا أسمع له صوتاً؟ فقالت الأُخرى، لعلّ الخيل حالت بيننا وبينه. فقالت أُختها: حاشا ابن أبي أن تضمّه خيل أو رجال. ثم انحدرن إلى مصرعه بين تلك الجثث والأشلاء:

نادَت فقطّعت القلوبَ بشجوِها لكنما انتظَمَ البيانُ فريدا
إنسانَ عيني يا حسينُ أُخَيَّ يا أملي وعِقدَ جُماني المَنضودا
ما لي دعوتُ فلا تجيبُ ولم تَكنْ عَوّدتَني من قبلِ ذاكَ صُدودا

---

(١) كامل الزيارات: ٤٠٣ / ٦٣٩، مصباح المتهجّد: ٧٢١ / ٨٠٦.
(٢) انظر: شجرة طوبى ٢: ٤٠٩، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٣٥٧، ينابيع المودّة ٣: ٨٣.
(٣) بيتان ينسبان لابن إبراهيم بن أدهم. تاريخ مدينة دمشق ٦: ٣٠٦.

أَبِمِحنَةٍ شغَلتكَ عنّيَ أم قِلىً … حاشاك إنك ما بَرِحتَ وَدُودا

خَنْتْ فَلم تَرَ مثلَهُنْ نَوائحاً … إذْ ليسَ مثلُ فقيدِهِنْ فقيدا

وثواكل بالنوح تسعد مثلها … أرأيت ذا ثكل يكون سعيدا[1]

* * *

أأخي ما عوّدتني منك الجفا … فعلامَ تجفوني وتجفو من معي

أأخي أين أبي عليّ المرتضى … ليرى انكساري للعدى وتخضّعي

منهوبةً مشتومةً مسبيةً … مسلوبةً حتى الخمارَ وبرقعي

* * *

اتمرمرت واللّه بيتاماك … يحسين ما لي حيل فركاك

عدنا اشبعد ظل لو فكدناك

(١) ديوان الشيخ هاشم الكعبي : ٣٩.

﴿٥﴾

عصمة الأنبياء عليهم السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

إن مُجمل الهيكل العام للآية الكريمة يدور حول أمر واحد هو أن اللّه عز وجل يعصم رسوله ﷺ عن الخطأ وإن كان بشراً. ذلك أن البشر بحكم كونهم بشراً معرضون للخطأ؛ لأن الكمال للّه عز وجل، فإذا كان الإنسان كذلك فإنه يكون عرضة للتأثر بالنوازع نفسها التي يتأثر بها غيره من الناس بما عندهم من عواطف وعلاقات وارتباطات ولحظات ضعف تمرّ بهم، وكلّها تؤثر عليهم. فالآية الكريمة تقول له ﷺ: مع أن طبيعتك بشرية، لكنك بشرٌ صانه اللّه عن الوقوع في الخطأ. هذا هو مجمل جو الآية الكريمة.

---

(١) الإسراء: ٧٣.

المبحث الأوّل: سبب نزول الآية الكريمة

يذكر المفسّرون في نزول هذه الآية الكريمة أربعة أسباب:

السبب الأوّل: أن وفداً من ثقيف جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقالوا: إنك دعوتنا إلى الإسلام، ونحن نسلم ونبايع بثلاثة شروط. قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما هي؟». قالوا:

الأوّل: أن تُحرِّمَ وادينا كما حرّمت مكة، فكما أن مكة محرّمة ولا يدخلها الإنسان إلا محرماً، وتترتب عليها أحكام، فنحن نريد أن تقول عن وادي ثقيف: إن اللّه جعله مثل مكة. وتذكر للناس أن اللّه أوحى إليك بحرمة هذا الوادي.

والثاني: أنك تأمر بالصلاة، ومن أفعال الصلاة أن الإنسان لا بدّ أن ينحني، فيركع ويسجد، ونحن لسنا على استعداد لأن ننحني؛ لأن انحناءنا ذُلّ، فنريد أن تُعفينا من هذا.

والثالث: أننا نريد منك مهلة سنة لتحطيم الأصنام، فنجمع بهذه السنة الهدايا والنذور التي تهدى للأصنام، ثم بعد ذلك نكون مستعدّين لتحطيمها وتكسيرها.

فإن حقّقت لنا هذه الشروط الثلاثة آمنا بك وبايعناك، وإلا فإننا لن نؤمن لك ولن نبايع.

نظرة على السبب الأول

ولنلقِ الآن بعض الضوء على شروطهم الثلاثة هذه:

فالشرط الأول ـ وهو تحريم الوادي ـ فيه طلب من النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يكذب ويدّعي أن هذا وحي من اللّه. وهذا منتهى العجرفة والصفاقة عند هؤلاء؛ فهم يريدون منه صلى الله عليه وآله وسلم أن يكذب، ويقول ما لم يقله اللّه له، وينسبه إليه

تعالى. وهذه مشكلة من أخطر المشاكل، فهؤلاء لا يعرفون قيمة الوحي، ولا يعرفون أن النبوّة كلّها تتزلزل إذا ثبت بحادثة واحدة أن النبي ﷺ يمكن أن يصدر منه شيء من هذا النوع.

أما الشرط الثاني ـ وهو إعفاؤهم من الانحناء في العبادة ـ فهذه مثل نظرية أبي جهل الذي دخل على النبي ﷺ يوماً فقال له: تريد مني أن أُصلي حتى تعلوني استي؟ وهذا نمط من التفكير التافه الذي لا يستحقّ المناقشة؛ لأن المنحني في الصلاة ينحني للّه الخالق البارئ الرازق الذي أنعم عليه.

وأمّا شرطهم الثالث وهو أن يمهلهم النبي ﷺ سنة حتى يجمعوا الهدايا والنذور التي تهدى للأصنام فيوحي إلينا بالنظرية التي تقول: إن معظم السلوك مرتبط بالعامل الاقتصادي، وهي النظرية الماركسية، القائلة: إن دوافع الإنسان في السلوك دوافع اقتصادية. فإن أراد الصلاة والعبادة وغيرها فذلك بدافع اقتصادي، وإن السلوك يتأثر ١٠٠٪ بالاقتصاد. وهذه النظرية مبالغ فيها.

وتسمى مثل هذه النظريات بالنظريات ذات العامل الواحد. صحيح أن العامل الاقتصادي قد يلعب دوره في التأثير على السلوك، ولكن ليس معنى ذلك أن كلّ سلوك الإنسان هو بدوافع اقتصادية. لأنهم يقولون مثلاً: إن الإنسان حتى لو عبد اللّه فإنه يريد أن يراه الناس متديناً فيطمئنوا إليه ويتعاملوا معه أكثر، فيربح أكثر.

وهذا سوء ظن بالإنسان أولاً، وخلاف الواقع ثانياً؛ لأننا نعرف أن الإنسان تحركه دوافع متعددة، كغرائز الجوع والجنس والأنانية وغيرها. والمسألة معروفة ولا تحتاج إلى تفصيل.

فهذه الشروط الثلاثة إذن تدل على عقلية بدائية جاهلية.

السبب الثاني: أن النبي صلى الله عليه وآله لما كسر الأصنام قال له المشركون: اترك لنا صنماً واحداً وهو على الصفا، فنحن مستعدّون لأن نؤمن بك، ولكن اترك لنا هذا الصنم مدّة من الزمن حتى نروّض أنفسنا ثم نكسره.

السبب الثالث: أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وآله: لمَ تدعو إلى اللّه وتشتم آلهتنا؟ فأنت يمكنك أن تدعو إلى اللّه من غير أن تشتم آلهتنا. فكُفّ عن شتمها، ولا تعبها وتفسد شبابنا.

السبب الرابع ـ وهو سبب يستدعي التوقف عنده قليلاً ـ: أن قريشاً قالوا له: لا ندعك تلتمس الحجر الأسود إلّا أن تُلمّ بآلهتنا. فقبل أن تلمس الحجر الأسود عليك أن تمرّ بأصنامنا وتتمسّح بها.

ويقول المفسرون: إن النبي صلى الله عليه وآله لما طلبوا منه ألّا يمسّ الحجر الأسود حتى يمرّ بآلهتهم، قال في نفسه: إن اللّه يعلم أني كاره لهذا المعنى، فلا مانع من أن أمرّ وأُوهمهم بأنني مررت بآلهتهم، لكي أمرّ إلى ما هو أهم، وهو الطواف وعبادة اللّه، والتماس الحجر الأسود[1].

نظرة على السبب الرابع

وهنا يأتي هذا السؤال: هل ينافي ما همّ به النبي صلى الله عليه وآله العصمة أم لا ينافيها؟ وهذا من قبيل: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾[2]، فما هو الهمّ هنا؟ هل هو تحرّك النوازع النفسيّة في نفسه بحكم كونه بشراً لولا العصمة؟ فكلمة ﴿لَوْلاَ﴾ هي حرف امتناع لوجود، ومعنى ذلك: لولا أنك

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٠: ٢٩٩، تفسير الثعالبي ٣: ٤٨٧، وفيه: تمسّ آلهتنا، بدل: تلمّ بآلهتنا.
(٢) يوسف: ٢٤.

معصوم لكنت انسقت معهم لذلك. فاللّه عندما يرسل نبياً فليس معنى ذلك أنه ينقطع عن ارتباطه بحكم كونه بشراً، وإنما تبقى له غرائزه ونوازعه البشرية: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾[1]، لكنه بشر معصوم لا يصدر منه الخطأ.

فلو أن معدتي أحسّت بالجوع، وكان عندي دين، هل كنتُ أُشبعها من الحرام؟ كلّا طبعاً. فكوني أعرف أن أكل مال الناس حراماً ليس معناه ألّا تتحرك معدتي بالجوع. فالنبي ﷺ عنده همّ وعنده تحرّك وغرائز، والغرائز تخاطبه وتريد إشباعها، لكن اللّه يعصمه عن الوقوع بالخطأ. على أن يلاحظ أن عصمته لا تكون بالإجبار.

ماهية العصمة

وبما أننا مررنا بهذا الموضوع فدعونا نلقِ عليه الضوء، فهناك ضجّة تثار، ومفادها أن الشيعة يقولون: إن أيمّتنا معصومون. في حين أن صاحب الضجّة يثبت العدالة لعشرات الآلاف من الصحابة، فهم عدول لا يصدر منهم الخطأ، وإن صدر فهو اجتهاد، والمجتهد له أجر إن أخطأ. فإذا كان من الممكن أن يكون الإنسان عادلاً ولا يصدر منه الخطأ، فلمَ يستكثرون علينا أن يكون إنسان معصوماً؟

ثم ما هي العصمة؟ العصمة هي الامتناع عن الخطأ، فلدى المعصوم القدرة على الإتيان بالفعل ولكنه لا يفعله، والقدرة على ترك الطاعة لكنه لا يتركها. فهو يستطيع ترك الصلاة ولا يتركها، ويستطيع أن يشرب الخمر ولا يشربه؛ لأن لديه لوناً من التربية العالية. وهذا هو اللطف الذي

---

(١) الكهف: ١١٠.

صنعه اللّه بالمكلف، فجعله يمتنع عن إتيان القبيح وترك الواجب.

فإن كان كذلك فالنبي صلى الله عليه وآله لم تذهب عنه خواصّه البشريّة، ولا قلعت عنه نوازعه، فهو يهم أن يلبّي مطلبهم لولا العصمة. وقد تكون هذه طريقة من باب (الوسائل والغايات)؛ فبعض الغايات تكون جليلة، فيتوسّل إليها بوسيلة ما وإن كانت تلك الوسيلة دون مستوى الغاية. فالإنسان يستعمل الوسيلة كي يصل إلى الغاية.

وكمثال على ذلك أن اللّه تعالى نهى المؤمن أن يذلّ نفسه، ولكن في سبيل الإصلاح بين اثنين يمكن أن يذلّ نفسه، فيأتي إلى هذا ويخضع له قليلاً، ويذهب إلى ذاك ويفعل كذلك. فبلحاظ ما يترتب على المسألة من موضوع أهم يضحّي بالمهم من أجله. وهذا من العناوين التي يستند إليها الفقهاء، وهو تقديم الأهمّ على المهمّ. وله تطبيقات كثيرة[١].

فكانت المسألة مع النبي صلى الله عليه وآله من هذا الباب، فكان الأهمّ أن يرشد هؤلاء، والمهمّ أن يمرّ على الصنم ويوحي إلى المقابل أنه كرّم هذا الصنم

---

(١) كالذي كان من سيدنا النبي إبراهيم عليه السلام في محاجّته مع قومه، وقد صوّرها القرآن الكريم بقوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. الأنعام: ٧٦ ـ ٧٩.

وكما حدث من عمار، فقد ألحّت عليه قريش وطلبت منه الاستجارة بوثن. فلمّا عاد عمار إلى النبي صلى الله عليه وآله كانت عيناه تطفحان بالدموع، فقال له: يا رسول اللّه، لقد انتزع هؤلاء مني كلمة بالإكراه. وقال من معه لرسول اللّه صلى الله عليه وآله: قد كفر عمار. فقال صلى الله عليه وآله: «لا، لا تقولوا هذا، إن عماراً مُلِئَ إيماناً من قرنه إلى قدمه». ثم قال له: «لا تبكِ يا عمار، وإن عادوا فعُد». مجمع البيان ٦: ٢٠٣، تفسير القرآن (الصنعاني) ٢: ٣٦٠.

واحترمه؛ فهداية الناس أهمّ من المرور على الصنم. فلما همّ بذلك نزلت الآية تمنعه، فالنبي ما ارتكب شيئاً ينافي العصمة.

ومن ناحية ثانية فإن الهمّ الذي يحدث في داخل نفس الإنسان لا يؤاخذ عليه الإنسان دون الفعل والقول. فلو دار في ذهني أن أرتكب معصية، ولم أتكلّم بها ولم أُطبقها عملياً، فلا أُؤاخذ عليها، يقول الحديث الشريف: «وُضع عن أمتي ما حدّثت به نفسها ما لم يعمل به أو يتكلّم»[1]. فمجرد الخواطر التي تحدث في ذهن الإنسان لا يؤاخذ عليها إلّا إذا طبّقها بالقول والفعل.

هذه خلاصة أسباب النزول. ونعود الآن إلى الآية الكريمة، فالمجموع الذي نستفيده منها أن المشركين حاولوا جرّ النبي ﷺ بطريقة أو بأُخرى إلى تلبية مطالبهم. لكن اللّه عصمه عن أن ينزل إلى هذا المستوى.

المبحث الثاني: أن على صاحب الموقف الثبات على موقفه

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وإنْ كادُوا لَيَفتِنُونَكَ عن الذي أوحَينا إليكَ﴾، أي كادوا لَيزيلونك عن موقفك. فالآية الكريمة تقول له: إن الإنسان موقف، وأنت تُعلّم الناس المبادئ، وأهمّ هذه المبادئ أن الإنسان إذا آمن بقضيّة فلا ينبغي له أن يتزلزل عن موقفه إزاءها. وهؤلاء يحاولون أن يزلزلوك عن موقفك؛ فعليك أن تبقى صامداً عليه.

ومن تطبيقات هذا المعنى أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حينما وصلت إليه

---

(١) التبيان ٦: ٥٠٦، باختلاف يسير، مجمع البيان ٦: ٢٧٨، بحار الأنوار ١٧: ٥٤. وورد عنه ﷺ أنه قال: «وضع عن أُمّتي تسع خصال: الخطأ والنسيان وما لا يعلمون وما لا يطيقون وما اضطرّوا إليه وما استكرهوا عليه والطيرة والوسوسة في التفكر في الخلق والحسد ما لم يظهر بلسان أو يد».

انظر: الكافي ٢: ٤٦٢ ـ ٤٦٣ / ١، فتح الباري ١١: ٤٧٨، المعجم الأوسط ٨: ١٦١.

الخلافة جاءه جماعة من الرؤوس البارزة، حتى من شيعته، فطلبوا منه ألّا يغيّر العمال والولاة من قبل عثمان، ولا يحرّكهم الآن، وأن يتركهم حتى يستقرّ الوضع وتأخذ الأُمور نصابها؛ فإنهم إن عرفوا غير مستعدّين للتنازل عن هذه الأمكنة والمناصب التي وصلوا إليها، فهم وصلوا إلى أمكنة ما كانوا يحلمون بها. وأن هؤلاء ليسوا مثل أمير المومنين عليه السلام في نظرتهم للدنيا، فقد وصلوا إلى الكرسي، فملكوا الأموال وحازوها، ونالوا الإمارات، فإن شعر أحدهم أنه سوف يُزال عن سلطان فسيخلق ألف مشكلة[1].

---

(١) ومن هؤلاء المغيرة الذي انصرف مغاضباً لمّا رفض الإمام عليه السلام الانصياع خلف أهوائهم في تثبيت معاوية في ملكه، وجعل ينشد:

نصحت عليّاً في ابن هند مقالة	فرُدَّت فلا يسمع لها الدهرَ ثانيهْ
وقلت له أرسل إليه بعهده	على الشام حتى يستقرّ معاويهْ
ويعلم أهلُ الشام أن قد ملَكته	وأمُّ ابن هند عند ذلك هاويهْ
فلم يقبل النصح الّذي جئته به	وكانت له تلك النصيحة كافيهْ

مروج الذهب ٢: ٣٩١.

ويروى أن المغيرة قال لابن عبّاس رضي الله عنه فيما بعد في مجلس معاوية: والله لقد أشرت على عليٍّ بالنصيحة، فآثر رأيه، ومضى على غلوائه، فكانت العاقبة عليه لا له. فقال له ابن عبّاس: كان والله أمير المؤمنين عليه السلام أعلم بوجوه الرأي ومعاقد الحزم وتصريف الأُمور من أن يقبل مشورتك فيما نهى الله عنه وعنّف عليه، قال سبحانه: ﴿لا تَجِدُ قَوماً يُؤمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوم الآخِرِ يُوَادُّونَ مَن حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَو كَانُوا آبَاءَهُم أَو أَبنَاءَهُم أَو إِخوَانَهُم أَو عَشِيرَتَهُم﴾ [المجادلة: ٢٢]. ولقد وقفك على ذكر مبين، وآية متلوّة قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُداً﴾. وهل كان يسوغ له أن يحكِّم في دماء المسلمين وفيء المؤمنين من ليس بمأمون عنده، ولا موثوق في نفسه؟ هيهات هيهات، هو أعلم بفرض الله وسنّة رسوله من أن يبطن خلاف ما يظهر إلّا للتقيّة، ولات حين تقيّة مع وضوح الحقّ، وثبوت الجنان وكثرة الأنصار، بل يمضي كالسيف المصلت في أمر الله، مؤثراً لطاعة ربّه، والتقوى على آراء أهل الدنيا. بحار الأنوار ٤٢: ١٧٠، شرح نهج البلاغة ٦: ٣٠١.

وقد يكون هذا الرأي من الوجهة السياسية ممكناً، وله حصة من الصواب، لكن الإمام علياً عليه السلام يتصرّف وفق أحكام الإسلام، وهو عليه السلام إسلام يمشي على الأرض. فقال عليه السلام لهم: «أمّا طلحة والزبير فسأرىٰ رأيي فيهما، وأمّا معاوية فلا والله لا أراني مستعملاً له ولا مستعيناً به مادام علىٰ حاله: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً﴾[١]، ولكن أدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه المسلمون، فإن أبىٰ حاكمته إلى الله»[٢].

فهو عليه السلام يقول لهم: ما المبرر لأن أترك أحداً يعصي الله ويشرّع في مقابله؟ فأنا أحكم باسم القرآن، ولا بدّ أن أُطبّق القرآن، وهو يقول: ﴿وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ﴾[٣]، ويعطيني حدوداً هي أن أُعطي الأمر إلى من يستحقّه، وهؤلاء ليسوا مستحقّين من وجهة نظر الشرع، فكيف تطلبون مني أن أدعهم؟

دخل أبو الدرداء يوماً على معاوية فقال له: ما المبرر لك أن تشرب بآنية الذهب وقد حرّم الإسلام ذلك؟ فقال: أنا لا أرى به بأساً[٤]. فما المبرّر لعلي أن يترك هذا في عمله؟ يقول أمير المؤمنين: «قد يرىٰ الحوّل القُلّب[٥] وجه الحيلة، ودونها مانع من أمر الله ونهيه، فيدعها رأي عين بعد القدرة عليها، وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين»[٦].

والغريب هنا أن بعض الكتاب لم يفهموا علي بن أبي طالب عليه السلام، ولا

---

(١) الكهف: ٥١.
(٢) مروج الذهب ٢: ٣٩١.
(٣) هود: ١١٣.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ٧: ٣٩٢.
(٥) القلّب: البصير بتحويل الأمور وتقليبها. مختار الصحاح: ١٦٤ ـ حول.
(٦) نهج البلاغة / الخطبة: ٤١.

المسألة التي يعالجونها، فراحوا يقولون عنه: إن حياة هذا الرجل حدثت فيها أخطاء كان اللازم عليه ألّا يعملها. ومن ذلك أنه ما كان ينبغي له أن يسارع إلى عزل ولاة عثمان حتى يستقرّ له الأمر.

وهذه ليست من الأخطاء، إنما هي من الالتزامات والمواقف التي يريدها الشرع؛ لأن الشرع يريد ممّن يحكم باسمه أن يطبّق أوامره ونواهيه. وقد كان بوسع أمير المؤمنين عليه السلام أن يتركهم في أعمالهم، لكن ضميره لا يدعه يتركهم، والتزامه بأحكام اللّه وأوامر القرآن لا يعطيه مجالاً لأن يتصرّف هذا التصرّف. ولذا لم يقبل آراء المقترحين، وقال لهم: ليحدث ما يحدث، فأنا لست صاحب مصلحة، ولا أريد أن أحافظ على كرسي أجلس عليه، وإنما أريد أن أطبق أحكام اللّه في الأرض.

وكانت هذه من القضايا التي سبّبت حرجاً لأمير المؤمنين عليه السلام، ولها نظائر من القضايا كثيرة، فمن هذه القضايا أن الحاكم اليوم مثلاً لو كانت عنده جريدة تخدمه، فتنشر له أخباره يومياً وتبرّر وجوده وتفخّمه وتعظّمه وتدعمه فكرياً، فإنه يلتزمها وإن كانت باطلاً. والشعراء في عصر أمير المومنين عليه السلام كانوا صحفاً سيّارة، فالشاعر يذود ويدافع ويبرّر ويحسّن ويقبّح، وللشاعر منزلة كبيرة، لكن إذا ارتكب الشاعر العصيان وشرب الخمرة، فما المبرّر لعلي عليه السلام ألّا يقيم عليه الحد؟ وهذا ما حدث له عليه السلام مع جرير الشاعر المعروف، فقد كان يشرب الخمرة، وفي الوقت نفسه يريد عطاءً من أمير المؤمنين عليه السلام من الحق الشرعي. والحق الشرعي لا يمكن أن يعطيه الإمام عليه السلام لمن يصرفه بالحرام، وهذا ما يذهب إليه المسلمون كلهم؛ ففي ذلك إعانة على الإثم، فلم يكن الإمام مستعداً لأن يعطيه،

فالتحق بمعاوية[١]. في حين أن غير علي بن أبي طالب يبحث عن ألف طريق لتبرير مثل هذه العمل.

لقد كان ابن هرمة شاعراً أديباً، وقلماً من الأقلام ذات المنفعة، وكان صديقاً للمنصور، فلما وفد على المنصور سأله: ألك حاجة؟ قال: بلى، حاجتي أن توعز إلى الوالي ألّا يلاحقني في الخمرة بأن يقيم عليَّ الحدّ فيها؛ فإني لا أصبر عليها. فقال المنصور: لا أستطيع أن أفعل ذلك أمام الناس وأُعطل حداً من حدود الله، ولكن اذهب وسوف ترى.

ثم بعث المنصور إلى الوالي فقال له: إذا جاءك من يشهد أن ابن هرمة شرب الخمر، فاجلد ابن هرمة الحدّ ثمانين سوطاً، واجلد من شهد عليه مئة سوط. فراح ابن هرمة يسكر في الشارع ويصيح: من يشتري ثمانين بمئة؟ فلم يتجرّأ عليه أحد[٢].

وهذا لون من التحايل على حدود الله. ولكن الضمير الذي حمل الله في داخله لا يمكن أن يتساهل في موقف فيه إساءة للدين ولو بقيد شعرة.

فالآية تقول للنبي ﷺ: أنت موقّف، فلا يُزِلك هؤلاء عن موقفك، وأنت تحمل للناس التعليم، وهذا التعليم يدرّبهم على المبادئ الكريمة، فلا تتغيّر إزاء ذلك.

المبحث الثالث: في الافتراء على الله ورسوله ﷺ

ثم قالت الآية: ﴿لتَفتَرِيَ علينا غيرَهُ﴾، وهذه أشدّ من سابقتها، فهم يقولون له: كما جعلتَ مكّة بلداً حراماً آمناً، فاجعل وادينا مثلها. فالله حرم فيها

---

(١) حوار مع الشيعة (الجبري): ٢٠٣، السيف والسقيفة (الورداني): ١٢٦ عن بعض الكتاب، وانظر الدولة الأُموية (الخضري) ١: ٢٨٨.

(٢) جواهر المطالب (ابن الدمشقي) ٢: ٣١١، تاريخ مدينة دمشق ٧: ٧٣.

سفك الدم واللجاج والعناد أثناء الحجّ، فقل في وادينا: إن اللّه قال فيه: إنه محرم، ليعرف العرب فضلنا، أي انسب إلى الوحي ما ليس منه. فأجابهم النبي صلى الله عليه وآله بأن هذا لا يمكن أن يكون أبداً. وهذه أيضاً من النقاط الخطرة، فالكل يلاحظ في تاريخ القمم التي حكمت في اُمّتنا أن الحاكم يبحث عن جماعة يبرّرون وجوده ويثلبون أعداءه، فمثلاً يدخل أحدهم ممن يعتبرونه من الفقهاء على الحجّاج، والحجّاج معروف في أن وسيلته للحكم هي سفك الدم ونشر الرعب والإرهاب، فيبرّر له هذا «الفقيه» عمله بقوله: إن اللّه إذا استرعى عبداً رعيّة كتب له الحسنات وأسقط عنه السيئات(١)!

فهذا يقول له: إن اللّه هو الذي ولّاك على هؤلاء هذا أوّلاً، وثانياً: إن اللّه سيكتب لك الحسنة ويمحو عنك السيئة. فلماذا هذا؟

قد يقول قائل: هل إن هذا التيّار موجود فعلاً عند المذاهب الإسلاميّة؟

فأقول: نعم، هذا صحيح، إنه موجود مع الأسف، ويعزّ عليّ أن اُصرّح بهذا المعنى. فهناك مَن حكم، ولمجرد أنه حكم صار مقدّساً. وأكبر دليل على ذلك أنهم يطلقون عليه لقب الخليفة، كالوليد ويزيد بن الوليد(٢)، ثم يفترضون طاعته، ويروون أن من يبيت ليلة وليس في عنقه بيعة لهم ثم يموت فإن ميتته ميتة جاهلية(٣). مع أنه إنسان كلّه ثغرات

---

(١) انظر: شرح نهج البلاغة ١٧: ٦١، فتح الباري ١٣: ١٠١، فيض القدير شرح الجامع الصغير ٢: ٣٠١، وفيها ردّ الزهري لهذا الحديث.

(٢) قد مرّ ما كان من أفعال هؤلاء وأمثالهم في ج ٣ ص ٩٢ ـ ٩٣ من كتابنا هذا.

(٣) انظر: صحيح مسلم ٦: ٢٠ ـ ٢٢، السنن الكبرىٰ (البيهقي) ٢: ١٥٨ ـ ١٥٩ / ٨، صحيح مسلم بشرح النووي ١٢: ٢٢٩، التمهيد: ١٥٢.

وعيوب، فكيف يُطلب منا أن نتعبد ونتقرب إلى الله بإطاعته[١]؟

يروي البخاري في الصحيح عن عبد الله بن عمر أنه لما حدثت واقعة الحرة في المدينة جمع أولاده وأهله فقال لهم: إذا بايع الناس أحداً ثم غدروا به فقد غدروا بالله، وللغادر لواء يُرفع يوم القيامة. فتمسّكوا ببيعة يزيد[٢].

وهذا الذي يرى أن من ينكث بيعة يزيد يكون غادراً يقال له: ما المبرّر لك في طاعة هذا الرجل؟ إنه كان يجلس على منبر المسلمين ويقول:

أقول لصحبٍ ضمّت الكأسُ شملَهم	وداعي صباباتِ الهوى يترنَّمُ
خُذوا بنصيبٍ من نعيمٍ ولذَّةٍ	فكلٌّ وإن طالَ المدى يتصَرَّمُ[٣]

كان هكذا في الخمرة، أضف إلى لعبه بالقرود والفهود[٤]، ومع ذلك يرى ابن عمر التمسّك بطاعته، والمبرّر هو أن يزيد صار حاكماً. بل الأكثر من ذلك أن هناك حملات على الذي ينتقد واحداً ممّن حكم. وأقولها ببالغ الأسف: إن مثل هذا الفكر لا يطارَد وإنما يطارَد من يتمسّك بقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَرْكَنُوا إلى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾[٥].

فمثل هؤلاء ينسبون إلى الله ما لم يقل وما لا يريد، من مثل «إن الله إذا استرعى عبداً الخلافة كتب له الحسنات ومحا عنه السيئات»[٦]. وفي

---

(١) انظر محاضرة (موقف الإسلام من الجور) في ج٣ ص ٨٥ ـ ١٠١ من كتابنا هذا.

(٢) صحيح البخاري ٨: ٩٩، وانظر صحيح مسلم ٦: ٢٠ ـ ٢٢، قريب منه.

(٣) جواهر المطالب ٢: ٣٠١.

(٤) انظر: شرح نهج البلاغة ٢٠: ١٣٣، البداية والنهاية ٨: ٢٣٩، النزاع والتخاصم (المقريزي): ٥٦.

(٥) هود: ١١٣.

(٦) فتح الباري ١٣: ١٠١، شرح نهج البلاغة ١٧: ٦١، فيض القدير شرح الجامع الصغير ٢: ٣٠١، وفيها أن الوليد بن عبد الملك سأل ابن شهاب عنه فكذّبه.

المقابل يحاولون أن يحطّموا أولياءه، فيبتكروا حديثاً ينسبونه للنبي صلى الله عليه وآله الذي لا ينطق عن الهوى، فمثلاً ينبري أحدهم ليقول: قال النبي: إن آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء[١].

من هم آل أبي طالب الذين هم ليسوا بأولياء للرسول صلى الله عليه وآله؟ أجعفر عليه السلام ذو الجناحين الشهيد الذي لفعته دماء الشهادة، الطهر الطاهر الذي مُلئ إيماناً من قرن إلى قدم، أم علي بن أبي طالب عليه السلام إمام المتقين، أم سيد العرب عقيل بما له من مزايا ومكانة، أم جمانة بنت أبي طالب المؤمنة الصالحة[٢]؟ أهؤلاء ليسوا أولياء للّه! فإن لم يكونوا كذلك فمن هو ولي اللّه؟ سمرة بن جندب[٣]؟

والمصيبة أن الرواية تقرؤها في كتاب يعتبر الثاني بعد القرآن، فلماذا يا تُرى يوجد مثل هذا اللون من النقل الذي يحزّ في النفس؟ ومعنى هذا أنك ترى مثل هذا الرافد في حضارتنا الفكرية الدينية يفتري على اللّه

---

(١) صحيح البخاري ٧: ٧٣، وفيه: آل أبي [ ]، قال عمرو: في كتاب محمّد بن جعفر بياض، صحيح مسلم ١: ١٣٦، وفيه: آل أبي، يعني فلاناً، لكن يؤيد أن المقصودين هم آل أبي طالب، ما في فتح الباري ١٠: ٣٥٢، شرح نهج البلاغة ٤: ٦٤ عن البخاري ومسلم، ١٢: ٨٨، صحيح مسلم بشرح النووي ٣: ٨٧، قال النووي بعده: الكناية بقوله: «يعني فلاناً» هي من بعض الرواة، خشي أن يسميه فيترتب عليه مفسدة وفتنة.

(٢) أم أُمّ هانئ التي أجار رسول اللّه صلى الله عليه وآله من أجارت وهما أخوا زوجها هبيرة بن أبي وهب المخزومي، وكانا ضمن من هرب عند الفتح، وذلك بقوله صلى الله عليه وآله: «قد أجرنا من أجرت يا أُمّ هاني». الموطأ ١: ١٥٢، مسند أحمد ٦: ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٤٢٣، ٤٢٤، ٥٢٥، صحيح البخاري ٧: ١١٠.

(٣) الذي يروى أنه قتل في يوم واحد ثمانية آلاف شخص في البصرة، ولم يفرّق ويميّز بين خارجي ومسلم. وحينما اعتُرض عليه في قتل المسلمين قال: الخارجي يعجّل به إلى النار، والمسلم يعجّل به إلى الجنة. انظر: تاريخ الطبري ٤: ١٧٦، تاريخ ابن خلدون ٣: ١٠، النصائح الكافية: ٧٦.

كذباً.

فالآية تخاطب النبي ﷺ باعتباره عنوان الخطاب، وإلّا فالأُمة هي المعنيّة بالخطاب. فمن يفترِ على اللّه تهددْه الآية الكريمة، قال تعالى: ﴿آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾[١]، وقال: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢].

فالآية مقام البحث تقول للنبي ﷺ: إن هؤلاء يحاولون أن يزعزعوك ويقرّبوك إليهم كي تميل إلى اختراع شيء وتنسبه إلى اللّه تعالى، وهذا افتراء على وحي السماء.

المبحث الرابع: في اتخاذ الكافرين أولياء

ثم قالت له: وإنك لو فعلت ذلك لهم ﴿إذاً لاتَّخذُوكَ خَليلاً﴾. فالنبي ﷺ له خلّة مع اللّه تعالى، وهو تعالى ناجى الأنبياء عليهم السلام كما في قوله لموسى عليه السلام: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾[٣]. فالآية الكريمة تقول له ﷺ: إنك لو أطعت هؤلاء صرت خليلاً لهم ولم تعد خليل اللّه، بل تنفصل عن ولاية اللّه إلى ولاية هؤلاء الظلمة. وهذا في الحقيقة تهديد مرعب.

الحجّاج والأعرابي

ومما له صلة بهذه المعنى حادثة حصلت للحجاج، ذلك أنه كان في الحج ذات يوم، وكان الزحام شديداً على الكعبة، فلم يستطع الطواف، فوضعوا له طنفسة في طرف من أطراف البيت واتّكأ عليها. وفي هذه الأثناء مرّ أعرابي يلبّي بصوت عال ملفت للنظر. فقال الحجّاج: عليّ به.

---

(١) يونس: ٥٩. (٢) البقرة: ٨٠.
(٣) طه: ١٣.

فلما جيء به سأله: ممن؟ قال: من بطن أمي. قال الحجّاج: أعني من أين استُقصي أثرك؟ قال: من ظهر أبي. قال الحجّاج: بل أعني من أين جئت؟ قال: من الطائف. قال: كيف تركت محمد بن يوسف؟ (وهو أخو الحجّاج، وكان والياً على الطائف). قال: تركته عظيماً جسيماً خرّاجاً ولّاجاً، لبّاساً حريراً، آكلاً شارباً، يلعب بأموال عباد اللّه. قال الحجّاج: أنا لا أسألك عن سيرته الذاتية، وإنما أسأل عن سيرته الاجتماعيّة مع الناس. قال الأعرابي: تركته ظلوماً غشوماً، آمراً بالمنكر تاركاً للمعروف، عاصياً للّه، مطيعاً للناس. قال: أتقول ذلك وأنت تعلم موضعه مني؟ قال: بلى، أنا زائر لنبي اللّه صلى الله عليه وآله، ووافد على بيت اللّه، أفتراه بمكانة منك أعزّ مني بمكانتي من اللّه ونبيّه؟

فسكت الحجّاج، وخرج الرجل من بين الصفوف دون أن يشعر به أحد، فتبعه طاووس الذي كان جالساً في المجلس، فقال له الأعرابي: ما تريد؟ قال: إن موقفك هذا أعجبني، وأحببت أن أنتفع بصحبتك. فقال الأعرابي: أنت صاحب الوسادة؟ وكان قد ثنيت له وسادة يجلس عليها جنب الحجّاج. قال: بلى، هذا رجل قوي، وكما طلبك طلبني. فقال: أما كان من ورعك ما يردعك عن الاستقرار بمجلسه؟ ثم قال: وإنك تطلب مني الصحبة؟ قال طاووس: بلى. قال: لا، إن لي صاحباً يغار علي، ولا أُريد أن أترك صحبته[1].

فالآية تقول للنبي صلى الله عليه وآله: إن هؤلاء لو ملت إليهم لاتّخذوك خليلاً ولن تكون حينها حبيباً للّه. وقد كان أبو الزهراء صلى الله عليه وآله حبيب اللّه حقاً، فقد وقف في

(١) جمهرة خطب العرب ٣: ٣٣١ ـ ٣٣٢، ولم ينقل حديث طاووس معه.

الليالي المظلمة حتى انتفخ الساق وورم القدم ونزل عليه قوله تعالى: ﴿طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾[١]. فقال صلى الله عليه وآله: «حبيبي أفلا أكون عبداً شكوراً؟»[٢].

هذا هو خط آل محمد صلى الله عليه وآله، إذا جنّ عليهم الليل تجدهم ذائبين بالله عز وجل. فهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله، وهكذا كان خليله وأخوه وصفيه علي بن أبي طالب عليه السلام. يقول حبة العرني: بت عنده ليلة فرأيته عند منتصف الليل شبيه من طار عقله، يتلمس الحيطان ويقول: «ربي ليت شعري أفي غفلات مُعرض أنت عني، أم ناظر إليّ؟ ما لي كلّما طال عمري كثرت خطاياي؟». ولم يهدأ إلى الصباح[٣].

وكان أولاده هكذا، لا في اللحظات الاعتيادية التي يكون فيها الإنسان على وعي واتجاه إلى الله، وإنما حتّى في أحرج ساعة تمر بهم، فكان أبو الشهداء عليه السلام يرمق السماء بطرفه في لحظاته الأخيرة ويقول: «لك العتبىٰ يارب، صبراً علىٰ قضائك، ياغياث المستغيثين، إن كان هذا يرضيك فخذ حتىٰ ترضىٰ»[٤]. فحتى هذه اللحظات العصيبة لا تجعلهم ينفكّون عن اللّه أبداً، على الرغم من الارتباط بأسرهم وأولادهم وأهلهم. فالإمام

---

(١) طه: ١ ـ ٢.

(٢) الكافي ٢: ٩٥/٦، مسند أحمد ٤: ٢٥١، وليس فيهما: حبيبي، فالحديث فيهما خطاب منه صلى الله عليه وآله لمن سأله: لم هذا، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر.

(٣) لم نعثر عليه عن أمير المؤمنين عليه السلام، وقريب منه ما يرويه طاووس عن السجاد عليه السلام، انظر: مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩١، المزار (المشهدي): ١٤١ ـ ١٤٢، وسيذكره المحاضر فيما سيأتي. انظر محاضرة (قبسات من حياة الإمام السجاد عليه السلام).

(٤) انظر: شجرة طوبى ٢: ٤٠٩، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٣٥٧، ينابيع المودّة ٣: ٨٣.

الحسين عليه السلام في لحظاته الأخيرة يرفع رأسه إلى السماء ويقول:

تركتُ الخلقَ طرًّاً في هَوَاكا	وأيتمتُ العيالَ لكي أرَاكا
فلو قَطَّعتَني في الحُبّ إرباً	لما مالَ الفُؤادُ إلى سِواكا[1]

وأي علاقة كانت له مع أهله؟ خصوصاً مع أُخته زينب عليها السلام؟ إنها علاقة لا يقوى الإنسان على تصويرها؛ لأنها درجت معه من طفولتها.. من حجر فاطمة إلى حجر علي عليه السلام في أرجاء ذلك البيت، لا تكاد تفارقه.. وجهه ملء عينيها، لا تبتعد عنه الليل ولا النهار.

لقد كانت عليها السلام في بيت عبد الله بن جعفر، لكنها تركت بيتها وأولادها وجاءت مع الحسين عليه السلام، فتبعها ولداها محمد وعون، وقتلا بالطفّ، فلم تذكرهما أبداً، وإنما كانت مغمورة بالحسين عليه السلام، وقد صعب عليها مصرعه، وجعلها لا تهدأ الليل ولا النهار.. تدخل إلى داره عليه السلام فترى صورته أمامها، وطيفه يناجيها، وتخرج فترى مواطئ قدمه من الأرض التي درجا عليها معاً. فكانت أينما ذهبت تلاحقها أنفاسه فتملأ عليها أحاسيسها، فكانت إذا جن عليها الليل تتّجه إليه:

أعيش وياك حلم بنوم	وصوره من اكعد من النوم
ما بيّه ابتعد عنك	أريد وياك اعيشن دوم
كلبي بكربلا عفته	يرف عالكبر رف الحوم
وآنه هنا بكايا روح	تعيش احزانها وتنعاك

* * *

(١) سبق أن نوّهنا في ج ٢ ص٣٣٦ من المحاضرات إلى أننا لم نعثر على من ينسبهما للإمام الحسين عليه السلام، بل هما ينسبان لأحد أبناء إبراهيم بن أدهم. انظر تاريخ مدينة دمشق ٦: ٣٠٦.

وعـيونك يـبو السـجاد لو يـــمك يـــخلوني

أحط راسي على كـبرك وارشه بـدمعة عـيوني

أكضي العمر كلّه هـناك واكـــولن للـسيلوموني

* * *

هـــذي الطـــفوف ومـنها بـالحشا شُـعَلُ مَـــن نـــاشدٌ ليَ أحـــباباً بـــها قُـــتِلوا

مِـن طـــيبةٍ بَـــزغوا فـــي كَـربلا أفَـلوا (بالأمس كانوا مـعي والـيومَ قـد رحـلوا

وخـلّفوا فـي سُـويدا الـقلب نـيراناً)(١)

---

(١) انظر البيت المخمّس في شجرة طوبىٰ ١: ٩٠.

﴿٦﴾

اتّباع الرسول ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ﴾[1].

مباحث النصّ الشريف

المبحث الأول: وجه الجمع بين النبي والرسول

يفرق العلماء بين النبي والرسول، فالرسول هو من يرسل ويبعث للناس عامّة، أما الذي يبعث إلى منطقة خاصّة كأن تكون مدينة أو قرية فهو نبي.

والرسول يجمع الاثنين؛ فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسول.

لكن يرد هنا سؤال هو: لماذا جمعت الآية بين الرسول والنبي؟ وما هي الحاجة للنصّ على النبوّة والرسالة؟ إن هذا سيتّضح من خلال البحث إن

---

(١) الأعراف: ١٥٧.

شاء الله تعالىٰ ، إن وجه التأكيد على (الرسول النبي) في الآية هو أنها تريد أن تبيّن أن الأشياء التي يأمر بها وينهىٰ عنها ليست من عنده ، بل هو مجرّد رسول يحمل رسالة السماء ، أي أنه واسطة وقناة بيننا وبين السماء التي تأمره وهو ينفّذ . وهذا الجانب له أثر نفسي ، فعندما يعرف الإنسان أن هذه الأحكام من الإنسان نفسه وليست من السماء ، فليس من السهل أن يتّبع صاحبها ؛ لأنه بشر يخطئ ؛ ولهذا فإننا حينما نتّبع الفقيه فليس لشخصه ، بل باعتباره ممثّلاً للشرع ولرأي الإسلام ، فهو إنما يستنبط الأحكام الشرعية من الآية أو من الرواية .

فعندما نعرف أن الحكم من الله ، وأن الرسول هو ناقل للحكم ، فحينها نقول : إن الله هو الذي يحكمنا ويوجّهنا ، وإن الرسول مجرّد واسطة بين الأرض والسماء . وهذا المعنىٰ يخفّف الوطأة على النفوس .

تقول الآية الكريمة : ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾ ، وهي تصف النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالأُمية ، فما هو وجه الوصف هذا؟ وربما يقول قائل : إن الأُمية جهل وعمىٰ ، ولذلك فإن الدول الراقية ترصد أموالاً ضخمة لتخليص شعوبها من الأُمية ، فالأُمي يعيش في ظلام الجهل ، فكيف يكون هذا الحال مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ؟ إن عندنا نوعين من الأُمية ، هما الأُمية الحضارية ، والأُمية الأبجدية . والمقصود هنا في هذه الآية الكريمة الأُمية الأبجدية ، والأُميّة الأبجديّة هي التي لايجيد صاحبها القراءة والكتابة ، في حين أنه حضارياً يمتلك معلومات لا حصر لها ، أما الأُميّة الحضارية فيقصد بها الأُمية التي لا يملك الشخص معها مقوّمات المعرفة ، والمعلومات ، بل إن ذهنه خالٍ من أي شيء ، ويفتقر إلى الفكر الثقافي .

إذن فالآية الكريمة إنما تنعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالأُمية الأبجدية ، أي أنه صلى الله عليه وآله وسلم لا

يقرأ ولا يكتب.

لكن مع هذا يبقى الإشكال وارداً، وهو أن الأُمية نقص، والنقص لا يمكن أن يكون في النبي، فلماذا أرسل الله نبيّاً أُميّاً؟ إن هناك أُمية عند البعض، لكن مع قدرته على ممارسة القراءة والكتابة لو أراد ذلك، فنعبّر عنه بأنه أُمّي؛ لأنه لم يمارسها، لكن القابلية على القراءة والكتابة موجودة. وهناك من يميل لهذا الرأي، فيقرّر بأن النبي ﷺ يستطيع أن يقرأ ويكتب لكنه لم يمارسها.

إن الأُمية إذا كانت عند الناس نقصاً، فإنها عند النبي فضيلة؛ لأن قريشاً ستتّهمه بأن القرآن كان من عنده، وهكذا فلو أنه ﷺ كان يقرأ ويكتب فإن التهمة ستثبت عليه: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[1]، فأراد الله جلّ وعلا أن يبيّن أن النبي ﷺ أُمي لا يعرف القراءة والكتابة، ولأجل هذا فالقران ليس منه؛ لأن الذي يخطّه لابدّ أن يحسن القراءة والكتابة. فالله تعالى يريد أن يدفع هذه الشبهة. ومع كلّ هذا فإننا لازلنا إلى الآن نسمع من المستشرقين وأعداء الإسلام وبعض الغربيين أن النبي ﷺ هو الذي اخترع القرآن ليحكم العرب، ووعدهم بالجنة وخوّفهم بالنار. فالعرب تنتصهم روضة خضراء، وأنهار وثمار متنوّعة؛ لأنهم يعيشون في الصحراء، فصوّر لهم جنة الله الواسعة التي فيها هذه الأشياء.

فانظروا إلى هذا التفكير الأبله، فإنّ النبي ﷺ لم يبعث للعرب فقط، وإنما بعث للدنيا كلّها، ومن جملته أوروبا، وأوروبا عبارة عن جنّات بالنسبة

---

(١) الفرقان: ٥. ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾. العنكبوت: ٤٨.

لبعض بقاع الأرض، فما قيمة وعدهم بالجنة؟ هذا فضلاً عن أن كل الكتب السماوية تصوّر الجنّة بالصورة نفسها التي يصوّرها القرآن، مع أن التوراة والإنجيل نزل قسم منهما في أوروبا. ثم إن هؤلاء ليسألوا أنفسهم عن هذه المفاهيم الحضارية الموجودة في القرآن من أين جاء بها النبي صلى الله عليه وآله، وهو يعيش في الجزيرة العربية التي كانت تعيش الجاهلية، ولا تمتلك مصادر العلم والمعرفة، فكانوا يعيشون أنماطاً من العقائد التافهة في الجزيرة العربيّة؟ ومن هذه الأنماط أن أحدهم إذا مرض فإنهم ينجّسون ملابسه حتىٰ يطردوا الشرّ أو الجنّ عنه، يقول أحدهم:

فلو أن عندي جارتين وراميأ وعلّق انجاساً علىّ المعلق[١]

فمن أين جاء النبي صلى الله عليه وآله بهذه المعلومات الضخمة الموجودة في القرآن لو لم يكن من الله عزّ وجلّ؟ فهؤلاء يطعنون في القرآن ولم يتنبّهوا إلى الثغرات التي ترد عليهم. فالإسلام يحمل للدنيا زاداً لا ينقطع، ويضع لها مبادئ ليصلحها، وفي القرآن قواعد عامّة لكل ذلك.

إذن فالأُمية التي أشار إليها القرآن فضيلة بحق النبي صلى الله عليه وآله؛ لأنها تنفي وتطرد تهمة أنه صلى الله عليه وآله قد خطّ القرآن بيده.

المبحث الثاني: كتمان الحقّ

ثم قالت الآية: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾، أي أن هؤلاء قد اطّلعوا على وصف النبي صلى الله عليه وآله في التوراة ووصفه في الإنجيل، لكنهم لا يبشّرون به؛ لأنهم إذا بشّروا به فقدوا مراكزهم الدينية ووظائفهم، ثم إنهم بعدُ لا تهمهم الحقيقة. سألوا مروان: هل تعتقدون أن

---

(١) البيت للمزق العبدي. شرح نهج البلاغة ١٩: ٢٩٨.

الإمام علياً قد اشترك في الأحداث ضدّ الخليفة الثالث عثمان؟ قال: معاذ الله، وإن الإمام علياً أبرأ الناس من هذا، بل إنه بعث أولاده للدفاع عنه. فقيل له: فلماذا تشيعون بين الناس بأنه قد شرك في دم الخليفة الثالث؟ قال: لأن أمرنا لا يستقيم ألّا بهذا(١).

فهذا الرجل صادق مع نفسه، ونحن نرى في تاريخنا الكثير ممّن إذا مرّ بذكر الإمام علي عليه السلام أعرض عنه، وإذا مرّ برواية له أعرض عنها، مع أنه تراث إسلامي كبير؛ فإنّ أهل البيت عليهم السلام للناس كافّه، وإن آل محمد عليهم السلام عطاء للأمّة الإسلامية كلّها. ومعلوم أن ترك ذلك وعدم ذكره لأجل المكانة والمال، مع أن المفروض بهذا أنه يكتم علماً، وسيحاسبه الله عليه(٢). فنحن نأخذ الحكم الشرعي من أي مذهب إسلامي إذا استكمل الشرائط.

والأغرب من هذا أن الرشيد يبعث إلى جماعة من القضاة والمفتين ويقول لهم: إذا مررتم برأي لعلي بن أبي طالب فلا تأخذوا به. فهؤلاء وقفوا موقفاً معادياً لعلي بن أبي طالب عليه السلام بكل ما في كلمة عداء من معنى. بل إن الرشيد قال لهم: إذا مررتم بآية في القرآن تنوه به فأعرضوا بوجوهكم عنها. وغير خفي أن هناك روايات عديدة لأعداء أهل البيت عليهم السلام تشهّر بالإمام علي عليه السلام، لكن هذا لا يضيره، يقول الشاعر:

عِداي لهم فضل عليّ ومِنّة … فلا أبعد الرحمن عني الأعاديا

---

(١) الصواعق المحرقة ١: ١٦٣.

(٢) قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾ البقرة: ١٥٩، وقال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ البقرة: ١٧٤.

هُــمُ فـتّشوا عـن زلتـي فـاجتنبتها وهـم نـافسوني فـارتقيت المـعاليا[١]

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾، وهنا مكمن المشكلة، حيث إنه صلى الله عليه وآله أمر بالمعروف ونهى عـن المـنكر ولم يسكت؛ لأنه وضع يده على مكامن النقص في حضارتهم، فوقفوا بوجهه، فقد فنّد مزاعمهم، وأبطل الكثير من معتقداتهم.

المبحث الثالث: معنى الطيّبات والخبائث

نأتي إلى المقطع الأخير من الآية الكريمة، وهو مركز الثقل فيها، حيث يقول: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْـخَبَائِثَ﴾، إن للـمفسّرين هـنا آراء حول هذا المقطع الشريف، سوف أُجمله ببعض النقاط:

النقطة الأولى: أن الإسلام مساوق للفطرة

يقول بعض المفسرين: إن الإسلام مساوق للـفطرة، أي أن المسـتلذّات النفسية يبيحها الإسلام، أما الأشياء التي تنفر منها الطباع والنفس فـإنه يحرّمها، فالطيّبات هي ما كانوا يستطْيبونه، والشيء الطيّب محلّل لهم، أما الخبائث فهي الأشياء المستقذرة، فقد حرّمها الإسلام عليهم. وهو بهذا يساوق الفطرة، أي يسير مع الطبع. وهذا الرأي غير مقبول؛ لأن هذه القضايا أُمور نسبية، فقد تجد بعض الأمم تستطْيب شيئاً، في حين أن أُمماً أُخرى تنفر منه، فالأوروبيون مثلاً يأكلون حيوانات عجيبة يستخرجونها من البحر، بل إننا نجد هذا حتى عند بعض المسـلمين، كـما أن بـعض المسلمين يأكلون الأرنب والضبّ في حين أن بعض المسلمين لا يطيقون

---

(١) البيتان لأبي حيان الأندلسي. الكنىٰ والألقاب ١: ٦١.

أكل ذلك كله.

وبغضّ النظر عن آراء الفقهاء في حلّيتها وحرمتها، فإن هناك شعوباً تتذوّق هذه الأكلة، وغيرها لا تتذوّقها. فالطيّبات إذن لا يمكن أن نعتبرها عنواناً عامّاً، والقرآن عندما يذكر الطيّبات والخبائث لا يترك الذوق يتحكّم بهذا؛ فنحن نتبع ما قاله الله في الطيبات والخبائث من أن هذا طيّب وهذا خبيث حسب ما قاله الله تعالى لنا؛ لأننا لا نعرف أسرار الأشياء.

الآثار الوضعيّة للأطعمة

ومن المعلوم أنه توجد آثار نفسية لبعض الأكلات، وقد تُعرّض آكلها لإصابته بالمرض بعد ذلك. ولذا فإننا يجب ألّا نتدخّل في تخطيط السماء، ولا في تكليفها، فما هو حجم الإنسان من الدنيا لكي يقابل الله؟ إن هذا هو منتهى الغرور.

وعليه فهذا الرأي ـ وهو أن الدين مساوق للفطرة فيما نحب ونكره ـ لا يمكن أن نقبله، فإن هناك أشياء قد ترفضها الفطرة، مع أنها تترتّب عليها مصلحة جسدية لا نعرفها.

فعلينا إذن أن نتّبع ما رسمته السماء لنا، فالمشرّع الإسلامي أعطانا مواصفات السمك الحلال، وحيوانات البر إذا لم تكن من الحشرات ومن السباع، وليس لها ناب أو ظفر فهي حلال، أما إذا كانت من الحشرات والسباع فهي من الخبائث. وكذلك أعطى مواصفات الطير فإذا كان صفيفه أكثر من دفيفه أو إذا لم يملك حوصلة فهو حرام. فالله تعالى بيّن لنا ذلك كلّه، وهو الحكيم، بل هو خالق الحكمة.

النقطة الثانية: في الحسن والقبح الذاتيين

إن قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ يقرّر أن هناك

حسناً وقبحاً ذاتيين للأشياء. وهذه المسألة موضع نزاع بين المذاهب الإسلامية، فمتى نسمي هذا الشيء حسَناً ومتى نسميه قبيحاً؟ المذاهب الإسلامية تقول: إن القبيح ما قبّحه الله، والحسن ما حسّنه الله؛ فإنه يجوز لله أن يعذّب المطيع، ويرفع العاصي ويدخله الجنّة، فالذي يقضي عمره بالصلاة والصوم والعبادة لا ضير في أن يضعه الله في النار، والذي يقضي عمره بالفجور والرذائل لا ضير في أن يضعه الله في الجنة. فهو تعالى يفعل ما يشاء.

وهذا الكلام غير مقبول، لأن هذا ظلم، والظلم قبيح، والله تعالى لا يقدم على القبيح، وبالتالي لا يقدم على الظلم. فإذا نعّم العاصي فإنه فرّق بين المقاييس، والله تعبّدنا بالعقول والمقاييس. ولذا فإن ابن قيم الجوزية (وهو تلميذ ابن تيمية) يذهب إلى الحسن والقبح العقليين، أي أنه لا يذهب إلى أن الحسن والقبح هما ما حسّنه وقبّحه الشرع. فالشرع يرشد إلى الحسن والقبح العقليين، وهذا الذي عليه الشيعة. سألوا أعرابياً: بماذا بعث الرسول صلى الله عليه وآله؟ قال: إنه لم يجئ بشيء وقال عنه العقل: إنه قبيح، ولم ينهَ عن شيء وقال عنه العقل: إنه حسن؛ فهذا دليل على أنه على حقّ. فهذا الأعرابي أفضل من هؤلاء الذين يقولون: إن الحسَن ما حسّنه الشرع، والقبيح ما قبّحه الشرع، ومن يقل بأن الله يمكن أن يأتي بشريعة ثم يأتي بضدّها فليراجع متبنياته العقلية والفكرية.

فهذا المقطع من الآية نستدل منه على أن الأشياء لها صفة ذاتية، أما الأشياء المادّية أو بعض الأعمال فنحن نعرف أن بعضاً منها قبيح، كالسرقة والخيانة قبل أن يقول الشارع لنا ذلك، وكذلك الإحسان إلى الناس فهو أمر حسن قبل أن يقول لنا الشارع بأنه أمر حسن. والشرع إنما

يرشد لهذا؛ فإنّ العقل نبي داخلي والشرع نبي خارجي.

ومن لم يكن لديه عقل فإن الله لا يكلّفه، فالأبله لا يكلّف، ذلك أن العقل مناط التكليف وملاكه، أي أن له القابلية على تمييز الأشياء، ومعرفة القبح والحسن، وأن الله تعبّدنا بهذا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1]، و: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾[2]، أي ذي عقل، و: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[3].

فالله يأمرنا أن نحكّم عقولنا ونفكّر، ولو لم يكن العقل حجّة ما أحالنا إليه، ومن هذا نعرف أن الله تعالى تعبّدنا بالعقول، والإنسان إذا جُرّد من العقل فإنّ الحيوان يصبح أفضل منه، وإذا أُلغي العقل أُلغي التكليف، والله لا يأمرنا بما يخالف العقول، فإنّ الله عُبد وعُرف بالعقل.

سأل النبي ﷺ عجوزاً: كيف عرفت ربك؟ قالت: إن عندي دولاباً أُلفّ عليه المغزل، يشتغل بحركة يدي، ويتوقّف إذا لم أُحرّكه، وأنا أرى الشمس تطلع وتغرب، والأرض تمرّ بأحوال مختلفة حيث الليل والنهار، والمراسم كلاً في وقته، فعلمت أنه لابدّ من وجود أحد يديره، فإذا كان هذا الدولاب لا يتحرّك إلّا إذا حرّكته فكيف بهذا الكون؟ فهذا تحكيم للعقل، فالأشياء لها حسن وقبح عقليان.

النقطة الثالثة: الحرية الفكرية

إن هذا المقطع الشريف يدلّ على تحرير البشر من المؤسسات التي

---

(١) الرعد: ٤، النحل: ١٢، الروم: ٢٤. (٢) الفجر: ٥.

(٣) الحج: ٤٦.

تتحكّم في تفكيره؛ لأن السماء هي التي تحدد لنا الطيّب والخبيث بمساعدة عقولنا. فالله تعالى خلق لنا هذه العقول ومنحنا القدرة على التفكير، ووضع لنا القواعد التي نستطيع عبرها أن نعرف الصحيح من غيره. فهذه الضوابط هي من وضع السماء، وليست من هؤلاء الذين يطرحون رأيهم بلا دليل كالأحبار والرهبان، فهؤلاء مثلاً كانت أغلب آرائهم مناطها التحكّم[١]، كما في مسائل الزواج والطلاق، حيث أباحوا زواج المحارم كالمجوس، فإن المجوسي يباح له أن يتزوّج بنت أُخته وبنت أخيه. وهذا بخلاف الإسلام الذي يأمر بالزواج من الأباعد؛ لأن هذا الفعل سيؤدّي إلى أن يغرس المحبّة بين عائلتي الزوجين، فحينما يضمّ الزوج أُسرة جديدة إلى أُسرته، فإنه يكون قد نشر المحبّة بينهما، وهذا من جملة أهداف الزواج. فبهذا الزواج تقترب هذه القبيلة من تلك القبيلة، وتتبادل المحبّة والولاء بينهما، ويُتخلّص من البلايا التي تحدث عند الزواج من الأقارب.

فهؤلاء الأحبار والرهبان يتحكّمون بالزواج كما يتحكّمون بالطلاق، حيث يمنعونه ولا يبيحونه. وليس هذا مقتصراً على هؤلاء، فبعض المذاهب الإسلامية لها أُمور عجيبة في الطلاق، فمثلاً إذا قال الرجل لزوجته: أنت بتّة فقد طلقت[٢]، أما عندنا فلا يقع الطلاق إلّا بلفظ الطلاق. كما أنهم يجيزون طلاق السكران[٣] الذي يفقد عقله، فتنهدم الأُسرة بقول السكران. وقد أُلغيت الطلقات الثلاث في جمهورية مصر مؤخّراً،

---

(١) التحكّم: هو كل دعوى بلا دليل يعضدها.

(٢) الأُم ٥: ١٢٤، الشرح الكبير ٢: ٤٠٢، المبسوط (السرخسي) ٦: ٧٩.

(٣) مختصر المزني: ١٩٤، عن الشافعي، روضة الطالبين ٦: ٢٣، فتح الوهاب ٢: ١٢٤.

واعتبرت واحدة، ذلك أن عندهم لو طلّق الزوج زوجته بالثلاث أصبح طلاقاً بائناً، وحرمت عليه حتى تنكح زوجاً غيره.

فالأحبار والرهبان كانوا يتحكّمون بالطلاق والزواج، ونحن نشاهد مقدار المفاسد التي تترتّب على بعض الزيجات، فربما لاتنسجم حياة الرجل مع المرأة، فلابد من الطلاق حينها، صحيح أنه أبغض الحلال عند الله[1]، لكن إذا تعذّرت الحياة فلابدّ منه.

إذن فبيان الحلال والحرام من اختصاص السماء وليس من اختصاصنا نحن، فالعرب مثلاً كانوا يتحكّمون بالسوائب والفواصل، فالبعير إذا خرج من ظهره عشرة اعتبروه سائبة فلا يأكلونه، ويقولون: إنه حامٍ، أي حمىٰ ظهره، وكذلك الحال مع البحيرة التي هي ناقة تلد خمسة بطون، فيبحرون أُذنها، ويرسلونها فلا يستفيدون من لحمها. فهؤلاء كانوا يتحكّمون بهذا، فجاء الدين وقال لهم: إن الله هو الذي يبيّن لكم الحلال والحرام، فشأنه ليس لكم ولا بأيديكم: ﴿قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾[2].

إن بعض المذاهب الإسلامية تذهب إلى أنه لايوجد حكم ثابت عند الله، وإنما الحكم ماحكم به المفتي، ونحن نقول: إن الله له حكم في كل واقعة، والفقيه أو المفتي إنما يبحث عن الحكم، فإنّ أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد. فالآية الكريمة إذ تقول: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾، فهي إنما تقرّر أن السلطة بيد الله، ولو أنها أُعطيت للإنسان فإنه سيتحكّم بغيره من أبناء جلدته، صعد الحجاج على المنبر وقال: اسمعوا

---

(١) سنن ابن ماجة ١: ٦٥٠ / ٢٠١٨، سنن أبي داود ١: ٤٨٤ / ٢١٧٨.

(٢) يونس: ٥٩.

وأطيعوا ليس فيها مثنوية لأمير المؤمنين عبد الملك، والله لو أمرت الناس أن يخرجوا من باب من أبواب المسجد فخرجوا من باب آخر لحلّت لي دماؤهم وأموالهم. والله لو أخذت ربيعة بمضر لكان ذلك لي من الله حلالاً[١].

وهذا لون عجيب من التحكّم بعباد الله، وهذا وأمثاله[٢] هو الذي دفع بالحسين عليه السلام إلى أن يقف بوجه هذا التيار الجاهلي الذي حاول أن يظهر مرّة أُخرى على الساحة الإسلامية، ويقف بوجه رسالة السماء، فاستحلّ أصحابه به المحارم، فرأى الحسين عليه السلام أنه لابدّ من جولة للوقوف بوجه الطغيان الذي تحكّم بعباد الله، وقد كلّفه هذا ثمناً غالياً دفعه من بيوت آل محمد صلى الله عليه وآله كافّة، فقدم قرابين من أجل تحقيق إرادة الله، وضحّى هذه التضحية لأجل رسالة السماء.

كان عمرو بن سعيد الأشدق والياً على المدينة، وكان آباؤه وأجداده قد قتلوا في واقعة صفين، فبعث إليه يزيد برأس الحسين عليه السلام إلى المدينة؛ حتى يشمت به ويبرد غليل قلبه، فأخذ الرأس وصعد على المنبر وقال: يا محمّد، ثار بثارات بدر. ومرّت عليه مواكب النساء الأرامل واليتامى من آل محمد فتمثل بهذا البيت:

عجت نساءُ بني علي عَجةً كعجيجِ نسوتِنا غداةَ الأرنبِ[٣]

---

(١) سنن أبي داود ٢: ٤٠٠ / ٤٦٤٣، تاريخ مدينة دمشق ١٢: ١٥٩، البداية والنهاية ٩: ١٤٨ ـ ١٤٩.

(٢) كفعل مسرف بن عقبة حينما أخذ البيعة ليزيد من أهل المدينة بعد وقعة الحرّة، حيث إنه كان يقول للمبايع: تبايع على أنك عبد قِنّ ليزيد. تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ١٨١ ـ ١٨٢.

(٣) الإرشاد ٢: ١٢٣.

وبالفعل تشفّىٰ منهم، في حين أن بيوت آل محمد يمرّ عليها الليل وهي تعانق الأسى واللوعة، فهذه زينب عليها السلام تأتي إلى مكان الحسين عليه السلام فتجده خالياً، وأُم البنين تخرج للبقيع وتندب أبناءها، وقد بكىٰ مروان لها مرة حينما سمعها، وكانت تخطّ بإصبعها أربعة محاريب وتقول: كان لي أولاد محاريبهم عامرة بذكر الله، والآن محاريبهم خالية، ثم تندبهم:

لا تــدعونّي ويك أمّ البــنينْ	تــذكّريني بــليوثِ العــرينْ
كــانت بــنون ليَ أُدعــىٰ بــهم	واليــوم أصــبحت ولا مــن بــنينْ
أربــعة مــثل نســور الربــىٰ	قــد عــالجوا المــوت بــقطع الوتــينْ
يــا ليت شــعري أكــما أخــبروا	بأن عــباساً قــطيع اليــمنْ[1]

---

(١) شرح الأخبار ٣: ١٨٧، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (أبو مخنف): ١٨١.

﴿٧﴾

صحابة الرسول ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: منهجنا العلمي في تقييم الصحابة

هذه الآية الكريمة فيها مضامين عدّة، وهي ترتبط بموضوع مهمّ من مواضيع الساحة الإسلاميّة، وهو موضوع يرتبط بمشاعر كل مسلم؛ لأنه يتعلّق بالواسطة بيننا وبين المصدر الثاني من مصادر التشريع، بل بين المصدرين المهمين: الكتاب والسنّة. وأعني به موضوع عدالة الصحابة، الذي يحتاج إلى كثير من التجلية؛ لكثرة ما قيل فيه ووضع من التقوّلات والادّعاءات التي لا نصيب لها من الصحة. ومن يحرص على أن ينظّف الساحة الإسلامية ويكتسح ما بها من ألغام، فعليه أن يعطي هذا الموضوع

---

(١) الفتح: ١٨.

حقّه من البحث؛ ليزيل عنه الكثير من الغبار والشبهات العالقة به، والمتغلغلة في أدمغة الناس.

وقبل كل شيء لا بدّ من أن ننوّه إلى أننا لن نأنف من أن نتبرك بتراب أقدام الصحابة الطاهرين الأبرار الأوفياء الذين حملوا الكتاب والسنّة، وامتلأت قلوبهم إيماناً ورحمة (١). وإذا كان هناك تخبّط حاصل حول نِقاط معيّنة ساخنة، أو حول شراذم معيّنة، فإننا نتّبع معهم أُسلوب القرآن الكريم في تحديد مفهومي التزكية والعدالة. ومن يملك أدنى مقدار من الإدراك والسعة والاطّلاع على العلوم الإسلامية وطلب الحقيقة فإنه سيجد أن علماء الدراية عندنا وحتى كتّابنا لا يخرجون في هذا الموضوع عن إطار منهج القرآن الكريم والسنّة النبويّة الشريفة. وهذا ما نجده واضحاً بيّناً في الكتب المعتبرة الموثوقة عندنا في تقييم الصحابة، وسوف نمر بهذا المعنى في هذا المبحث، وما يليه من مباحث إن شاء الله تعالى.

في سبب نزول الآية الكريمة

نزلت هذه الآية الكريمة في واقعة الحديبية، وكانت هذه الواقعة سنة ست من الهجرة المشرّفة؛ إذ خرج النبي الأعظم صلى الله عليه وآله ومعه (١٤٠٠) صحابي، فلما وصل إلى الحديبية ظنّت قريش أنه صلى الله عليه وآله خرج لقتالهم، في حين أن الأمر لم يكن كذلك، فالنبي صلى الله عليه وآله أرسل يخبرهم بأنه لم يجئ مقاتلاً، وإنما جاء معتمراً وأصحابه، وليجدّد العهد بالبيت ويعظّموه، ولينحروا الهدي عنده ويرجعوا. لكن قريشاً صدّوه، وقالوا له: لا تبرح المكان الذي نزلت فيه. ثم حشدوا جيشهم، وجعلوا خالد بن الوليد

---

(١) كسلمان المحمّدي وأبي ذرّ والمقداد وحبر الأُمّة وغيرهم من أمثالهم.

قائداً عليه، ورابطوا هناك استعداداً لما يطرأ.

وتوالت بينهم الرسل، فهناك من عزّ عليه أن تُسفك الدماء، فقام بدور الوسيط لحسم الأمر، وكان أحد الوسطاء بين الطرفين عروة بن مسعود الثقفي جدّ علي الأكبر لأمّه. وكان آنذاك لم يُسلم بعدُ، فهو قد أسلم سنة (٩) هـ. وكان في تلك الأيام مع قريش، لكنه كان من العقلاء الناضجين ذوي المكانة في قريش. فجاء إلى النبي ﷺ وقال له: علام هذا الجمع؟ فبيّن له النبي ﷺ أنهم لم يأتوا لحرب ولا لقتال، وإنما جاؤوا زائرين لهذا البيت الحرام، ولينحروا الهدي ويرجعوا.

فعاد عروة إلى قريش وأخبرهم بقول النبي ﷺ، فقالوا له: ماذا رأيت هناك؟ قال: والله لقد وفدت إلى الملوك ووفدت إلى كسرى وقيصر والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً قطّ يعظّمه أصحابه كما يعظّم أصحاب محمد محمداً. ووالله إذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضّأ اقتتلوا على وضوئه، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النظر؛ تعظيماً له. وإنه قد عرض عليكم خطّة رشد فاقبلوها وأجمعوا أمركم[١].

ولأن عثمان بن عفّان كان قريباً لأبي سفيان، فقد بعث به رسولنا الأكرم ﷺ إلى قريش ليرى رأيهم فيما قاله لعروة، فاحتبسته قريش وانقطع خبره، وبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل، فقال رسول الله ﷺ حين بلغه ذلك: «لا نبرح حتى نناجز القوم». ودعا ﷺ الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فنزل قوله تعالى:

---

(١) صحيح ابن حبّان ١١: ٢١٩ ـ ٢٢٢.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾، فسميت «بيعة الرضوان»؛ لما حصل فيها من رضا الله تعالى على المؤمنين، و«بيعة الشجرة»؛ لوقوعها تحت الشجرة[١].

فلما رأت قريش إصراره على هذا الأمر خضعوا له وقالوا: نصالحك على أن ترجع هذه السنة، وتعود في السنة الآتية وتدخل إلى مكّة، ولك فيها ثلاثة أيام، تسعى وتطوف وتعتمر ثم ترجع. فقال النبي صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين: «هلم اكتب بيننا هذا». فأتى بورقة وكتب: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾. فقالوا له: لا تكتب هذا، بل اكتب: باسمك اللهم. فقال له النبي صلى الله عليه وآله: «اكتبها كما يريدون». ثم كتب عليه السلام: «هذا ما تعاهد عليه رسول اللّه محمد بن عبد اللّه...». فقاطعه سهيل قائلاً: مهلاً، لو كنّا نعرف أنك رسول الله لأطعناك ولما خرجنا لقتالك، اكتب: «محمد بن عبد اللّه».

فطلب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله من أمير المؤمنين عليه السلام أن يكتب ذلك فتلكأ عليه السلام في ذلك؛ حيث إنه (صلوات الله وسلامه عليه) لم تطاوعه نفسه الشريفة أن يمحو صفة الرسالة عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ويكتب اسمه فقط، يقول عليه السلام: «فقلت[٢]: هو والله رسول الله وإن رغم أنفك، لا والله لا أمحوها. فقال صلى الله عليه وآله لي: أما إن لك مثلها، ستأتيها وأنت مضطرّ»[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤: ٢٠٠، صحيح ابن حبّان ١١: ٢١٩ ـ ٢٢٢.

(٢) مخاطباً سهيل بن عمرو.

(٣) انظر: مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٦٥ ـ ٣٦٦، سنن النسائي ٥: ١٦٧ / ٨٥٧٦، تفسير القرآن العظيم ٤: ٢٠٠، صحيح ابن حبّان ١١: ٢١٩ ـ ٢٢٢. وقد مرّ في ج٢ ص٢١٠ ـ ٢١١ / الهامش:٢من المحاضرات تفسير ابن حجر رفض أمير المؤمنين عليه السلام محو كلمة رسول الله مع أمر الرسول صلى الله عليه وآله إيّاه بذلك بقوله: وكأن علياً فهم أن أمره له بذلك ليس متحتّماً،

وفعلاً مرّ أمير المؤمنين عليه السلام بهذه التجربة نفسها، وذلك في واقعة الحكمين في صفّين، فقد أجبره عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري وأشباههم على ذلك[١]. والتاريخ يحدّثنا أن معاوية قد حاول الفرار وتهيّأ له، فجاء إليه من أمسك ركابه قائلاً: إلى أين، وقد قتل عشرات الآلاف من أجلك؟ يقول معاوية: فتذكّرت عند ذاك أبيات ابن الإطنابة:

أبت لي عفّتي وأبى بلائي — وأخذي الحمدَ بالثمن الربيحِ

وإقدامي على المكروه نفسي — وضربي هامةَ البطل المشيحِ

وقولي كلّما جشأت وجاشت — مكانك تحمدي أو تستريحي[٢]

ثم قال معاوية لعمرو بن العاص: ما في مخبأتك؟ قال: مرهم فليرفعوا المصاحف. فلمّا رفعوها تغيّر الأمر.

فكان النبي ﷺ يذكّر الإمام عليه السلام في الحديبية بقوله: «**أما إن لك مثلها، ستأتيها وأنت مضطرّ**».

وهكذا وقّع النبي الأكرم ﷺ على الوثيقة، وحلّ وأصحابه من إحرامهم، ونحروا وحلقوا ورجعوا. ثم انتظروا إلى السنة القابلة، فذهبوا إلى مكّة، وبقوا فيها ثلاثة أيام، ودخلوا الكعبة وهم يهلّلون ويكبّرون. وهذا هو السبب في نزول هذه الآية.

فلذلك امتنع من امتثاله.

وكذلك فسّر قول رسول الله ﷺ: «أما إن لك مثلها، ستأتيها وأنت مضطرّ»، بقوله: يشير ﷺ إلى ما وقع لعلي يوم الحكمين، فكان كذلك. فتح الباري ٧: ٣٨٦.

(١) انظر ذلك مفصّلاً في ج٢ ص٢١٠ ـ ٢١١ / الهامش: ٢.

(٢) شرح نهج البلاغة ٢: ٢٢٣، ٨: ٥٩، ١٨: ٢٠٣، تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات: ٣٥٩، تفسير الثعلبي ٤: ٥٢.

والمهم في القصّة أن النبي صلى الله عليه وآله لما أصرّ على القتال رضخ المشركون، وطلبوا الهدنة، وقال الصحابة للنبي صلى الله عليه وآله: نبايعك على القتال والموت. وكان النبي تحت شجرة فبايعوه فنزلت الآية. فكان الناس يقولون: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وآله على الموت.

المبحث الثاني: مناسبة الحكم والموضوع

تقول الآية الكريمة: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ولدينا هنا ما يسمى: الحكم والموضوع، فلكلّ موضوع حكم يرتبط به. وهذا الارتباط تارة يكون على أساس أن الموضوع صفة له، وأُخرى لا يكون كذلك. ولتقريب المعنى سنعوم في أجواء هذا المقطع من الآية الكريمة، فالرضا في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حكم موضوعه المؤمنون. والمؤمن هو عبارة عن إنسان مضافاً إليه الإيمان. وهذا مثله مثل النجّار الذي هو عبارة عن إنسان مضافاً إليه مهنة النجارة أومهارة النجارة.

وهنا نلاحظ أن الرجل موصوف، وأن الإيمان صفة زائدة عنه. وعليه فإن الله تعالى عندما يقول: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي رضي عمّن بايعك من الصحابة المتّصفين بصفة الإيمان والاعتقاد، والتفاني في طاعة الله. وهذا اللون من الصحابة ـ بلا شك ـ منارة هدى لنا، وطريقنا إلى القرآن والسنّة النبوية الشريفة، وهم مجدنا، ونحن بهذا اللحاظ نقدّسهم ونحترمهم.

لكن عندما يُنزل القرآن سورة كاملة باسم سورة (المنافقون)، وعندما ينزل في القرآن: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾[1]، كما يعطي صفات متعدّدة في

(١) التوبة: ١٠١.

القرآن تحدّد جماعة خاصّة، منها أنهم لم يتّصفوا بصفات الصحبة ولو أنهم عاصروا النبي الكريم ﷺ، فكيف يمكن أن يكون الموقف من الصحبة والصحابة؟

إننا نقرأ في (صحيح البخاري)[1] و(صحيح مسلم)[2] والصحاح الأُخرى[3] أن النبي الأكرم ﷺ يقول: «ألا وإنه يجاء برجال من أُمّتي، فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يا ربّ، أُصيحابي. فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول: كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾[4]. فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدّين على أعقابهم منذ فارقتهم».

وهذا كما يرى القارئ ليس من كتب الشيعة، بل هو من كتب السنة، ومن أراد المزيد فليرجع فقط إلى روايات الحوض في الصحيحين، وأنا على استعداد لأن أعطيه عشرات المصادر حول هذا الموضوع. فهو موضوع حسّاس جداً، لكنني لا أُريد أن أضع يدي على جراحنا فتؤلمنا، غير أني آمل أن يكون المسلم واعياً، وأن نفكّر جميعاً بعقولنا لا بآذاننا.

إن القرآن ينزل آيات فيمن اتّصف بصفة الصحبة، ومفهوم الصحبة عند إخواننا السنّة ينطبق على كل من يرى النبي ﷺ ولو لساعة واحدة، فمن رأى النبي الأكرم ﷺ كذلك أصبح ممّن لا يمكن أن يتطرّق إليه الريب أو

---

(١) صحيح البخاري ٥: ١٩١ ـ ١٩٢، ٢٤٠ ـ ٢٤١، ٧: ١٩٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٨: ٨٧.

(٢) صحيح مسلم ١: ١٥٠، ٧: ٦٧، ٦٨، ٨: ١٥٧.

(٣) انظر: مسند أحمد ١: ٣٨٤ وغيرها كثير. سنن ابن ماجة ٢: ١٠١٦ / ٣٠٥٧. الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٤: ٣٨ - ٣٩ / ٢٥٣٩. ٥: ٤ / ٣٢١٥. المصنّف (ابن أبي شيبة) ٧: ٤١٥ / ٣٥. المصنّف (الصنعاني) ١١: ٤٠٧ / ٢٠٨٥٥.

(٤) المائدة: ١١٧.

النقد. وهذا كلام بعيد عن دائرة المسؤوليّة، ولا يمكن أن نعيره اهتماماً؛ لأنه ليس كلام من يحترم عقله. فالله تعالى أعطانا المقاييس وأمرنا أن نتّبعها. والنبي صلى الله عليه وآله نفسه أشار إلى أن الناس فيهم الصالح وفيهم الطالح، وليست هناك ميزة استثنائيّة ألّا للمعصوم، أمّا غيره فيمكن أن يخطئ ويمكن أن يصيب. وكل ما في الأمر أننا إذا مررنا بأحدهم فالواجب يقتضي حينئذٍ أن نقيّمه أولاً، لا أن نشتمه أو نسبّه حتى يتبين أنه أهل لذلك.

والتقييم الذي نعنيه هنا هو التقييم الموضوعي، وهو أن يُذكر للصحابي ما له وما عليه من الفضائل والإنجازات والمقام المحترم، أو الأخطاء التي ارتكبها والانحراف الذي أصابه، أمّا الشتم فلا، فهو غير وارد في قاموس النقد الموضوعي. وليس الشتم من شأننا، والذي يشتم غيرنا لا نحن، لأن السباب والشتم يؤذيان مشاعر كلّ مسلم. ونحن نتقرب إلى الله بحبّ الصحابي الذي تنطبق عليه صفات الصحبة، وهذه كتبنا بين أيدي الجميع. أما إذا قيّمنا فإننا إذا رأينا في البين انحرافاً، فحتماً سنقول: إن هناك انحرافاً يترتب عليه جزاء.

وهذا ليس بعيداً عن القرآن الكريم؛ ذلك أنه مدح أقواماً بقوله: ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلاَ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1] وذمّ آخرين بقوله: ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[2] وهذا هو منهج القرآن: فـ ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي

---

(١) التوبة: ٩٩.

(٢) التوبة: ٩٧، وقال: ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ

السَّعِيرِ ﴾[١]، و ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الجَنَّةِ ﴾[٢].

وهذه هي المقاييس التي يجب أن نتّبعها، أمّا الشتم فقد جاء من غيرنا، ومن هذا مثلاً ما يرويه المؤرّخون من أنه كان في أيام هشام بن عبد الملك رجل يدعى جنيد بن عبد الرحمن من أهل حرّان، وهو من الرجال المحترمين المرموقين، والرؤساء المعروفين، وكان الأمويّون يحترمونه، وكانت له حصّة من العطاء من بيت المال يأخذها كلّ سنة. يروي جنيد نفسه فيقول: كنت في طريقي إلى الشام يوماً لأستلم عطائي، وكان دخولي يوم جمعة، فدخلت إلى مسجد احتشد فيه الناس ليصلّوا الجمعة، فلمّا فرغت من الصلاة صعد الخطيب المنبر، ووعظ فاتّعظنا، وذكّر فتذكّرنا، ونصح فانتصحنا. ثم لمّا أراد الختام قال: دعونا نختم صلاتنا وموعظتنا بشتم أبي تراب.

فراحوا يشتمون علياً شتماً ذريعاً، فلما فرغوا سألت أحدهم: من أبو تراب هذا؟ فقال: إنه علي بن أبي طالب. قلت: زوج فاطمة بنت رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قلت: أبو الحسن والحسين عليهما السلام؟ قال: نعم. قلت: أول القوم إسلاماً؟ قال: نعم. قلت: أهو صاحب السيف المقاتل الذي ذبّ عن الإسلام، ثم استشهد في سبيل مبدئه؟ قال: نعم. قلت: فما المبرّر لشتمه إذن؟

ثم قمت إلى الخطيب فأمسكته من وفرة شعره، وجعلت أضرب برأسه الجدار حتى أدميته، فصاح: خذوني إلى الخليفة. فأخذنا الجلاوزة، فلما وقع بصر هشام عليّ قال: مرحباً بك أبا عبد الرحمن، متى قدمت؟

دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ التوبة: ٩٨.

(١) الشورى: ٧. (٢) الحشر: ٢٠.

قلت: أمس. قال: ما الخبر؟ فأخبرته الخبر وقلت: لو أنني سمعت من يشتم صهرك وابن عمّك وأبا سبطيك لما تركته، وهذا يشتم صهر رسول الله صلى الله عليه وآله. فقال هشام: صدقت يا أبا عبد الرحمن، وعليك ألّا تتأخّر، خذ عطاءك واذهب إلى أهلك.

لقد أحسّ هشام أن هذا الرجل يشكّل عنصر خطر عليه، وهذا هو شأن الكثير من الدول الآن، إذ أنها تعتبر الإنسان الواعي خطراً عليها.

وقد جعل الأُمويّون هذا الأمر سنّة شاب الصغير وهرم الكبير عليها، حتى إنها وصلت إلى الصلاة، وكان معاوية يقنت في الصلاة ويشتم أمير المؤمنين عليه السلام، ويتقرّب إليه البعض فيقول: وأزيدكم حسناً وحسيناً، ثم يأتي عمرو بن العاص فيقول: وأزيدكم أُمّهما فاطمة. والمسألة معروفة، فالأمد الذي شتم فيه علي عليه السلام على المنبر ثمانون عاماً. بل إن البعض كان يشتمه وهو في حياته، وكان بوسع الإمام عليه السلام أن ينتقم منه، لكنه على العكس من ذلك كان لا يبخسه في عطائه. يقول أحد الأُدباء:

سيّدي كلّما تلبّد أُفق	وتمادى بعسفه الديجورُ
وتمادت صحائف خطّ منها	قلم الحقد والهوى والزورُ
لاح بالأُفق من رؤاك جبين	بعض أوصافه السنا والعبيرُ
الجبين الذي أحاطوه شتماً	وإلى الآن بالجيوب الكثيرُ
فحباهم طيباً وعفواً كما يفـ	ـعل إن زجّ في اللهيب البخورُ
وتمهل أبا تراب فدون الـ	ـشتم من حولك الفضائل سورُ
إن أشادت بك السما وأفاضت	أي ضير لو سبّك المسعورُ

ويقول آخر:

وما مدحتي تُوليك فخراً وإنما أردّ بإطرائي عليك الطّواريا
إذا الملأ الأعلى تحذّرَ بالثنا عليك فما شاني وشأن ثنائيا[١]

المبحث الثالث: فرى القوم على الشيعة

وقد كان هذا المنهج من شتم عليﷺ وأهل بيتهﷺ هو السائد عند الأُمويّين. وليس هذا فحسب، وإنما عمدوا على أيدي صنائعهم ووعّاظهم إلى تزييف وتكذيب كلّ منقبة له، ومحوها من الوجود. وإلى الآن لم تنتهِ آثار هذه المسألة، فعندما تدخل إلى مكتبة لتقرأ التفسير أو التاريخ أو الحديث، فستجد ركاماً هائلاً من الشتائم في قواميس الكثيرين الذين لا يتركون كلمة نابية أو جارحة أو فيها سباب إلّا ويقذفون بها من يوالي علياًﷺ.

فرى ابن تيمية

الأولى: أن كتب الصحاح لم تنقل عن راوٍ منهم

وكمثال على هذا أنقل لك ما ينقله ابن تيمية عنا حيث يقول: «ليس في فرق الأُمة فرقة أكثر كذباً واختلافاً من الرافضة، فهم أكذب الناس؛ ولذا لم ترو كتب الصحاح عنهم رواية واحدة»[٢].

هذا مع ملاحظة أن الكذب عندنا يفطر الصائم إذا كان كذباً على الله تعالى

---

(١) الأبيات للشيخ حميد السماوي. علي في الكتاب والسنّة والأدب ٥: ١٤٩. وقد عوتب المتنبي في ترك ذكر المناقب فقال:

وتركت مدحي للوصي تعمداً إذ كان نوراً مستطيلاً شاملا
وإذا استطال الشيء قام بذاته وكذا صفات الشمس تذهب باطلا

نهج الايمان: ٦٦٩.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٥: ١٨٤.

ورسوله ﷺ، لكن لنرَ من هو الكاذب منّا، وهل صحيح أن كتب الصحاح لم تروِ عن الشيعة؟ كلا، إن العشرات من رواة هذه الكتب من الشيعة.

ومن أراد المزيد فليرجع إلى (الفصول المهمّة) لعبد الحسين شرف الدين، والجزء الثالث من (الغدير).

والذي تحت يدي الآن منهم (٩١) راوياً، أما المصادر الأُخرى فتروي أنهم أكثر من هذا. فهل تبيّن من الكاذب الآن؟

الثانية: تمثيل عائشة بالشاة

وكمثال آخر على الكذب على الآخرين ما يدّعيه ابن تيمية أيضاً حيث يقول: «إن الرافضة يمسكون نعجة ويطعنونها، ويقولون عنها: هذه أُمّ المؤمنين عائشة»[١].

إننا ـ الشيعة ـ والحمد لله نعرف أنفسنا، فهل رأى أحدكم هذا المنظر يوماً من الأيام؟ وأين يوجد هذا الكلام؟ إنه موجود في كتب شيخ الإسلام ومخيّلته.

الثالثة: كراهة الرقم عشرة

ويقول أيضاً: «إن الشيعة يكرهون العدد عشرة، ولا يذكرون رواية فيها هذا العدد؛ لأنهم يكرهون العشرة المبشّرة إلّا علي بن أبي طالب»[٢].

ورحم الله الشيخ الأميني الذي تتبّع عشرات الروايات فيها العدد عشرة[٣].

---

(١) منهاج السنّة النبويّة ٤: ١٧٦ ـ ١٧٧. (٢) منهاج السنّة النبويّة ٤: ١٧٦.

(٣) الغدير ٣: ١٤٨ ـ ١٥٠، وانظر الخصال: ٤٢٥ ـ ٤٥٤ / باب العشرة.

فرى أخرى

وليس هذا فحسب، فلو نظرنا في كتاب (الفصل في الملل والنحل) لابن حزم لرأيت الغرائب، وكذلك الشهرستاني في مؤلفاته، والقصيمي في (الصراع بين الوثنية والإسلام)، وابن عبد ربّه الأندلسي في العقد الفريد، وغيرهم [١]، فإن القارئ لا يجد فيها إلّا الافتراءات والكذب على الشيعة، ثم يقولون بعد ذلك: إن الصحاح لم تروِ عن الشيعة؛ لأنهم يكذبون.

إن هؤلاء يروون في صحاحهم عن خالد بن مسلم المخزومي الكوفي الذي كان من المرجئة، وكان يتقرب إلى الله بشتم علي بن أبي طالب عليه السلام.

ويروون عن عمران بن حطّان الذي يقول في عبد الرحمن بن ملجم:

يا ضربة من تقي ما أراد بها — إلّا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

إني لأذكره يوماً فأحسبه — أوفى البرية عند الله ميزانا [٢]

بالله عليك، لو كان عمران بن حطان يمدح أبا لؤلؤة قاتل الخليفة عمر، فهل كان البخاري يروي عنه [٣]؟ فلم هذا اللون من التعامل مع أمير

---

(١) انظر كل ذلك مفصّلاً في المجلّد الثالث من الغدير.

(٢) تاريخ الإسلام ١: ٧١٠، الاستيعاب ١: ٣٤٨، الإصابة ٥: ٣٠٣، تاريخ مدينة دمشق ٧: ٣٨٠، ٤٣: ٤٩٥، المواقف ٣: ٦٩٨، الحور العين: ٢٠١.

(٣) فقد روى عن عمران هذا. انظر صحيح البخاري ٧: ٤٥. وهو إنما يسبّ رجلاً يقول فيه رسولنا الأكرم ﷺ: «لا يحبّك إلّا مؤمن ولا يبغضك إلّا منافق». مسند أحمد ١: ٩٥، ١٢٨، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٠٦، كنز العمّال ١١: ٥٩٨ / ٣٢٨٧٨. ويقول فيه: «حربك حربي، وسلمك سلمي». شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٤، المناقب (الخوارزمي): ١٩٩، وأحاديث كثيرة غيرها بهذا المعنى. انظر الحاوي للفتاوي ٢: ٤٤، ويقول أيضاً: «من أحبّك ختم الله له بالأمن والإيمان، ومن أبغضك فليس له نصيب من الإسلام». مسند أبي يعلى ١: ٤٠٣ / ٥٢٨، المعجم الكبير ١٢: ٣٢١، كنز العمال ١١: ٦١١ / ٣٢٩٥٥، ١٣: ١٥٩ / ٣٦٤٩١، وقد نقل عن البوصيري قوله: رواته ثقات.

المؤمنين عليه السلام، وهو على أقل التقادير خليفة من خلفاء المسلمين؟
إن من الضروري أن نقوم بتسليط الأضوء الكاشفة على هذا الركام في تأريخنا وعلى ما يلفّه من زيف، وإلّا فإلى متى نبقى هكذا؛ الآباء يأكلون الحصرم، والأبناء يضرسون؟ ولمصلحة من هذه التركة السوداء الثقيلة والعبء القاتل في تأريخنا؟ وما ذنب من ينشأ على كلمة «لا إله إلّا الله» ليلغم فكره بمثل هذا؟ فإن أردنا أن نصفّي أفكارنا ونغربلها، فعلينا أن نزيح هذا الركام من الفرى والاختلاق، وأن يعاد النظر في هذه الكتب التي تقف عقبة في طريق المسلمين، وهو أمر ضروري جدّاً ولا بدّ منه.
يروي الإمام الحسين عن جده رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «الزموا مودّتنا أهل البيت؛ فإنه من لقي الله عزّ وجلّ وهو يودّنا دخل الجنة بشفاعتنا. والذي نفسي بيده لا ينفع عبداً عمله إلا بمعرفة حقّنا»[١].
وهذا الرواية مروية في كتب السنة أيضاً، وبإمكان القارئ أن يراها في كتاب (الصواعق المحرقة)، وغيره[٢] من الكتب.
ويقول النبي صلى الله عليه وآله في أمير المؤمنين عليه السلام: «لا يجوز أحد على الصراط إلّا من كتب له علي الجواز»[٣].
وإن كان الأمر كذلك، فهل يسعنا إلّا أن نفضّل من تنزل فيه هذه الروايات والأخبار والآيات؟ وكيف لا نرتّب على قول النبي صلى الله عليه وآله آثاراً؟
إذن فالذي يشتم غيرنا، وإلى الآن ما يزال الشتم يصيبنا منهم، وكلّ من ألّف كتاباً منهم لا يسعه أحياناً إلّا أن يفتتحه بشتمنا والافتراء علينا، ولا يقدر إلّا أن يبهتنا، فلم كلّ هذا؟

---

(١) الأمالي (المفيد): ١٣٩ ـ ١٤٠ / ٤. (٢) المعجم الأوسط ٢: ٣٦٠.
(٣) جواهر المطالب ١: ١٨، ١٠١، ينابيع المودّة ٢: ١٦٣، ٤٠٤.

وعليه فإن الحكم في الآية الكريمة ترتّب على قيد هو الإيمان، فيكون الوصف علّة له. فالصحابة المتّصفون بهذا الوصف هم موضع احترامنا وتقديرنا وتقديسنا، وأما إذا كان الأمر على غير ذلك، فإن النبي يقول: «لو عصيت لهويت»[(١)].

المبحث الرابع: صفة صحابة الإمام الحسين عليه السلام على ضوء الآية

ثم قالت الآية: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾، فما المقصود بالفتح؟ يروى أن عمر قام للنبي ﷺ حينما نزلت هذه الآية، فقال له: أهو فتح يا رسول الله؟ فقال النبي ﷺ: «نعم»[(٢)]، أي أن هذا الصلح الذي حصل بينه ﷺ وبين قريش هو فتح.

ونفهم من هذا أن النبي ﷺ يقول: إن وصولنا إلى أهدافنا هو الفتح؛ فالإنسان عندما يحقّق هدفه يكون قد فتح عليه. والإسلام لا يحبّ سفك الدماء، وعندما يقرّر الجهاد فإنه إنما ألجأته إليه الظروف؛ لأنه يريد أن يهيّئ أرضيّة صالحة؛ ليمرّ عبرها الدين الإسلامي. وعقيدة الإسلام تعني الرفاهية والحرية والخير والعطاء، ومن يقف في وجه ذلك فلابدّ من إزاحته من طريق سعادة الناس. يقول النبي ﷺ: «لا تتمنّوا لقاء العدوّ، واسألوا الله العافية، وإذا لقيتموهم فاثبتوا واصبروا»[(٣)].

ومن مجمل هذه الصفة من الصحبة علم الله تعالى ما في قلوبهم، وكان الجزاء أن أنزل السكينة عليهم، فكانوا مستعدّين لملاقاة الموت بنفس

---

(١) الإرشاد ١: ١٨٧، شرح نهج البلاغة ١٠: ١٨٤.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤: ٥٦.

(٣) صحيح البخاري ٤: ٩، ٨: ١٣٠، صحيح مسلم ٥: ١٤٣، سنن الدارمي ٢: ٢١٦، سنن أبي داود ١: ٥٩٢.

مطمئنة. وهذه هي صفة أصحاب الإمام الحسين عليه السلام. وأودّ أن اُلفت النظر إلى أن أصحاب الإمام الحسين عليه السلام فيهم مجموعة من الصحابة (رضي الله عنهم)، وقد قتلوا معه يوم الطف، أمّا الباقون فكانوا حملة القرآن والعلم والأخلاق. ومن يرد الاطّلاع أكثر فعليه بمراجعة سيرة عابس بن أبي شبيب الشاكري، وبنو شاكر بطن من همدان التي يقول فيها أمير المؤمنين عليه السلام:

جَزَىٰ اللهُ همْدانَ الجِنانَ فإنهم ... سمام العدىٰ في كلّ يوم خصامِ

لِهمْدانَ أخلاقٌ ودينٌ يزينُهُمْ ... ولِينٌ إذا لاقوا وحسنُ كلامِ

متىٰ تأتِهِمْ في دارِهِمْ لضيافةٍ ... تبتْ عندهُمْ في غبطةٍ وطعامِ

ولو كنتُ بوّاباً علىٰ بابِ جنّةٍ ... لقلت لهمدانَ ادخُلوا بِسلامِ[١]

ويقول عنهم يوم صفين: «لو تمّت عدتهم ألفاً لعُبد الله حقّ عبادته»[٢]. وكانوا من حملة السنة والقرآن وشرف الجهاد. فعابس هذا كان منهم، وكان بالكوفة، فلمّا دخل مسلم بن عقيل عليه السلام الكوفة كان ممّن يتردّد عليه، وممّن قام بالبيعة له، ودعا الناس إلى بيعته، وممن موّن الحملة واشترى السلاح. وكان قد قام خطيباً بعد أن أعلن مسلم عليه السلام دعوته عند دخوله، وقرأ على الناس كتاب أبي عبد الله عليه السلام، فقال: أنا لا اُخبرك عمّا في قلوب الناس، ولكني اُخبرك عمّا في نفسي، والله أنا اُقاتل دونك واُجيب دعوتك، حتى ألقى الله، ولا اُريد بذلك إلّا وجهه.

لكن الظروف ألجأت مسلماً عليه السلام إلى أن يخرج قبل موعد الحركة، وكان

---

(١) ديوان الإمام علي ٧: ٨٧ ـ ٨٨، شرح نهج البلاغة ٥: ٢١٧، ٨: ٧٨.

(٢) الجوهرة: ٢٥، إبصار العين: ١٢٧.

عابس لا يزال خارج الكوفة، فلمّا عاد ودخلها وجد الأمر قد استتبّ لعبيد الله، فلحق بالحسين عليه السلام، وخرج معه شوذب مولاه. يقول بعضهم: كان شوذب أفضل من عابس، لأنه كما نقل السماوي في (إبصار العين) كان أفضل علماً وأكثر حملاً للقرآن، وكان يجلس للشيعة فيأتونه للحديث الذي أخذه عن أمير المؤمنين عليه السلام[1].

وكان يوم الطف يحمل سيفه على عاتقه ويتبع سيّده عابساً الذي كان شديد الولاء لآل النبي ﷺ. يقول تميم بن ربيعة ـ وكان صديق عابس ـ: رأيته نازلاً إلى الحرب وهو ينادي: ألا رجل ينازلني؟ ألا من مقاتل؟ فلم يقترب منه أحد. فلما تحاشاه الناس؛ خوفاً منه، أمرهم ابن سعد أن يرضخوه بالحجارة، فلمّا رأى الأمر كذلك ألقى درعه وبزّته ونزل حاسراً إلى الحرب، فناديته: أجننت يا عابس؟ قال: ويحك، إن حبّ الحسين أجنّني. ورأيته يطرد أمامه أكثر من مئتين. حتى استشهد هو وغلامه (رضوان الله عليهما) في المعركة[2].

ومن جملة الأنصار حبيب بن مظاهر ـ أو مُظَهَّر ـ الأسدي، وهو من الصحابة، وممّن لازم أمير المؤمنين عليه السلام في كلّ حروبه، وكان هو ومسلم بن عوسجة الركيزة التي قامت عليها دعوة مسلم. ولما قتل مسلم أخفاه بنو أسد عندهم في الأرياف. فلمّا وصله الخبر بقدوم الإمام الحسين عليه السلام تهيّأ للالتحاق به، فنادى أحد غلمانه، وطلب إليه أن ينتظره خارجاً بين النخيل، وأن يكون معه جواد، على أن يتبعه فيما بعد. ثم دخل على زوجته وأطفاله يودّعهم، وقال لزوجته: إني ذاهب إلى الحسين بن رسول

---

(١) إبصار العين: ١٢٧.

(٢) إبصار العين: ١٢٨.

الله صلى الله عليه وآله. فقالت له: أبلغ حسيناً عني السلام، وخذ لي لحظة من لحظات رضاه عني، ثم ودعها وجزاها خيراً وخرج.

فلما وصل إلى الموضع الذي تواعد فيه مع الغلام سمع الغلام يتحدث، فأصغى إليه، فإذا به يخاطب الجواد ويقول له: يا جواد سيدي، لقد أبطأ سيدي، والله لئن لم يأتِ لأمتطينّك وأذهب إلى نصرة أبي عبد الله. فلما سمعه حبيب اعتز به كثيراً، واهتزّ كثيراً لموقفه، ثم أقبل إليه وقال له: ويحك، جزاك الله خيراً، ارجع إلى أهلك. فقال له: سيدي أنت تذهب إلى الجنة وتردّني إلى النار؟ خذني معك، لأُقاتل بين يدي أبي عبد الله عليه السلام. وأصرّ على حبيب في أن يصطحبه، فاصطحبه معه.

وأقبل حبيب والغلام من ورائه، إلى أن التحقا بالحسين في كربلا.

وكان الإمام الحسين عليه السلام جالساً إزاء المخيم، فأطلّ حبيب عن بعد، فلمّا وقع بصره على حبيب التفت إلى أصحابه قائلاً: «قوموا بنا، هذا حبيب بن مظاهر». وقام ومن معه من أصحابه لاستقبال حبيب الذي ما إن وقع بصره على الحسين عليه السلام حتى ترجّل عن جواده وانحنى على قدميه يقبلهما، وقال: سيدي أبا عبد الله، ايذن لي في أن أُسلّم على بنت أمير المؤمنين عليه السلام. فقال له الإمام الحسين: على الرحب والسعة. فأقبل وجلس بباب الخيمة، وجلست زينب داخلها، فقال: آه لوجدك يا زينب، يوم تحملين على بعير ضالع.

ووقف طويلاً عند بيت آل الرسول صلى الله عليه وآله، وصاحبَ الإمام الحسين عليه السلام حتى نزل إلى المعركة يوم الطف، وقاتل قتال المستميتين الأبطال إلى أن سقط، فأقبل إليه الإمام الحسين عليه السلام، وذاد عنه الخيل، وجلس عند رأسه وقرأ: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[1]، ثم قال:

---

(١) الأحزاب: ٢٣.

«أين أبطال الصفا؟ أين حبيب وأين زهير وأين برير؟ مالي أُناديكم فلا تسمعون، وأدعوكم فلا تجيبون، أولستم قد طلّقتم حلائلكم لأجلي، وأعرضتم عن زهرة دنياكم؟»[1].

كضوا حكّ العليهم دون الخيام ولا خلّوا خوات حسين تنضام
لمن طاحوا تفايض منهم الهام تهاووا مثل مهوى النجم من خر

وخرجت إليهم الحوراء زينب بعد منتصف الليل.. بعد أن هدأت العيال والأطفال، مرّت ما بين المصارع تقوم وتقع، وتخاطب الشباب الذين قتلوا مع الإمام الحسين، فقد كانوا كلّهم شباباً باستثناء بعض الصحابة، وكان أكبرهم سنّاً العباس فقد كان عمره (٣٤) عاماً:

يا هل نايمين على الشرايع كلمن بطبراته ينازع

* * *

تلك الوجوه المشرقات كأنها الـ أقمار تسبح في غدير دماءِ
خضبوا وما شابوا وكان خضابهم بدم من الأوداج لا الحنّاءِ

---

(١) معالي السبطين ٢: ١٩، شجرة طوبى ٢: ٣١.

الفصل الثاني
السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام

﴿٨﴾

وراثة الأنبياء عليهم السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

توطئة

نبي الله سليمان عليه السلام يعتبر الملك الثاني لبني إسرائيل؛ حيث كان الملك الأول «طالوت». وهو عليه السلام جمع إلى جانب الملك النبوّة، أي أنه كان يمسك بزمام السلطة الدينية والسلطة الدنيوية، وكانت فترة ملكه مع أبيه داود عليه السلام (٧٠) سنة. وخلال هذا الحكم استقرّت أُمور الدولة إلى حدّ ما، ثم حدث بعد ذلك صراع وانقسمت الدولة إلى قسمين: مملكة يهوذا، ومملكة إسرائيل، وكانت بينهما حرب طاحنة، إلى أن جاء نبوخذ نصّر فقضى عليهما معاً، وشتتهما فلم تقم لهما قائمة إلى سنة (١٩٤٨)م حيث

---

(١) النمل: ١٦.

أسّسوا دولتهم الجديدة.

يقول المؤرّخون: إن نبي الله داود عليه السلام أثناء حكمه كان يقوم بجولات بين الناس ويسألهم، حيث إنه يسمع مايقال فيه، و«ألسنة الناس أقلام الحقّ»، فأراد أن يتعرّف مبلغ رضاهم عنه، فسأل أحدهم: «ما تعرف عن داود؟». فقال له: نعم الرجل؛ يقول ويعمل بالحقّ. وأثنىٰ عليه ثناء حسناً، فقال له: «هل ترىٰ به عيباً؟». قال: بلىٰ. قال عليه السلام: «ماهو؟». قال: إنه يأكل من بيت المال، إن خير الناس من يأكل من كسبه.

فرجع النبي داود عليه السلام متألّماً، ووقف في محرابه، وقال: «أي رب، علّمني كسباً تغنيني به عن بيت المال». فألان اللّه تعالى له الحديد[1]، فأخذ يصنع من الحديد دروعاً ويبيعها، ثم يأخذ ثمنها ويقسمه أثلاثاً؛ فيعطي ثلثه لبيت المال، ويتصدق بثلثه الثاني، والثلث الآخر يعيش به. قال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنْ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[2]، فكان يتناول طعامه من كدّ يده.

فأكل الإنسان من عمله ومن كدّ يده يعدّ من أعظم المقرّبات إلى اللّه عزّ وجل؛ لأن الإنسان بالعمل يشعر بالكرامة والاعتزاز بالنفس، وهذا هو الذي دفع بالإمام علي عليه السلام إلى أن يعمل ويأخذ مسحاته ويردّد هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾[3]، وكان عرقه يمتزج بالتراب. وكان لايميّز نفسه الشريفة بالعطاء من بيت المال حتىٰ عن قنبر[4]، لكن

---

(١) المبسوط (السرخسي) ٣٠: ٢٤٦، تفسير القرآن العظيم ٣: ٥٣٥.

(٢) سبأ: ١٠ ـ ١١. (٣) الحاقة: ١٨.

(٤) وقد مرّ بنا قصة الثوبين اللذين اشتراهما وأعطىٰ غلامه قنبراً أحسنهما. انظر ص ٨٢، ١١٤، ٢٣٧ من هذا المجلد.

الجماعة الذين عاصروه لم يدركوا أسرار عظمته ونبله وحقيقة شخصيّته.

وهذه الآية يصنّفها المفسّرون ضمن الآيات المختصّة بالفقة السياسي، حيث إنه قد أُثير صراع حول أن النص إما أن يفهم موضوعيّاً ـ أي بما يحمله اللفظ من معنىً، فقط ـ فالماء يدل على السائل الذي نشربه، وإما أن يُفهم منه شيء آخر يؤوّل إليه.

المبحث الأول: هل يورّث الأنبياء عليهم السلام؟

إن قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ هو في الميراث المألوف بين الناس؛ لأن الآية بضميمة آيات[1] وروايات أُخرى[2] تؤكّد أن الأنبياء عليهم السلام كباقي الناس يرثون بعضهم بعضاً. فالمسألة إذن عامة ولا يتميّز بها الأنبياء عليهم السلام عن غيرهم من سائر الناس، فكما أن الناس يأكلون ويشربون ويعملون ويتزوّجون فكذلك هم عليهم السلام يفعلون مثلهم. لكن هناك أشياء يختصّ بها النبي صلى الله عليه وآله؛ منها أنه يستطيع أن يتزوّج من أكثر من أربع نساء.

ونظرية الميراث ترتبط بالقابليّات الفطريّة، فعندما يموت الأب فإنّ الابن يرث جسداً ضخماً وذلك حسب الجينات الوراثية، فهم كما يعطون الخواصّ الوراثيّة، فكذلك عليهم أن يعطوا الخواصّ الماديّة. هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرىٰ إن الآباء إنما يلدون الأبناء لتبقىٰ مسيرة الإنسانيّة

---

(١) انظر: النساء: ١٧٦، مريم: ٦، الأنبياء: ٨٩.

(٢) انظر: جامع البيان، المجلد: ١١، ج١٩: ١٧٢ حيث قال في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾: «ورث سليمان أباه داود العلم الذي كان أتاه اللّٰه في حياته، والملك الذي كان خصّه به علىٰ سائر قومه»، معاني القرآن ٥: ١٩٩ / ١٥، قوله: ويروىٰ أن سليمان ورثه النبوة والملك، زاد المسير ٦: ٦٠، وقد ذهب القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١٣: ١٦٩ إلىٰ أن الملك غير المال. وليس بشيء؛ لأن المال من لوازم الملك يورث معه.

ـ أي ليستمرّ النوع ـ وكذلك المادّة يحب أن تستمرّ، حيث إن الأب يعطي ماله لأبنائه هكذا.

وكذلك فإنّ هذه المسألة ترتبط بمبدأ من مبادئ الاقتصاد الإسلامي في تفتيت الثروة، فالثروة إذا تضخّمت عند الأب، فإن الميراث يجزّئها على الأولاد، وإن كانت الثروة لا تضخّم في الإسلام، لكنها ربما كانت من رباً أو غشّ أو استغلال.

قضيّة فدك ودعوى «لا نورّث»

فنظريّة الميراث يتساوىٰ بها الناس جميعاً، ولهذا وقع خلاف بين السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام وبين الخلافة، حيث استشهد الخليفة بهذه الرواية: «نحن معاشر الأنبياء لا نورّث، ماتركناه صدقة». وقال: إن هذه الرواية تخصّص العمومات في القرآن؛ حيث إن القرآن يقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾، و﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾[١]، ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾[٢] وذلك بعد أن ادّعت (سلام الله عليها) أنها قد ورثت فدكاً من أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله.

وحديث «لا نورّث» لم يروِه إلّا الخليفة أبو بكر، وقد انفرد بروايته. هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى فإنّ التكليف عادة عندما ينزل فإنه يبلّغ لأهل الشأن والاختصاص أوّلاً، فمثلاً حينما امتنع ثعلبة عن أداء الحقّ الشرعي نزلت به آية، فبلّغه النبي صلى الله عليه وآله بذلك[٣]. وكذلك خولة بنت خويلد لما ظاهر منها زوجها نزلت بها آية، فبلّغها النبي صلى الله عليه وآله بذلك[٤].

---

(١) مريم: ٥ ـ ٦. (٢) الأنفال: ٧٥.

(٣) انظر مستدرك وسائل الشيعة ٣١: ٢٥٦ / ١٥٢٨٩.

(٤) انظر: مجمع البيان ٩: ٤٠٨، تفسير القرآن العظيم ٤: ٣٤١.

أي أن الذي تنزل فيه آية يبلّغ بها أوّلاً وقبل أي أحد[١].

فنظرية الميراث عامّة. وحينها فنحن إما أن نقول: إن النبي صلى الله عليه وآله لا يدري ماذا سيحدث بعده بما أنه لم يبيّن ذلك للزهراء عليها السلام، أو أنه صلى الله عليه وآله كان يدري لكنه سكت. لكن من حقنا هنا أن نتساءل: لماذا سكت ولم يستدعِ فاطمة ويقل لها: «نحن معاشر الأنبياء لا نورِّث، ما تركناه صدقة»، فلا تطالبي بالميراث؟ وهذه الفكرة خطرت على شاعر أهل البيت عليهم السلام في هائيّته؛ حيث قال:

بضعةٌ من محمدٍ خالفت ما	قال حاشا مولاتنا حاشاها
سمعته يقول ذاك وجاءت	تطلبُ الإرثَ ضلّة وسفاها
هي كانت للّهِ أتقى وكانت	أفضلَ الناسِ عفّةً ونزاها
ولكان الجميلُ أن يُقطِعاها	فدكاً ما الجميلُ أن يَقطَعاها
كان إكرامَ خاتمِ الرسلِ الها	دي البشيرِ النذير لو أكرماها[٢]

ومن ناحية أُخرى كيف يمكن أن تكون الزهراء عليها السلام قد جهلت آية نزلت في بيتها؟ فحيث توجد قرائن نذعن إليها فإننا نقول بذلك، لكن المسألة التي تأخذ هذا المنحى لم تكن بالشكل الطبيعي.

فالإمام علي عليه السلام جمع القرآن، وقد كتبه وشرح غامضه، حيث كان يسمع الشرح من النبي صلى الله عليه وآله، فليس من المعقول أن تجهل الزهراء عليها السلام معاني آياته. وإلّا كيف يعقل أن أوس بن ملك الذي يتطهّر ببوله ويعيش في الصحراء يفهم القرآن[٣]، والزهراء عليها السلام لا تفهم معناه؟ إن هذا مخالف

---

(١) ومن ذلك حديث إسطوانة التوبة، أو إسطوانة أبي لبابة. وستأتي آخر البحث إن شاء الله.

(٢) الأبيات للسيّد الجذوعي. بيت الأحزان (القمي): ١٦٢.

(٣) ذلك أنه جاء أوس بن ملك وعائشة وحفصة وشهدوا عند أبي بكر أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورّث». انظر: الايضاح: ٢٥٧ ـ ٢٦٢، المسترشد في الإمامة:

للفطرة، وعناد للواقع.

وعليه فالميراث نظام شامل ليس له علاقة بفرد دون فرد، والأنبياء كسائر الناس يرثون ويورّثون.

ثم إن الإسلام نظّم الثروة وأساليب انتقالها، وميراث النبي صلى الله عليه وآله لم يكن بذلك القدر الكبير الذي يستحق أن تحدث حوله هذه الضجة، فلماذا أُثيرت هذه الضجّة إذن؟

الزهراء عليها السلام استدلّت بعمومات القرآن: ﴿**يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ**﴾[1]، فهذه الآية الشريفة شاملة للنبي صلى الله عليه وآله وغيره، لكن أبا بكر ادّعى أن حديث: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورّث، ماتركناه صدقة**» قد خصّص العموم.

دعوى النحلة

وذلك بعد أن فشلت دعوى الميراث التي كانت الزهراء عليها السلام قد رفعتها، ومفادها أن فدكاً كانت نِحلة دفعها إليها النبي صلى الله عليه وآله، حينما نزلت الآية الكريمة: ﴿**وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ**﴾[2]. فسأل النبي صلى الله عليه وآله من جبرئيل عليه السلام مستفسراً: «من هم ذوو القربى؟». فقال جبرئيل عليه السلام: «إن الله يأمرك أن تعطي فدكاً بُلغة لفاطمة، عوضاً عما أنفقته أُمّها في سبيل الإسلام». والإنفاق الذي كان من خديجة يفوق الوصف، فقد ذكر المؤرّخون أنه ما من بيت من بيوت مكّة إلّا كان يضارب بأموال خديجة[3]؛ فقد كان مجتمع قريش بأجمعه

٥٠٨، بحار الأنوار ٣١: ٢٩٥.

(١) النساء: ١١.

(٢) الإسراء: ٢٦.

(٣) انظر: مناقب آل أبي طالب ١: ١٢٣، شواهد التنزيل ١: ٤٣٨ ـ ٤٤٤ / ٤٦٧ ـ ٤٧٣،

يتاجر بأموالها ويضارب بها. وقد ساقت هذه الأموال كلّها إلىٰ بيت النبي صلى الله عليه وآله، وانتهى الأمر بها أن تنام مع النبي صلى الله عليه وآله على جلد كبش.

فنادى النبي صلى الله عليه وآله فاطمة وأعطاها فدكاً بحضور الشهود على أنه نحلة لها.

وقد كانت يد الزهراء عليها السلام على فدك ستّ سنوات تتصرّف به، والمسلمون يرونها، والنبي صلى الله عليه وآله أقرّها، فلو كان خاضعاً للملكيّة العامّة لكان النبي صلى الله عليه وآله انتزعه منها، أو نصّ على أنه ملّكها المنفعة فقط لا الأصل. ولكن لم يوجد من ذلك شيء.

ثم إن فدكاً كان للنبي خاصّة؛ لأنه ممّا لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب ـ أي لم يأخذه المسلمون بقتال ـ وإنما اُخذ بصلح[١]، فقد تنازل أهلها عنه للنبي صلى الله عليه وآله وصالحوه مصالحة، وقالوا له: نصالحك على نصف أموالنا مقابل أن تقرّنا على هذه الأرض[٢]. فاستدعى النبي صلى الله عليه وآله فاطمة عليها السلام وأنحلها فدكاً. وقد جرت هذه الهبة في بيت اُمّ أيمن (رضي الله عنها) بحضورها وبحضور أمير المؤمنين والحسن والحسين عليهم السلام[٣].

ولذا ادّعت فاطمة عليها السلام عليه بدعوى النحلة.

وقد ردّها أبو بكر قائلاً: إن هذه ثروة، والمسلمون بحاجة إليها، ثم قال لها: نعطيك طعاماً وكساء فلا تحتاجين لشيء. فقالت عليها السلام: «إن هذا نحلة أنحلنيه أبي». فقال: إن النبي حسب علمي لا يعطيكم هذا بأجمعه، بل

---

٥٧٠ / ٦٠٨ الدر المنثور ٤: ١٧٧.

(١) يوجف عليه: يسرع إليه، أو تُحثّ الخيل علىٰ الإسراع إليه. لسان العرب ٩: ٣٥٢ ـ وجف.

(٢) سنن أبي داود ٢: ٣٧ / ٣٠١٦، تاريخ الطبري ٢: ٣٠٦، السنن الكبرىٰ (البيهقي) ٦: ٣١٧، شرح نهج البلاغة ١: ١٩٨، ١٦: ٢١٠.

(٣) تفسير القمي ٢: ١٥٥، بحار الأنوار ٢٩: ١٢٨.

يعطيكم حاجتكم، وما تبقّى يودعه في بيت المال.

دعوى الخمس

فقالت له: «اذن أعطني سهم ذوي القربى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[1] إن اليتامى يتامانا، والمساكين مساكيننا، وابن السبيل منا، واسم اللّه ذكر للبركة، وسهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسهم ذوي القربى كلّه يعود لنا، فأعطنا حقّنا من خمس الغنائم وما يحصل للمسلمين من مواردهم». فقال: إن مبلغ علمي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يعطيكم هذا كلّه، وإنما كان يسدّ حاجتكم فقط، ونحن نعطيكم بهذا القدر، فمن لم يكن له طعام أعطيناه، ومن كان يحتاج اللباس كسوناه، ومن أراد التزويج زوّجناه، وما زاد على ذلك يعود إلى بيت المال.

ثمّ قال لها: أتراني أُعطي الأحمر والأبيض حقّه وأظلمك حقك، وأنت ابنة رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم؟ إن هذا المال لم يكن للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وإنما كان مالاً من أموال المسلمين يحمل النبي به الرجال، وينفقه في سبيل اللّه، فلمّا توفّي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وليتُه كما كان يليه[2]. فهو يريد أن يقول لها: أنا أسدّ حاجتك، لكن لا أُعطيك سهم ذوي القربى كلّه.

وهذه النقطة مازالت مثار تشنّج وخلاف. وليعلم بأن التاريخ لا يعود، ولكن ينبغي على الباحث عندما يتناول آية من القرآن أن يذكر معناها بغضّ النظر عن ارتباطها بالتاريخ، فليفسّر تفسيراً موضوعيّاً وليخرج من أغلال التبعيّة. فنحن نأخذ من عطاء القرآن، فلنملك تفكيراً عملاقاً ولنتبع الدليل في تفسيرنا له.

---

(١) الأنفال: ٤١.

(٢) السقيفة وفدك (الجوهري): ١٠٤.

فعلى المفسّر أن يتساءل ويقول: لماذا لايورث الأنبياء؟ فالمسلمون يروون قصة أبي لبابة، حيث تخلّف عن القتال مع اثنين، ثم ندموا وشدّوا أنفسهم على السواري في المسجد، وقالوا: لانبرح حتىٰ ينزل الأمر من اللّه بالرضا عنا. فنزلت آيات تبرّئهم وتعفو عنهم، وكانت فاطمة عليها السلام قادمة للمسجد، فقال النبي صلى الله عليه وآله لها: «افتحي عنه وثاقه». فأرادت أن تفتح الوثاق من الإسطوانة فقال لها أبو لبابة: أنا أُريد رسول اللّه صلى الله عليه وآله أن يفتح لي بنفسه الحبل. فقال له النبي صلى الله عليه وآله: «دعها تفتح؛ فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها ويرضيني مايرضيها»[1].

وهذه الواقعة يرويها تاريخ المسلمين، فألمها ألم رسول الله صلى الله عليه وآله وهي جزء منه. فهذه شهادة علىٰ أنها لاتعرف الكذب في أقوالها، فلماذا لم يؤخذ بقولها هنا؟

نرجع للآية الكريمة، فهي تقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾، أي أنها تقرّر أن مسألة الميراث عامّة لكل البشر، فوراثة سليمان أباه عليهما السلام تكون انسجاماً مع نظرية الميراث وفق العادة.

المبحث الثاني: في نعم الله تعالى على سليمان عليه السلام

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾، وهذا من جملة ما أعطىٰ الله تعالى نبيّه سليمان عليه السلام من مزايا، حيث أعطاه ملكاً لم ينبغِ لأحد من بعده. كان الحجاج يقول: ثلاثة لو ظفرت بهم

(١) انظر: الروض الأُنف ٢: ١٩٦. وقال الإمام السهيلي صاحب (الروض الأُنف) بعد ذكر هذا الحديث: «فصلّىٰ اللّه عليه وعلىٰ فاطمة. فهذا حديث يدلّ علىٰ أن من سبّها فقد كفر، وأن من صلّىٰ عليها فقد صلّىٰ علىٰ أبيها صلى الله عليه وآله». سبل الهدىٰ والرشاد (الصالحي الشامي) ١٠: ٣٣٨، ١٢: ٣٩٢.

لعاقبتهم، ومن جملتهم النبي سليمان عليه السلام، وكان يقول: ماهذه الأنانية حيث إنه يقول: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَ يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾[١]. وكأن الحجّاج قد نسي نفسه، فهو يرى القذى في عين غيره أمّا ما في عينه فلا يراه. والحجّاج هذا هو من كان يأمر بالمسجونين فتشدّ أيديهم ويلقى بهم في المستنقعات، فيأكل بهم البقّ حتى يموتوا، فيمر بهم وهم يصيحون: اللّه اللّه أيها الأمير، القيود أكلت لحومنا. فيقول لهم: اخسؤوا فيها ولا تكلّمون[٢]، أي يخاطبهم بخطاب اللّه تعالى لأهل النار[٣]، وهذه ليست أنانية فقط، بل هي منطق جيفة عبر التاريخ.

فالنبي سليمان عليه السلام قد علّمه اللّه منطق الطير، وهذا ليس بغريب، إذ أن عندنا الآن بعض الكوادر العلمية التي تطور أنفسها لتتعلّم لغة الحيوانات. والأكثر من ذلك أنه حتى النبات له لغة. ولغة الحيوان إما أن تكون حركيّة أو إيقاعيّة. فهناك الكثير من العلماء ممّن يحسن لغة بعض الحيوانات وإشاراتها.

النبي سليمان عليه السلام يفسّر لغة الطير

يروي المؤرّخون أنه مرّ سليمان عليه السلام على طائر الورشان، وقد وقف على شجرة، فرآه يحرّك ذيله وعنقه، فقال عليه السلام لأصحابه: «أتعرفون مايقول هذا الطائر؟». قالوا: لا يانبي اللّه. قال عليه السلام: «إنه يقول: إني أكلت نصف ثمرة، فعلى

---

(١) ص: ٣٥.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ١٢: ١٩٢، البداية والنهاية ٩: ١٥٧.

(٣) وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾. المؤمنون: ١٠٦ ـ ١٠٨.

الدنيا العفا»(١). أي أنه لا تهمّني الدنيا مادمت شبعاناً. وهذه الكلمة على وجازتها فيها عبرة، أي أنه صلى الله عليه وآله يريد أن يقول لأصحابه: إن الدنيا لا ينبغي أن تستبدّ بكم؛ فإنّ الإنسان تملأ بطنه قطعة من الخبز. كان الإمام علي عليه السلام يخرج من بيته ويمرّ بميثم التمّار ويشتري منه قوصرّة ويجلبها معه إلى البيت وهو يرتجز:

«أفلح من كانت له قوصرّة   يأكل منها كلّ يوم مرّة»(٢)

وكان يمدّ يده إلى بطنه ويمسح عليها ويقول: «من أدخله بطنه النار فأبعده الله»(٣):

أَأَبا الحُسينِ وتِلكَ أروعُ كنيةٍ   وكِلاكُما بالرّائعاتِ قَمينُ
لكَ في خَيالِ الدَّهرِ أيُّ مَلامحٍ   تَروي السَّنا ويُترجِمُ النِّسرينُ
في الصبحِ أنت المُستَجِمُّ منَ اللّظى   واللّيلِ في المحرابِ أنتَ أنينُ
تكسو وأنتَ قطيفةٌ مرقوعةٌ   وتَموتُ من جوعٍ وأنت بَطينُ
آلاؤكَ البيضاءُ طوَّقتِ الدُّنا   فلها على ذِمَمِ الأنامِ دُيونُ(٤)

ومرّ النبي سليمان عليه السلام ذات يوم بطائر الهدهد، فرأى صبيّاً يريد أن يصيده، فقال له: «أيها الهدهد، احذر الفخّ». وذهب، فقال له: إن هذا صبي

---

(١) جوامع الجامع ٢: ٧٠٣، الجامع لأحكام القرآن ١٣: ١٦٥، فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ١١٥.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٧٧، الفائق في غريب الحديث والأثر ٣: ٨٦ ـ القوصرّة، البداية والنهاية ٨: ٣، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٤٨٠. والقوصرّة: الوعاء الذي يكنز فيه التمر من البواري. الصحاح ٢: ٧٩٣ ـ قصر.

(٣) الدعوات: ١٣٨ / ٣٤٠، مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (محمد بن سليمان) ٢: ٨٢ / ٥٦٧، بحار الأنوار ٤٠: ٣٤٠ / ٢٦، كنز العمال ٣: ٧٨٢ / ٨٧٤١، تاريخ مدينة دمشق ٤٨: ٢٣٠.

(٤) ديوان المحاضر ١: ١٩.

لاعقل له فسأُغالطه، فلا يستطيع أن يصيدني. فلما رجع وجده واقعاً في الفخّ، فقال له: «ما الذي أوقعك في الفخّ وأنت تنظر الماء تحت الأرض؟». قال: إذا جاء القدر عمي البصر[١].

أي أن الإنسان إذا أتاه قدره أُعمي بصره.

وهناك حادثة ثالثة، وهي أن النبي سليمانعليه السلام مرّ بصرد (جراد الزرع) وكان له صوت قوي، فقالعليه السلام لأصحابه: «إن هذا الصرد يقول: يانبي الله استغفروا الله».

ويعقّب أبو هريرة على هذه الرواية بقوله: ولذلك نهىٰ النبيصلى الله عليه وآله عن قتل الصرد؛ لأنه صوّام، وهو أول من صام يوم عاشوراء[٢].

حول صيام عاشوراء

إن مسألة صوم عاشوراء وقع فيها اختلاف، وإن الرواية التي تروى عن النبيصلى الله عليه وآله هي أن اليهود كانوا يصومون هذا اليوم، فقال النبيصلى الله عليه وآله: «ما هذا من الصوم؟» فقالوا: هذا اليوم الذي نجّىٰ اللّه فيه موسىٰ وبني إسرائيل من الغرق، وغرق فيه فرعون فصامه موسىٰ شكراً. فقالصلى الله عليه وآله: «أنا أحقّ بموسىٰ وأحق بصوم هذا اليوم»[٣].

وهذه الرواية قد اخترعت من بعد الفاطميين، والهدف هو إشغال الناس عن ذكر واقعة الطف فلا يستعيدون ذكراها، فقد أرادوا لهذه الواقعة أن تنطمس معالمها ويقضى عليها.

إننا نلتمس طريقنا إلى الحسينعليه السلام في كلّ حال وكلّ حين؛ لأنه طريقنا إلى

---

(١) قريب منه ما في الجامع لأحكام القرآن ١٣: ١٧٨، تفسير القرآن العظيم ٣: ١٧٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٧: ٢٧٠، وليس فيه: يوم عاشوراء.

(٣) مسند أحمد ٢: ٣٥٩، باختلاف.

رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ فهو صلى الله عليه وآله قد جسد تعاليم الإسلام، وبهذا فنحن لا نمجّد لحماً، وإنما نمجّد موقفاً بطوليّاً خالداً في حقيقته هو كرامة للإسلام.

فلماذا إذن هذا الموقف من تعظيمه؟

نرجع للرواية حيث عقّب أبو هريرة بقوله: إن النبي صلى الله عليه وآله نهىٰ عن قتل الصرد من أجل هذا، أي لأنه يدعو الناس للاستغفار من الذنوب.

فالذي يدعو الناس للاستغفار لا يقتل، وأمّا الذي يدعو إلى كلمة «لا إله إلّا الله» فإنه يقتل، دخل رجل على عبد الله بن عمر وقال له: إن البق يصير علىٰ يدي فأضربها ويخرج الدم، فهل هو حرام أم لا؟ فقال: من أين أنت؟ قال: من الكوفة. فقال له: أنتم قد قتلتم الحسين ولم تستشكلوا. وهذه المفارقات نجدها كثيراً في تاريخنا.

المبحث الثالث: في مخصّصات العموم

ثم قالت الآية: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾، وهنا نقطة هامّة أُحبّ أن أُنبّه إليها هي أن لسان الآية فيه عموم، ويقول المفسّرون: إن هذا العموم مخصّص بالحسّ.

التخصيص بالعقل

فهناك بعض العمومات مخصّصة بالعقل، فمثلاً نحن نعرف أن كل واحد معرّض للمسؤوليّة والأمر بالأحكام والتكاليف يتوجّه إليه، لكن إذا كان هذا المكلّف جاهلاً قاصراً كأن يعيش في غابات أفريقيا، فهل يدخل ضمن هذا العموم؟ طبعاً لا يدخل ضمن هذا العموم؛ لأنه لا يكلّف ما لم يصله التكليف، فلا يعاقبه الله حيث لم يأتِه رسول ولم ينبهه إليه أحد.

وببالغ الأسف نحن نعيش ضمن أجواء لا تعرف الدين؛ تقصيراً لا قصوراً.

فالعموم مخصّص بالعقل، واللّه تعالى لايعاقب؛ لقبح العقاب بلا بيان.

التخصيص بالإجماع

وهناك حالات يكون العموم فيها مخصّصاً بالإجماع، مثل «لا صلاة لجار المسجد إلّا في المسجد»[١]، فحديث النبي صلى الله عليه وآله هنا منصب على الكمال، أي لاصلاة كاملة إلّا في المسجد حيث إن ثوابها في غيره أقل؛ فهذه الرواية تؤكّد علىٰ المسلم أن يكرم بيت اللّه؛ لأن الجلوس في المسجد خير من الجلوس في الجنة حسبما يقول أمير المؤمنين عليه السلام، فقد قال: «الجلسة في الجامع خير لي من الجلسة في الجنة؛ لأن الجنة فيها رضا نفسي، والجامع فيه رضا ربي»[٢] ورضا الرب خير من رضا النفس.

فلماذا لا يمكث الناس في المساجد؟ إنهم سرعان ماينفضون منه بعد الصلاة، فلماذا لا نذكر اللّه فيه ولا نقرأ القرآن؟ إنه بيت اللّه.

كان الإمام الحسن عليه السلام إذا دخل المسجد ردّد هذه العبارة: «إلهي مسكينك بفِنائك، عُبيدك بفِنائك، فقيرك نزل بساحتك»[٣]. أي أنا في بيتك: «أنت المحسن ونحن المسيئون، فتجاوز يا رب عن قبيح ما عندنا بجميل ما عندك»[٤].

فهذا العموم مخصّص بالإجماع.

التخصيص بالحسّ

وكذلك هناك عموم مخصّص بالحسّ، فنحن نقرأ في القرآن: ﴿وَنَزَّلْنَا

---

(١) تهذيب الأحكام ١: ٩٢ / ٢٤٤، السنن الكبرىٰ (البيهقي) ٣: ٥٧.
(٢) إرشاد القلوب: ٢١٨، وسائل الشيعة ٥: ١٩٩ / ٦٣٢٥.
(٣) كمال الدين: ٤٧١ / ٢٤، الفقه المنسوب للإمام الرضا عليه السلام: ٢١٩.
(٤) مصباح المتهجّد: ٥٨٥، الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ١٦١.

عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[(١)] حيث يقول البعض: إن الإسلام أسّس علم الميكانيك وعلم الذرّة، وتناول تحليل الهيدروجين. وهذا الكلام لا معنىٰ له، وإلّا ما هي علاقة القرآن بهذه الأشياء؟ فإن ﴿تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ ليس على نحو الاستيعاب، بل هذا عموم مخصّص بالحسّ.

فقوله تعالى: ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من قبيل العموم المخصّص بالحسّ، أي لم يخلق نعمة ليست في متناولنا وقدراتنا أو أننا قد حرمنا منها.

المبحث الرابع: في كيفية شكر نعم الله تعالى

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ فلم يفت النبيعليه السلام أن يشكر اللّه؛ لأن الشكر إما أن يكون بالقلب أو باللسان، فإنهعليه السلام اعترف بأنه فضل من اللّه، واعتقد ذلك، وكان النبي سليمانعليه السلام يطعم، أي أنه طبّق الأقسام الثلاثة من الشكر، يقول الشاعر:

أفـادتكمُ النـعماءُ مـني ثـلاثة ... يدي ولساني والضميرَ المحجّبا[(٢)]

فلساني يلهج بذكركم، ويدي تساهم في إيصال النعمة إليكم، وقلبي يعتقد بأنكم محسنون. فالشكر أن تعطي ممّا منحك اللّه، والإنفاق أن تعطي للّه مايحقّق رضاه. وقد وقف أبو الشهداءعليه السلام يوم الطفّ ليؤدّي للّه شكرَه، وشكرُه مختلف، حيث قدّم القرابين له تعالى؛ لأن شريان الحياة يحتاج أحياناً إلى أن يُصلح بالدم:

أبـا الشهداء الواهـبين وجـوههم ... نـجوماً لهـا عـند القـتامِ طـلوعُ

زرعت بهم أرضَ الطفوفِ فبرعموا ... وهـا هُمُ قـد جـدّ الزمـان فـروعُ

---

(١) النحل: ٨٩.

(٢) لم ينسب لقائل معين. تفسير القرآن العظيم ١: ٢٤، ٣: ٥٣٦، البداية والنهاية ١: ١٣٥.

توحّدهم دنيا الفداءِ فيستوي بها طاعنٌ في سنّه ورضيعُ

حيث قدّم الضحايا الواحد تلو الآخر، ولم يبقَ إلّا رضيعه، حيث نادى أُخته زينب: «عليّ بالطفل الرضيع» فلما قتل رجع به للخيمة:

ولو تراه حاملاً طفله رأيت بدراً يحمل الفرقدا
مُخضّباً من فيض أوداجه ألبسه سهم الردى مجسدا[١]

(١) المجسد: الثوب الملاصق للجسد، يريد: أن السهم ألبسه ثوباً من دم. انظر المعجم الوسيط: ١٢٢ ـ جسد.

﴿٩﴾

أضواء على خطبة الزهراء عليها السلام

أفبنت النبي لم تدرِ إذ كا | نَ نبي الهدى بذلك فاها
بضعةٌ من محمدٍ خالفت ما | قال حاشا مولاتنا حاشاها
سمعته يقولُ ذاك فجاءت | تطلب الإرث ظلة وسَفاها
هي كانت لله أتقى وكانت | أفضلَ الخلق عِفّةً ونزاها[1]

المباحث العامّة في الموضوع

المبحث الأوّل: حول مسألة فدك

أوّل ما يلفت النظر في خطبة الزهراء عليها السلام القدرة الأدائيّة والفقهيّة في حوارها مع الخليفة الأوّل، فالزهراء عليها السلام كانت في سنّ مبكرة، وفي عمر الورد؛ إذ كانت في عامها الثامن عشر. وهذا العمر مع هذا العطاء الذي لم يجُد العلم بمثله إلى الآن شيء يبعث على الإعجاب؛ فالأبعاد التي تناولتها (سلام الله عليها) في خطبتها تنطوي على جانبين: الأحكام والعقائد؛ فجانب العقائد هو الجانب الذي تعرّضت له في كلامها على

---

(١) الأبيات للسيّد الجذوعي. بيت الأحزان (القمي): ١٦٢.

التوحيد، وجانب الأحكام هو الجانب الذي تعرّضت له في كلامها على الميراث. ونحن الآن في القرن الرابع عشر وما جدّ شيء على ما جاءت عليها السلام به في هذين الجانبين. وأحدث ما توصّل إليه علم الأصول كانت الزهراء عليها السلام قد تطرّقت إليه في الصدر الأول.

ولنلاحظ أولاً أساس الدعوى التي جاءت بها الزهراء عليها السلام، فهي أول ما بدأت بدعوى النِّحلة، والنحلة في اللغة: العطية، ومعنى أنحله: أعطاه[(١)]. فالواهب يقول: أنحلتك، والموهوب له يقول: قبلت.

فالزهراء عليها السلام رفعت دعوىٰ مفادها أن فدكاً كانت نِحلة دفعها إليها النبي صلى الله عليه وآله. ولدينا هنا أمور، منها أن النبي صلى الله عليه وآله هل دفع ما يملك أم لا؟ فهذه القطعة من أي أقسام الأراضي هي؟ لأن للاراضي أقساماً، كما أن لكل قسم منها حكماً، فلدينا مثلاً الأنفال والغنائم وما يُحيا في حال الفتح. فمن أي الأقسام كانت فدك؟ لقد كانت فدك ممّا لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، أي أنها ممّا لم يؤخذ بقتال ولا بحرب، وإنما أُخذت بصلح[(٢)]، فقد تنازل أهلها عنها للنبي صلى الله عليه وآله بعد حادثة معيّنة وصالحوه مصالحة، وقالوا له: نصالحك على نصف أموالنا مقابل أن تقرّنا على هذه الأرض[(٣)].

فهذه الأرض تدخل تحت قسم الأنفال، والقرآن الكريم يقول: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾[(٤)]. فالأنفال للنبي يتصرّف بها كيف يحب، وجيء باسم الله هنا للبركة. فلمّا صالح أهل فدك النبي صلى الله عليه وآله على هذه

---

(١) المعجم الوسيط ٢: ٩٠٧ ـ نحل.

(٢) يوجف عليه: يسرع إليه، أو تُحثّ الخيل علىٰ الإسراع إليه. لسان العرب ٩: ٣٥٢ ـ وجف.

(٣) سنن أبي داود ٢: ٣٧ / ٣٠١٦، تاريخ الطبري ٢: ٣٠٦، السنن الكبرىٰ (البيهقي) ٦: ٣١٧، شرح نهج البلاغة ١: ١٩٨، ١٦: ٢١٠.

(٤) الأنفال: ١.

القطعة هبط جبرئيل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وآله يحمل قوله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾[١]، فاستفسر النبي صلى الله عليه وآله من جبرئيل عليه السلام: «من هم ذوو القربى؟». هل هم المجموع؟ أم أن المعنيّ بذلك واحد لكن القرآن عبر عنه بالجمع من باب التكريم والتعظيم؟ فالقرآن قد يستعمل مع الواحد صيغة الجمع تكريماً له، وهذا معروف في أسلوب القرآن. فقال جبرئيل: «إن الله يأمرك أن تعطي فدكاً نُلغة لفاطمة، عوضاً عما أنفقته أُمها في سبيل الإسلام».

والإنفاق الذي كان من خديجة يفوق الوصف، فقد ذكر المؤرّخون أنه ما من بيت من بيوت مكّة إلّا كان يضارب بأموال خديجة[٢]؛ فقد كان مجتمع قريش بأجمعه يتاجر بأموالها ويضارب بها. وقد ساقت هذه الأموال كلّها إلىٰ بيت النبي صلى الله عليه وآله، وانتهى الأمر بها أن تنام مع النبي صلى الله عليه وآله على جلد كبش. فاستدعى النبي صلى الله عليه وآله فاطمة عليها السلام وأنحلها فدكاً، وقد جرت هذه المسألة في بيت أم أيمن بحضور أمير المؤمنين والحسن والحسين عليهم السلام وأم أيمن[٣].

وقد يقول قائل: ألم يكن النبي صلى الله عليه وآله يحسب حساباً للظروف، فأعطي فدكاً لفاطمة دون أن يشهد شهوداً على ذلك؟

الجواب: أن المسلمين بعد ذلك كلّهم تحولوا إلى شهود. وزيادة على ذلك أنه لم يكن يخطر ببال مسلم أن الزهراء يمكن أن تكذّب، بغضّ النظر عن القول بعصمتها. فليس هناك مسلم يؤمن بالله ورسوله يستطيع أن يقول: إن فاطمة يصدر منها ما هو خلاف الواقع؛ لأنه بذلك يكذّب النبي، وإن كذّب

---

(١) الإسراء: ٢٦.

(٢) انظر: مناقب آل أبي طالب ١: ١٢٣، شواهد التنزيل ١: ٤٣٨ ـ ٤٤٤ / ٤٦٧ ـ ٤٧٣، ٥٧٠ / ٦٠٨ الدر المنثور ٤: ١٧٧.

(٣) تفسير القمي ٢: ١٥٥، بحار الأنوار ٢٩: ١٢٨.

النبي كذّب الله. ذلك لأن القرآن يقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾[١]، والآية نزلت في خمسة كانت الزهراء أحدهم[٢]. فالكذب نوع من الرجس، وهو منفي بنصّ الآية.

والرسول صلى الله عليه وآله يقول: «فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها»[٣]. ولو كانت ممّا يجوز عليها الكذب لما كان يؤذيه ما يؤذيها؛ لأن الكاذب يؤذَى. فهي صادقة بنصّ القرآن والسنة.

ويستفاد من النصّ العصمة أيضاً فضلاً عن الصدق. ولإجماع المسلمين على أنها صادقة، ما كان من الممكن أن يدور في ذهن أحدهم أنها يصدر منها ما هو خلاف الواقع.

المبحث الثاني: أدلّة صحّة ملكيّة الزهراء عليها السلام لفدك

وعليه، لما أنحلها النبي صلى الله عليه وآله فدكاً صار عندها وسائل شرعية للتملّك:

الوسيلة الأولى: النحلة

وهذا ناقل من النواقل الشرعيّة، وتسمى بالهبة المقبوضة. وهناك نوعان من الهبة: الهبة المعوّضة، والهبة غير المعوضة[٤]. وأحببت أن أبين هذه الأحكام بشكل مبسّط لأنني أعتبر المنبر مائدة آل محمد صلى الله عليه وآله، ولما كان كذلك فالمأمول أن يستفيد منه كلّ من له صلة بآل محمد صلى الله عليه وآله. وأنا أعتبر أن كلّ من يمتّ بصلة لآل البيت عليهم السلام هو على مائدتهم. وآمل أن يُستلّ

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) مسند أحمد ١: ٣٣١، ٣: ٢٥٩، ٢٨٥، ٤: ١٠٧، ٦: ٢٩٢، صحيح مسلم ٧: ١٣٠، الجامع الصحيح ٥: ٣٠ ـ ٣١، وغيرها كثير.

(٣) الشفا (القاضي عياض) ٢: ٢٣٠، أمالي أبي نعيم: ٤٥، ينابيع المودّة ٢: ٤٧٨ / ٣٤٠.

(٤) انظر عدم جواز الرجوع في الهبة المعوضة المبسوط (السرخسي) ١٢: ٨٢، ١٠٥.

الخلاف ما بين الأُخوة، وأن يجمعهم على حبّ آل محمد ﷺ؛ لأن ذلك ذخيرة لنا.

ردّ دعوى جواز الرجوع بفدك كونه هبة غير معوّضة

وقد يقول قائل: إن هذه الهبة إذا كانت هبة غير معوّضة فيجوز الرجوع فيها، فإن لم يرجع بها النبي ﷺ أمكن أن يرجع فيها ولي الأمر؛ لأن صلاحيّات ولي الأمر هي صلاحيّات النبي ﷺ نفسها، وبذلك يمكن لأبي بكر أن يرجع فيها.

والجواب على ذلك: أن هذه الدعوى تُنقض من جوانب كثيرة، نذكر منها جانبين هما:

الأوّل: أن الوصول إلى ولاية الأمر يكون إما عن طريق التعيين من النبي ﷺ، أو عن طريق الانتخاب على نظرية الشورى. فأين هي نظرية الشورى التي وصل عن طريقها أبو بكر أو غيره؟ إن الذين بايعوا أبا بكر أول الأمر اثنان فقط، فهل هذان يمثلان المسلمين؟ ولو بايع كلّ أهل المدينة، فهل يمثّلون المسلمين؟ إننا نخترع اصطلاحاً هو أن أهل الشورى هم أهل الحلّ والعقد، يعني أنهم يكفي فيهم كونهم اثنين أو ثلاثة، وهذا ما لا يقرّنا عليه العرف العلمي أو المعنوي. فمن أراد الدليل فالشورى لا تحصل بهذا المعنى، ومن أراد فرض الأمر الواقع فلا كلام معه.

الثاني: أن لسان الخبر يقول: إن الهبة كانت معوّضة، فالعوض كان مدفوعاً مقدّماً وهو ما أنفقته خديجة عليها السلام. فهذه هبة معوّضة لا يمكن استردادها.

الوسيلة الثانية: اليد[1]

وهي الناقل الشرعي الثاني. فنحن الآن نقرّ الملكيّات العامّة بدليل اليد،

---

(١) انظر فدك في التاريخ: ١٩٦، ومعنى قاعدة اليد: إثبات الملكية بواسطة اليد، أي بواسطة التسلط على المال. انظر المحكم في أصول الفقه ٥: ٣٥٥.

فلو أن شخصاً كان في بيت وأنا أعرف أنه لا يمتلك ورقة إثبات على ملكيّته، فمن أين أعرف أنه يملكه؟ الجواب أن يده عليه حجّة، فإن تصرّفه يدلّ على أن البيت ظاهراً له. فمن ادّعى أن هذا البيت ليس له، وأنه مستأجر يملك المنفعة لا العين، فعليه أن يأتي بالدليل، أما إذا لم تكن هناك دعوى من أحد على الملكيّة فإن يده عليه حجّة؛ فاليد أمارة على الملكية.

والزهراء عليها السلام كانت يدها على فدك ستّ سنوات تتصرّف به، والمسلمون يرونها، والنبي صلى الله عليه وآله أقرّها، فلو كانت خاضعة للملكيّة العامّة لكان النبي صلى الله عليه وآله انتزعه منها، أو نصّ على أنه ملّكها المنفعة فقط لا الأصل. ولكن لم يوجد من ذلك شيء، فالنبي صلى الله عليه وآله أعطاه إياها بحضور الشهود على أنها لها نحلة، فلمّا جاءت أبا بكر ادّعت النحلة فقال لها: ما بلغني أنها لك ملك. فقالت: «أنحلنيها أبي». فقال: لا أقبل الدعوى إلّا بالشهود.

ومع أن الزهراء ينبغي ألّا يطلب منها الشهود لأن الشاهد يؤيد الدعوى ويعزّز الشعور بالصدق، وهذا هو ملاك الشهادة، والقرآن يقول: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾[1]؛ لأن ملاك الشهادة أن الشاهد يعزّز الشعور بصدق المدعي، فإن كان المدّعي صادقاً فما الحاجة إلى الشاهد والشهادة؟ ومع ذلك أتت الزهراء عليها السلام بالشهود الذين حضروا الواقعة وهم علي والحسن والحسين عليهم السلام وأم أيمن (رضي الله عنها)[2]. فقال: الحسن والحسين

---

(١) الطلاق: ٢.

(٢) السقيفة وفدك (الجوهري): ١٠٤، وفيه: وروى هشام بن محمد عن أبيه قال: قالت فاطمة لأبي بكر: «إن أمّ أيمن تشهد لي أن رسول الله صلى الله عليه وآله أعطاني فدكاً». فقال لها: يا ابنة رسول الله، والله ما خلق الله خلقاً أحبّ إلي من رسول الله صلى الله عليه وآله أبيك، ولوددت أن السماء وقعت على الأرض يوم مات أبوك، والله لأن تفتقر عائشة أحبّ إلي من أن تفتقري، أتراني أُعطي الأحمر

فَرعان، وشهادة الفرع للأصل لا تجوز.

متى تردّ شهادة الفرع للأصل؟

ولكن هل التزم الخليفة بهذا الرأي للنهاية أم لا؟ لقد قبل الخليفة فيما بعد شهادة مالك بن أوس[١] وعائشة[٢] بأنهما سمعا النبي صلى الله عليه وآله يقول: «نحن معاشر الأنبياء لا نورّث». وهذه المرأة (عائشة) فرع لأبيها، فكيف قبلت شهادتها لأبيها، ولم تقبل شهادة الحسن والحسين؟ فإن كانت شهادة الفرع للأصل لا تقبل، فهذا يلزم أن يكون ذلك قانوناً عامّاً، وإذا كان لحالة دون حالة فهذا أمر يبعث على التساؤل.

ثم من قال: إن شهادة الفرع للأصل لا تجوز؟ نعم، إنها لا تقبل فيما إذا كانت تشكّل مورد تهمة، أما إذا كان هذا المورد منتفياً، أو كما يقول الأُصوليون: (هذا خارجٌ تخصّصاً)، فلم لا تجوز؟ وهذا المورد مقام البحث خارج تخصّصاً؛ لأن الحسن والحسين عليهما السلام سيدا شباب أهل الجنة ولا يمكن أن يُتّهما.

وأما علي عليه السلام فلم تقبل شهادته أيضاً لأنه يجرّ النار إلى قرصه كما ادّعوا. وأما أُمّ أيمن فهي امرأة أعجميّة لا تفقه ما تقول[٣]! فرجعت فاطمة، ولم

والأبيض حقّه وأظلمك حقك، وأنت بنت رسول الله صلى الله عليه وآله؟ إن هذا المال لم يكن للنبي صلى الله عليه وآله، وإنما كان مالاً من أموال المسلمين يحمل النبي به الرجال، وينفقه في سبيل الله، فلمّا توفّي رسول الله صلى الله عليه وآله وليتُه كما كان يليه.

(١) انظر: المسترشد: ٥٠٧ / ١٧٠، بحار الأنوار ٢٩: ١٣٤، مسند أحمد ٦: ١٤٥، صحيح البخاري ٨: ٣، ٥، وغيرها

(٢) مسند أحمد ١: ٤٧، ٤٨، السنن الكبرىٰ (النسائي) ٤: ٦٤ / ٦٣٠٨، وغيرها كثير.

(٣) انظر: كتاب سليم بن قيس: ٣٩١ / ٢، بحار الأنوار ٢٨: ٣٠٢، ٤٣: ١٩٨.

يكن أحد صادقاً برأيهم، لا علي ولا فاطمة ولا الحسن ولا الحسين عليهم السلام ولا أمّ أيمن (رضي الله عنها). وإلى هنا انتهت دعوى النحلة وتوقّفت[١].

الوسيلة الثالثة: الإرث

ثم رجعت الزهراء عليها السلام إلى وسيلة التملك الأُخرى وهي الإرث فقالت: «**وأنتم الآن تزعمون ألّا إرث لي ولا حظوة من أبي، أفخصّكم الله بآية أخرج أبي محمداً منها؟ أم تقولون: أهل ملّتين لا يتوارثان؟ أولست أنا وأبي من ملّة واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟**».

وعقّبت بكلامها هذا على قوله تعالى: «﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾[٢]. وقال فيما اقتصّ من خبر يحيى بن زكريا: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً﴾[٣]، وقال: ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾[٤] وأنتم الآن تزعمون ألّا إرث لي ولا حظوة من أبي».

فهي عليها السلام أتت الآن بدعوى جديدة هي دعوى الإرث. ثم جاءت إلى موانع الإرث فقالت: «أفخصّكم الله بآية أخرج أبي محمداً منها؟». ومعنى هذا أن

---

(١) السقيفة وفدك (الجوهري): ١٠٣:
لقد أجاب المحققون والمحدثون على كلام أبي بكر، بأن قوله هذا مردود: لأن جميع مفاهيم الإسلام والسنة المحمديّة ظهرت واضحة على عهد النبي صلى الله عليه وآله، فكيف لم يظهر هذا القول إلّا بعد وفاته، والناقل له هو وحده. وهل إن النبي صلى الله عليه وآله ـ لا سمح الله ـ أتى بخلاف ما جاء به القرآن كما قالت واستشهدت به السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام من الآيات؟ وكيف أخرج أبو بكر وبأي دليل وسنّة آلة الرسول صلى الله عليه وآله ودابّته وحذاءه من ضمن الإرث ودفعها إلى علي عليه السلام. وعلى حدّ قول أبي بكر فإن فاطمة الزهراء عليها السلام ورثت إيمان النبي صلى الله عليه وآله وحكمته وعلمه وسنّته، وإنها وارثة في جميع ذلك، فهل يمكن أن تدّعي ما ليس لها بحق؟ كلّا وألف كلّا. وهل يجوز له أن يقول للصديقة الطاهرة: «أغلظت فأهجرت، فغفر الله لنا ولك»؟.

(٢) النمل: ١٦. (٣) مريم: ٥ ـ ٦.

(٤) الأحزاب: ٦.

القرآن يخصّص بعضه بعضاً، فهي تقول له: هل هناك آية في القرآن تقول: إن الانبياء لا يورّثون؟ إن آيات القرآن عامّة في الميراث. فهل عندك دليل من القرآن يخصّص هذا العموم؟ فقال: لا. فقيل له: فبم تخصّص العموم؟ قال: أُخصّصه بقول النبي: «نحن معاشر الأنبياء لا نورّث».

الردّ على حديث «لا نورّث»

وهذا القول غير ثابت، ولم يؤيّد أحد به الخليفة، إلّا بعد ستة أشهر عندما جاء أوس بن ملك وعائشة وحفصة وشهدوا عند أبي بكر أن النبي صلى الله عليه وآله قال ذلك.

هذه واحدة، والأُخرى أن رأي المذاهب الإسلامية الأربعة أن القرآن لا يخصَّصُ بخبر الواحد[1]، فإذا قال القرآن: إن الناس كلّهم يورّثون، فلا نستطيع أن نأتي من السنة برواية تُخرج الأنبياء من العموم؛ باعتبار أن القرآن قطعيّ الصدور والخبر ظنّي الصدور، والظنّيّ الصدور لا يقابل القطعيّ الصدور. فالقرآن عندهم لا يخصّص بخبر الواحد، لكنهم خصّصوه بهذه المسألة فقط تصحيحاً لرأي الخليفة.

ثم أتت عليها السلام إلى مانع آخر من موانع الإرث فقالت: «أم تقولون: أهل ملّتين لا يتوارثان؟». فمن موانع المواريث أن يكون هناك اختلاف في الدين، كأن يكون أحدهما مسلماً والآخر يهودياً فهما هنا لا يتوارثان.

ثم قالت: «أم أنكم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمّي؟». فقال لها: على كلّ حال، إنني سمعت أباك يقول: «نحن معاشر الأنبياء لا نورّث».

---

(١) انظر: الإبهاج في شرح المنهاج ٢: ١٧١ ـ ١٧٢، نهاية السول ٢: ٤٥٩ ـ ٤٦٠، البحر المحيط ٣: ٣٦٥.

طلب الشهادة من الزهراء تجاوز على روح القرآن

ثم إن طلب الشهود من الزهراء تجاوز على روح القرآن والشريعة، فمن شواهد ذلك أن النبي ﷺ كان يمشي يوماً في الصحراء فجاءه أعرابي وأمسكه من تلابيبه، ثم قال له: بعتك فرساً ولم تدفع لي الثمن. فقال النبي ﷺ: «**بل اشتريت وأعطيتك الثمن**». فقال الأعرابي: كلّا، لم تسدّد، هات الشهود. فانفعل الصحابة من الأعرابي، وانتظروا أن يسمح لهم النبي بدفعه أو قتله، فقال النبي ﷺ: «**دعوه، إن لصاحب الحقّ مقالاً**». ثم قال: «**من منكم يشهد لي؟**» فلم يشهد له أحد. فجاء خزيمة بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه فلما رأى الجمع سأل عنه فقيل له: أعرابي يطلب من النبي ﷺ ثمن فرس وقد حبسه في الشمس يطالب بحقه، والنبي ﷺ يطلب الشهود فلم يشهد له أحد. فقال خزيمة: أنا أشهد.

فناداه النبي ﷺ فقال له: «**كيف تشهد وأنت لم تكن معنا ولم تسمع ولم ترَ؟**». قال خزيمة: صدّقناك على الوحي وأخبار السماء وما تنقل عن الله، ولا نصدّقك في هذا؟ فهو يقول له: إما أن تكون صادقاً فيكون قولك كلّه صدقاً، وإما أن تكون غير صادق فإن نبوتك كلّها غير صادقة، ونحن عندما صدقناك صدقناك بكلّ شيء باعتبار أنك صادق، فأنا أعلم أنك صادق من حيث أعلم أنك نبي. فقال النبي ﷺ: «**قد أجزت شهادتك وجعلتها بشهادتين**». فلقّب خزيمة من ذلك اليوم بذي الشهادتين(١).

وهذه العلّة نفسها مطّردة عند الزهراء عليها السلام، لأنها أحد الخمسة أهل آية التطهير، وهي التي يعبّر عنها النبي ﷺ بقوله: «**بضعة مني**»(٢)، و «روحي التي

---

(١) الانتصار: ٤٩١، سنن أبي داود ٢: ١٦٦ ـ ١٦٧ / ٣٦٠٧.

(٢) الشفا (القاضي عياض) ٢: ٢٣٠، أمالي أبي نعيم: ٤٥، ينابيع المودّة ٢: ٤٧٨ / ٣٤٠.

بين جنبي»[١]، و «سيّدة نساء العالمين»[٢]. فهي موضع تقديس المسلمين عامّة، وهي صادقة قطعاً، فما الوجه في طلب الشهود منها؟ بالتأكيد لا وجه لذلك.

فرأت الزهراء عليها السلام أن دعوى النحلة قد أُغلقت، وأُغلقت دعوى اليد، وكذلك دعوى الميراث بادّعائهم أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورّث».

وقد حدث فيما بعد بين الخليفة الثالث وأُم المؤمنين عائشة تشنّج في مسألة ميراث النبي صلى الله عليه وآله. فقد دخلت عليه هي وحفصة أيّام بوادر الثورة، فقالت عائشة: ادفع لنا حقّنا من الميراث من حُجَر النبي صلى الله عليه وآله. فاستوى جالساً بعد أن كان متّكئاً، فقال: ستعلم فاطمة أي ابن عم أنا لها اليوم. ثم قال لمن حوله: أي ميراث؟ قيل له: إن النبي صلى الله عليه وآله توفّي عن تسع نساء، وهن يشتركن في الثُّمن من الميراث، (وهذا على نظرية الإمامية)[٣]. فقال عثمان: والنبي صلى الله عليه وآله يورّث؟ إذا كان يورّث فلمَ مُنعت الزهراء الميراث؟ وإذا كان لا يورّث فأي حقّ تطالبن به؟ أولستِ أنت (يعني عائشة) وهذه الجالسة جئتما معكما بأعرابي يتطهّر ببوله، وشهدتم عند أبيك أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث»؟ قالت: بلى. قال: فأي ميراث تطالبين به؟ فخرجت ورفعت قميص النبي صلى الله عليه وآله وهي تقول: هذا قميص النبي لم يبلَ وقد أبلى عثمان سنته[٤].

---

(١) الأمالي (الصدوق): ١٧٥ / ١٧٨.

(٢) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٥٦، فتح الباري ٧: ٨٢، ١٠١، ٩: ٢٦٦، مسند أبي داود: ١٩٧.

(٣) الفقيه ٤: ٣٤٧ / ٥٧٤٨، المراسم العلوية: ٢٢٤، النهاية: ٦٤٠، شرائع الإسلام ٤: ٨٣٤.

(٤) الإيضاح: ٢٥٧ ـ ٢٥٨، المسترشد في الإمامة: ٥٠٨، بحار الأنوار ٣١: ٢٩٥.

ثم بعد ذلك خرجت مطالبة بدمه لمّا علمت أن الأمر آل إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فاستقبلها أحد بني أخوالها ـ وهو ابن أمّ كلاب من بني ليث ـ فقال لها: ولم؟ فوالله إن أول من أمال حرفه لأنت، ولقد كنت تقولين: اقتلوا نعثلاً. ثم أنشد:

فمنكِ البداءُ ومنكِ الغيرُ ومنكِ الرياحُ ومنكِ المطرْ
وأنتِ أمرتِ بقتلِ الإمامِ وقلتِ لنا إنّه قد كفرْ
فهبنا أطعناكِ في قتلهِ وقاتِلُه عندنا مَنْ أمَرْ
وقد بايعَ الناسُ ذا تدرإ يزيل الشبا ويقيم الصعَرْ
ويلبسُ للحربِ أثوابَها وما من وفى مثلُ من قد غدرْ[(١)]

فقد خرجت من مكّة عائدة إلى المدينة فسألت: ما الخبر في المدينة؟ فقيل لها: قتل عثمان. فقالت: من الذي استُخلف بعده؟ قيل لها: علي بن أبي طالب. فقالت: لا حول ولا قوة إلا بالله، لقد تاب عثمان، ولما تاب قتلوه[(٢)].

حقيقة قداسة الصدر الأوّل

وهذا لا يثيرنا نحن بقدر ما يثيرنا أن جيلنا الإسلامي يفتح عينيه على هذه المفارقات ثم نريد منه أن يؤمن بقداسة الصدر الأوّل من الصحابة كلّه على الإجمال، فهذا يثير عنده التناقض والازدواجيّة في نفسه، فهو يسأل نفسه: هل إن الدين بالإكراه؟ أوليس عندنا عقل يحلّل ويفكّر؟ فكيف نؤمن بهذه المتناقضات؟ كيف نؤمن بوجود القداسة مع هذه التصرّفات؟

---

(١) تاريخ الطبري ٣: ٤٧٦، الإمامة والسياسة ١: ٥١.
(٢) المصدر نفسه.

فالمسألة تثير لوناً من التناقض في الذهن، وتخلق مشكلة. وهذا أشبه بما يُنقل عن أحد الأشخاص أنه كان إلى جوار نهر، فخرج كلب كان في النهر ورشه بما كان عليه من الماء، ولم يكن عند الرجل إلّا هذه الجبّة التي يلبسها، فأغمض عينيه وقال: إن شاء الله هو عنزة. فإن كان التاريخ هكذا بأن نغمض أعيننا ونقول: إن شاء الله عنزة، فهذه مصيبة.

الوسيلة الرابعة: سهم ذوي القربى

المهم أن الزهراء عليها السلام انطوت على نفسها وتركت دعوى اليد والميراث والنحلة، لكن جاءت في اليوم التالي تطالب بسهم ذوي القربى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[1]، فقالت: «إن اليتامي يتامانا، والمساكين مساكيننا، وابن السبيل منا، واسم الله ذكر للبركة، وسهم النبي صلى الله عليه وآله وسهم ذوي القربى كلّه يعود لنا، فأعطنا حقّنا من خمس الغنائم وما يحصل للمسلمين من مواردهم»[2]. فقال: إن مبلغ علمي أن النبي صلى الله عليه وآله لم يكن يعطيكم هذا كلّه، وإنما كان يسدّ حاجتكم فقط، ونحن نعطيكم بهذا القدر، فمن لم يكن له طعام أعطيناه، ومن كان يحتاج اللباس كسوناه، ومن أراد التزويج زوّجناه، وما زاد على ذلك يعود إلى بيت المال. فأحسّت الزهراء أن المراد بكلّ ذلك أن يغلق الباب بوجهها.

أُستاذ ابن أبي الحديد يعلّل موقف أبي بكر

يقول ابن أبي الحديد: «سألت أُستاذي، وقد كان مهذباً في تعبيره، رقيقاً، فقلت له: أوليس المسلمون يعلمون بصدق الزهراء؟ قال: بلى، ولا

(١) الأنفال: ٤١.

(٢) انظر الخطبة كاملة في شرح الأخبار ٣: ٣٤ ـ ٤٠، بحار الأنوار ٩٢: ٢٢٠ ـ ٢٣٥.

يجتمع إيمان مسلم مع قوله: إن الزهراء غير صادقة. قلت: أوليس الخليفة الأول كان يعلم بصدقها؟ قال: بلى. قلت: إذن لمَ لم يدفع لها فدكاً؟ قال: إن أبا بكر يعلم أن الزهراء لم تكن تطالب بفدك فقط، ولو كان يعرف أن المسألة تقف عند فدك لأعطاها، لكنه يعلم أنه إذا سجّل على نفسه أنها صادقة، فهذا يعني أنها لا يجوز ردّها، وإذا كان الأمر كذلك فإنها سوف تأتي إليه غداً فتقول: إن هذا المنصب لابن عمّي فأعده إلينا. لذا أغلق الخليفة الباب من أصله». وهذا هو الواقع.

والغريب أن المذاهب الإسلاميّة عندما يأتون إلى ميراث النبي صلى الله عليه وآله يقولون: إنه لا يورث الأموال وإنما يورث المنصب والعلم والحكمة، وهذا ما يورثه الأنبياء. ونحن نسأل: لمن يورّث النبي المنصب؟ أليس للوريث؟ فلمَ لم يُعطَ المنصب للوريث؟ ولذا يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «احتجّوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة»[1]. لأن من جملة ما احتجّ به المسلمون في السقيفة أنهم قالوا: نحن شجرة محمد صلى الله عليه وآله؛ لأن محمّداً منا. فالإمام يقول: إن الاحتجاج ينبغي أن يكون بالثمرة، لأن الشجرة ما هي إلّا وسيلة للثمرة.

المبحث الثالث: الزهراء عليها السلام ماتت غير راضية عن الشيخين

فرجعت الزهراء منفعلة بعد أن أحسّت أن الباب أُغلق في وجهها. يقول أصحاب الصحاح: إن الزهراء لما اشتدّت بها العلّة قصدها الخليفتان الأوّل والثاني، فدخلا عليها بعد أن استأذنا من أمير المؤمنين عليه السلام وألحّ عليها، فقالت: «ليدخلا». فلما دخلا حوّلت وجهها إلى الحائط، فاستدار

---

(١) نهج البلاغة / الكلام: ٦٧.

الخليفتان، فاستدارت هي، ثم استدارا فاستدارت، ثمّ قالت: «والله لا أكلّمكما حتى تصدّقاني إن صدقت». قالا: بلى. قالت: «الله عليكما، هل سمعتما قول أبي فيّ: فاطمة بضعة مني من آذاها فقد آذاني؟». قالا: بلى. قالت: «اللهم اشهد عليهما أنهما آذياني». ثم حوّلت وجهها مرّة أُخرى، فجزع أبو بكر جزعاً شديداً، فوضع الخليفة الثاني يده بيده وقال: قم ولا تجزع لقول امرأة. فأخرجه(١).

وانطوت الزهراء على جراحها وألمها، تجترّ الألم واللوعة وتتطلّب بواعث الأسى ودواعي الشجا، فلاذت بالحسرة والدمعة التي ضنّوا حتى بها عليها، فكانت تأتي إلى قبر النبي ﷺ فتجلس وتأخذ قبضات من ترابه وهي تقول:

ماذا على من شمّ تربة أحمد ... ألّا يشمّ مدى الزمان غواليا

صُبّت عليّ مصائب لو أنها ... صُبّت على الأيّام صرن لياليا(٢)

* * *

عكب ابوها شلون ذلّت ... ومن البچا ما يوم ملّت

حين بالشجرة استظلّت ... عمدوا عليها اكطعوها

نعم، دخلوا على أمير المؤمنين، فقالوا له: لقد أزعجتنا فاطمة بكثرة بكائها، قل لها أن تبكي أباها إما ليلاً أو نهاراً. فأخرجها أمير المؤمنين عليه السلام إلى خارج المدينة فبنى لها بيتاً يظلّها عن الشمس، فكانت عليها السلام تأخذ بيد

(١) الإمامة والسياسة ١: ٢٠ ـ وحول حديث «يؤذيها ما يؤذيني» انظر: مسند أحمد ٤: ٥، صحيح مسلم ٧: ١٤١، وغيرها كثير.

(٢) المغني (ابن قدامة) ٢: ٤١١، نظم درر السمطين: ١٨١، سبل الهدى والرشاد ١٢: ٢٨٩، ٣٣٧، مغني المحتاج ١: ٣٥٦.

الحسن والحسين عليهما السلام، فتجلس تندب أباها صلى الله عليه وآله إلى أن يجنّ عليها الليل، فتأخذ بيد الحسنين عليهما السلام وتؤوب إلى الدار:

قالوا لها قَرّي لقد آذيتنا — أنّى وقد سَلب المصاب قَرارَها
البضعةُ الزهراء تعدو خلفَهم — عَبرى فليتَك تنظرُ استعبارَها
جمعوا على بيت النبي محمدٍ — حطَباً وأوقدتِ الضغائنُ نارَها[1]

تقول أسماء: اشتدّت عليها العلّة يوماً فقالت: «أنا ذاهبة إلى حجرتي أضطجع، وبعد ساعة ناديني، فإن أجبتك وإلّا فاعلمي أني لحقت بأبي رسول الله صلى الله عليه وآله. يا أسماء، إذا جاء الحسنان فضعي لهما الطعام، وإن سألا عني فقولي: إن أمّكما نائمة بالحجرة. وتعالي إلى هنا فاسكبي لي الماء».

تقول: فسكبت لها ماء، فلبست ملابسها وذهبت إلى الحجرة، وبعد ساعة

---

(١) ومثل هذا قصيدة للشيخ صالح الحلي رحمه الله يقول فيها:

الواثبين بظلم آل محمّد — ومحمّد ملقىً بلا تكفينِ
والقائلين لفاطم آذيتنا — في طول نوح دائم وحنينِ
ومجمّعي حطب على البيت الذي — لم يجتمع لولاه شمل الدينِ
والهاجمين على البتول ببيتها — والمسقطين لها أعزّ جنينِ
خلوا ابن عمي أو لأكشف في الدعا — رأسي وأشكو للإله شجوني
ما كان ناقة صالح وفصيلها — بالفضل عند الله إلّا دوني
ورنت إلى القبر الشريف بمقلة — عبرى وقلب مكمد محزونِ
قالت وأظفار المصاب بقلبها — غوثاه قلّ على العداة معيني
أبتاه هذا السامري وعجله — تُبعا ومال الناس عن هارونِ
أي الرزايا أتّقي بتجلّدي — هو في النوائب مذ حييت قريني
فقدي أبي أم غصب بعلي حقّه — أم كسر ضلعي أم سقوط جنيني
أم أخذهم إرثي وفاضل نِحلتي — أم جهلهم حقّي وقد عرفوني
قهروا يتيميك الحسين وصنوه — وسألتهم حقّي وقد نهروني

بيت الأحزان: ١٢٨ ـ ١٢٩.

ناديت: يا بنت رسول الله، فلم تجبني. فقلت: يا بنت من صلى بملائكة السماء مثنىً مثنى، فلم تجبني. فقلت: يا بنت من حمل الركن بأطراف الردا، فلم تجبني. فدنوت إليها فكشفت الرداء عن وجهها فإذا بها ميّتة، فجلست عندها أبكي، وبينما أنا كذلك وإذا بالحسن والحسين قد أقبلا، فقالا: «أين اُمّنا يا أسماء؟». فقلت: سيداي، إنها في الحجرة مضطجعة، هذا طعامكما إن أردتما الطعام. قالا: «أسماء، متى علمت أننا نأكل واُمّنا ليست معنا؟ أين هي؟». فقلت: في الحجرة. فهرول الحسن إليها فكشف الرداء عنها، ثم صاح: «أخي حسين هلمّ إليّ، إن اُمّنا فاطمة قد فارقت روحها الدنيا»[1]:

بأبي التي ماتت وما ... ماتت مكارمها السنية
دفنت وبين ضلوعها ... آثار ضرب الأصبحية[2]

---

(١) قريب منه ما في بحار الأنوار ٤٣: ١٧٤ ـ ١٨٠ / ١٥، عن فضّة خادمة الزهراء عليها السلام.

(٢) الأصبحية: سياط تنسب إلىٰ ذي أصبح، ملك من ملوك حمير. لسان العرب ٢: ٥٠٧ ـ صبح، ٣: ٤٩٢ ـ ربذ.

الفصل الثالث

أمير المؤمنين علي عليه السلام

﴿١٠﴾

بين يدي أمير المؤمنين عليه السلام

أأبا الحُسينِ وتِلكَ أروعُ كنيةٍ	وكِلاكُما بالرّائعات قَمِينُ
لكَ في خَيال الدّهرِ أيُّ مَلامحٍ	تَروي السَّنا ويُترجِمُ النّسرينُ
في الصبح أنت المُستَجِمُّ منَ اللّظى	واللّيل في المحرابِ أنتَ أنينُ
تكسو وأنتَ قطيفةٌ مَرقوعةٌ	وتَموتُ من جوعٍ وأنت بَطينُ
آلاؤكَ البيضاءُ طوّقتِ الدُّنا	فلها على ذِممِ الأنامِ دُيونُ

المباحث العامّة في الموضوع

المبحث الأوّل: شعاع من حياته عليه السلام

وأنت تواجه علي بن أبي طالب عليه السلام يأخذ الشعاع ببصرك، فلا تدري من أية ناحية تلج إلىٰ مضمونه ومعناه. وهناك نافذة فتحها الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله نريد أن ندخل إلىٰ علي عليه السلام من خلالها، تلك هي التي حددها يوم الخندق لمّا نزل علي عليه السلام لقتال عمرو بن عبد ودّ، فقد رفع رأسه وقال كلمته التي كانت وما تزال ترنّ في سمع الدهر: «برز الإيمان كله إلىٰ الشرك كلّه». وهذه الرواية يرويها المسلمون، مفسّروهم ومؤرّخوهم[1] كافة. فما معنىٰ هذه

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٦١، ٢٨٥، ١٩: ٦١، ينابيع المودّة ١: ٢٨١، ٢٨٤.

النافذة التي يفتحها النبي صلى الله عليه وآله لنلج منها إلىٰ مضمون علي عليه السلام؟

المبحث الثاني: محطّات مضيئة

المحطّة الأولىٰ: ولادته عليه السلام في الكعبة

عند التأمّل في سيرة هذا الرجل منذ أن دخل الحياة إلىٰ أن خرج منها ـ وان كان في الواقع لم يخرج منها بسوىٰ الجسم ـ نجد أن في حياته لحظات حاسمة في تأريخ الإسلام، فقد دخل الحياة عن طريق أقدس بقعة في نفوس المسلمين وهي الكعبة مهوىٰ أفئدة الناس. وهذه منقبة لا يشكّ بها المسلمون، وقد تغنّىٰ بها الأُدباء، ورعفت بها الأقلام، واهتزّ لها التأريخ، وتبنّتها العواطف. وفي اعتقادي أن تلك المنقبة وإن كانت عظيمة كبيرة له، لكنها لا تزيد في شخصيّته شيئاً؛ لأنه عليه السلام لو كان عنده في حياته نقص أو كان يُعْوِزه سبب من أسباب العظمة لالتمسنا له العظمة من خارج ذاته، لكن ذاته مليئة بالعظمة، فولادته في الكعبة المقدّسة ما طهَّرت له قلباً مرّ به الشرك أو الكفر فهو لم يشرك طرفة عين، ولا أضافت مجداً إلىٰ جبهة ما عفّرت بالسجود للأصنام فهو قد كرّم الله وجهه عن السجود للصنم. فعلي عليه السلام ولد وكان الله يملأ قلبه، ونور الإيمان يعمر حياته، والوحدانيّة تأخذ عليه أبعاده، فلم يسجد لصنم قط. ولكن الله تعالىٰ أراد بهذه المنقبة لعلي عليه السلام أن يردّ الجميل لهذه البقعة المقدّسة التي انطلقت منها كلمة التوحيد بقلب الكعبة بأن يكون عليه السلام المدافعَ عن هذه الكلمة بتحطيم الأصنام والقضاء علىٰ آلهة تعبد من دون الله، وله عليه السلام أيضاً ـ كونه المدافعَ عن دينه ـ بأن جعل ولادته في بطن الكعبة. يقول السيّد الهندي:

لمـــا دعـــاك الله قـــدماً لأن تـــولد فـــي البـيت فـلبيتهْ
جَـــزيتَه بــين قــريش بأن طهّرت من أصنامهم بيتهْ[(١)]

ماذا أقول لمن حطت له قدم

فعندما دخل رسول الله صلى الله عليه وآله إلىٰ الكعبة الشريفة عام الفتح جلس وقال: «يا علي، إن الله أمرني أن أُحطمّ هذه الأصنام، اجلس حتىٰ أرقىٰ علىٰ منكبك». يقول علي عليه السلام: «قلت بلىٰ يا رسول الله. فجلست ووضع رسول الله صلى الله عليه وآله رجله علىٰ عاتقي، فأردت أن أقوم فما استطعت، وحاولت أن أنهض فلم أتمكن، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لي: تَنَحَّ، ثم جلس وقال لي: ضع رجلك علىٰ عاتقي. فأحجمت وقلت له: يا رسول الله رجلي لا تطاوعني. فقال لي: ضع رجلك علىٰ عاتقي، إن الله أمرني بذلك. فوضعت رجلي علىٰ عاتقه فنهض بي، فوالله لو شئت أن أطال السماء لطلتها»[(٢)].

ثم صعد علي عليه السلام إلىٰ أعلىٰ الكعبة وجعل يأخذ الصنم ويضرب به الآخر ويقرأ: ﴿وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾[(٣)]، وعمد إلىٰ الأصنام وجميع آثار الشرك فأزالها عن بيت الله[(٤)].

وإذا كان في هذا البعد قد حطم الأصنام المادّية فقد حطّم فيما بعد الأصنام المعنويّة في نفوس الناس، فقد حطّم الأصنام التي قامت في النفوس علىٰ العصبيّة والطمع والإلحاد، فجاء ليملأ النفوس بأنوار

---

(١) ديوان السيد رضا الهندي: ٢٥، الغدير ٦: ٢٢.

(٢) وفي ذلك قال أبو نؤاس:

وعـــلي واضـــع رجـــلاً له بـــمكان وضـــع الله يـــدهْ

وقال آخر:

مـــاذا أقـــول لمـــن حـــطّت له قـــدم في مـوضع وضـع الرحـمن يـمناهُ

انظر: مناقب آل أبي طالب ١: ٣٩٩ ـ ٤٠٠، نهج الايمان: ٦١١.

(٣) الإسراء: ٨١.

(٤) قريب منه في نهج الايمان: ٦٠٧.

الإيمان، وليهذّب السلوك من شوائب الشرك، وليلعلع أنشودة على فم الدهر، مهمّتها أن تزيح الإلحاد والشرك من كلّ بعد من أبعاد الحياة، فنادى بأعلىٰ صوته بأن الناس «صنفان: إما أخ لك في الدين، وإما نظير لك في الخلق»[١].

وقد ترىٰ بعضهم يعبد رباً ولكنه يعبد ربّاً مجسّماً، ولذا يقول القرآن: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[٢]، ووقف علي عليه السلام ليقول: «من قرنه فقد ثنّاه ... ومن أشار إليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه»[٣]. وقد وضع بهذا دستوراً للوحدانية؛ ليزيل من نفوس الناس الأوهام العالقة، وليحقّق التوحيد في المضمون، وفي السلوك الاجتماعي. فـ«ما عرض له أمران أحدهما لله والآخر لنفسه إلّا اختار الذي هو لله علىٰ الذي هو لنفسه»[٤]؛ إيماناً منه بأن الله هو خالق العباد، وهو المتفرّد بالعبادة، فيجب أن يلحظ وحده.

المحطّة الثانية: ياعلي أنت أخي في الدنيا والآخرة

ومن بعد هذا المنزل الذي تفرّد به في ولادته في الكعبة والذي لم يتأتَّ لأحد قبله ولا بعده، تفرّد بشيء آخر ألا وهو المهد الذي نشأ فيه، فهل تجد مهداً منذ أن خلق الله الدنيا مثل المهد الذي نشأ فيه علي عليه السلام؟ كلّا وألف كلّا، فمهده صدر رسول الله صلى الله عليه وآله، فقد تلقّاه رسول الله صلى الله عليه وآله بين ساعديه، واحتضنه وأحنىٰ عليه يقبّله ويضمّه إلىٰ صدره، ويوجره[٥]

---

(١) نهج البلاغة / عهده عليه السلام إلىٰ مالك الأشتر، الرقم: ٥٣.

(٢) يوسف: ١٠٦. (٣) نهج البلاغة / الخطبة: ١.

(٤) من حديث للإمام زين العابدين عليه السلام وقد ورد بهذا المعنىٰ أحاديث كثيرة، انظر الكافي ٨: ١٦٣ / ١٧٣، الإرشاد ٢: ١٤١، بحار الأنوار ٤١: ١٢٩ ـ ١٣٠ / ٤٠، وغيرها كثير.

(٥) الوجر: أن يوضع الدواء أو الماء أو غيره في حلق الصبي. لسان العرب ١٥: ٢٢٠ ـ وجر.

اللبن ساعة شربه، ويهزّ مهده وينام قربه ويطوف به شعاب مكّة:

لقد تَرعرَعتَ في حِجرٍ عليه لذي ... حِجرٍ براهينُ تعظيمٍ بها قُطِعَا
ربيبُ طه حبيبِ اللهِ أنتَ ومَن ... كانَ المُرَبِّي لهُ طه فَقد بَرَعَا(١)

فكان هذا المهد صدراً نقل إلىٰ الدنيا الخير والنور والوحي والقرآن. لقد حصل علي عليه السلام علىٰ مهد لم يتسنَّ لأحد أن يحصل عليه، لقد رفعه ذلك الصدر وأحنىٰ عليه وغذّاه وربّاه وترك بصماته عليه، فكانت آداب رسول الله صلى الله عليه وآله وأخلاقه وسيرته الطابع المميز لعلي عليه السلام في مسيرته في هذه الحياة، وذلك هو الذي يفسّر لنا مؤاخاة رسول الله صلى الله عليه وآله له، عندما آخىٰ بين كلّ اثنين من أصحابه وترك علياً عليه السلام وحده، فجاءه وعيناه تطفحان دموعاً، يقول عليه السلام: «قلت: يا رسول الله أراك آخيت بين أصحابك وتركتني؟». قال: «إنما ادّخرتك لنفسي، أنت أخي في الدنيا والآخرة»(٢):

لو رأىٰ مثله النبيّ لآخا ... ه وإلّا فاخطأ الانتقادُ(٣)

يقول عبد الباقي العمري:

يا أبا الأوصياء أنت لطه ... صهره وابنُ عمّه وأخوهُ
إن لله في معانيك سرّاً ... أكثر العالمين ما عرفوهُ
أنت ثاني الآباء في منتهىٰ الدو ... ر وآباؤه تُعدّ بنوهُ

---

(١) البيتان لعبد الباقي العمري. الأنوار العلوية: ٣٩، ٣٤٥.

(٢) ورد هذا الحديث بطرق كثيرة وصيغ مثلها، انظر الطبقات الكبرىٰ ٣: ٢٢، المعجم الكبير ١١: ٦٣، تاريخ مدينة دمشق ٤٣: ٨، كنز العمّال ١١: ٥٩٨ / ٣٢٨٧٩، ٦٠٨ / ٣٢٩٣٩، ٦١٠ / ٣٢٩٥٥، ١٣: ١٤٠ / ٣٦٤٤٠.

(٣) البيت للسيد محمد الهندي. الأنوار العلوية: ٣٤٠.

خـلق الله آدماً مـن تـراب فـهُوَ ابـنٌ له وأنت أبـوهْ[١]

وهكذا ولج عليه السلام الحياة من أقدس بيت، وترعرع في أقدس مهد، واحتلّ أعظم مكانة في نفوس المسلمين.

المحطة الثالثة: دفاعه عن الإسلام ونبي الإسلام صلى الله عليه وآله

ثم جاء المنزل الثالث، فقد هبط جبرئيل يحمل أول سورة من السماء ليقرع بها سمع النبي محمد صلى الله عليه وآله، فولج الإسلام إلىٰ الدنيا عن طريق سمعه صلى الله عليه وآله؛ فهو المبلغ الأوّل لرسالة السماء، فكان أوّل سمع ولجته كلمة الوحي هو سمع ابن أبي طالب عليه السلام عندما هبط جبرئيل عليه السلام يحمل قوله تعالىٰ: ﴿اقْرَأْ بِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾[٢]، فراحت تلك السورة تقرع سمع ابن أبي طالب[٣] الذي احتضن القرآن ورعاه فكراً ومضموناً، وحمله شعاراً، وذاد عنه بسيفه، ووقف يتّخذ منه دستوراً للحياة في كلّ ما قال وما فعل وما بلّغ.

خرج الرسول صلى الله عليه وآله يحمل القرآن علىٰ يديه، فشرعت له الرماح وسلّت له السيوف، وازبأرّ الشرك يريد القضاء عليه.. برز صلى الله عليه وآله وحيداً تكاد السيوف والرماح تشتجر فيه والأحقاد تأكله، ويكاد المشركون يزلقونه بأبصارهم

(١) الغدير ٦: ٣٣٨. (٢) العلق: ١ ـ ٢.

(٣) الذي نزل فيه قول تعالىٰ: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ الحاقة: ١٢. انظر: جامع البيان، المجلّد: ١٤، ج ٢٩: ٦٩ / ٢٦٩٥٤، شواهد التنزيل ٢: ٣٦١ ـ ٣٧٨ / ١٠٠٧، ١٠٠٩، ١٠١١ ـ ١٠١٣، ١٠١٦ ـ ١٠٢١، ١٠٢٤ ـ ١٠٢٥، ١٠٢٧ ـ ١٠٢٩، كنز العمّال ١٣: ١٧٧ / ٣٦٥٢٥ ـ ٣٦٥٢٦، فيض القدير ٣: ٦٠، وقد قال بعد نقل جملة من الأحاديث في فضله عليه السلام: والأخبار في هذا الباب لا تكاد تحصىٰ. أو هو ما يروى من أنه عليه السلام كان إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وآله في غار حراء لمّا نزل عليه الوحي، وسمعه

لمّا سمعوا الذكر[١]، ووقف علي عليه السلام ويده على قائم سيفه يذود عنه صلى الله عليه وآله ويدأب على حمايته في الليل وهو نائم، وفي النهار وهو يبلّغ رسالات ربّه، فكان ألزم له من ظلّه. فكان للرسول صلى الله عليه وآله من علي عليه السلام سيف، ومن أبي طالب عليه السلام حماية، ومن فاطمة بنت أسد رعاية، وهكذا ترعرع من قبلُ نبينا محمد صلى الله عليه وآله في بيت علي عليه السلام. وإذ الناس ترمي الرسول صلى الله عليه وآله بالحجارة والجنون، وتتّهمه بكلّ تهمة يقف عليه السلام ومن ورائه بيته، وينتفض سيفٌ له وحمايةٌ لأبي طالب لتحدب على النبي صلى الله عليه وآله حتى يؤدّي رسالته:

ولولا أبـو طـالبٍ وابـنُه ... لما مثُل الدينُ شخصاً فقاما

فـهذا بـمكّة آوى وحـامى ... وذاك بيثرب شام الحسـاما

تكـفّل عـبد مـناف بأمر ... وأودى فكـان عـلي تـماما

فلله ذا فـــاتحاً للـــهدى ... ولله ذا للـمعالي ختـاما[٢]

هذا أخي ووزيري

ثم كانت مرحلة التبليغ، وأمرت السماء النبي محمّداً صلى الله عليه وآله أن يبلّغ الأدنى فالأدنى؛ لأن الأقربين أولى بالمعروف[٣]، وحمل الرسالة، فلابدّ من قرع

---

(١) تضمين لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ القلم: ٥١.

(٢) الأبيات لابن أبي الحديد. شرح نهج البلاغة ١٤: ٨٤، وانظر الصراط المستقيم ١: ٣٣٤، الدرجات الرفيعة: ٦٠.

(٣) تضمين لقوله تعالى: ﴿وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ البقرة: ١٨٠.
قال العجلوني: «(الأقربون أولى بالمعروف) قال السخاوي: ما علمته بهذا اللفظ، ولكن قال النبي صلى الله عليه وآله لأبي طلحة: «أرى أن تجعلها في الأقربين»... وفي أسنى المطالب: اشتهر على الألسنة: «الأقربون أولى بالمعروف»، وليس بحديث خلافاً لمن زعمه، لكن يشهد له قصّة أبي طلحة، وقوله تعالى ...». ثم ذكر الآية الكريمة أعلاه. كشف الخفاء ١: ١٦١ / ٤٨٦.

أسماعهم أولاً بالرسالة، وأمر النبي صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام أن يجمع بني عبد المطلب، فجمعهم، ووقف رسول الله صلى الله عليه وآله بين ظهرانيهم بعد أن صنع لهم علي عليه السلام طعاماً وكان فخذ جزور وعسّاً من اللبن، وكان عددهم أربعين فأصدرهم شباعاً، ولم ينقص من الطعام شيء، ثم قال لهم رسول الله: «**لو قلت لكم وراء هذا الجبل قوم يريدون غزوكم، هل كنتم تصدقونني؟**». قالوا: بلىٰ، لأننا ما عرفنا منك كذبة وأنت الصادق الأمين. قال: «**والله لقد جئتكم بخير ما جاء به وافد إلىٰ قومه، قولوا: لا إله إلّا الله تفلحوا**».

فقام إليه عمّه أبو لهب وقال له: ألهذا جمعتنا؟ تبّاً لك. فهبط القرآن الكريم ليقول: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[1].

ولم تؤثّر تلك الواقعة في نفس النبي صلى الله عليه وآله أبداً، فكرّر الدعوة وأمر علياً عليه السلام بصنع الطعام ففعل، ووقف رسول الله صلى الله عليه وآله ليقول لهم: «**من منكم يتبعني علىٰ هذا ليكون أخي ووزيري وخليفتي من بعدي؟**». فلم يقم إلّا علي عليه السلام، وهو أصغر القوم سنّاً، يقول عليه السلام: «**قلت: أنا يا رسول الله. فقال: اجلس. وفي الثانية قمت فقلت: أنا يا رسول الله. فقال: اجلس**». وفي الثالثة أمسكه من رقبته فقال: «**هذا أخي ووزيري وخليفتي من بعدي، فاسمعوا له وأطيعوا**».

فخرج القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: إنه يأمرك بطاعة ولدك[2].

الله تعالىٰ يباهي الملائكة بعلي عليه السلام

ومرّت الدعوة تأخذ طريقها بين الشدّة والعسر والامتحان، وأحياناً بين الحراب والسيوف إلىٰ أن قُدّر لها أن تمرّ بأمر حاسم؛ فإما أن تموت بموت حاملها وإما أن تنتعش. واجتمعت قريش في دار الندوة، وقررت

---

(١) المسد: ١، مناقب آل أبي طالب ١: ٤٣. (٢) شرح الأخبار ١: ١٠٧.

ألّا يفلت منهم النبي محمدصلى الله عليه وآله، وتوقّفوا فيمن يقدم ويقوىٰ علىٰ قتله، حتىٰ انبرىٰ لهم أبو سفيان فقال: نأخذ من كلّ قبيلة رجلاً ونعطيه سيفاً، ونأمرهم أن يدخلوا عليه دفعة واحدة ويضعوا السيوف فيه فيذهب دمه هدراً بين القبائل، فيصعب علىٰ بني هاشم أن يطلبوا بدمه. فقرّ رأيهم علىٰ ذلك، ووُضعت السيوف بأيدي الرجال المنتدبين لذلك فحاصروا البيت.

وبات رسول اللهصلى الله عليه وآله وقد قرع الوحي سمعه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[١]، فأمره جبرئيلعليه السلام أن يهاجر في تلك الليلة، وخرج النبيصلى الله عليه وآله وتبعه أبو بكر والثالث، لكنّه لم يصل معهما، وكان قبل خروجه استدعىٰ الإمام علياًعليه السلام فقال له: «ياعلي». قال: «بلىٰ يا رسول الله». قال: «إن الله أمرني أن أُضجعك مكاني هذه الليلة وأن تعتجر بردائي وتنام مكاني». فالتفت إليه الإمامعليه السلام قائلاً وفي نفسه الإذعان الكامل: «يا رسول الله، إذا نمت مكانك أو تسلم؟». قال: «بلىٰ». قال: «روحي لروحك الفدا، ونفسي لنفسك الوقا».

وبات عليعليه السلام على فراش النبيصلى الله عليه وآله، فلما أصبح الصباح هجموا عليه فانبرىٰ لهم بسيفه قائلاً: «ما وراءكم؟». قالوا: أين محمد؟ قال: «أوتركتموني عليه حارساً؟». وشهر السيف في وجوههم، فكرّوا عنه راجعين. وقد خلدت السماء هذه اللحظة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾[٢]، وهبط جبرئيل وميكائيل كلّ منهما يقول: «بخٍ بخٍ لك يابن أبي طالب، من مثلك وقد باهىٰ الله بك ملائكة السماوات»[٣]:

ومناقبٌ لك دون أحمدَ جاوزت ... بمقامك التوصيفَ والتَّحديدا

---

(١) الأنفال: ٣٠. (٢) البقرة: ٢٠٧.

(٣) الأمالي (الطوسي) ٤٧١ ـ ٤٧٢، شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٦٢، التفسير الكبير ٥: ٢٠٤.

فعلى الفراش مبيتُ ليلك والعِدا تُهدي إليك بَوارقاً ورُعودا
فرقدتَ مَثلوجَ الفؤادِ كأنّما يُهدي القِراعُ لسمعكَ التَّغريدا
ووقيتَ ليلتهُ وبِتَّ مُواسياً بالنَّفسِ لا فَشِلاً ولا رِعديدا
رصدوا الصَّباحَ ليُنفِقُوا كنزَ الهُدىٰ أوَما دَرَوا كنزَ الهُدىٰ مَرصودا
يا مُنشِئَ الأفلاكِ والأملاكِ بل لولاكَ ما عَرفَ الوجودُ وجودا[١]

وتلك الليلة لم تكن الأُولىٰ التي نام فيها الإمام علي عليه السلام في فراش رسول الله صلى الله عليه وآله، فقد أَلِف فراشه ثلاث سنين متتالية يوم حوصر بنو هاشم في الشعب، ويوم وقف أبو طالب عليه السلام وبنوه الأربعة، فكان يضجع رسولَ الله صلى الله عليه وآله ساعة ثم ينقله ليضع علياً عليه السلام مكانه ثم ينقله ليضع أحد ولده مكانه وهكذا[٢].

حامي ظعينة الرسول صلى الله عليه وآله

وهاجر النبي صلى الله عليه وآله، وقالت قريش: إذا كان محمد قد أفلت منّا بشخصه فلن يفلت منا أهله وعياله. وبعث النبي صلى الله عليه وآله إلىٰ علي عليه السلام «أن احمل إليَّ الفواطم». وحمل علي عليه السلام فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وفاطمة بنت أسد وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب وفاطمة بنت حمزة بن عبد المطلب، ومرّ بقريش وهي في أوج كبريائها وغطرستها، فتحدّىٰ تلك الكبرياء، ووقف ليقول: «هذه ظعينة محمد صلى الله عليه وآله، وأنا خارج بها، ومن أحبَّ منكم أن يتبعني فليفعل».

وخرج، وعزّ علىٰ قريش أن يتحدّاها صبي لم يجاوز العشرين إلّا بقليل، فتبعه ثمانية من أبطال قريش ومعهم عبد لأُميّة بن حرب يقال له جناح،

---

(١) الأبيات للكعبي، وقد مرّت في ج ١ ص ٧٨.
(٢) روضة الواعظين: ٥٣.

حتىٰ إذا بلغوا محلاً فيه راعٍ يرعىٰ الغنم سألوه: هل مرّت بك ظعينة لمحمد؟ قال: نعم، مرّ بي ابن أبي طالب، وقد سلك هذا الطريق. فتبعوه، فلمّا أحسّ بهم عليﷺ قال لأبي واقد الليثي وأيمن ـ وكانا يقودان النياق ـ: «انزلا». فنزلا، فقال: «اعقلا النياق وأنزلا الفواطم». ففعلا، وأخذ عليﷺ سيفه وأقبل عليهم، فقالوا له: أتخرج بظعينة محمد من بين ظهرانينا؟ عُد. قال: «وإن أبيت؟». قالوا: لابدّ من عودتك، قال: «لا والله».

فبدره العبد بضربة راغ عليﷺ، عنها ثم ضربه ضربة قدّته ووصلت إلىٰ سرج الفرس. فتراجع الثمانية وقالوا: كُفّ سيفك عنّا يابن أبي طالب. ثم كرّوا راجعين، وكرّ لظعينته يحميها وهو ماشٍ علىٰ قدميه، حتىٰ مجلتا، وظهرت فيهما القروح، فتلّقاه رسول اللهﷺ يبارك قدمين سعتا في سبيل الله، ويداً ذادت عن عيال رسول اللهﷺ، فاحتضنه ومسح علىٰ رجليه واعتنقه وأبىٰ أن يدخل إلىٰ دار هجرته إلّا وساعده بساعد عليﷺ، وحطّ عليﷺ رحله بالمدينة[1].

سجدت رؤوسهم لديك

وفي المدينة واجه النبيﷺ الحرب بكلّ ضراوتها وقد أطبقت العرب علىٰ قتاله، ووقف عليﷺ في هذا المنزل سيفاً لا تثلمه الحوادث، ورمحاً لا تكسره النوازل، وعزيمة لا تهزم. ودونك تأريخ الغزوات، فهذه غزوة بدر التي يسميها التأريخ اُم الوقائع؛ لأن وجود الإسلام كان متوقّفاً علىٰ نصر المسلمين في تلك الواقعة بشهادة رسول اللهﷺ حيث قال: «يا رب، لئن هلكت هذه العصابة فلن تعبد علىٰ وجه الأرض»[2]. ووقف ثلاثمئة

---

(١) شجرة طوبىٰ ١: ٦٤ ـ ٦٦.

(٢) جامع البيان، المجلّد: ٦، ج ٩: ٢٥١.

وثلاثة عشر مجاهداً من صحابة الرسول صلى الله عليه وآله في مقابل جموع قريش بكبريائها وعنجهيّتها وسلاحها، وكان فيها علي عليه السلام الوجه الأوّل. فكان عدد القتلىٰ آنذاك سبعين قتيلاً، منهم خمسة وثلاثون بيد عليّ عليه السلام، والنصف الآخر اشترك به الجيش بأجمعه. وكان في طليعة القتلىٰ عتبة وشيبة والوليد الذين قالوا لرسول الله محمد صلى الله عليه وآله: أخرج إلينا أكفاءنا من قريش. فأخرج لهم ثلاثة من الأنصار فقالوا لهم: ارجعوا فلستم لنا بأكفاء. فلما رجعوا نادوا النبي صلى الله عليه وآله ثانية: أخرج لنا أكفاءنا من قريش. فقال صلى الله عليه وآله: «قم يا علي، وقم يا حمزة، وقم يا عبيدة». فقاموا، والتقىٰ عبيدة بشيبة، وحمزة بعتبة، وعلي عليه السلام بالوليد، فقتل علي عليه السلام الوليد ورجع ليرىٰ عمّه حمزة يصاول عتبة، فقال له: «طأطيء رأسك يا عمّ»، فضرب رأس عتبة فأرداه، وشدّا معاً علىٰ شيبة فقتلاه وحملا عبيدة ومخّ ساقه ينتثر علىٰ الأرض[١]:

وغداةَ بدرٍ وهي أمّ وقائعٍ كبُرت وما زالت لهُنّ وَلودا
قابلتَهُنّ فلم تدعْ لعقودها نظماً ولا لنظامِهنّ عقيدا
فالتاجَ عتبةُ ثاوياً بيمين مَن يُمناه أردت شيبةً ووليدا
سجَدت رؤوسهمُ لديك وإنّما كان الذي ضُربت عليه سُجودا

نداء السماء: لا فتىٰ إلّا علي

ثم جاءت محطّة اُخرىٰ في طريق الإسلام وهي واقعة اُحد، يوم وقفت قريش وهي موتورة وزغاريد النساء وراءها تملأ الاُفق:

نحنُ بناتُ طارقْ نمشي علىٰ النمارقْ

(١) مناقب آل أبي طالب ٢: ٣١١، مجمع البيان ٤: ٤٤١، بحار الأنوار ١٩: ٢٢٥، ٢٥٤، ٢٩٠.

الدُّرُّ بـــالمخانِقْ والمِسكُ بـــالمَفارِقْ

إن تُـــقبِلوا نُـعانِقْ أو تُـــدبِروا نُـفارِقْ

فِـراقَ غَـــيـرِ وامِـقْ(١)

وكتيبة أُخرىٰ تسمع منها:

إيـهاً بـني عـبد الدارْ إيهاً حُماةَ الأدبـارْ(٢)

وحامل اللواء يرتجز:

إنَّ عـــلىٰ ربّ اللـــواء حـــقّاً أن يخضِبَ الصَّعدَةَ أو تَـندقّا(٣)

فكان ذلك المنظر قد بعث الرعب في النـفوس وزلزل الأقـدام، ووقـف عليﷺ وبيده سيفه وبين أضلاعه النفس المطمئنّة والقلب الذي لا تهزّه الهزائز، ونزل إلىٰ حامل اللواء طلحة بن أبي طلحة العبدري وأرداه بضربة من ضرباته، فخفّ أخوه للّواء فأرداه عليﷺ قتيلاً، وخفّ أخوه الثـاني فأرداه بسيفه، وهكذا حتىٰ أرداهم عليﷺ بأجمعهم، وكانوا سـبعة مـن ولد عبد الدار. فجاء غلام لهم فحمل اللواء فأرداه عليﷺ قتيلاً.

وسقط اللـواء وانـهزم الجـيش، ولكـن المسـلمين خـذلوا النـبيﷺ ولم يأخذوا بقوله، فترك الرماة مكانهم ونزلوا ليغنموا، فدارت الدائرة عـلىٰ المسلمين، وفرّ الناس عن رسول اللهﷺ، وصاح إبليس: قتل محمد. ولم

---

(١) شرح الأخبار ١: ٢٧٣، تاريخ الطبري ٢: ١٩٥، ولم ينقلها بتمامها.

(٢) شرح الأخبار ١: ٢٧٣، تاريخ الطبري ٢: ١٩٦، شرح نـهج البـلاغة ١٤: ٢٣٧، البـدايـة والنهاية ٤: ١٨ باختلاف في لفظ «إيهاً».

(٣) هو عثمان بن أبي طلحة، أخو طلحة الذي قتله أمير المؤمنينﷺ في المعركة عينها. شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٣٦.

يبقَ مع النبي إلّا أربعة عشر، سبعة من المهاجرين ومثلهم من الأنصار، ووقف بعض كبار الصحابة علىٰ الجبل يقول أحدهم للآخر: دعوا عبد الله بن اُبي يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان.

ووقف علي عليه السلام يدافع عن رسول الله صلى الله عليه وآله في ذلك الموقف، يقول له النبي صلى الله عليه وآله: «ذُد عني هذه الكتيبة»، فيذودها، ويقول له: «ادفع عني هذا الخصم». وهو يقاتل، والعبّاس بن عبد المطلب ينادي: يا أهل سورة البقرة، يا أهل بيعة الشجرة، هذا رسول الله، ويحكم ثوبوا إليه.

ووقف علي عليه السلام حتىٰ انتهت المعركة ووقف جبرئيل يهزّه الإعجاب لينادي بين السماء والأرض: «لا سيف إلّا ذو الفقار ولا فتىٰ إلّا علي»[1].

برز الإيمان كلّه إلىٰ الشرك كلّه

ومرّت معارك ومعارك، ولعلّ من أبرزها الخندق، يوم وقف المسلمون والرعب يملأ قلوبهم. ورسول الله صلى الله عليه وآله ينادي: «من لعمرو، وأنا ضامن له علىٰ الله الجنّة؟». فلم يفزع سوىٰ ذلك الفتىٰ الذي نزل إلىٰ المعركة، فضرب عمراً ضربة راغ عنها فقطعت فخذه وسقط إلىٰ الأرض. فجثا علي عليه السلام علىٰ صدره، وبصق عمرو في وجهه، فمسح علي عليه السلام وجهه وانتظر حتىٰ هدأت عنه حدّة الغضب ليقتله قتلة خالصة لله، فاحتز رأسه[2] ورجع وهو يقول:

---

(١) انظر القصّة كاملة في شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٣٤ ـ ٢٥٠. وانظر: الكافي ٨: ١١٠ / ٩٠، الإرشاد ١: ٨٧، علل الشرائع ١: ٨ / ٣، شرح نهج البلاغة ١: ١٨٢. كما أن بعض المصادر قد نقلت أن نداء جبريل عليه السلام هذا كان في وقعة الأحزاب، انظر: رسائل المرتضىٰ ٤: ١١٩، ١٢٣، ونقل بعضهم أنها يوم بدر، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٧١. وقد صاغ الحديث حسان بن ثابت شعراً، انظر الغدير ٢: ٥٩.

(٢) الإرشاد ١: ٩٨، المستدرك على الصحيحين ٣: ٢٣، السنن الكبرى (البيهقي) ٩: ١٣٢.

نصرَ الحجارةَ من سَفاهَةِ رأيِهِ ... ونصرتُ ربَّ محمدٍ بصوابي

فضربتُه فتركتُه متجدِّلاً ... كالجذعِ بينَ دكادِكٍ وروابي

وعففْتُ عن أثوابِه ولوَ انني ... كُنتُ المُجَدَّل بَزَّني أثوابي

لا تَحسبُنَّ اللهَ خاذلَ دينِه ... ونبيِّه يا معشرَ الأحزابِ[1]

وكانت قولة النبي صلى الله عليه وآله آنذاك: «برز الإيمان كله إلىٰ الشرك كله»[2].

ويكفينا عن يوم خيبر ما يقوله الأُزري:

وله يومَ خيبر فتكاتٌ ... كبرت مَنظراً علىٰ من رآها

يومَ قال النبيّ إني لأُعطي ... رايتي ليثَها وحامي حِماها

فاشرَأبَّت أعناقُ كلِّ فريقٍ ... ليروا أيّ ماجد يُعطاها

فدعا أين وارثُ العلم والحلـ ... ـم مجيرُ الأنام من بأساها

أين ذو النجدة الذي لو دعته ... بالثريا مَرُوعةٌ لَبّاها

فأتاهُ الوصيُّ أرمدَ عينٍ ... فسقاها من ريقِهِ فشفاها

وبرىٰ مَرحَباً بكفِّ اقتدار ... أقوياءُ الأملاكِ من ضُعفاها[3]

ورجعت أُخت عمرو[4] وأهله يفتخرون بقتله علىٰ يد علي عليه السلام، ذلك

(١) شرح الأخبار ١: ٢٩٤ ـ ٢٩٦، الجامع لأحكام القرآن ١٤: ١٣٣ ـ ١٣٤، البداية والنهاية ٤: ١٢٠ ـ ١٢١.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٦١، ٢٨٥، ١٩: ٦١، ينابيع المودّة ١: ٢٨١، ٢٨٤.

(٣) من قصيدة الشيخ كاظم الأزري المعروفة بالأزرية. انظر: تخميس الأزريّة: ٦١، شجرة طوبىٰ ٢: ٢٩٠.

(٤) وهي أُم كلثوم، وكان أن ارتجزت قائلة:

لو كان قاتل عمرو غير قاتله ... لكنت أبكي عليه آخر الأبدِ

لكن قاتله من لا يعاب به ... وكان يدعى أبوه بيضةَ البلدِ

شرح نهج البلاغة ١: ٢٠ ـ ٢١، ذيل تاريخ بغداد ٢: ١٩٨.

البطل الذي كانت العرب تعتبر الفرار عيباً إلّا من سيفه.

أما إذا رجعنا إلىٰ تأريخ الفكر عند علي عليه السلام فسنجده اللسان المدافع والفكر المكافح والثروة العقليّة التي تتجنّد لرفع لواء «لا إله إلّا الله»، وعنوان الفصاحة والبلاغة التي تتدفّق سيلاً عرماً، ونجده رمزاً من رموز العدل الذي قلّ أن تحظىٰ الدنيا بنظير له.

أفبعد ذلك لا نعرف معنىٰ كلمة النبي صلى الله عليه وآله: «برز الإيمان كله إلىٰ الشرك كله»؟

لقد كان الإسلام في لسان علي عليه السلام وسيفه وسلوكه وخلقه:

أخو الذكرِ والمحرابِ إنْ جنَّ ليلُهُ وصِنوُ القَنا والسَّيفِ إن طلَعَ الفجرُ
وفارسُ مِضمارِ البَيانِ بنَهجِهِ تَلاقى البيانُ الجَزلُ والفِكَرُ الغُرُّ
تزوَّدَ منهُ كُلُّ عصرٍ كما اشتهىٰ وما زالَ للدُّنيا بمزودِه ذخرُ

فسلام عليك أبا الحقّ يوم ضمّتك الكعبة وليداً، ويوم حملك محمد صلى الله عليه وآله طفلاً، ويوم تلقّيت الوحي صبيّاً[١] من فم حامل الرسالة، وسلام عليك بطلاً دافع عن الحقّ، وبياناً يطرب الدهر بتغريده، وعدلاً يتمنّاه كلّ مستضعف في الأرض، وسلام عليك في مثل هذه الليلة جريحاً يضمّك محراب مسجد الكوفة، ودماؤك تسيل، وأهل بيتك يسمعون النداء بين السماء والأرض: «تهدّمت والله أركان الهدىٰ، انفصمت والله العروة الوثقىٰ، قتل

(١) المعلوم أنه عليه السلام وإن أسلم صبياً لكن إسلامه مقبول صحيح، فهو السابق في الإسلام كما نصّ عليه العلماء من الفريقين. وكدليل على هذا انظر احتجاج المأمون على يحيى بن أكثم وغيره من العلماء، والذي أورده ابن عبد ربّه في الجزء الخامس من (العقد الفريد)، وكذلك انظر ردود أبي جعفر الاسكافي ـ أحد المتكلّمين من معتزلة البغداديّين، وله تصانيف معروفة، مات سنة(٢٤٠)هـ ـ على شُبه الجاحظ الواهية في شرح نهج البلاغة ١٣: ٢١٥ ـ ٣٠٦، باب: القول في إسلام أبي بكر وعلي عليه السلام وخصائص كلٍّ منهما.

أتقىٰ الأتقياء، قتله أشقى الأشقياء»[١].

وهنا أقبل الناس يُهرعون من كلّ جانب وهم ينادون: واسيداه، وأقبلت عائلته إلىٰ المحراب فوجدته قد أخذه نزف الدم وهو ملقىً علىٰ محرابه:

أسمع علىٰ المحراب ونّه　　　حامي الحمه مجروح اظنّه

بادر إليه الحسن والحسين عليهما السلام فحملاه من المحراب، وعياله من ورائه:

بعيد البله يا حارس الدين　　　يثمال اليتامىٰ والمساكين

مخضب بدم راسك يبو حسين

أبو حسين ما تمّم صيامه　　　لفه العيد واولاده يتامه

---

(١) بحار الأنوار ٤٢: ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٨٦.

﴿١١﴾

أمير المؤمنين عليه السلام سيرةً وموقفاً

بشـــر أقـــلّ صـفاته إن عـايـنوا ... مـنهن مـا ظـنّوا بـه المعبودا
ضلّت قريش كم تقيس بسابق الـ ... ـحلبات ملطوم الجبين مذودا
يا صـاحب المـجد الذي لجلاله ... عـنت السـرايـا مـنصفاً وعـنيداً
لك غـرّ أفـعال إذا استقرأتـها ... أخـذت عـليّ مـفاوزاً ونـجودا
وصفات فضل أشكلت معنى فـلا ... إطـلاقَ يكشـفها ولا تـقييدا
ومـراتب قُـلّدتها بـمناقب ... كالعقد تُلبسه الحسان الخودا[1]

المباحث العامّة للموضوع

وقفات في حياته عليه السلام

حينما يريد البعض أن يترجم لشخصيّة ما فإنّه يلجأ إلى طريقة إحصائية لبيان أبعاد المعرفة عنده، فيسلّط الأضواء على بعض الأمور الهامّة في حياته. ونحن سوف نستخدم هذه الطريقة في دراستنا لبعض ملامح أمير المؤمنين عليه السلام، وسوف نسجّل ذلك في وقفات عدّة، وسنخصّص كل وقفة بمبحث إن شاء الله:

---

(١) ديوان الحاج هاشم الكعبي: ٣٩.

المبحث الأوّل: قضية العمر عنده عليه السلام وإشكالية إسلامه

إنّ أوّل ما يمكن أن يحصى لأمير المؤمنين عليه السلام هو عمره، وهو وإن كان قصيراً بالمدى لكنه طويل بعطائه وإنجازاته وخدماته للإسلام ورسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم وللمسلمين. وعمر الإمام عليه السلام بالنسبة للأعمار الطويلة يعتبر قصيراً جداً، فهو لم يتجاوز العام الثالث والستين من عمره الشريف إذا عرفنا أنه عليه السلام ولد عام (١٠) قبل المبعث الشريف (بعد عام الفيل بثلاثين عاماً). وعلى هذا فإنّ عمره الشريف كان عشر سنوات حينما نزلت أوّل سورة من القرآن الكريم وسمعها ووعاها. وهذا المعنى حاول بعض المؤرّخين أن يرميه بسهام الشكوك، من جهة أنه لا يمكن أن يعتبر الإنسان في هذا العمر إنساناً كاملاً، ولا تعدّ مداركه مدارك ناضجة. وعليه فيكون إسلامه عليه السلام غير صحيح في مثل هذا السنّ، ولا يعدو إسلامه أن يكون تقليداً؛ لأنه صبي غير ناضج لم يعتنق الإسلام عن وعي وإدراك[١].

مناقشة دعوى أنه عليه السلام لم يسلم عن إدراك

وهذه الدعوى مردودة من عدّة وجوه، منها:

الأوّل: أنه عليه السلام نشأ مسلماً

إنّ هذا الكلام يمكن أن يوجّه إلى شخص لم يكن مسلماً ثم أسلم، أمّا مع أمير المؤمنين عليه السلام الذي ربي في بيت التوحيد والنبوة، فالأمر مختلف؛ لأنه عليه السلام كان يعيش الوحدانية في ذاته ومشاعره؛ فلم يسجد لصنم قط. وهذه الذهنية اللامعة إذا لم تكن تسجد لصنم أبداً فلمن كانت عبادتها تتوجّه إذن؟

---

(١) وهذا ما أثبته المأمون في مناظرته مع علماء السنّة. العقد الفريد ٤: ٣٦١٦ ـ ٣٦٣٧.

الثاني: اصطحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إياه إلى غار حراء

إننا نعرف ـ كما يثبت التاريخ ـ أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم كان يصطحب أمير المؤمنين عليه السلام خلال هذه السنوات العشر معه إلى غار حراء حيث يتعبّد، فكان عليه السلام يفتح عينيه على الدنيا من خلال عبادة اللّه وتوحيده. وكان يعيش هناك في حجر النبي صلى الله عليه وآله وسلم يسمع تهجّده ويحفظ أذكاره ويحاكي تعبّده. وهكذا يكون على مثل منهج الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، ويكون الاعتراض بأن إسلامه غير ناضج لا اعتبار له، وفي غير محلّه.

ثم إننا لو راجعنا التاريخ المعاصر لوجدنا فيه عباقرة وهم في سن دون السن التي كان عليها أمير المؤمنين عليه السلام، ففي العام (١٤١٥) مثلاً منح شخص شهادة البكالوريوس وكان عمره (١٢) سنة. ونحن لا نريد أن نبرهن على أنّ الإمام عليّاً عليه السلام كان على رأس النوابغ؛ فهو عليه السلام أكبر من هذا.

المبحث الثاني: الإمام عليه السلام ينذر حياته دفاعاً عن الإسلام وصاحبه صلى الله عليه وآله وسلم

لقد كان عليه السلام منذ أن بعث اللّه تعالى نبيّه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم برسالته وحتى هجرته الشريفة واضعاً يده على قائم سيفه، ينافح ويكافح من أجل رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ومن أجل هذه الدعوة المباركة الجديدة. وكان عليه السلام بهذا يعرّض نفسه للحجارة والآلام والمخاطر في سبيل هذا الهدف الشريف، وكان نصيبه من الاضطهاد كبيراً؛ حيث إنه عليه السلام كان يلاقي كل ما كان يلاقيه رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنه كان يلازمه كظلّه، ويدافع عنه دفاع المستميت.

دوره عليه السلام في حفظ الإسلام

وعندما هاجر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون إلى المدينة كان عمر الإمام علي عليه السلام ثلاثاً وعشرين سنة، وفي السنة الأُولىٰ من الهجرة تزوّج من

سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام. وكانت السنوات العشر الأُولىٰ التي قضاها في المدينة المنوّرة مع رسول اللّه صلى الله عليه وآله تعدّ مركز الثقل في حياته عليه السلام من نواحٍ متعددة؛ لأنّ الإسلام بني خلال هذه السنوات العشر، وفيها تأسّس المجتمع المدني. وقد كان لأمير المؤمنين عليه السلام الإسهام الأكبر في بناء هذا الدين والمجتمع على الأصعدة المدنية والحربية، وكل ذلك خدمةً للنبي صلى الله عليه وآله ورسالته، خدمة خالصةً لوجه اللّه تعالىٰ.

وبعد وفاة النبي الكريم صلى الله عليه وآله وارتحاله إلى الرفيق الأعلى في مقعد صدق عند مليك مقتدر ـ وكان عمره الشريف آنذاك ثلاثاً وثلاثين سنة ـ عاش خمساً وعشرين سنة مع الخلفاء إبان فترة حكمهم، حيث بلغ من العمر ثمانياً وخمسين سنة. ولم يكن عليه السلام خلال فترة حكم الخلفاء الثلاثة مجمّداً أو يمتنع عن أن يكون له دوره الفاعل في حياة المجتمع والدولة، بل كان يشارك في كل الفعاليات بكل ما يمكنه المشاركة به، فكان عنصراً ذا وجود واضح على الساحة الإسلامية في المدينة، يتدخّل ليبدي رأيه في كثير من أمور الدولة والناس ومشاكلها ومشاكلهم[1].

---

(١) لعلّ في تدخّله عليه السلام في كثير من أحكام القضاء التي قضىٰ بها الخلفاء الثلاثة. انظر: الارشاد ١: ٢٠٥ ـ ٢٠٦، شجرة طوبى ٢: ٤١٨.

وفي مشورته على الخلفاء في أُمور الدولة؛ كقضية التاريخ. انظر: تاريخ الطبري ٢: ٣، البداية والنهاية ٧: ٨٥، الكامل في التاريخ ١: ١١.

ومنعه الخليفة الثاني من الذهاب بنفسه إلى المعركة حيث قال له: «نَحْنُ عَلَىٰ مَوْعُودٍ مِنَ اللهِ، وَاللهُ مُنْجِزٌ وَعْدَه، وَنَاصِرٌ جُنْدَه. وَمَكَانُ الْقَيِّمِ بِالأَمْرِ مَكَانُ النِّظَامِ مِنَ الْخَرَزِ يَجْمَعُهُ وَيَضُمُّهُ: فَإِنِ انْقَطَعَ النِّظَامُ تَفَرَّقَ الْخَرَزُ وَذَهَبَ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحَذَافِيرِهِ أَبَداً.

وَالْعَرَبُ الْيَوْمَ، وَإِنْ كَانُوا قَلِيلاً، فَهُمْ كَثِيرُونَ بِالإِسْلَامِ، عَزِيزُونَ بِالاجْتِمَاعِ! فَكُنْ قُطْباً، وَاسْتَدِرِ الرَّحَى بِالْعَرَبِ وَأَصْلِهِمْ دُونَكَ نَارَ الْحَرْبِ فَإِنَّكَ إِنْ شَخَصْتَ مِنْ هٰذِهِ الأَرْضِ انْتَقَضَتْ عَلَيْكَ الْعَرَبُ مِنْ أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا، حَتَّىٰ يَكُونَ مَا تَدَعُ وَرَاءَكَ مِنَ الْعَوْرَاتِ أَهَمَّ إِلَيْكَ مِمَّا

وبعد استلامه عليه السلام دفّة الخلافة سنة (٣٦) هـ بقي في المدينة المنوّرة، لكنه عليه السلام ارتحل عنها إلى الكوفة بعد واقعة الجمل سنة (٣٧) هـ، وبقي فيها حتىٰ استشهاده عليه السلام عن عمر يبلغ الثالثة والستين عاماً. وكانت فترة حكمه أربع سنوات وثمانية أشهر. يقول أحد الشعراء:

ستّون عاماً فخاماً في حصائلها وإن تبدّىٰ قليلاً عندها العدد

لقد كان عمره الشريف كما قلنا (٦٣) سنة، لكن هل هذا هو العمر الحقيقي له (سلام اللّه عليه)؟ كلّا؛ إنّه لازال في صميم الحياة، فالعمر يقدّر بالعطاء، وعمره الشريف (سلام اللّه عليه) متدفّق بالعطاء، مفعم بالإخلاص والتفاني في خدمة دين اللّه تعالىٰ. وهكذا كان عليه السلام منذ دخوله الدنيا وحتى خروجه منها، ويظل عطاؤه يتوالد؛ فنظرياته تمسح كل أبعاد المعرفة:

ستلقاه حيّاً في الروائع كلها وفي كل سفر من روائعه فكرُ
فإن قيل هذا قبره قلت أربعوا أهذا الكيان الضخم يجمعه قبرُ
ولكنه باب إلى معطياته يعدّ غناه من بساحته فقرُ

فما يزال علي حيّاً بنظرياته وفكره وأخلاقياته وقيمه، وسيبقىٰ حيّاً وعطاءً بعد عطاء إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها. وهذه هي حصيلة

بَيْنَ يَدَيْكَ. إِنَّ الأَعَاجِمَ إِنْ يَنْظُرُوا إِلَيْكَ غَداً يَقُولُوا: هٰذَا أَصْلُ الْعَرَبِ. فَإِذَا اقْتَطَعْتُمُوهُ اسْتَرَحْتُمْ، فَيَكُونُ ذٰلِكَ أَشَدَّ لِكَلَبِهِمْ عَلَيْكَ، وَطَمَعِهِمْ فِيكَ.
فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ مَسِيرِ الْقَوْمِ إِلَىٰ قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ هُوَ أَكْرَهُ لِمَسِيرِهِمْ مِنْكَ، وَهُوَ أَقْدَرُ عَلَىٰ تَغْيِيرِ مَا يَكْرَهُ. وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ عَدَدِهِمْ، فَإِنَّا لَمْ نَكُنْ نُقَاتِلُ فِيمَا مَضَىٰ بِالْكَثْرَةِ، وَإِنَّمَا كُنَّا نُقَاتِلُ بِالنَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ». انظر: نهج البلاغة / الخطبة: ١٤٦. أكبر دليل على ذلك.

عمر علي بن أبي طالب عليه السلام الإحصائية.

المبحث الثالث: زواجه عليه السلام وأسباب تعدد الزوجات أول الإسلام

لم يتزوّج أمير المؤمنين من غير فاطمة عليها السلام حال حياتها، ولم يعدّد إلّا بعد وفاتها عليها السلام. وهذه نقطة تستحق الوقوف عندها، فعند الرجوع إلى تاريخ الصحابة في الفترة التي عاشها أمير المؤمنين عليه السلام من النادر أن نجد صحابياً لا يملك عدد الأزواج نفسه الذي يملكه أمير المؤمنين عليه السلام. فقد كان الصحابة يكثرون الأزواج لأسباب متعدّدة، منها:

الأوّل: تمتين الوشائج بين القبائل

فقد كان البعض من الصحابة يعمد إلى الزواج من قبائل أُخرىٰ، حتى تبقىٰ الوشائج قوية بين قبيلته هو كمسلم وقبيلة زوجته، وهكذا تستمر المصاهرة بهذا اللون حتى يأتي الوقت الذي تمّحي فيه الآثار القبلية. وهذا مردّه إلى أنّ الإسلام كان ضعيفاً في بادئ أمره، فاحتاج إلى أنّ يتجذّر في القبائل.

الثاني: تكثير المقاتلين

فالإسلام في أوّل أمره حوصر من جهات عدّة، فقد تكالب عليه العرب والأُمم الأُخرىٰ، وكان المسلمون معرّضين للقتل والذبح والإبادة في أية لحظة؛ فلذا كان لابدّ لهم من أن يهيّئوا وقوداً لمعركتهم ضد أُولئك، وهذا الوقود لا يجيء إلّا عن طريق الإكثار من الزوجات.

الثالث: عامل القربى والتربية

إنّ المتتبّع لبعض الزيجات وبالأخص عند الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وعند أمير المؤمنين عليه السلام يجد أنّ عامل الرغبة منتفٍ جداً وبشكل واضح وكبير فيها.

والعامل الوحيد المأخوذ بنظر الاعتبار هنا هو مراعاة أواصر القربىٰ بينهم وبين من يتزوّجون منهن أو من أزواجهن المتوفَّين عنهن، ومراعاة تربية أبنائهن تربية سليمة، كما فعل أمير المؤمنين عليه السلام في زواجه من أسماء بنت عميس. وإلّا فما الذي يجبر أمير المؤمنين عليه السلام على الزواج منها وقد كانت تحت تحت جعفر بن أبي طالب عليه السلام، وقد أولدها، ثم تحت أبي بكر الذي أولدها محمداً (الابن النجيب والمطيع لأمير المؤمنين عليه السلام)؟ أليس هو عامل مراعاة القرابة وتربية هؤلاء الصغار تربية صحيحة سليمة؟ فمعظم نساء أمير المؤمنين عليه السلام من هذا النوع.

إذن فقد كان أمير المؤمنين مكثراً من الزوجات، وكانت فاطمة الزهراء عليها السلام سكنه الأوّل وروحه من الدنيا، وكان عليه السلام يوليها رعاية وعناية لا حدود لهما ولا نظير. ثم تزوج بعدها أمامة بنت أبي العاص (ابنة اخت الزهراء عليها السلام)، وكان عليه السلام قد تزوّجها بوصيّة منها عليها السلام حيث قالت له عليه السلام: «في صدري وصايا تختلج، وأُريد أن أوصيك بها». قال عليه السلام: «بلىٰ، عزّ واللّه عليَّ فراقك يا بنت رسول اللّه». قالت: «يا أبا الحسن، لا بدّ للرجال من النساء، فإن أردت أن تتزوّج بعدي فعليك بابنة أُختي أُمامة؛ فإنها تكون لولدي مثلي، ومع ذلك اجعل لها يوماً وليلة وللحسنين يوماً وليلة»[1].

ثم تزوّج فاطمة بنت حزام أُم البنين (رضي اللّه عنها)[2]. ومن أزواجه خولة الحنفيّة (أُمّ محمد بن الحنفية عليه السلام)، والمحيّاة بنت امرئ القيس

(١) معاني الأخبار: ٣٥٦ / ١، السقيفة وفدك: ١٤٧، شرح الأخبار ٢: ١٦٠ / ٤٩٢.

(٢) ومن باب أنّ الشيء بالشيء يذكر أنّ من أسباب تعدّد الزوجات هو من أجل إعداد المقاتلين للمعركة، نذكر أن أمير المؤمنين عليه السلام كان قد طلب من أخيه عقيل أن يبحث له عن امرأة قد ولدتها الفحولة من العرب ليتزوّجها فتلد له غلاماً فارساً، يكون ناصراً وعضداً لولده الحسين عليه السلام بطف كربلاء. انظر: عمدة الطالب: ٣٥٧، بطل العلقمي ١: ٩٧.

الكلبيّة، وأُم سعد بنت عروة بن مسعود الثقفي، بالإضافة إلى عـدد مـن الجواري.

وكان عدد نسائه ثمانياً على أصحّ الأقوال، ومعظم زيجاته عليه السلام منهن كان يتجلّىٰ فيها الجانب الاجتماعي؛ حيث إنّه عليه السلام يصاهر عروة بـن مسـعود الذي يقول فيه القرآن الكريم على لسان المشركين: ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ﴾[1]. فكان زواجه من هذا البيت لهدف اجتماعي يصب في خدمة الإسلام. وأمّا جواريه فلم يكنّ لغير هدف اجتماعي كان عليه السلام يرتئيه.

وأمّا عدد أبنائه وبناته فثلاثة وثلاثون ولداً؛ قتل منهم عشرة يوم الطف الذي لم يحضره آخرون لمرض أو لعـذر آخـر. والتـاريخ لا يسـعفنا بمعلومات كافية وافية حول امتناع من امتنع عن الطف، ولا يـمدّنا بـما نستطيع أن نخرج منه بنتيجة صائبة لا تقبل الردّ والنقاش، مع أنّ في هذه الواقعة تقرير مصير الدين والأُسرة والحق. وإلّا فلماذا يتخلّف أخ للإمام الحسين عليه السلام عن الخروج معه في حين أنّه عليه السلام حضر معه من لا يمتّون إليه بصلة دموية؟ لابدّ أن يكون هناك سبب ما يستحق أن تسـلّط الأضـواء عليه.

المبحث الرابع: عطاءاته عليه السلام

العطاء الأوّل: رصيده عليه السلام من الهجرة

لقد كان له عليه السلام هجرتان:

الأُولى: هجرة الطائف

فقد كان عليه السلام يخرج خلف رسول الله صلى الله عليه وآله حينما كان يذهب إلى الطـائف

(١) الأنعام: ٨.

ليدعو أهلها إلى الإسلام والإيمان بعد رفض قريش دعوته، فكان أهل مكة يدفعون جهّالهم وأطفالهم ليرموه بالحجارة التي كانت تأخذه يميناً وشمالاً حتى تدمىٰ قدماه الشريفتان. وعندها اضطرّ صلى الله عليه وآله للخروج إلى الطائف، ولم يكن موقف أهل الطائف بأحسن من موقف أهل مكّة، فكانوا يسلطون عليه أطفالهم بالحجارة يرمونه بها؛ ولذا كان أمير المؤمنين عليه السلام يخرج معه ليدفع عنه شرّهم وآذاهم.

مغالطات المؤرّخين فيما يخصّ أمير المؤمنين عليه السلام

والغريب من بعض المؤرّخين أنهم حينما يمرّون بمنقبة له عليه السلام أو فضيلة يحاولون نسبتها إلى غيره أو سحبها لذلك الغير[1]. ومن هذه الموارد:

١ ـ هجرته عليه السلام إلى الطائف

فبعض المؤرّخين يقولون: إنّ الذي كان يخرج مع رسول الله صلى الله عليه وآله هو أُسامة ابن زيد[2]، وليس أمير المؤمنين عليه السلام الذي ذكر ابن أبي الحديد

---

(١) من قبيل ادّعاء ابن تيمية أن آية التطهير وهي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ الأحزاب: ٣٣ لم تنزل في أمير المؤمنين عليه السلام، يقول: اتّفق أهل العلم على أن هذا كذب. منهاج السنة ٤: ٢٥٩.
وكذلك من قبيل ادّعائه أن سورة ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ﴾ لم تنزل فيه وفي فاطمة الزهراء وابنيهما عليهم السلام. مجموع الفتاوى ٤: ٤١٩.
وادّعائه أنه ليس في الصحيح من أخبار مدح أمير المؤمنين عليه السلام ما يدل على إمامته ولا على فضيلته على أبي بكر وعمر. بل وليست من خصائصه وإنما هي فضائل شاركه فيها غيره بخلاف ما ثبت من فضائل أبي بكر وعمر فإن كثيراً منها خصائص لهما لا سيما فضائل أبي بكر فإن عامّتها خصائص لم يشركه فيها غيره. منهاج السنة ٥: ٧ ـ ٥.
وقد مرّ كل هذا مفصّلاً مع ردّ ابن الجوزي عليه في ج ٣ ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨.
(٢) انظر: بحار الأنوار ١٩: ٢٢ عن الكازروني، الاستيعاب ١: ٤٠، الطبقات الكبرى ١: ٢١١، أُسد الغابة ١: ٢٠.

أنه عليه السلام كان معه[1].

٢ ـ توكّؤ رسول الله صلى الله عليه وآله على كتفه

وكذلك نحن نروي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله خرج في مرضه من بيت إحدىٰ نسائه ،وكان صلى الله عليه وآله متوكّئاً بيد على منكب الفضل بن العباس ، وبيده الشريفة الأُخرىٰ علىٰ منكب أمير المؤمنين عليه السلام . أمّا الطرف الآخر فيروي أنّه صلى الله عليه وآله كان يتوكّأ على منكب الفضل بن العبّاس بيد وبالأُخرى على منكب رجل آخر . فهم لا يطيقون حتى ذكر اسمه عليه السلام .

٣ ـ حامل لواء المسلمين في أحد

وفي هذا المضمار يروي ابن شهاب فيقول : وحمل لواء المسلمين يوم أُحد رجل منهم ، فلا يطيق ذكر اسم علي عليه السلام حامل اللواء يومها .

فالتشنّج الذي يحمله البعض إزاء أمير المؤمنين عليه السلام ، ويجعلهم لا يطيقون ذكر اسمه من الطبيعي أن يحملهم على رفض فكرة أنه صاحب الهجرة إلى الطائف مع رسول الله صلى الله عليه وآله درعاً له وحماية ، بعد أن اضطرته حجارة قريش إلى أن يخرج إليها . وهناك وقف له أهل الطائف ثلاث فرق ، وقال له أحد رؤسائهم : أما وجد الله نبياً غيرك يبعثه؟ فأغضى النبي صلى الله عليه وآله عنه ؛ فالسكوت أحياناً يكون أبلغ جواب . وقال له الآخر : أنت يتيم أبي طالب ، وتريد أن تسود العرب ؟ ألا يسرق ثياب الكعبة إن كان الله بعثك ؟ ولم يجبه النبي صلى الله عليه وآله أيضاً . والتفت له الثالث فقال : أنت بين أمرين: إما أن تكون نبيّاً ، وإما أن تكون كذّاباً ، فإن كنت نبيّاً فأنت أكبر من أن أُكلّمك ، وإن كنت كذّاباً فأنا أكبر من أن أُكلّمك .

---

(١) شرح نهج البلاغة ٤ : ١٢٧ .

ثم أشاروا إلى أطفالهم فأخذته الحجارة من كلّ جانب ومكان حتى أدمته، فرفع صلى الله عليه وآله رأسه إلى السماء وقال: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوّتي وقلّة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت ربّ المستضعفين، وأنت ربّي، لمن تكلني؟ إلى عبد يتجهّمني، أو إلى عدوّ ملّكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أُبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك من أن ينزل بي غضبك، أو يحلّ علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلّا بك»[1]. وهذه هي الهجرة الأُولى.

الثانية: هجرته عليه السلام إلى المدينة

وهذه الهجرة تشكّل رقماً يلوي الأعناق، ويشدّ العيون إليه شدّاً، لأنّه تحدّى كبرياء قريش وهو ابن ثلاث وعشرين سنة، وخرج بالفواطم (فاطمة الزهراء عليها السلام، وفاطمة بنت أسد، وفاطمة بنت حمزة بن عبد المطلب) إلى المدينة قائداً لظعينة رسول الله صلى الله عليه وآله. وكان قد تحدّاهم في وضح النهار قائلاً: «هذه ظعينة رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنا خارج بها، ومن أحبّ منكم أن يتبعني فليفعل».

وخرج لظعينته يحميها وهو ماشٍ علىٰ قدميه، فقد ذكر المؤرّخون أن قدميه قد تشقّقتا؛ إذ لم يرضَ عليه السلام أن يركب على راحلة؛ طلباً لمرضاة اللّه تعالى ومرضاة رسوله، إلى أن أخذت الأرض من قدميه مأخذها، وحتىٰ تشقّقتا، وظهرت فيهما القروح، فتلّقاه رسول اللّه صلى الله عليه وآله يبارك قدمين سعتا في سبيل اللّه، ويداً ذادت عن عيال رسول اللّه صلى الله عليه وآله، فاحتضنه ومسح

---

(١) انظر: مناقب آل أبي طالب ١: ٦١، مجمع البيان ٩: ١٥٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٣٦ ـ ٣٧، تاريخ الطبري ٢: ٨٠، السيرة النبوية (ابن هشام) ٢: ٢٨٦، السيرة النبوية (ابن كثير) ٢: ١٥، الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٢١١.

علىٰ رجليه واعتنقه وأبىٰ أن يدخل إلىٰ دار هجرته إلّا وساعده بساعد علي عليه السلام [١].

العطاء الثاني: رصيده من الوقائع والحروب

وخاض (سلام اللّه عليه) ثلاثاً وثمانين غزوة وسرية كان لواء المؤمنين فيها بيده، وكان فيها البطل الأوّل المدافع والمنافح عن الإسلام وعن رسول الإسلام صلى الله عليه وآله، وكان الجسد الذي يتلّقى الطعنات درءاً للخطر عن أن يصيب جسد المسلمين، وكان السيف الذي غرّد به جبرئيل بين السماء والأرض: «لا سيف إلّا ذو الفقار، ولا فتى إلّا علي» [٢].

إنّه السيف الذي لم يسلّ قط للبغي أو للتجبّر والظلم، بل إنّه سلّ ضدّ هذا.. كان سيفاً ينال الشجاع ويترفّع عن قتل الجبان، سيفاً أبىٰ أن يوضع على عنق عمر بن العاص الذي لم يستقبله ببطولة الرجال الشجعان، بل استقبله بانخذال الجبناء.. سيفاً ترفّع عن قتل بسر بن أرطاة وعمرو بن العاص [٣]، بل إنّه ترفّع حتى عن قاتله. إنّه سيف سُلّ تركيزاً لكلمة «لا إله

---

(١) شجرة طوبىٰ ١: ٦٤ ـ ٦٦.

(٢) تاريخ الطبري ٢: ١٩٧، السيرة النبويّة (ابن كثير) ٣: ٩٤، ٤: ٧٠٧، كنز العمّال ٥: ٧٢٣ / ١٤٢٤٣.

(٣) حيث استقبلاه بعورتيهما، وقد نظم بعض الشعراء ذلك شعراً. فقال أبو فراس الحمداني:

ولا خير في دفع الردىٰ بمذلّة ... كما ردّه يوماً بسوءته عمرو

ديوان أبي فراس: ١٥٧. وقال آخر:

أفي كلِّ يومٍ فارسٌ تندبونَه ... له عورة وسطَ العجاجةِ باديهْ
يكفُّ بها عنه علي سلاحَهُ ... ويضحكُ منها بالخَلاء مُعاويهْ
بدت أمسِ من عمروٍ فقنّع رأسه ... وعورة بسر مثلها حذو حاذيهْ
فقولا لعمرٍو وابن أرطاة أبصرا ... سبيليكما لا تلقيا الليث ثانيهْ

الفصول المهمّة: ٩٠، النصائح الكافية: ٩٣.

إلّا الله» وللدفاع عن دماء المسلمين وأعراضهم، فأبلىٰ في اللّه أحسن البلاء.

وها هو عليه السلام يعطينا صورة واضحة عن هذه المسيرة الطويلة المفعمة بالعطاء والجراح، والمليئة بالآلام في خدمة الإسلام؛ فيلج الحرب تلو الحرب. يقول عليه السلام: «وهل أحد منهم أشدّ لها مراساً وأقدم فيها مقاماً منّي؟ لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وها أنا ذا قد ذرفت على الستين»[١].

أي أنّه عليه السلام أمضىٰ من عمره ثلاثاً وأربعين سنة لم يخرج فيها من لهوات الحرب. وقد أعطته هذه الفترة رصيداً ضخماً من الجراح، فقد حُمل في واقعة اُحد مثلاً وفي جسده أربع وستون طعنة رمح وضربة سيف كما يروي المؤرّخون. وكانوا قد وضعوه على حصير أحضرته الزهراء عليها السلام وهو قطعة واحدة من الدم، فراحت عليها السلام تمسح الدماء عنه وتضمّد جروحه، فنبذ إليها السيف وهو يقول:

«أفاطم هاك السيف غير ذميمِ ... فلست برعديد ولا بمليمِ

لعمري لقد جاهدت في نصر أحمدٍ ... وطاعة ربّ بالعباد رحيمِ»[٢]

وجاءه رسول اللّه صلى الله عليه وآله يعوده ويواسي جراحه، فأخذ يمرّ بأنامله الشريفة وكفّه الكريمة فتتهاوى الجراح فتبرؤ. وكان عليه السلام طالما يقول: «إن أكرم الموت القتل. والذي نفس علي بن أبي طالب بيده، لألف ضربة بالسيف أهون عليَّ من ميتة على فراش»[٣].

---

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ٢٧.

(٢) الإرشاد ١: ٩٠، الأمالي (الطوسي): ١٤٣، شرح نهج البلاغة ١٥: ٣٥، المستدرك على الصحيحين ٣: ٢٤، مكارم الأخلاق (ابن أبي الدنيا): ٦٧، وغيرها كثير.

(٣) نهج البلاغة / الكلام: ١٢٣.

إنّ كل جرح من هذه الجراح هو وسام من أوسمة البطولة ؛ لأنّه كان يبتغي بها وجه اللّه تعالى وليس الانتقام لنفسه[١]، فلذا كان كل واحد منها يغرّد بفضله وبطولته، فهو عليه السلام عندما ينزل إلى ساحة المعركة تتحاشاه الرجال والأبطال، فيخط صفحة من صفحات المجد والخلود، وهو يحمل ذلك السيف الفارق بين الحقّ والباطل، أولسنا نسمع رسول اللّه صلى الله عليه وآله يخاطبه بقوله: «ويلٌ لمن سلّ سيفه عليك، وسللت سيفَك عليه»[٢]؟ فهو سيف لم يسلّ إلّا لينصر الحقّ ويخذل الباطل ويدحضه، وليقف بوجه البغي.

العطاء الثالث: رصيده من المؤلّفات

له عليه السلام من المؤلّفات عشرة:

١ـ **تفسير القرآن الكريم**. لقد كان عليه السلام ما إن تنزل آية حتى يسأل عنها رسول اللّه صلى الله عليه وآله وعن معناها ونزولها، فيجيبه الرسول صلى الله عليه وآله. وكان يكتب كل ذلك في ذيل كل آية يسأل عنها، حتى جمع القرآن كله على هذه الشاكلة على ترتيب النزول؛ المكي ثم المدني. وهذا القرآن هو الذي يعبّر عنه الإمام الصادق عليه السلام بقوله: «مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات»، و«ما فيه من قرآنكم شيء»[٣]، أي أنّه تفسير فقط.

فرى على الشيعة حول مصحف أمير المؤمنين عليه السلام

فهذا هو مصحف علي عليه السلام، لكن هنا بدأت الأقلام المأجورة والمزيّفة،

---

(١) وأكبر دليل على أنّه لا يروم الانتقام لنفسه موقفه مع عمرو بن ودّ العامري. انظر تاريخ الطبري ٢: ١٩٤.

(٢) المزار (الشهيد الأول): ٨٣، بحار الأنوار ٩٧: ٣٦٦، وفيهما: «فعلى أبي العادية لعنة الله ولعنة ملائكته ورسله أجمعين، وعلى من سلّ سيفه عليك وسللت عليه سيفك يا أمير المؤمنين من المشركين والمنافقين إلى يوم الدين».

(٣) الكافي ١: ٢٣٩ / ١، بحار الأنوار ٢٦: ٣٩ / ٦٩.

والأيدي والأفواه غير الشريفة بالتطاول والتقوّل على الشيعة حول هذا المصحف ،فيقولون : إنّ للشيعة قرآناً غير قرآن المسلمين، ويزعمون أنّ المهدي حينما يخرج فإنّه يخرج به.

وهذا تخريف ، فنحن ليس عندنا سوى هذا القرآن الذي يقرؤه مسلمو الأرض ، وكل من يدعي غير ذلك فعليه أن يأتي بالبرهان ولا يكتفي بالتحكّم وإطلاق الدعاوىٰ والفرىٰ بغير دليل . ومن يقلْ بوجود رواية عند الكليني بهذا الخصوص ، فنحن مستعدّون لأن نعطيه عشرات الروايات في كتب الحديث والصحاح ، تقول بوقوع التحريف في القرآن[١]. غير أنّ المسلمين لا يأخذون بهذه الروايات ولا يعتدّون بها .

إنّ هناك روايات تُنسب إلى الخليفة الثاني يصرّح فيها بأنّ هناك آيات قد حذفت من القرآن مثل آية الرجم[٢] ، وينسب إلى عائشة حذف آيات الرضاعة بنسخ التلاوة[٣] ، وينسب إلى بعض نساء النبيصلى الله عليه وآله أيضاً أنّ بعض الآيات قد أكلها الداجن[٤] ، غير أنّ المسلمين كما ذكرنا لا يرتّبون

---

(١) مرّ هذا البحث في محاضرة (تحريف القرآن) ج ٤ من كتابنا هذا ، وانظر الهوامش التالية .

(٢) وهي : (والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتّة نكالاً من الله تعالى) . انظر : الطبقات الكبرى ٣ : ٣٣٤ ، المنخول في علم الأُصول (الغزالي) : ٣٩٢ .

(٣) التفسير الكبير ٣ : ٢٣٠ .

(٤) حول هذا الموضوع انظر : مسند أحمد ١ : ٢٣ ، ٢٩ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٥٠ ، ٥ : ١٢٩ ، ١٣٢ ، ٦ : ٢٦٩ ، صحيح مسلم ٢ : ١٠٥٠ / ٧٢٦ ، ١٠٧٥ / ١٤٥٢ ، سنن الدارمي ٢ : ٢١٧٩ ، السنن الكبرى ٨ : ٢١١ ، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٤٥٦ : ٣ ، المصنف (الصنعاني) ٧ : ٤٦٧ ، ١١ : ٤٧٠ ، سنن ابن ماجة ١ : ٦٢٥ ، المستدرك على الصحيحين ٤ : ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، الكشاف ٣ : ٥١٨ ، الجامع لأحكام القرآن ١٤ : ١١٣ ، ٢٠ : ٢٥١ ، مناهل العرفان ١ : ٢٧ ، ٢٥٧ ، ٢ : ١١١ ، روح المعاني ١ : ٢٥ ، الطبقات الكبرى ٣ : ٣٣٤ ، الإتقان ١ : ٢٤٢ ، ٣ : ٨٢ ، ٨٤ ، ٢٠٦ ، الدر المنثور ٦ : ٥٥٩ ـ ٥٦٠ ، وغيرها كثير .

على هذا أثراً. والكليني رحمه الله نفسه يشترط لصحة الأحاديث شروطاً في مقدّمة (الكافي)، حيث يقول: «فاعلم يا أخي (أرشدك اللّه) أنه لا يسع أحداً تمييز شيء ممّا اختلف الرواية فيه عن العلماء برأيه إلّا على ما أطلقه العالم عليه السلام بقوله: «اعرضوها على كتاب اللّه؛ فما وافق كتاب اللّه عزّ وجلّ فخذوه، وما خالف كتاب اللّه فردّوه»...»[1].

وليس هناك مسلم يشهد الشهادتين يؤمن بوجود زيادة ونقيصة في القرآن الكريم؛ لأنه حينذاك سوف لن تسلم له عبادة ولن يتمّ له حكم شرعي؛ إذ من الممكن أن تكون هذه الزيادة أو النقيصة قد تطرّقت لعباداته ومعاملاته وتكاليفه، فتكون ناقصة أو فيها أشياء ليست من اللّه ولا من رسوله صلى الله عليه وآله.

وكان أمير المؤمنين عليه السلام يسلّي فاطمة الزهراء عليها السلام عن فقد رسول اللّه صلى الله عليه وآله بقراءة شروح الآيات لها وما فيها من معانٍ وأحكام؛ فقد كانت عليها السلام تعيش الألم والحزن لفقد رسول اللّه صلى الله عليه وآله، فكان الإمام عليه السلام يسليها بذكر اللّه ومدارسة آيات كتابه العزيز.

٢ـ **كتاب علوم القرآن**: وهو كتاب جمع عليه السلام فيه أحكام علم التجويد والنحو المرتبط بالقرآن، وعلمي الفقه وأُصوله، والآيات التاريخية وغير ذلك.

٣ ـ **قضايا علي بن أبي طالب عليه السلام**. وهو مصنّف جمع فيه القضايا والأحكام القضائية التي استلّها من القرآن، وذلك حينما يترافع عنده اثنان فإنّه يحكم بينهما بالقرآن. وقد جمعت هذه المسائل في كتب مستقلّة.

٤ـ **كتاب الجفر**. يقول أبو العلاء المعري:

---

(١) الكافي ١: ٨.

لقد عجبوا لأهلِ البيتِ لمّا ... أتاهم علمُهم في مَسكِ جَفْرِ
ومرآةُ المنَجمِ وهي صغرى ... أرته كلَّ عامرةٍ وقفْرِ [١]

٥ـ الجامعة.

٦ـ كتاب في الزكاة.

٧ـ كتاب في الفرائض والمواريث.

٨ـ كتاب في أبواب الفقه العامّة.

٩ـ كتاب في الفقه، لكن لم يحدّد المؤرّخون موضوعه.

١٠ـ نهج البلاغة. وهو كتاب غني عن التعريف.

ومن المختصّين من يجعل مؤلّفاته أحد عشر مصنّفاً بجعل عهده عليه السلام إلى مالك الأشتر كتاباً مستقلاً، أمّا من يعدّه ضمن (نهج البلاغة) فيجعلها عشرة مصنّفات.

محاولات التشكيك في نسبة (نهج البلاغة)

إنّ كتاب (نهج البلاغة) هو أهمّ مؤلّفات الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وقد استأثر باهتمام عامة الناس وخاصّتهم من علماء وأُدباء وغيرهم؛ شرحاً وإثباتاً ونفياً، فلم تترك الأقلام المشبوهة هذا الكتاب وشأنه، بل نجد أنه بين فترة وأُخرىٰ يطلّ علينا كاتب يدّعي أنّه ليس لأمير المؤمنين عليه السلام، بل إنّه من وضع غيره ثم نُسب إليه. وهذا مردود بأنّ أي أديب متمرّس يعرف بمجرّد قراءته أنه لأمير المؤمنين عليه السلام، وأنّه من كلامه؛ فكلامه عليه السلام واضح

(١) وفيات الأعيان ٣: ٢٥٠ / ٤٠٨، والجفر: ولد المعز، وهو ما بلغ أربعة أشهر. الصحاح ٢: ٦١٥ ـ جفر.

والمسك: الجلد، ومنه قولهم: أنا في مسكك إن لم أفعل كذا وكذا، الصحاح ٤: ١٦٠٨ ـ مسك.

بيّن لا يستطيع أحد أن يجاريه فصاحة وبلاغة[1].

ويبقى (نهج البلاغة) يصدح باسم أمير المؤمنين عليه السلام مهما سلطت عليه وضدّه الشبهات، وتظل هذه الشبهات تنحسر عنه بمجرّد أن ترتطم به. ثم إنّ من نسبوا إليه كتابته ـ وهو الشريف الرضي رحمه الله ـ أجلّ وأشرف من أن يفتري ويكذب وينسب لعلي عليه السلام ما ليس له. يقول أحد الأدباء:

غير أن النفسَ اللئيمةَ تهوى	أن يغطّي الحقائقَ التضليلُ
زعموه نهجَ الرضي ومهلاً	أين من هادر الفحول الفصيلُ
كلُّ فصلٍ أبو ترابٍ به يبـ	ـدو فتهتزّ بالهديرِ الفصولُ

فكل مقطع من هذا الكتاب يُستشفّ منه نفس عليّ عليه السلام، وترىٰ بصماته واضحة عليه؛ فخبرته عليه السلام وأداؤه متميّزان لا يتمكن أحد من أن يضاهيهما أو يحاكيهما.

المبحث الخامس: علي عليه السلام في القرآن

لقد مدحه القرآن الكريم في ثلاثمئة آية، وإن كان محلّ اتفاق المفسرين سبعين آية، وهذه الآيات التي تناولته إمّا بصورة مباشرة لوحده، أو بصورة ضمنيّة مع آخرين. وهذا المجموع من الآيات يعدّ رصيداً ضخماً

---

(١) قد مرّ هذا المبحث والردّ عليه في محاضرة (تحريف القرآن) ج ٤.

قال ابن أبي الحديد: «وأمّا الفصاحة فهو عليه السلام إمام الفصحاء وسيّد البلغاء... وكلامه دون كلام الخالق، وفوق كلام المخلوقين. ومنه تعلّم الناس الخطابة والكتابة؛ قال عبد الحميد بن يحيى: حفظت سبعين خطبة من خطب الأصلع ففاضت ثم فاضت. وقال ابن نباتة: حفظت من الخطابة كنزاً لا يزيده الإنفاق إلّا سعة وكثرة، حفظت مئة فصل من مواعظ علي بن أبي طالب عليه السلام. ولما قال محفن بن أبي محفن لمعاوية: جئتك من عند أعيا الناس، قال له: ويحك! كيف يكون أعيا الناس؟ فوالله ما سنّ الفصاحة لقريش غيره». انظر: شرح نهج البلاغة ١: ٢٤ ـ ٢٥، طبقات الحنابلة ٢: ١٢٠.

لم يبلغه أحد غيره.

فمن الآيات التي ذكرته ضمناً آية التطهير[١] حيث ذكرته مع رسول الله صلى الله عليه وآله وفاطمة والحسنين عليهم السلام. ومن الآيات التي اختصّت به واختصّ بها آية النجوى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾[٣]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[٤]. وهكذا نجد أنّ ذكره عليه السلام مبيّناً في صفحات القرآن الكريم،

---

(١) هي قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ الأحزاب: ٣٣؛ ففي كتب الصحاح الأسانيد وغيرها بعدّة طرق أن النبي صلى الله عليه وآله كان يمر ببيت فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى الفجر، فيقول: «الصلاة يا أهل البيت»، ثم يتلو هذه الآية الشريفة. انظر: مسند أحمد ٣: ٢٥٨ ـ ٢٥٩، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣١، شواهد التنزيل ٢: ١٩، تهذيب الكمال ٥٣: ٢٥٠، سير أعلام النبلاء ٢: ١٣٣.

(٢) المجادلة: ١٢.

(٣) الحاقة: ١٢، حيث إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لأمير المؤمنين عليه السلام: «إن الله أمرني أن أدنيك ولا أقصيك، وأن أعلّمك وأن تعي، وحقّ على الله أن تعي». فنزلت هذه الآية الشريفة. وفي رواية أنه صلى الله عليه وآله قرأ هذه الآية الشريفة، ثم التفت إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وقال له: «سألت الله أن يجعلها أذنك». قال أمير المؤمنين عليه السلام: «فما سمعت شيئاً من رسول الله صلى الله عليه وآله فنسيته». انظر: جامع البيان ٢٩: ٦٩ / ٢٦٩٥٤، تخريج الأحاديث والآثار ٤: ٨٤، كنز العمال ١٣: ١٧٧ / ٣٦٥٢٥، شواهد التنزيل ٢: ٣٦٥ / ١٠١١، ٣٦٨ / ١٠١٣، ٣٦٨ ـ ٣٦٩ / ١٠١٥، ٣٧١ - ٣٧٢ / ١٠١٩، ٣٧٤ - ٣٧٥ / ١٠٢٣ - ١٠٢٤، المواقف ٣: ٦٢٧.

(٤) الرعد: ٧، حيث إنه لمّا نزلت هذه الآية الشريفة وضع رسول الله صلى الله عليه وآله يده الشريفة على صدره وقال: «أنا المنذر ولكلّ قوم هاد». ثم أومأ بها إلى منكب أمير المؤمنين عليه السلام وقال «أنت الهادي يا علي، بك يهتدي المهتدون من بعدي». جامع البيان ١٣: ١٤٢، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٢٩ - ١٣٠، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. تفسير ابن أبي حاتم ٧: ٢٢٢٥ / ١٢١٥٢، شواهد التنزيل ١: ٣٨٣ / ٣٩٩، ٣٨٤ـ ٣٨٧ / ٤٠٠، ٣٨٨ / ٤٠٨، تفسير القرآن العظيم ٢: ٥٢٠، الدر المنثور ٤: ٤٥.

واحتلّ مساحة كبيرة من مجال صدحه وذكره.

محاولات طمس فضائله عليه السلام

لكنه عليه السلام لم يسلم من أقلام السوء المأجورة وهي تحاول أن تغطّي ذلك النور المنبثق من القرآن الكريم بحقّه، وكل ذلك تحت رعاية ونظر الأُمويّين والعباسيّين الذين حاولوا طمس هذا الواقع وتحريفه عبر شراء ذوي الأقلام الرخيصة والحناجر المبتذلة من وعّاظ السلاطين. لكن كل ذلك لم يفلح، ولم تنتج هذه المحاولات، ولم تستطع أن تهزّ ذرّة واحدة من كيانه عليه السلام، يقول أحد الأُدباء:

سلوا النفس قد طافت عليها عوالم ... أهل وجدت للجوهر الفرد ثانيا

وهل متناهي اللفظ يتبعه الثنا ... ليحمل معنى منك لا متناهيا

ولكنها الألفاظ مهما تناسقت ... إذا لم تزق المدح عادت هجانيا

إلى أن يقول:

وما مدحتي توليك فخراً وإنّما ... أردّ بإطرائي عليك الطواريا

إذا الملأ الأعلى تحدّد بالثنا ... عليك فما شاني وشان ثنائيا

فإذا كان القرآن الكريم يغرّد بذكر عليّ عليه السلام ليلَ نهارَ، فما شأن مدحة مادح من أهل الأرض؟ إنّ هذا السيّد العظيم قد احتلّ مساحة واسعة من مدح القرآن الكريم، فلا يمكن أن يمدحه أحد آخر بمدح فوق مدحه، ولا يكون مدحه حينئذٍ شيئاً حيال مدح القرآن الكريم. ومما يروى في هذا المجال أن معاوية كتب كتاباً لعمرو بن العاص في واقعة صفّين يستدعيه، وقال له فيه: أما بعد فإنه كان من أمر علي وطلحة والزبير ما قد بلغك... وقد حبست نفسي عليك، فأقبل أُذاكرك أُموراً لا تعدم صلاح

مغبّتها.

فلمّا جاءه قال له: ما تجعل لي إن شايعتك على حربه، وأنت تعلم ما فيه من الغرر والخطر؟ قال: حكمك. فقال: مصر طعمة. فتلكأ عليه معاوية وقال له: يا أبا عبد الله، إني أكره لك أن تتحدّث العرب عنك أنك إنما دخلت في هذا الأمر لغرض الدنيا. فقال عمرو: دعني عنك.

ثم لمّا أخذ معاوية منه مصر وأعطاها لعبد العزيز بن مروان والد عمر بن عبد العزيز، كتب إليه قصيدته الجلجليّة المشهورة:

معاويةُ الفضلَ لا تنسَ لي	وعن موطن الحقّ لا تعدلِ
نسيتَ محاورةَ الأشعري	ونحنُ على دومةِ الجندلِ
ولولاي كنت كمثل النساء	تخاف الخروج من المنزلِ
تبعناك من جهلنا يابن هند	على البطلِ الأعظمِ الأفضلِ
وحيث تركناك أعلى النفوس	نزلنا إلى أسفلِ الأرجلِ
وإن كان بينكما نسبةٌ	فأين الحُسامُ من المنجلِ
وأين الثريا وأين الثرى	وأين معاوية من علي

إلى أن يقول:

وأعطيت مصر لعبد العزيز	وأعطيتني زِنة الخردلِ[1]

وموضع الشاهد هنا أن ما أُوتي هذا الرجل العظيم من مناقب ومفاخر

(١) شرح نهج البلاغة ٢: ٦١ – ٦٦. قال ابن أبي الحديد: «قال شيخنا أبو القاسم البلخي رحمه الله: قول عمرو له: «دعني عنك»، كناية عن الإلحاد، بل تصريح به، أي دع هذا الكلام لا أصل له؛ فإن اعتقاد الآخرة أنها لا تباع بعرض الدنيا من الخرافات. وقال رحمه الله: وما زال عمرو بن العاص ملحداً، ما تردّد قط في الإلحاد والزندقة، وكان معاوية مثله، ويكفي من تلاعبهما بالإسلام حديث السرار».

وفضائل مما طوّقه به القرآن الكريم والسنة النبوية المشرّفة، ومما يصدح به واقعه المشرّف على ألسنة أعدائه يلوي الأعناق إليه وإن تغافل عنه المتغافلون، وسيبقى ألقاً ونوراً ومشكاة تضيء وجه الدنيا وصفحة العالم؛ سواء رمقته العيون أم لم ترمقه.

المبحث السادس: زهده عليه السلام في الدنيا

لقد كان كل رصيده من الدنيا التي كانت تتكدّس بين يديه حين وفاته عليه السلام سبعمئة درهم أراد أن يشتري بها خادماً لأهله؛ لتعينهم على أُمور الطحن وأعمال البيت، فعاجلته الشهادة [١].

فلم تصرعه البيضاء والصفراء، وكان ينظر إليها نظرةَ من يعافها ويزدريها، وكل ما كان يشغله فم جائع يحسّه قريباً منه وإن كان يسير على البعد منه، فهو يحسّه يخاطبه بقوله: إنك مسؤول عن جوعي. لقد سمعناه يصغي لأنّات المظلومين في شرق الأرض وغربها، ويقول: «اللهم اشهد على علي بن أبي طالب فقد أدّى إلى عبادك حقوقهم». وكان يتمثّل دائماً بقوله:

هـذا جـناي وخـياره فـيه ... إذ كل جانٍ يده إلى فـيه [٢]

فكان عليه السلام يذود عنه الذهب والفضة، ويتحاشاهما:

مـا سرّه أن يـرى الدنـيا له ذهـباً ... وفي البلاد قلوب شفّها السـغبُ [٣]

---

(١) الإمامة والسياسة ١: ١٦٢، الفتوح (ابن أعثم) ٤: ١٤٦، الاستيعاب (هامش الإصابة) ٣: ٤٨، تاريخ الإسلام ٢: ٢٠٧. وقد أمر عليه السلام بردّه إلى بيت المال بعد وفاته كما في الفتوح ٤: ١٤٦.

(٢) الأمالي (الصدوق): ٢٥٧ / ٤٤٠، الفائق في غريب الحديث ٣: ١٧٥.

(٣) البيت للشيخ عبد المهدي مطر. من مواليد النجف الأشرف سنة (١٩٠٠) م، وكان عضواً عاملاً في جمعية منتدى النشر في النجف منذ إنشائها. تولّى تدريس النحو في كلّيّة الفقه.

وكانعليه السلام يقول: «يوم المظلوم على الظالم أشدّ من يوم الظالم على المظلوم»[1]
وكانعليه السلام يأكل العجوة والخل ويلبس لباس المساكين، فكان رصيده من الدنيا أن سجدت هي على أبوابه وأعتابه:

إن بيتاً أضلاعُه من جريد النـ	ـخل والسقفُ والفراشُ حصيرُ
سجد النجم فوق رملته السمـ	ـراءِ واستشرفت مداه العصورُ

المبحث السابع: جزاؤهعليه السلام في الدنيا

فحسبك أبا تراب أنك أخذت قلوباً من الناس فسكنتها، وحللت بمشاعرهم،وما يقدم الذهب والفضة وما يؤخران؛ سواء كانا لك أم لغيرك؟

لقد كان رصيده من العواطف لا حدود له، فقد امتلك قلوب المؤمنين كما ذكرنا، وهذا ما يشهد له قول النبيصلى الله عليه وآله: «لا يحبّك إلّا مؤمن ولا يبغضك إلّا منافق»[2]، وقولهصلى الله عليه وآله له كذلك: «إن الله عزّ وجلّ رسّخ حبي في قلوب المؤمنين وكذلك رسّخ حبّك يا علي في قلوب المؤمنين، ورسّخ بغضي وبغضك في قلوب المنافقين؛ فلا يحبّك إلّا مؤمن تقي، ولا يبغضك إلّا منافق كافر»[3].

فيامن سكنت إليك قلوب المؤمنين، إنّ القلوب لتتقرّح عليك أسىً وهي تحسّ بأنك في مثل هذه الليلة قد اشتدّت بك العلّة، وسرى السم في بدنك، وعلت الصفرة وجهك الشريف، وهدأ الصوت الهادر، وخلا المحراب من فارسه المصلّي ليله ونهاره، وإن العيون لتدمع لعينيك وقد

أعيان الشيعة ١: ٥٥٨، مستدركات أعيان الشيعة ١: ١١٢ - ١١٣.
(١) نهج البلاغة / الحكمة: ٢٤١.
(٢) مسند أحمد ١: ٩٥، ١٢٨، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٠٦، كنز العمّال ١١: ٥٩٨ / ٣٢٨٧٨.
(٣) الخصال: ٥٧٧.

غارتا، تلكما العينان اللتان كانتا تبكيان من خشية اللّه تعالى وتقرّحتا وسهرتا في سبيله حتى ذبلتا. يقول سويد بن غفلة: دخلت ومعي نفر من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، ومنهم الأصبغ إلىٰ داره بعد إصابته، فسمعنا البكاء والنحيب من داخل الدار، فما استطعنا أن نسكت، وعلا نحيبنا، فخرج الإمام الحسن عليه السلام إلينا وقال: «إن أمير المؤمنين يقول لكم: انصرفوا وارجعوا».

يقول الأصبغ: فرجع الناس إلّا أنا لم تطاوعني قدماي، فرجع الإمام الحسن عليه السلام وقال: «ألم أقل لكم: ارجعوا؟». فقلت: سيدي، واللّه لا تطاوعني قدماي. قال: «ادخل». فدخلت، ولمّا وقع بصري علىٰ أمير المؤمنين عليه السلام رأيت رأسه وقد عُصب بعصابة صفراء، واللّه ما أدري أوجهه أشدّ اصفراراً أم العصابة، فبكيت عند ذلك فالتفت إليّ أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً: «يا أصبغ لا تبكِ، إنها واللّه الجنّة». قلت: سيدي، أنا أعلم أنها الجنّة ولكني أبكي لفراقك. ثم دخل عمرو بن الحمق الخزاعي فقال له: إن هذه الضربة مخدشة، وليست أعظم من ضربة عمرو بن ودّ العامري. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إني مفارقكم وراحل إلى رسول اللّه صلى الله عليه وآله». عند ذلك سمعت النساء، وعلت أصواتهن بالبكاء واشتدّ ضجيجهن[1]:

الليله مسه المحراب خالي	يسعماد خيمتنا يسفالي
ما چنت اظن لنّ الليالي	بيك اتْغدر وتخيّب آمالي

وذهبت إحدى بناته إلىٰ محراب مسجد الكوفة الذي خلا من أمير المؤمنين عليه السلام، فجلست تمطره بدموع عينيها:

---

(١) الأنوار العلوية: ٣٨٢.

يا محراب ابوي اجيت اناجيك اصبّن ادموع العين وارويك
من طاح ابويه وانطبر بيك صدگ شيبته من ادماه تسگيك

* * *

هذي المحاريبُ أينَ القائمون بها والليلُ مُرخٍ من الظلماء أستارا

﴿١٢﴾

في رحاب أمير المؤمنين عليه السلام

يا إمامَ الهدىٰ رويداً فما ضرَّ ... ك قولٌ للحاقدين يؤولُ
ناب عنه سيفُ ابنِ ملجم فاغتيـ ... ـل إمامٌ علىٰ التقىٰ مجبولُ
فتلقَّىٰ المحرابُ حَبراً شهيداً ... فالمصلّىٰ تفجُّعٌ وذهولُ
لا فمٌ ملؤه الصلاةُ ولا المحـ ... ـرابُ في فاحمِ الدجىٰ مأهولُ
راهبٌ أجّج المناجاةَ صمتٌ ... وحسامٌ قاد الفتوحَ فلولُ

المباحث العامّة للموضوع

المبحث الأوّل: في عطائه عليه السلام ومنشئه

نحن نعيش الآن في رحاب أمير المؤمنين عليه السلام، ونأمل من اللّه عزّ وجلّ أن نكون في رحابه دوماً. وليكن في الحسبان أن الولوج إلى بابه للتعرّف على هذه الشخصيّة يترك الإنسان حائراً في اختيار أي الأبواب يمكنه أن يلج منه ليتعرف علىٰ علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو كلّه وجه، فمن أي باب ولجت إليه تجد عنده عطاءً متدفّقاً.

والشيء الذي نريد أن نسلّط الضوء عليه في هٰذه الليلة هو أن هذا

الرجل مع امتلاكه لجميع المؤهّلات، واجتماعها عنده، فإن المجتمع الذي عاصره لم يتفاعل معه التفاعل المطلوب، حتى انتهى به الأمر إلى الشهادة، فما هو السبب في ذلك؟ إن هذا الرجل منذ ولج الحياة وهو يتدفّق عطاءً، وهذا العطاء نوعان: نوع حباه اللّه تعالى به، والنوع الآخر ما كان للكسب فيه دخل وإن كان في النتيجة هو من عطاء اللّه تعالى أيضاً.

المبحث الثاني: جملة من خصائصه عليه السلام ذات المنشأ الإلهي

وهذا القسم ـ كما قلنا ـ قد اتصف عليه السلام به بتدخّل من الله تعالى، ومن دون أن يكون لكسبه عليه السلام ـ أو لكسب أي شخص بشكل عام ـ أي دخل فيه. ويندرج تحته أُمور عديدة، منها:

الخصيصة الأولى: أنه عليه السلام يتحدَّر من أُسرة كريمة

فأمير المؤمنين عليه السلام يتحدَّر من أُسرة وصفها الشاعر الشيخ هاشم الكعبي في داليته بقوله:

نسبٌ كأنَّ عليه من شمس الضحى ... ألقاً ومن فلق الصباح عمودا[1]

وهذا النسب الطاهر يبتدئ من الأصلاب الشامخة إلى الأرحام المطهّرة[2]، فهو من القبيلة والنسب اللذين تحدّر منهما رسول اللّه صلى الله عليه وآله، دون أن تعرّق فيهما أصلاب غير طاهرة، ولا أرحام غير مطهّرة. وهذه

---

(١) البيت من قصيدته التي نظمها في رثاء أبي عبد اللّه، ومطلعها:

أرأيت يوم تحمّلتك القودا ... من كان منّا المثقل المجهودا

ديوان الشيخ هاشم الكعبي: ٣٩، لكن هذا البيت غير مذكور ضمن هذه القصيدة في ديوانه هذا.

(٢) ورد في الزيارة الشريفة: «أشهد أنك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهّرة». انظر: كامل الزيارات: ٤٠٣ / ٦٣٩، مصباح المتهجّد: ٧٢١ / ٨٠٦.

الميزة تعطي الإمام علياً عليه السلام حجماً غير اعتيادي؛ لأن الأسرة تتدخّل تدخّلاً مباشراً في تحديد حجم الشخص، فهو عليه السلام ممّن اختار اللّه تعالى قومه وأسرته، ففي الحديث: «اختار اللّه عزّ وجلّ من الناس العرب، واختار من العرب قريشاً، واختار من قريش كنانة، واختار من كنانة بني هاشم، واختار من بني هاشم هذا البيت»[١]. وعلي عليه السلام من هذا البيت الذي ما ولج الشرك عموده الأساس، فآباء النبي صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام ما مر بهم الشرك، ورحم اللّه البوصيري حيث قال في همزيته في رسول اللّه صلى الله عليه وآله:

لم تزل في ضمائرِ الكونِ تُختا ... رُ لك الأمّهاتُ والآباءُ

وبدا للأنامِ منك كريمٌ ... من كريمٍ آباؤه كرماءُ

نسبٌ تحسبُ العلا بحلاهُ ... قلّدتْها نجومَها الجوزاءُ

حبذا عقدُ سؤددٍ وفخارٍ ... أنت فيه اليتيمة العصماءُ[٢]

وقد شاء اللّه تعالى أن يتسلسل هذا الرجل ليستقرّ في رحمٍ مؤمن هو رحم فاطمة بنت أسد، هذه المرأة المجاهدة المهاجرة في سبيل اللّه، التي اُفعمت إيماناً، والتي رأينا النبي صلى الله عليه وآله يُعبِّر عنها بأنها اُمه[٣] وينزل في قبرها عند وفاتها، فيضطجع فيه ويخلع رداءه ليكفنها به[٤].

الخصيصة الثانية: أن الله تعالى كرمه بأن جعله وليد الكعبة

ثم شاء اللّه له أن ينتقل من بيت طاهر في رحم طاهر إلى أن يولد في بيت طاهر، وهو أشرف بيت تتّجه إليه القلوب، وتنزع إليه الأفئدة،

---

(١) ورد هذا الحديث بألفاظ عدة، انظر: شرح الأخبار ٢: ٤٨٣ / ٨٥١، المجموع شرح المهذب ١٦: ١٨٧.
(٢) ديوان البوصيري: ٩.
(٣) خصائص الأئمّة: ٦٦، المعجم الكبير ٢٤: ٣٥١، كنز العمّال ١٣: ٢٣٥ ـ ٢٣٦ / ٣٧٦٠٧.
(٤) المصدر نفسه.

وترمقه الأبصار، ويصلّي له المسلمون. وكما يقول الآلوسي صاحب التفسير: «سبحان من يضع الأشياء في مواضعها، لقد وضع علياً عليه السلام في هذا المكان». يقول المرحوم السيد رضا الهندي:

لما دعاك الله قدماً لأن تولد في البيت فلبيتَهْ
جزيته بين قريش بأن طهّرت من أصنامهم بيتَهْ[1]

ولا يضير علياً عليه السلام ألّا يشار إلى موضع مولده وإن أطبق المؤرّخون على قولهم هذا، ولكن قد يتحسّس البعض من هذه الناحية فيقول: لماذا لا توضع علامة على المكان الذي ولد فيه علي عليه السلام في حين أنه مفخرة من مفاخر المسلمين؟ أليس من الوفاء أن يشير المسلمون إلى مكان ولد فيه هذا الرجل وهو جندي من جنود الإسلام حمل السلاح مدافعاً عنهم؟

في واقع الحال إن علياً عليه السلام لا يضرّه ولا يضيره ألّا يشار إلى موضع ولادته؛ لأنه عليه السلام يولد في كلّ نفس حرّة كلّ يوم ولحظة.

لقد اعتاد بعض المؤرّخين عند ترجمته لأحد الخلفاء أن يذكر بوّابه وشاعره وغير ذلك، ولقد رأيت أحدهم ممّن ترجم لعلي عليه السلام يقول: «بوابه سلمان الفارسي وشاعره حسّان بن ثابت». كأنه يشير بذلك إلى أبيات حسّان التي أنشدها يوم الغدير:

يناديهمُ يوم الغدير نبيُّهم بخمٍّ وأسمِعْ بالنبي مناديا[2]

ثم يعلّق هذا المؤرّخ على ذلك فيقول: «لا يقال لعلي عليه السلام: إن شاعره حسان، إنما علي عليه السلام شاعره الدنيا بأكملها».

---

(١) ديوان السيد رضا الهندي: ٢٤.

(٢) مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (الكوفي) ١: ١١٩، مناقب آل أبي طالب ٢: ٢٣٠.

نعم، لا يمر بعلي عليه السلام بعد من أبعاد الحياة إلّا وجدناه يغرّد باسمه إلّا أن يكون قلباً مريضاً أو نفساً مدخولة. وإلّا فأي جانب من جوانب حياته لا يستوجب الإشادة؟ وأية ناحية من نواحيه نمرّ بها ولا تستوجب الثناء والتغريد؟

آلاؤك البيضاءُ طوّقت الدُنى — فلها على ذِممِ الزمانِ ديونُ

ما عدتُ ألحو في هواك مُتيَّماً — وصفاتُك البيضاءُ حورٌ عينُ

فبحيث تحتشد الورودُ فراشةٌ — وبحيث ليلى يوجد المجنونُ[1]

فهذا الرجل شاعره الدنيا؛ لأنها احتضنت منه شخصاً تفجّر بالعطاء والمواهب، فلا غَرو إن غرّدت الدنيا به، ولن يضيره عليه السلام ألّا يشار إلى موضع ولادته، وإنما ينبغي أن نفهم أن لهذا الرجل في كلّ قلب بيتاً، وفي كلّ روح مكاناً. وهذا هو الكرسي الذي لا يفقده الإنسان وإن ذهب عنه، فهو الكرسي الذي يتمركز في الأرواح والقلوب، وهذا الرجل عنده في كلّ قلب عرش وكرسي.

الخصيصة الثالثة: أنه تعالى قدّر أن يتربّى في قلب النبي صلى الله عليه وآله

ثم شاء اللّه تعالى لعلي عليه السلام أن ينتقل إلى الحجر الطاهر الذي احتضنه، ألا وهو قلب النبي صلى الله عليه وآله، وقد كان من سعادته ألّا يفارق هذا الحجر الكريم، وهذا الصدر الذي حمل رسالة السماء، فكان مع رسول اللّه صلى الله عليه وآله في غار حراء، وسمع رنة الوحي، فقال له النبي صلى الله عليه وآله: «يا علي إنك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى، إلّا إنك لست بنبي، ولكنك وزير، وإنك على خير»[2].

ورأينا فمه يحمل كلمة التوحيد ويخرج تابعاً لرسول اللّه صلى الله عليه وآله، ثم

---

(١) ديوان المحاضر ١: ١٩.

(٢) نهج البلاغة / الخطبة: ١٩٢.

تبدأ كلمة التوحيد من إطار كونها لفظة في الفم إلى الواقع بتجسّدها عزماً بيد علي ابن أبي طالب عليه السلام، يترك يده قابضة على قائم سيفه يذبّ عن التوحيد وعن كلمة التوحيد، ولم يكن يبارح النبي صلى الله عليه وآله ليلاً ولا نهاراً، وكانت الحجارة تأتي النبي صلى الله عليه وآله فيأخذ عليه السلام نصيبه منها، وكانت النبال تأتيه ويأخذ عليه السلام نصيبه منها أيضاً، ثم لا يكاد يفارق النبي صلى الله عليه وآله.

حتىٰ إذا أراد اللّه تعالى لهذه الدنيا أن تزدهر بنور الإسلام رأيناه عليه السلام وهو يتحمل العبء بنصّ رسول الله صلى الله عليه وآله عندما أمسكه من عنقه وقال: «هذا أخي ووصيّي وخليفتي من بعدي»[1]. كلّ ذلك يقوله النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام ليؤهّله كي يأخذ مكانته من بعده في هذه الدنيا.

ورأيناه عليه السلام يمشي قُدماً بهذه المسيرة؛ فلا يكاد يمرّ علىٰ فضيلة إلّا ويأخذ منها، ولا يكاد يمرّ علىٰ منقبة إلّا ويحملها، حتىٰ تحوّل إلى كتلة مناقب، وحتىٰ قال فيه رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «يا علي، إن فيك شبهاً من عيسىٰ بن مريم، ولولا أن تقول فيك طوائف من اُمّتي ما قالته النصارىٰ في المسيح عيسىٰ بن مريم لقلت فيك قولاً لا تمرّ بملأ من الناس إلّا أخذوا التراب من تحت قدميك يلتمسون بذلك البركة»[2]. وقد حدث هذا فعلاً[3].

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٤٤، كنز العمّال ١٣: ١١٤/ ٣٦٣٧١، وقد نقل ترك أحد رواته، ١٣: ١٣٣/ ٣٦٤١٩. وقد ورد هذا الحديث بألفاظ اُخر منها قوله صلى الله عليه وآله: «إن وصيّي وخليفتي في أهلي علي بن أبي طالب»، وقوله صلى الله عليه وآله: «من أراد أن يدخل الجنة بغير حساب فليتولّ وليّي ووصيّي وصاحبي وخليفتي...». وقوله صلى الله عليه وآله: «إن وصيي وخليفتي وخير من أترك بعدي ينجز موعدي ويقضي ديني علي بن أبي طالب»، وغيرها، انظر: شواهد التنزيل: ٧٦، ٩٨ـ ٩٩، ٤٨٦ ـ ٤٨٩، ٥٤٣، ٥٤٥، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٤٣، ٤٩ ـ ٥٠، ٥٦ ـ ٥٧.

(٢) الكافي ٨: ٥٧ / ١٨، الخصال: ٥٥٧، وتمامه: فغضب الحاضرون وقالوا: ما رضي أن يضرب لابن عمّه مثلاً إلّا عيسىٰ بن مريم. فنزل قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ الزخرف: ٥٧.

(٣) كما في قصة النفر الذين أحرقهم (صلوات الله وسلامه عليه) بالنار بعد أن خاطبوه بنعت

يقول المرحوم العقّاد في (عبقريّة علي): «ما اتّسعت مساحة للأخذ والردّ كما اتّسعت مساحة علي بن أبي طالب عليه السلام، فهناك من يعبده ويرى أنه إله، وهناك من يقول: إنه كافر مطرود من رحمة الله».

وهكذا يكون العظماء، وهذا هو شأنهم فهم بين الإفراط والتفريط:

تُجفى وتُعبد والضغائنُ تَغتلي ... والدهر يقسو تارةً ويلينُ

وتظل أنت كما عهدتك نغمةً ... للآن لا يرقى لها تلحينُ[1]

المبحث الثالث: عوامل عدم تفاعل المجتمع مع أمير المؤمنين عليه السلام

وهكذا كان ولم يبرح الفضائل والمناقب حتىٰ النفس الأخير من حياته، لكن السؤال الذي يُطرح هو: لماذا لم يتفاعل المجتمع معه عليه السلام ذلك التفاعل المطلوب مع ما له من هذه الميزات والمكانة، ومع هذا الحشد من المناقب والإضمامات؟ ولماذا وجد عليه السلام في طريقه أكثر من عثرة وعثرة؟ ما السبب في كل ذلك؟ هناك عوامل عديدة أدّت إلى حصول مثل هذا، نذكر منها:

العامل الأوّل: الحسد

فأول عقبه اصطدم بها أمير المؤمنين علي عليه السلام هي عقبة الحسد، فقد كان محسوداً حسداً لا حدود له، والحقّ أن الحسد في بعض الأحيان يخدم المحسود، يقول الشاعر:

الإلوهية، وقد مرّ في ص ٤٧ ـ ٤٨.

(١) ديوان المحاضر ١: ١٩.

عــداي لهــم فــضلٌ عــليّ ومــنّةٌ فــلا أبــعدَ الرحــمنُ عــني الأعــاديا
هُــمُ بــحثوا عــن زلّــتي فــاجتنبتها وهم نافسوني فارتقيت المعاليا[١]

حُسد هذا الرجل لأن اللّه تعالىٰ أعطاه من صفات الكمال ما لم يُعطِ أحداً غيره، فقد كان وهو طفل صغير إذا أخذ بيد الرجل أخذ بـنَفَسه، وكان إذا جاء الفرس بعنفوانه ووضع يده علىٰ صدره فإنه يردّه.

يصفه المؤرّخون بأنه كان كالأسد، غلظ منه ما استغلظ، دقّ مـنه مـا استدقّ، كان يحمل ساعداً يُعبّر عنه بالحاطم والقاضم[٢]. يقول صاحب (لسان العرب) في مادة قضم: «كان علي بن أبـي طـالب عليه السلام إذا نـزل إلى الحرب تَناديٰ الجيش وصاحوا: احذروا الحطم، احـذروا القـضم»[٣]؛ لأن ضربات علي عليه السلام كانت بكراً؛ إذا علا قدّ، وإذا توسّط قطّ[٤]، فكـانت العرب تعتبر الفرار من الزحف عاراً إلّا من سيف علي عليه السلام.

ثلاث وثمانون غزوة ما تخلّف فيها عن نصرة المسلمين وما تأخّر إلّا في غزوة تبوك حيث خلّفه رسـول اللّـه صلى الله عليه وآله لحـفظ الأمـن والدولة فـي المدينة، وكان حسامه هو الحسام الأوّل الذي يدافع عن المسلمين، وقد اُعطي من كمالات الرجولة والبطولة ما كانت معه الأُمم تتفأّل بكتابة اسمه علىٰ سيوفها، واُعطي من القوّة والضراوة والشجاعة والبسالة في سـبيل اللّه ما لا عينٌ رأت ولا اُذن سمعت. وما وضع تلك الشجاعة في طـريق

---

(١) البيتان لأبي حيان الأندلسي. الكنىٰ والألقاب ١: ٦١.

(٢) شرح الأخبار ٢: ٤٢٨، مناقب آل أبي طالب ٣: ٩١، وقد نقلاه عن المغيرة.

(٣) لسان العرب ١٢ ـ ٤٨٨ ـ قضم، ومثله في النهاية في غـريب الحـديث والأثـر ٤: ٧٨ ـ قضم.

(٤) الخرائج والجرائح ٢: ٥٤٢ / ٣، النهاية في غريب الحديث والأثر ٤: ٨١ ـ قط.

البغي، وما اعتدى يوماً على ضعيف أو منهزم أبداً، بل كانت شجاعته الشجاعةَ التي تتّسم بالرجولة الحقّة والنبل والكرم، وما قاتل إلّا في سبيل الله، ما قاتل لحقد أو هدف شخصي[1]، بل ترفّع عن أن يقابل الضعيف أو المنهزم نفسيّاً.

ولقد رأيناه يترفّع عن أن يقتل عمرو بن العاص عندما استلقى بين يديه، أو أن يقتل بسر بن أرطاة[2].

ولو رجعنا إلى تاريخ عمرو بن العاص وبسر بن أرطاة لعلمنا أن من الصعوبة بمكان أن يغضّ الإنسان طرفه عنهما؛ لأنهما كانا مثالاً للخسّة والاعتداء.

وقف عمرو بن العاص ليبيع دينه وهو يعلم من هو علي بن أبي طالب عليه السلام، ثم في لحظة من لحظات يقظة الضمير كتب إلى معاوية، وذلك لمّا أخذ معاوية منه مصر وأعطاها لعبد العزيز بن مروان والد عمر بن عبد العزيز، كتب إليه قصيدته الجلجليّة المشهورة:

معاويةُ الفضلَ لا تنسَ لي	وعن موطن الحقّ لا تعدلِ
نسيتَ محاورةَ الأشعري	ونحنُ على دومةِ الجندلِ
ولولاي كنت كمثل النساء	تخاف الخروج من المنزلِ
تبعناك من جهلنا يابن هند	على البطلِ الأعظمِ الأفضلِ
وحيث تركناك أعلى النفوس	نزلنا إلى أسفلِ الأرجلِ
وإن كان بينكما نسبةٌ	فأين الحُسامُ من المنجلِ
وأين الثريا وأين الثرى	وأين معاوية من علي

(١) كما تمهّل في قتل عمرو بن ودّ حينما بصق عليه؛ حتى لا يداخل قتله غضبُه لنفسه عليه السلام.

(٢) انظر ج١ ص٣٨٩، ج٣ ص٨.

إلى أن يقول:

وأعطيت مصر لعبد العزيز وأعطيتني زِنة الخردلِ[١]

هذا هو موضع الشاهد.

وعمرو بن العاص هذا كان يوماً ما يصف علياً عليه السلام بأنه تلعابة يداعس ويعافس، وأن فيه دعابة[٢]، وما ترك سيفاً إلّا شهره في وجه هذا البيت الطاهر. ولكنها نفس علي الكبيرة التي تأبىٰ أن تنحطّ إلى هذا الدرك، أو تنزل إلى هذا المستوىٰ المنهزم. لقد كان علي عليه السلام بطلاً يقارع الأبطال ويعفّ عن المنهزمين والجبناء.

أما بسر بن أرطاة فقد ملأ الأرض من دماء المسلمين، وقتل حَمَلَةَ القرآن الكريم، وأشبع البلدان التي مرّ بها قتلاً وتنكيلاً، وقد أراق الدم في بيت علي عليه السلام، فقد قتل طفلين لعبيد اللّه بن العباس حتىٰ جُنّت أُمهما[٣]. وبسرٌ هذا هو الذي ملأ اليمن دماً، وقد سقط بين يدي علي بن أبي طالب عليه السلام فعاد بعورته، وأدار علي عليه السلام وجهه عنه، ووقف شاعر من الشعراء يصف فعلته وفعلة عمرو بن العاص قائلاً:

أفي كلّ يومٍ فارسٌ تندبونه له عورةٌ وسط العجاجة بادية

يكفّ بها عنه علي سنانَهُ ويضحك منها بالخلاء معاوية[٤]

(١) انظر: الغدير ٢: ١١٧ ـ ١١٨، شرح نهج البلاغة ١٠: ٥٦ ـ ٥٧.

(٢) وردت علىٰ لسان عمر بن الخطاب كما في الإيضاح (ابن شاذان): ١٦٣، ١٦٤، ٢٦٣، ٢٣٧، تاريخ المدينة ٣: ٨٨٢، أنساب الأشراف ٥: ١٦، منتخب كنز العمّال ٥: ١٨٩. وعلىٰ لسان عمر بن العاص كما في المصدر نفسه: ٤٩٨، أو كما نقلها عنه أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة / الخطبة: ٨٤.

(٣) انظر الكامل في التاريخ ٣: ٣٨٤ ـ ٣٨٥.

(٤) الفصول المهمة (ابن الصباغ المالكي): ٩٠، النصائح الكافية: ٩٣.

لقد وقف أول ما وقف في طريقه الحسد؛ لأن هذا السيف يحسد علىٰ ما فيه من قوّة وفتوّة، وفتك وبطولة، وهذا الجسد المتكامل الذي يأخذ صفة الأسد، وهذه الروح القويّة التي ما انهزمت، وهذا التوجّه الصلب الذي يقول: «ما لقيت أحداً إلّا أعانني علىٰ نفسه»[١]. هذه كلّها جديرةٌ بأن تحسد.

ولمَ لا تحسد مثل هٰذه الروح، ولقد رأينا علياً عليه السلام يأبى أن يقابل بالمثل من يقابله بأشدّ أنواع الحقد، بل يترفّع تماماً عن ذلك؟

وأي واقعة لم نرَ فيها السمو عند علي عليه السلام؟ رأيناه بعد واقعة البصرة والقتلىٰ خمسة وثلاثون ألفاً تقريباً، ولكنه عليه السلام يبقىٰ تلك النفس المطمئنّة، وذلك الجأش الرابط والثابت، وتلك الروح الكبيرة لينادي: «لا تجهزوا علىٰ جريح، ولا تتبعوا مدبراً، ولا تهيجوا النساء بأذىٰ»، ولينادي: «لا يصلن لزوجة رسول الله صلى الله عليه وآله منكم أذىٰ». ويأتي ليقف علىٰ رأس المرأة ليقول: «ما أنصفك الذين أخرجوك من بيتك إذ صانوا حلائلهم وأبرزوك»[٢].

لله أنت يابن أبي طالب، ليتك تسمع استشهادها بهذا البيت في مثل هٰذه الليلة وهي تقول:

وإن يكُ نـائياً فـلقد نـعاهُ نعِيٌ ليس في فيه التـرابُ[٣]

هذه الروح التي تحنو علىٰ من أشبعها طعناً لتغمره بالعطاء والرحمة، لا شك أنه يحسد عليها، فعلي عليه السلام يحسد علىٰ كلّ صفة منحتها السماء

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ٣١٨.

(٢) شجرة طوبىٰ ٢: ٣٢٤، وقعة الجمل (ضامر بن شدقم): ١٤٦.

(٣) الجمل: ٨٤، تاريخ الطبري ٤: ١١٥. حيث إن العرب يقولون لمن جاء ينعى عزيزاً عليهم: ملأ الله فمك تراباً، وهي هنا تقول: لا ملأ الله فمه تراباً.

إيّاه؛ سواءً في الروح أو في الجسد.

يقول الحاكم في (المستدرك): «قال عمر بن الخطاب: ثلاث خصال لعلي بن أبي طالب لو أن لي واحدة منها لكان أحبّ إليّ من حمر النعم. قيل له: ما هي يا أمير المؤمنين؟ قال: إن علي بن أبي طالب أخذ الراية يوم خيبر، وإنه تزوج فاطمة، وإنه سكن المسجد مع النبي صلى الله عليه وآله يحلّ له ما يحل لرسول الله صلى الله عليه وآله»[١].

فعلي عليه السلام حُسد على مكانته من النبي صلى الله عليه وآله، وحسد على ما حباه الله من المزايا، وحسد على هذا الخطّ الناصع الذي لم تدنّسه نقطة سوداء من بدايته إلى نهايته، وحسد على الجبين الذي ما سجد لصنم، وعلى الروح التي ما استكانت إلّا لله، وعلى الجسد الذي فنيت كلّ ذرّة فيه في الدفاع عن الإسلام والمسلمين.

ومن هنا سئل الخليل بن أحمد الفراهيدي: ما بال الناس هجروا علياً عليه السلام مع قرباه من النبي صلى الله عليه وآله وموضعه من المسلمين، وغناه في الدفاع عن المسلمين؟ فقال: والله لقد غلب نوره أنوارهم، وغلبهم على كلّ فضل فهجروه، والشكل إلى أشكاله أميل[٢].

نعم، بان عن مجتمعه بالمزايا التي رفعته وميّزته، فحُسد، ولمّا حُسد وقف الحسد في طريقه، ولمَ لا يحسد وكلّ جوانبه جديرة بأن تحسد، سيما من ذوي النفوس الضعيفة؟

العامل الثاني: الحقد

فلقد تعرّض علي عليه السلام لحقد بلغ به من الأمر أن تقف إحداهن لتقول:

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٣٥، ورواه أحمد عن ابن عمر، انظر مسند أحمد ٢: ٢٦.

(٢) الأمالي (الطوسي): ٦٠٨ ـ ٦٠٩ / ١٢٥٦، بحار الأنوار ٢٩: ٤٨١ / ٣، باختلاف.

لاهُـمَّ فـاعقر بـعلي جـمله ولا تبارك بـبعير حـمله[١]

وهذا هو الحقد عينه الذي بلغ بالبعض حدّاً أنه يتقرب إلىٰ اللّه تعالى بشتمه كلّ يوم سبعين مرة لما يقارب القرن من الزمان، ورحم اللّه الشاعر حيث يقول:

شتمته بـالشام سـبعين عـاماً لعـن اللـه كـهلها وفـتاها[٢]

فكانت منابر المسلمين لا تفتتح إلّا بشتم علي عليه السلام، ولكن، هـل ضـرّه ذلك الشتم؟ كلا، بل إن الحقائق تبقى كما هي لا ينالها التشويه الأعمى، ويبقىٰ ذلك الشتم عطراً ينثر على تاريخ الإمام علي عليه السلام[٣].

ومن شواهد الحقد الذي تعرض له علي عليه السلام أن علي بن عـبد اللّـه بـن عباس كان يكنّىٰ أبا الحسن، فدخل يوماً على عبد الملك بن مروان، فقال له عبد الملك: أنت علي أبو الحسن؟ قال: نعم. فقال عبد الملك: واللّه لا أجمعهما لك، عليّ وأبو الحسن؟ إما أن تغيّر اسمك أو أن تغيّر كنيتك. فاضطر إلى أن يغيّر كنيته[٤].

فلم يكن عبد المـلك بـالذي يـطيق أن يسـمع اسم عـلي عليه السلام وكـنيته

---

(١) القائلة هي أُخت علي بن عدي من بني عبد العزّىٰ بن عبد شـمس. تـاريخ الطـبري ٣: ٤٩٣. الإصابة ٥: ٥٣ / ٦٢٧٧. (٢) دراسـات في التاريخ الإسـلامي: ٢٣٠.

(٣) انتقص ابن لحمزة بن عبد الله بن الزبير أمير المؤمنين عليه السلام فقال له أبوه: يا بني، إنه والله ما بنت الدنيا شيئاً إلّا هدمه الدين، وما بنى الدين شيئاً فهدمته الدنيا، أما ترى علياً وما يُظهر بعض الناس من بغضه ولعنه على المنابر فكأنما والله يأخذون بناصيته رفعاً إلى السماء، وما ترى بني مروان وما يندبون به موتاهم من المدح بين الناس فكأنما يكشفون عن الجيف؟ جواهر المطالب (ابن الدمشقي) ٢: ٢٢٩، وقريب منه ما في المحاسن والمساوئ: ٤٠، البيان والتبيين ٢: ١٧٣.

(٤) تاريخ مدينة دمشق ٤٣: ٤٥، وفيه أنه أغراه بمئة ألف كي يغيّر كنيته أوّلاً.

مجتمعتين، بل ولا منفردتين.

ويرسل الرشيد وهو ابن عم علي عليه السلام خلف أحد العلماء، وقد أعطى رأياً لعلي عليه السلام في مسألة فقهيّة، فيقول له: ألم تعلم أنّا نهينا أن يذكر لهذا الرجل رأي؟ إياك أن أسمع ذلك منك مرّة أُخرى.

هكذا بلغ الحقد بالناس الذين عاصروه والذين جاؤوا من بعده، فالذين عاصروه ما شكروا له مواقفه بل حقدوا عليه، والذين جاؤوا من بعده ما اعترفوا بما أسداه لهم من خير، بل وقفوا يأكلهم الحقد عليه. وهكذا أخذ الحقد طريقه حتى إلى تاريخه (صلوات الله وسلامه عليه).

ومن الغريب أنك ترى أن التاريخ إذا مرّ بهذا الرجل فقد توازنه، والحال أنه عليه السلام ليس له ذنب، فما ذنبه إذا أمره النبي صلى الله عليه وآله عن الله تعالىٰ بالقتال[1]؟ وما ذنبه إذا كان عدد القتلىٰ في بدر سبعين وكان نصفهم أو أكثر بسيفه؟ وما من شكّ أن هذه الدماء لعبت دوراً كبيراً في تحديد مكانته، وقد اختزنت له قريش هذا الحقد.

العامل الثالث: منهجه عليه السلام في تقديم العامّة على الخاصّة

وهذا المعنى واضح في عهده لمالك الأُشتر رضي الله عنه، وفي تصرّفه أيّامَ حكمه. فقد كان يؤثر رضا العامّة علىٰ رضا الخاصّة، فليس عند علي عليه السلام أن يأخذ القوي أو صاحب الرئاسة حقّه ولا يأخذ الضعيف حقّه، وكان عليه السلام يقول: «القوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه، والضعيف عندي قوي حتى آخذ الحق له»[2]. لقد آثر رضا عامّة الناس؛ فتحوّل إلى أنة عند

---

(١) في الخندق مثلاً.

(٢) ورد أنه عليه السلام لمّا حضرته الوفات جاء الخضر ووقف علىٰ باب الدار مسلّماً بسلام طويل منه: «القوي العزيز عندك ضعيف ذليل حتىٰ تأخذ منه الحق». انظر: كمال الدين: ٢١٨ ـ ٢١٩، بحار الأنوار ٤٢: ٣٠٣ ـ ٣٠٥.

كلّ مريض، وألم عند كلّ جائع.. سمعناه وهو على منبره يقول: «والله لو شئت لاهتديت الطريق إلىٰ مصفىٰ هذا العسل ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القزّ، ولكن هيهات أن يقودني هواي، أو يغلبني جشعي إلى تخيّر الأطعمة، ولعلّ بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له بالقرص ولا عهد له بالشبع، أأبيت مبطاناً وحولي بطون غرثىٰ وأكباد حرّى؟»[1].

فكان علي عليه السلام دمعةً في عين كلّ يتيم، وحسرة عند كلّ محروم، وسيفاً يُنتضى ليجلب الحقّ لمن أُخذ منه، وليقف في وجه الباطل. فعلي عليه السلام آثر العامّة على الخاصّة فحقدت عليه الخاصّة.. عمد إلى الرؤوس الكبيرة التي كانت تصول على الرؤوس الصغيرة لتسلبها رغيفها أو تأخذ ثوبها فذادها عنها، وأعاد الحقّ إلى نصابه، وكان في أوّل خطبة له على المنبر عندما انتهت إليه الخلافة يقول: «والله لو وجدتها مهرت بها النساء لرددتها، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق»[2].

لقد أعاد (صلوات الله وسلامه عليه) للمسحوقين مكانتهم، وللمغصوب حقّهم حقوقهم، ولليتامى حقّهم من الرعاية والعناية والعطف؛ فحملت الخاصّة السيوف في وجهه وحقدت عليه.

العامل الرابع: التسوية بالعطاء بين الناس

وهذه إحدى العقبات التي وضعت في طريقه (صلوات الله وسلامه عليه) واصطدم بها، وقد ألّبت عليه هذه التسوية الخاصّة من المجتمع. فعن الحرث قال: كنت عند علي فأتته امرأتان فقالتا: يا أمير المؤمنين: إننا امرأتان فقيرتان مسكينتان. فقال: «قد وجب حقّكما علينا وعلى كل ذي سعة

(١) نهج البلاغة / الكتاب: ٤٥. (٢) نهج البلاغة /الكلام: ١٥.

من المسلمين إن كنتما صادقتين». ثم أمر رجلاً فقال: «انطلق بهما إلى سوقنا فاشترِ لكل واحدة منهما كرّاً من طعام وثلاثة أثواب وأعط كلّ واحدة منهما من عطائي مئة درهم». فلما ولّتا سفرت إحداهما وقالت: يا أمير المؤمنين، فضّلني بما فضّلك الله به وشرّفك. قال: **«وبماذا فضّلني الله وشرّفني؟».** قالت: برسول الله صلى الله عليه وآله. قال: «صدقت، وما أنت؟». قالت: امرأة من العرب، وهذه من الموالي .قال: فتناول أمير المؤمنين عليه السلام شيئاً من الأرض ثم قال: **«قد قرأت ما بين اللوحين فما رأيت لولد إسماعيل على ولد إسحاق عليه السلام فضلاً ولا جناح بعوضة»**[1].

ثم قال: **«كلّكم لآدم وآدم من تراب»**[2].

لذلك ترك علي عليه السلام القلوب تشتجر عليه حقداً، وتأبى أن تخضع لهذا اللون من التصرّف.

لمَ لا يحقد عليه عمرو بن العاص؟ وقد دخل عليه بعد البيعة مباشرةً، وعلي عليه السلام مشغول بأمور المسلمين، فأوعز علي عليه السلام إلى غلامه بأن يطفئ السراج، ويحضر سراجاً آخر فسأله: لماذا؟ فقال: **«كان زيته من بيت المسلمين ولا ينبغي أن نصاحبك في ضوئه»**[3].

فعلي عليه السلام يأبى أن يميّز هذا الرجل عن غيره وهو يعلم من هو في تأثيره وخطره، ومن هو إذا أراد أن يعيث أو يعبث.

أمّا هو عليه السلام فلم يكن يتميّز في عطائه عن غلامه قنبر[4]، فيأكل كما

---

(١) أنساب الأشراف: ١٤١.

(٢) تحف العقول: ٢٤، شرح نهج البلاغة ١: ١٢٨، الدرّ المنثور ٦: ٩٨.

(٣) المناقب المرتضوية (المولىٰ صالح الحنفي): ٤٥، وفيه أن الداخل عليه طلحة والزبير.

(٤) وقد رأينا أنه عليه السلام لم يميّز حتى أخاه عقيلاً، وذلك حينما جاءه يحمل صبيانه وهم جياع، أو كما يقول عنهم أمير المؤمنين: «فرأيت صبيانه شعث الشعور غبر الألوان من فقرهم، كأنما

يأكل، وكان عليه السلام يضع على الموضع الممزّق من ثوبه قطعة من الليف وينتظر حتى يخرج عطاؤه ليشتري به ثوباً[١]، ويأبى أن يمدّ يده إلى بيت مال المسلمين ليشتري له به ذلك الثوب.

وكان إذا أراد أن يشتري ثوباً ذهب إلى السوق فاشترى ثوباً من الكرابيس بثلاثة دراهم وآخر بدرهمين، ثم يقول لقنبر: «يا قنبر خذ الذي بثلاثة دراهم»[٢]. وكان يجول في سوق الكوفة وهو يصيح: «من يشتري مني هذا السيف؟ والله لو كان عندي ثمن إزار ما بعته»[٣]. فيقول له رجل من أهل السوق: أنا أُسلفك إلى أن يخرج عطاؤك. فيجزيه خيراً، ويستلف منه ثمن الثوب حتى يخرج عطاؤه فيعطيه. وكان الإمام الصادق عليه السلام يقول عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إنه ليعمل عمل رجل كان وجهه بين الجنة والنار، يرجو هذه ويخاف عقاب هذه»[٤].

العامل الخامس: أنه سبق زمانه بمئات السنين

فهو عليه السلام لم يتّسع له وعاء عصره لا لنقص فيه، وإنما لنقص في عصره، فقد ضاق به مجتمع الكوفة؛ لأن حجمه عليه السلام يحتاج إلى وسط أكبر من هذا الوسط؛ فلم يتفاعل معه عصره. ولذا نراه يصعد المنبر فيقول: «اللهم إني قد مللتهم وملّوني، وسئمتهم وسئموني، فأبدلني بهم من هو خير لي منهم،

سوّدت وجوههم بالعظلم». نهج البلاغة / الكلام: ٢٢٤.

(١) فهو عليه السلام القائل: «ولقد رقعت مدرعتي حتىٰ استحييت من راقعها، وحتىٰ قال لي قائل: ألا تنبذها عنك؟ فقلت اعزب عني، فعند الصباح يحمد القوم السرىٰ». نهج البلاغة / الخطبة: ١٦٠، عيون المواعظ والحكم: ٤٠٥.

(٢) روضة الواعظين: ١٠٧.

(٣) الغارات ١: ٦٣، مكارم الأخلاق: ١١٤.

(٤) شرح الأخبار ٣: ٢٧١ / ١٧٥، الإرشاد ٢: ١٤٢.

وأبدلهم بي من هو شرّ لهم مني. اللهم مثّ قلوبهم ميث الملح في الماء»[١].

ثم يرى النبي صلى الله عليه وآله في المنام فيقول: «يا رسول الله، ما رأيت من أُمّتك من الأود واللدد؟». فيقول له صلى الله عليه وآله: «ادعُ عليهم». فيقول: «اللهم أبدلني بهم خيراً منهم، وأبدلهم بي شراً مني»[٢].

وكان يدعو أن يلحق بأحبائه، فكان يقول: «أين إخواني الذي ركبوا الطريق ومضوا على الحق؟ أين عمار؟ وأين ابن التيهان؟ واين ذو الشهادتين؟... أوّه على إخواني الذي تلوا القرآن...»[٣].

نعم، لقد ضاق به عصره، وكانت قريش تتربّص به الدوائر، ثم وجد الحقد طريقه إليه في مثل هذه الليلة، وهذا الحقد مهّدت له قريش وجعلت السيف المباشر الذي حمله هو سيف الخوارج.. الخوارج الذين كان منهم ثلاثة في أداء العمرة وقد اجتمعوا في مكّة وتذاكروا الأُمراء فعابوهم وعابوا أعمالهم، فقالوا: لو أننا شرينا أنفسنا لله فأرحنا البلاد والعباد من هؤلاء: معاوية، وعمرو بن العاص، وعلي بن أبي طالب! فقال عبد الرحمن بن ملجم: أنا أكفيكم علياً. وقال عمرو بن بكر: أنا أكفيكم عمرو بن العاص. وقال البرك: أنا أكفيكم معاوية.

فتعاهدوا على ذلك وتفرقوا، وكان الموعد في شهر رمضان في الليلة التاسعة عشرة، وطرحوا الأمر للأشعث بن قيس. ويبدو أنه كان على علم بالواقعة[٤].

---

(١) الغارات ٢: ٦٣٦، تاريخ مدينة دمشق ١: ٣٦١.

(٢) شرح الأخبار ٢: ٤٣٠ / ٧٧٩، مقاتل الطالبيين: ٢٥، الطبقات الكبرىٰ ٣: ٣٦، شرح نهج البلاغة ٩: ١١٨ ـ ١١٩، فيض القدير شرح الجامع الصغير ٣: ١٢٨ / ٢٨٥٠.

(٣) نهج البلاغة / الخطبة: ١٨٢.

(٤) تهذيب التهذيب ٣: ٦٥.

وقد نقل بعض المؤرّخين أن عدم خروج عمرو بن العاص في تلك الليلة لم يكن لمرض، وإنما أُبلغ بأنه سيتعرّض للقتل.

ويقول أحد المؤرّخين: إن معاوية خرج إلى المحراب هذه الليلة وقد كفّر درعه تحت ثيابه، وإن الضربة التي وقعت عليه لم يكن يقصد بها القتل. وظروف الأحوال تساعد على هذا المعنى.

أما عبد الرحمن بن ملجم فقد سقى سيفه السمّ وكمن لعلي عليه السلام في مثل هذه الليلة، يقول ابن عبدون:

وليتها إذ فدت عمراً بخارجةٍ ... فدت علياً بمن شاءت من البشر[1]

يقول المؤرخون: عندما دخل هذا الشهر المبارك كان علي عليه السلام يوزّع إفطاره بين بيت عبد اللّه بن جعفر وبيت ابنه الحسن عليه السلام وبيت ابنه الحسين عليه السلام، فكان كلّ ليلة يفطر عند أحدهم على شيء من الخبز والملح، وإن زاد فبشيء من اللبن، وكان يكرر هذين البيتين:

تلكم قريش تمنّاني لتقتلني ... فلا وربّك ما ضرّوا وما ظفروا

إن يقتلوني فرهن ذمّتي لهُمُ ... بذاتِ ودقينِ لا يعفو لها أثرُ[2]

حتى قالت أُمّ كلثوم عليها السلام: «يا أبتاه، مالي أراك هذه الليلة لا تذوق طعم الرقاد؟». فقال عليه السلام: «لا يا بنيتي، إن أباك قتل الأبطال وخاض الأهوال، فما دخل الجوف له خوف، وما دخل في قلبي رعب، وليس منا من يتطيّر، ولكن للموت علامات ودلالات يتبع بعضها بعضاً»[3].

---

(١) كشف الغمة ٢: ٦٦، سبل السلام (العسقلاني) ٢: ١١.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٩٦، الفائق في غريب الحديث ٢: ٦٦ ـ روق، النهاية في غريب الحديث والأثر ٢: ٢٧٩ ـ روق، ٥: ١٦٨ ـ ودق.

(٣) بحار الأنوار ٤٢: ٢٧٧، باختلاف.

تقول أُمّ كلثوم: عندما حان وقت الإفطار ليلة التاسعة عشرة من رمضان، رفعت لأبي أمير المؤمنين عليه السلام طبقاً فيه إفطاره، وكان فيه إدامان، فالتفت إلي قائلاً: «بنية، ارفعي أحد الإدامين، أما علمت أن من طاب طعامه وشرابه طال وقوفه بين يدي الله؟».

تقول أُمّ كلثوم: فلما أردت أن أرفع بعض النباتات التي كانت في الطبق قال: «لا، ارفعي اللبن».

فهو الذي كان حينما يأكل رغيف خبز أو تمرة يمسح بيده على بطنه ويقول: «من أدخله بطنه النار فأبعده الله»[1]. وكان يقوم ويقلّب طرفه في السماء ويقول: «هي هي والله الليلة التي وُعدت بها، والله ما كَذبت ولا كُذبت». ثم يدخل إلى الحجرة ويخرج ليقلّب طرفه في النجوم. وكان هكذا ليلته كلّها، إلى أن انبلج عمود الفجر، فقام عليه السلام وجدّد وضوءه ونزل إلى الدار، وكان في الدار طيور من الإوزّ أُهديت للإمام الحسن عليه السلام، فرفرفن في وجهه، فذدت عنه تلك الطيور فقال: «دعيهن فإنهن صوائح ونوائح». ثم فتح باب الدار فتعلّق مئزره بالباب، فأخذ يشدّه ويقول: «اشدد..

حيازيمك للموتِ فإن الموتَ لاقيكا
ولا تغترّ بالدهر إذا كان يواسيكا
كما أضحكك الدهرُ كذاك الدهرُ يبكيكا»

تقول أُمّ كلثوم: فرجعت إلى الحسن عليه السلام فقلت له: يا أخي، لقد سمعت أبي يقول كذا وكذا، فتبعه الحسن والحسين عليهما السلام فقال لهما: «أقسمت

(١) الدعوات: ١٣٧ ـ ١٣٨ / ٣٤٠، مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (محمد بن سليمان) ٢: ٨٢ / ٥٦٧، بحار الأنوار ٤٠: ٣٤٠ / ٢٦، تاريخ مدينة دمشق ٤٨: ٢٣٠، كنز العمال ٣: ٧٨٢ / ٨٧٤١.

عليكما بجدّكما إلّا ما رجعتما». فرجعا، ثم دخل المسجد يوقظ الناس إلى الصلاة، ثم وصل المئذنة فأذّن، وكان إذا أذّن اضطربت حيطان المسجد، ثم نزل وأقبل نحو المحراب، ووقف فيه ثم رفع رأسه إلى السماء ورمقها بطرفه، ثم رفع يديه حيال أُذنيه مكبّراً، ثم قرأ وانحنى للركوع، وما كاد يسجد السجدة الأُولى حتى سمع الناس قائلاً يقول: الحكم لله لا لك يا علي. وإذا بالسيف يهوي على هامة أمير المؤمنين عليه السلام، فسقط إلى الأرض وهو يقول: «فزت وربّ الكعبة، لا يفوتنّكم ابن اليهودية؛ فقد قتلني». وإذا بالصوت بين السماء والأرض: «تهدّمت والله أركان الهدى، وانفصمت العروة الوثقى، قتل أتقى الأتقياء، قتله أشقى الأشقياء»[1]:

بعيد البله يا داحي الباب يا سور عزنه يبن الاطياب

مطروح بويه على المحراب وتلوج من حر الصواب

* * *

هذي المحاريب أين القائمون بها[2]

---

(١) انظر بحار الأنوار ٤٢: ٢٨٢، ٢٨٥، ٢٨٦.

(٢) صدر بيت من قصيدة للشيخ كاظم سبتي الذاكر النجفي، وتمامه:

والليل مرخ من الظلماء أستارا

الأنوار العلوية: ٣٩٦. ومن جملة أبيات القصيدة:

فأي حادثة في الدين قد وقعت فألبسته من الأشجان أطمارا

جار الزمان عليهم كم بهم ملأ الـ ـدنيا مصاباً وكم أخلىٰ لهم دارا

هذي منازلهم بعد الأنيس فلا ترىٰ بها غير وحش القفر زوّارا

﴿١٣﴾

أمير المؤمنين عليه السلام وكتابة التاريخ

أَأَبـا الحُسـينِ وتِـلكَ أروعُ كُـنيةٍ ... وكِـلاكُـما بـالرّائـعات قَـمِينُ
لكَ فـي خَـيالِ الدَّهـرِ أيُّ مَـلامحٍ ... تَـروي السَّـنا ويُـتَرجِمُ النَّسـرينُ
في الصبح أنت المُستَحِمُّ مـنَ اللَّـظى ... واللَّـيل فـي المـحرابِ أنتَ أنـينُ
تكسـو وأنتَ قـطيفةٌ مَـرقوعةٌ ... وتَـموتُ مـن جـوعٍ وأنت بَـطينُ
آلاؤك البـيضاءُ طـوَّقتِ الدُّنَـا ... فَـلها عـلى ذِمـمِ الأَنـامِ دُيـونُ[1]

المباحث العامّة للموضوع

المبحث الأوّل: أمير المؤمنين عليه السلام في مرآة التاريخ

ويشتمل هذا المبحث على عدّة مقدمات توطئةً لما سيأتي من بحوث إن شاء الله تعالىٰ:

المقدّمة الأولى: عظمة أمير المؤمنين عليه السلام

عندما يقدم أي باحث على ترجمة هذا الرجل العظيم فإنه يحار من أين يبدأ وأين ينتهي؛ فليس في حياته عليه السلام لحظة لا تستحقّ التوقف عندها، وليس فيها حركة لا ينبغي تسجيلها والتأمّل فيها، وليس منها موقف لا

---

(١) ديوان المحاضر ١: ١٩.

ينبغي الانحناء أمامه إجلالاً وإكباراً؛ فكل ما في كيانه ووجوده وحياته ألقٌ مشرق يأخذ بالأبصار. إن من يدخل بستاناً أو حتى جنة فيمكن أن يلفت نظره فيها زهرة جميلة شذيّة، أو شجرة وارفة نديّة، فيكتفي بهذه أو تلك وينشغل بها عمّا في البستان من أوراد وأشجار، أمّا من يدخل حقل حياة الإمام علي عليه السلام فإنه سيجد نفسه مشدوداً إلى كلّ ما فيه ـ وكلّ ما فيه معجب ـ وحائراً فيما ينبغي أن يبدأ به، فما من زهرة إلّا ومجاورها يعبق مثلها وما من شجرة إلّا وتؤتي أكلها حالها في ذلك حال أي شجرة أُخرى، وما من شيء إلّا وهو من نتاج الإرادة الإلهية التي أحنت على هذا الوجود ومنحته هذه العظمة.

ومن هذا أنه عليه السلام قد تساوت فيه جميع الميزات والكمالات، وهذا ما لا يمكن أن يكون لغيره ـ سوى نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ومن سبقه من الأنبياء ـ فمن ينبغ من الناس في البلاغة أو الشعر أو الشجاعة أو الكرم أو غيرها نجد عنده نقصاً في الجوانب الأُخرى ممّا ذكرنا وغيره، أمّا أمير المؤمنين عليه السلام فخلاف ذلك؛ فقد نبغ في الجميع، وبزّ الناس جميعاً في كل ما أُوتي من فضائل ومناقب كان له فيها الحظّ الأوفر والكعب العالي والقدح المعلّى من بينهم، مع تساويها عنده في بلوغه القمّة فيها. وهكذا كان هذا الرجل العظيم.. لقد كانت كلّ حياته عطاءً وعنفواناً ومثاراً للإعجاب والحسد ممن عاصروه ومن جاؤوا بعده.

المقدمة الثانية: عطاؤه المتجدّد ومناقبه التي لا تنفد

إن بيننا وبين أمير المؤمنين عليه السلام أربعة عشر قرناً من الزمان تناولت فيها شخصيته وحياته ومواقفه الأقلامُ من مختلف الفئات والمشارب والأذواق؛ فبين محبّ موادّ، وبين مبغض شانئ، وبين متوقّف محايد.

وقد كتبت هذه الأقلام ما حلا لها وما لم يحلُ، من واقع الحياة ومن وهم مخيلات أصحابها غير أنه عليه السلام بقي من بين كل الكتابات وهذه الأقلام إشعاعاً حضارياً وهّاجاً في تاريخ الإسلام، بل في تاريخ الدنيا أجمعه. لقد كان يعطي جديداً كلّما شرع أحد في الكتابة عنه؛ فلم تنفد مناقبه، ولم تفنَ محامده.

وسرّ هذه الظاهرة هو أن عناية الله تعالى به لم ولن تنقطع عنه أبداً منذ مجيئه إلى الحياة وولوجه فيها وحتى قيام الساعة. وربما يرد في ذهن البعض أن هذا يتنافى مع واقع حياته عليه السلام؛ ذلك أنه لو كان محطّ عناية السماء لما مرّت به في حياته مصائب عظيمة ونكبات جمّة جعلته يتمنّى الموت[1]. لكن هذا غير صحيح من ناحية مبدئية؛ لأن هذه المصائب والنكبات هي بعض ما أعطته السماء ووهبته الإرادة الإلهية؛ لترفع بها كعبه فوق من سواه ولتبرز للدنيا أجمع مقدار إيمان علي بن أبي طالب عليه السلام وصبره وتحمّله؛ وبهذا كان ألقاً، وبقي نجمه يسطع في سماء الإيمان والصبر، وكوكبه يلمع في دنيا الخلود، وبقي هو يتألق بين كل من هم سواه. ودليل هذا أننا حينما ندرس ما مرّ به من هذه المصائب المذكورة

---

(١) فقال عليه السلام يصف حاله وحال من معه: «لا أرىٰ هؤلاء القوم إلّا ظاهرين عليكم؛ لاجتماعهم علىٰ باطلهم وتفرّقكم عن حقّكم وطاعتهم لإمامهم ومعصيتكم لإمامكم، وبأدائهم الأمانة إلى صاحبهم وخيانتكم إياي. إني ولّيت فلاناً فخان وغدر، واحتمل فيء المسلمين إلى معاوية، وولّيت فلاناً فخان وغدر وفعل مثله، فصرت لا آتمنكم على علاقة سوط. وإن ندبتكم إلى عدوّكم في الصيف قلتم: أُمهلنا ينسلخ الحرّ عنّا، وإن ندبتكم في الشتاء قلتم: أُمهلنا ينسلخ القرّ عنا. اللهم إني قد مللتهم وملّوني، وسئمتهم وسئموني، فأبدلني بهم من هو خير لي منهم، وأبدلهم بي من هو شرّ لهم مني. اللهم مثّ قلوبهم ميث الملح في الماء». ثم نزل. الغارات ٢: ٦٣٦، تاريخ مدينة دمشق ١: ٣٦١.

دراسة موضوعية فسنجد أنها كافية في القضاء على غيره وكفيلة بأن تأتي عليه، لكن هذا لم يحصل مع أمير المؤمنين عليه السلام الذي كان يدري بأنه حتى بعد الموت لم يسلم من أذى مدّعي الإسلام، فكان يعلم أنه لو دفن علناً لأُخرجت جثته الطاهرة ومثّل بها؛ فكان يوصي ولده الحسن عليه السلام عند وفاته بقوله: «لا تشهدوا أحداً جنازتي ومكان دفني».

وهذا الحذر لم يكن خوفاً من أن يمثّل به، بل إنه كان خوفاً من أن تنتهك حرمة الإسلام بالتمثيل بجسده؛ لأنه عليه السلام كان يعلم مدى حقد السلطة الأُموية وبطشها واعتدائها على حرمات الإسلام؛ وإلّا فأليسوا هم أبناء وأحفاد هند آكلة الأكباد، التي بقرت بطن حمزة عليه السلام وأكلت كبده نيئاً؟ مع أن المفروض أنه قد قتل وانتهى أمره بالنسبة لها ولجيش زوجها جيش الكفر والشرك؟ وأليسوا هم أبناء وأحفاد قائد جيش الشرك والنفاق أبي سفيان الذي كان يضع رمحه في خدّ الحمزة ويتّكئ عليه حتى تخرج من خدّه الآخر؟ فهذا المقدار من الحقد الكامن والدفين في صدر هؤلاء كافٍ لأن يدفعهم لفعل ما لا يجرؤ غيرهم على فعله مما يدفعهم إلى إخراج الجثمان الطاهر لأمير المؤمنين عليه السلام والتمثيل به.

إن هؤلاء كانوا إذا عزم خطيب على أن يرقى أعواد المنبر أفهموه وأوهموه أنهم لا يريدون أن يذكر لعلي بن أبي طالب عليه السلام منقبة، وأنه غير مرغوب، فيه وأنه ليس أهلاً لأن تكون له مناقب يذكر بها بين الملأ، وأن عليه (الخطيب)[1] أن يحدّث الناس بفضائل الصحابة دون ذكر هذا

---

(١) روى الطبري أن المغيرة دعا صعصعة. فقال له: إيّاك أن يبلغني عنك أنك تظهر من فضل علي شيئاً علانية. فإنك لست بذاكر من فضل علي شيئاً أجهله. بل أنا أعلم بذلك. ولكن هذا السلطان قد ظهر. وقد أخذنا بإظهار عيبه للناس. فنحن ندع كثيرا ممّا أُمرنا به. ونذكر الشيء

الرجل. سئل أحدهم يوماً: لماذا نرى أن الصحابة كلهم كأنهم أبناء لأُمّ واحدة، وعلي بينهم كأنه ابن عَلة؟ فقال: ولم لا يكون كذلك، وقد سبقهم سلماً، وتقدّمهم علماً، وفاقهم حلماً، وبزّهم شجاعة؟ والجنس لجنسه أميل[١].

فهذا الرجل قد تميّز فأصبح محسوداً.. تميّز عن غيره بالتحلّي بكل الفضائل والتخلّي عن جميع الرذائل؛ فكان طاهراً نقيّاً[٢]؛ ولذا فإن هؤلاء لم يتوقوا له ولم يميلوا إلى جانبه ولم يسلكوا مسلكه[٣].

محاولات أعدائه للنيل منه

وهؤلاء حينما وجدوا أنفسهم لا يستطيعون أن يرقوا مراقيه، ولا أن يصلوا إلى منزلته في الشجاعة والإيمان والسابقة والمناقب والجهاد في سبيل الله تعالى ورسوله الكريمﷺ ودينه الحنيف راحوا يشكّكون

الذي لا نجد بدّاً منه، ندافع به هؤلاء القوم عن أنفسنا. فإن كنت ذاكراً فضله فاذكره بينك وبين أصحابك. تاريخ الطبري ٥: ١٨٨ ـ ١٨٩.

(١) الأمالي (الطوسي): ٦٠٨ ـ ٦٠٩ / ١٢٥٦. بحار الأنوار ٢٩: ٤٨١ / ٣. والمسؤول هو الخليل ابن أحمد الفراهيدي.

(٢) ورد في زيارة أبي عبد اللهﷺ: «أشهد أنك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهّرة، لم تنجّسك الجاهليّة بأنجاسها، ولم تلبسك من مدلهمّات ثيابها». مصباح المتهجّد: ٧٢١.

(٣) مع أن مسلكه القرآن ومع القرآن بنصّ قول الرسول الأكرم فيهﷺ: «علي مع القرآن والقرآن معه لا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض». المعجم الأوسط ٥: ١٣٥. المعجم الصغير ١: ٢٥٥. وفي المستدرك على الصحيحين ٣: ١١٩ أنهﷺ، حينما جاء يودّع أمّ المؤمنين أمّ سلمة (رضي الله تعالى عنها) عند خروجه إلى الجمل، قالت له: «سر في حفظ الله وفي كنفه، فوالله، إنك لعلى الحقّ والحقّ معك، ولولا أني أكره أن أعصي الله ورسوله فإنه أمرناﷺ أن نقرّ في بيوتنا لسرت معك».

الناس به وبكلّ ما يمتّ إليه بصلة، وهي محاولات كثيرة نذكر منها:

الأولى: نفي نسبة (نهج البلاغة) إليه

فحتّى (نهج البلاغة) لم يسلم من حقدهم الذي وصل إليه، وسمّهم الذي أرادوا أن ينفثوه حوله، وكانت هناك محاولات لنفي صحة نسبته إليه عليه السلام لأن فيه عطاءً أكبر من مستوى العصر الذي يعيش فيه[1]. كما أن البعض من المفسّرين أو المؤرّخين حينما يمرّ بمنقبة أثبتتها له آية كريمة أو حديث شريف يغفلها ويعمد إلى إهمال ذكرها أو نفيها عنه[2]؛ لأنّه لا يقوى على الوصول إلى مثلها.

الثانية: هدم داره التي ترك النبي صلى الله عليه وآله بابها مفتوحاً على المسجد

وكذلك بيت الإمام عليه السلام في المدينة، والذي بناه له رسول الله صلى الله عليه وآله ضمن الدور العشرة التي بناها حيث إنه صلى الله عليه وآله خصّص تسعة منها لنسائه وأعطى العاشرة لأمير المؤمنين عليه السلام، وهي الدار الوحيدة التي لم يغلق بابها الذي يطلّ على المسجد بعد أن أوصى بإغلاق الأبواب كلّها[3].

لكن الأمويين هدموا هذه الدار عن عمد؛ لأن فيها إيحاءً بحقيقة ساطعة أرادوا وأدها وتضييعها؛ فعدم إغلاق باب هذه الدار يشكّل علامة فارقة، كما أن وقوف الرسول صلى الله عليه وآله منادياً: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ

(١) انظر شرح نهج البلاغة ١٠: ١٢٧ ـ ١٢٩.

(٢) انظر حول تفسير سورة الدهر: تفسير ابن كثير ٤: ٤٨٤ ـ ٤٨٥، تفسير الجلالين: ٧٨١ ـ ٧٨٢، منهاج السنة ٥: ٧ ـ ٥. وقد ذكرنا هناك ما نقله كلٌّ من ابن الجوزي في زاد المسير ٨: ١٤١، والشوكاني في فتح القدير ٥: ٣٤٢ في مكان نزول هذه السورة ممّا فيه دحض لهذا القول السخيف ورفع له. انظر ج ٣ ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

(٣) السنن الكبرى (النسائي) ٥: ١١٩ / ٨٤٢٧ ـ ٨٤٢٨، خصائص أمير المؤمنين عليه السلام (النسائي): ٧٥ ـ ٧٦، المعجم الكبير ٢: ٢٤٦.

﴿الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[١] كلّ يوم صباحاً عند صلاة الفجر لهو صورة حيّة تبيّن أهمية هذه الدار وساكنيها. وهذه الصورة طبعاً ظلت ماثلة طيلة الوقت في أذهان صحابة الرسول صلى الله عليه وآله، كما أن بقاءها في أذهان الناس يؤذي الأمويين، وإبقاءها وتركها كذلك يقضّ مضاجعهم؛ لأن ذلك يفشل مخطّطاتهم في إرجاع الناس القهقرى[٢] عن الدين إلى شريعة الجاهلية عبر محاولاتهم المتكرّرة لتحقيق ذلك، إلى أن جاء عهد الملك عبد الملك بن مروان الذي هدم هذا البيت مع كل البيوت التي حول المسجد بذريعة توسيعه[٣].

على أية حال فإن ولد أمير المؤمنين عليه السلام لم يزالوا في بيته إلى أيام عبد الملك بن مروان الذي ما إن عرف الخبر حتى حسدهم على ذلك واغتاض، وأمر بهدم الدار متظاهراً أنه يريد أن يوسّع في المسجد. وكان فيها الحسن بن الحسن عليه السلام، فقال: لا أخرج، ولا أُمكّن من هدمها. فضرب بالسياط، وتصايح الناس، وأُخرج عند ذلك وهدمت الدار[٤].

فهناك محاولة لإقصائه عن أذهان الناس، وإبعاد دائرة النور عنه، وعدم تسليط الضوء عليه، وهذا هو حال كل ما أُثر عنه مع التاريخ الجائر

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) قال رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله: «رأيت بني أُميّة ينزون على منبري نزو القردة، يردّون الناس عن الدين القهقرى». فهبط عليه جبرئيل عليه السلام يحمل سورة القدر، وأخبره أن ما رآه حقّ، وأن مدّة ملك بني أُميّة ألف شهر. جامع البيان ١٥: ١٤، الجامع لأحكام القرآن ١٠: ٢٨٢، سير أعلام النبلاء: ٨: ٢١٠.

(٣) مع أنها لا ضرر من بقائها داخل المسجد لو أُريد توسيعه؛ لأنها محراب رسول الله صلى الله عليه وآله ومحراب الإمام علي عليه السلام وفاطمة الزهراء عليها السلام، فيكون بذلك شأنها شأن مقام إسماعيل عليه السلام وغيره؛ فهي لا تقلّ عنها شأناً.

(٤) مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٨، بحار الأنوار ٣٩: ٢٩ ـ ٣٠.

والحكّام الحاقدين، فهؤلاء حاولوا جهد إمكانهم إلقاء ظلال من التشكيك حوله.

الثالثة: أكذوبة خطبة بنت أبي جهل

وهكذا ما أثبت الحقّ ميزة له عليه السلام إلّا تحولت عند أهل الحقد إلى مثلبة، ومن هذا أن معظم الصحابة خطبوا فاطمة الزهراء عليها السلام، وكان النبي صلى الله عليه وآله يردّهم مبيّناً لهم أن أمرها ليس إليه بل إنه راجع إلى السماء، حتى أمرته السماء بأن يزوّج علياً عليه السلام منها، وهنا جاء علي عليه السلام فابتدأه رسول الله صلى الله عليه وآله قائلاً: «ارفع رأسك وقل لي عما جئت به». فقال عليه السلام: «الحياء يمنعني». قال صلى الله عليه وآله: «لعلّك جئت خاطباً فاطمة؟». فقال عليه السلام: «إي والله». فقال صلى الله عليه وآله: «الله أكبر، الآن خرج من عندي جبرئيل، وقد أمرني أن أُزوّج النور من النور، فقلت: مَن ممّن؟ قال: زوّج علياً من فاطمة. وأنا زوّجتك ابنتي».

ثم قال صلى الله عليه وآله: «يا علي ما عندك تسوقه لأهلك؟». فقال عليه السلام: «الله ورسوله أعلم بحالي، ليس لي نقد، وليس عندي إلّا الدرع والناضح». فقال صلى الله عليه وآله: «اذهب فقد زوّجتك ابنتي بالدرع»[(١)].

وهذه البشرى استغلّها أعداء أمير المؤمنين عليه السلام ليحوّلوها إلى مثلبه ضده، يقول المؤرّخون: إن أمير المؤمنين عليه السلام خطب بنت أبي جهل، فلما بلغ الخبر النبي صلى الله عليه وآله صعد المنبر وقال: إذا كان علي بن أبي طالب يريد الزواج من بنت أبي جهل فليطلّق ابنتي فإنه لا تجتمع ابنة نبي الله وابنة عدو الله. وكانت الزهراء عليها السلام خرجت وبيدها الحسن والحسين وهي

(١) دلائل الإمامة: ٨٧، بحار الأنوار ١٠١: ٨٨ / ٥٣.

غضبي[١].

وبقيت هذه الأكذوبة مروية في الصحاح يقرؤها المسلم المغرّر فينحرف عن نهج علي ويتحامل عليه. وهذا واقعاً يؤلمني، لأنه يوجع قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وقلب السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام باعتقاده صحّة هذه الفرية، وبإثباتها في كتب الحديث. وهكذا حوّل أعداؤه عليه السلام منقبة هبة السماء له بتزويجه من سيدة نساء العالمين عليها السلام إلى مثلبة بفرية لم تحصل أبداً[٢].

الرابعة: محاولة تفضيل الزهراء عليها السلام عليه

ومن هذه المحاولات ما أثبته بعض المفسّرين في كتبهم حول قوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾[٣]، فيقول هؤلاء: إن كلّ الناس يوم القيامة يدعون بأسماء اُمّهاتهم؛ وذلك لثلاثة[٤] أسباب أحدها تشريف الحسنين عليهما السلام بنسبتهما إلى اُمّهما وإشعار بشرفها هي عليها السلام. فهل إن فاطمة الزهراء عليها السلام أفضل من علي بن أبي طالب عليه السلام الذي نذر حياته للإسلام، فكانت عطاء ثرّاً في سبيل إعلاء كلمته. ثم إن فاطمة عليها السلام قد

---

(١) السنن الكبرىٰ (النسائي) ٥: ١٤٧ / ٨٥١٨، صحيح مسلم بشرح النووي ١٦: ٢، الجامع لأحكام القرآن ٢٠: ٢٢٧.

(٢) قال الشاعر:

وما من كاتبٍ إلا سَتبقىٰ ... كِتابتُه وإن فَنِيَت يَداهُ
فلا تكتُبْ بكفِّكَ غيرَ شيء ... يَسُرُّكَ في القيامة أن تَراهُ

تأويل مختلف الحديث ١: ٥٩، كتاب الغرباء: ١٦.

(٣) الأحزاب: ٥.

(٤) ستأتي الأسباب الثلاثة في ج ٨ ص ٢٨٣ من المحاضرات، وفيه أن صاحب هذا الرأي هو القرطبي وإن كنّا لم نعثر عليه في تفسيره.

تشرّفت بالزواج من أمير المؤمنين عليه السلام، أليس رسول الله صلى الله عليه وآله قد قال لها: «زوّجتك خير الناس من بعدي»[١]؟ لكن بما أن هذا الحديث وغيره[٢] في جانب أمير المؤمنين، ويعدّ أعظم منقبة له حيث إنه صلى الله عليه وآله فضّله فيه على صحابته كافّة، فإن المحاولات الحاقدة راحت تعمل معاولها في هدمه ووضع قباله ما يمسخه بأكاذيب ليتحوّل من فضيلة إلى رذيلة.

وعلى الرغم من كل المحاولات التي بذلت في هذا السبيل ومورست في هذا المجال ممّا ذكرنا أو لم نذكر فإن قدح أمير المؤمنين بقي هو المعلّى وسهمه هو الصائب وحظّه هو الأوفر، وبقي علي عليه السلام مفخرة الدهر بما ترك من آثار حسده عليها الحاسدون وأبغضه عليها المبغضون الحاقدون. إن المعاول التي رفعوها للقضاء عليه ارتدّت خائبة

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٢٢، وفيه: «خير من أعلم»، الطبقات الكبرى ٨: ٢٤، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ١٢٦، كنز العمّال ١١: ٦٠٥ / ٣٢٩٢٦، ١٣: ١٣٥ / ٣٦٤٢٣، وفيها: «خير أهلي».

وفي الأمالي (الصدوق): ٤٣٤ / ٥٧٤ عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان ذات يوم في منزل أم إبراهيم، وعنده نفر من أصحابه. إذ أقبل علي بن أبي طالب عليه السلام، فلمّا بصر به النبي صلى الله عليه وآله قال: «يا معشر الناس، أقبل إليكم خير الناس بعدي، وهو مولاكم؛ طاعته مفروضة كطاعتي، ومعصيته محرمة كمعصيتي».

وفي بشارة المصطفى (الطبري): ٤٢٠ ـ ٤٢١ / ٢٨: «يا علي أنت خير الناس بعدي، وأنت أوّل الناس تصدّراً، من أطاعك فقد أطاعني، ومن أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاك فقد عصاني، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أحبّك فقد أحبّني، ومن أحبّني فقد أحبّ الله، ومن أبغضك فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله، يا علي لا يحبّك إلا مؤمن ولا يبغضك إلّا منافق أو كافر».

(٢) مع أن ابن حجر العسقلاني يقول: «قال أحمد وإسماعيل القاضي والنسائي وأبو علي النيسابوري: لم يرد في حقّ أحد من الصحابة بالأسانيد الجياد أكثر مما جاء في علي». الصواعق المحرقة: ١٢٥.

خاسئة[١]، وشيّد له الحق قبال كل خلية من نسيج محاولاتهم البائسة بناءً يتسامى في النفوس وفي الدنيا. وهكذا رفعته السماء فلم يؤثر فيه الشتم ولا الهدم[٢]، ولم تنحسر عنه الأضواء؛ فكم حاولوا عزله عن إسهاماته مع رسول الله صلى الله عليه وآله، حيث إنه عليه السلام شاركه صلى الله عليه وآله في أربع وثمانين غزوة من غزواته لم ينكل عليه السلام ولم يفرّ في واحدة منها أبداً، وكان يحمل لواء الإسلام فيها كلّها، ومع ذلك فإن هؤلاء كانوا يصوّرونه على أنه كأي جندي عادي في جيش الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

نعم، لقد بقي علي عليه السلام شاخصاً كالعلم يرقب المعاول وهي تتحطم على سفحه بعد أن ترتدّ خاسئة صاغرة، وما تهدّم في هذا المضمار إلا تلك المحاولات وأصحابها حيث أتت عليهم عفونة التاريخ.

المقدمة الثالثة: في حجم علي عليه السلام الذي منحته إياه السماء

هناك من يطعن فيما حُبي به أمير المؤمنين عليه السلام من فضائل ومناقب وكرامات ومعاجز، وما حبته بها إلّا السماء، وما حبته به إلّا لِما أعطى للإسلام وقدّمه في سبيل إعلاء كلمته. وهذا الطعن يستند إلى القول بأننا بالغنا في تضخيم علي عليه السلام وتضخيم مناقبه ومواقفه؛ لأننا ننظر إليه بعين

---

(١) قال الشاعر:

كناطحٍ صخرةً يوماً ليفلقَها   فلم يضرْها وأوهى قرنَه الوعلُ

ديوان الأعشى: ١٤٤.

(٢) قال حمزة بن عبد الله بن الزبير بعد أن انتقص ابنه الإمام علياً عليه السلام: يا بني، إنه والله ما بنت الدنيا شيئاً إلّا هدمه الدين، وما بنى الدين شيئاً فهدمته الدنيا، أما ترى علياً وما يُظهر بعض الناس من بغضه ولعنه على المنابر فكأنما والله يأخذون بناصيته رفعاً إلى السماء، وما ترى بني مروان وما يندبون به موتاهم من المدح بين الناس فكأنما يكشفون عن الجيف؟ ونسى لعبد العزيز بن مروان. انظر: جواهر المطالب (ابن الدمشقي) ٢: ٢٢٩، المحاسن والمساوئ: ٤٠، البيان والتبيين ٢: ١٧٣.

تختلف عن العين التي ننظر بها للآخرين، ونراه بنظرة غير تلك التي نرى بها غيره. فنحن نلوّنه بعيوننا، وعيون الوراثة التي عشنا نحملها هي التي تجعلنا نقول هذا ونراه فيه، وبأننا نقول فيه كما قال الشاعر:

لا عذب الله أُمّي إنها شربت حبّ الوصي وغذّتنيه باللبنِ

وكان لي والد يهوى أبا حسن فصرت من ذي وذا أهوى أبا حسنِ[1]

أما غيركم فيراه بالعين الطبيعية، وبالتالي فهو يراه بحجمه الطبيعي، دون أن يمنحه ما تمنحونه إياه من ألقاب وكرامات وغيرها.

حديث عبادة الثقلين

ونقول لهذا المعترض: ألم تسمع أو تقرأ عن نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله عندما برز أمير المؤمنين إلى قتال عمرو بن ودّ العامري حيث رفعه فوق الثقلين بقوله: «والله لضربة علي عليه السلام لعمرو ابن عبد ودّ تعدل عبادة أُمّتي إلى يوم القيامة»[2]؟ فعندما يقرأ امرؤ هذه العبارة أو يسمعها من الرسول صلى الله عليه وآله في علي عليه السلام يجد أن هذا تقييم موضوعي لم ينبع من عاطفة أبداً؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله لا ينطق عن الهوى[3] أبداً. فكيف يمكن أن يفسّر هذا المعنى إلّا بما نعطيه لعليّ عليه السلام وهو عين ما أعطته إيّاه السماء على لسان أمينها في الأرض نبيّنا الأكرم محمد صلى الله عليه وآله[4]؟ وهذا الحديث ترويه كتب المسلمين

---

(١) نور البراهين ١: ٣٦.

(٢) اختيار معرفة الرجال ١: ٢٥٧، عوالي اللآلي ٤: ٨٦ / ١٠٢، ينابيع المودّة ١: ٤١٢ / ٥.

(٣) قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ النجم: ٣ ـ ٤.

(٤) قال رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله مخاطباً أمير المؤمنين عليه السلام: «من مات يحبّك بعد موتك ختم الله له بالأمن والإيمان، ومن مات يبغضك مات ميتة جاهليّة وحوسب بما عمل في الإسلام». مسند أبي يعلى ١: ٤٠٣ / ٥٢٨، كنز العمّال ١١: ٦١١ / ٣٢٩٥٥، ١٣: ١٥٩ / ٣٦٤٩١.

عامّة.

حديث برز الإيمان كله

وكذلك ألم يسمع هذا القائل قول رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله فيه: «برز الإيمان كلّه إلى الشرك كلّه»(١) حينما برز لقتال مرحب؟ فالمشرّع الأعظم ورسول السماء صلى الله عليه وآله حينما يجعله عليه السلام هو الإسلام والإيمان، فما يكون عليه موقفنا من علي عليه السلام بعد كلّ هذا؟ والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله لم ينطق من نفسه ولا من هواه وعاطفته بل إنه يترجم قول السماء؟ فهل بعد هذا يقال: إن أعيننا أعين ملوّنة أم إنها أعين طبيعية؟

القرآن يمدح علياً في أكثر من سبعين موطناً

وكذلك ألم يسمع هذا المعترض أو يقرأ ما ورد فيه في كتابنا الكريم حيث إنه ذكره في سبعين آية على أقل الروايات، وإلّا فإنها ثلاثمئة آية(٢). وهذه الآيات تحيط بجوانب أمير المؤمنين عليه السلام حياطة كاملة

(١) شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٦١، ٢٨٥، ١٩: ٦١، ينابيع المودّة ١: ٢٨١، ٢٨٤.

(٢) قال ابن عباس رضي الله عنه: «نزل في علي ثلاثمئة آية». الصواعق المحرقة: ١٢٥، كفاية الطالب: ٢٣١، تاريخ الخلفاء (السيوطي): ١٧٢، نور الأبصار: ٧٣، إسعاف الراغبين: ١٦٠.

وقال رضي الله عنه: «ما في القرآن آية إلّا وعلي رأسها وقائدها وشريفها وأميرها. ولقد عاتب الله أصحاب محمد صلى الله عليه وآله، وماذكر علياً إلا بخير». تفسير ابن أبي حاتم الرازي ٣: ٩٠١ - ٩٠٢/ ٥٠٢٥، تفسير القرآن العظيم ٢: ٤، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٣٦٣، الصواعق المحرقة: ١٢٥، كفاية الطالب: ١٤٠، شواهد التنزيل ١: ٤٩، ذخائر العقبى: ٨٩، نظم درر السمطين: ٨٩، نور الأبصار: ٧٣، تاريخ الخلفاء (السيوطي): ١٧١، الرياض النضرة ٢: ٢٧٤.

وقال رضي الله عنه: «ما نزل في أحد من كتاب الله ما نزل في علي». الصواعق المحرقة: ١٢٥، تاريخ الخلفاء (السيوطي): ١٧١، شواهد التنزيل ١: ٣٩، نور الأبصار: ٣٧.

وقال رضي الله عنه: «ما أنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلّا وعلي أميرها وشريفها». الصواعق

بعضها بشكل مباشر وبعضها بشكل غير مباشر. وكيف لنا أن نقف بعيدين عن هذا، ونكتفي بموقف المتفرّج الذي لا يطيع القرآن بعد أن نعرف أن القرآن قد أعطاه كلّ هذه المساحة الواسعة؟ وهل يعدّ هذا النظر إليه نظراً بمنظار ملوّن وخاصّ؟ وهل من موقف له لم يمجّده الإسلام؟ وأي موقف لا يمكن أن يمجّد؟ أعبادته، أم شجاعته، أم تواضعه، أم كرمه، أم علمه، أم غير هذا من الأخلاق الحميدة والصفات الحسنة التي ارتضتها له السماء؟

إذن فالقرآن الكريم يذكر الحقائق كما هي، ولسنا نحن من ننظر إليه بعين ملوّنة ولا غيرنا من ينظر إليه بعين طبيعية، بل العكس هو الصحيح، فنحن ننظر إليه بالعين التي رأته فيها السماء متمثّلة برسولها الكريم صلى الله عليه وآله، وغيرنا ينظر إليه بعين محوّلة كلها بغض وحقد وشنآن له لما وهبه الله تعالى من مزايا وصفات وكرامات أعيا أهل عصره فيها.

إننا لا نريد أن نعطي أمير المؤمنين عليه السلام حجماً أكبر من حجمه، ولا أن ننظر إليه على أنه فوق ماهو عليه. والدليل على هذا أننا نكفّر الغلاة فيه وفي أبنائه المعصومين[1]. وهو عليه السلام قد أعطانا دستوراً بهذا، فقد مرّ عليه السلام في

المحرقة: ٢٥، ١١٨، شواهد التنزيل ١: ٤٩، ذخائر العقبى: ٨٩، كفاية الطالب: ١٤٠، نظم درر السمطين: ٨٩، نور الأبصار: ٧٣، تاريخ الخلفاء (السيوطي): ١٧١، الرياض النضرة ٢: ٢٧٤.

(١) فنحن لا نزوّج المغالي، ولا نغسله ولا ندفنه إذا مات، ولا نورّثه، ونحكم بنجاسته، وبعدم جواز أكل ما يذكّيه، بل نخرجه من حضيرة الإسلام. انظر: شرائع الإسلام ١: ١١ ـ ١٢، المعتبر شرح المختصر ١: ١٩٨، منتهى المطلب ١: ١٥٢، قواعد الأحكام ٣: ٣١٨، تحرير الأحكام ٢: ١٧١ (حجري)، إيضاح الفوائد ١: ٢٦، ٤: ١٢٧، البيان: ٢٤، ٢٨، ذخيرة المعاد ٢: ٣٢٧ (حجري).

شهر رمضان، فرأىٰ جماعة جالسين يأكلون، فقال لهم: «أنتم علىٰ سفر فتستعملون هذه الرخصة؟». قالوا: لا. قال لهم: «مرضىٰ؟». قالوا: لا. قال: «لماذا تأكلون في شهر رمضان؟». فقالوا له: أنت.. أنت. فقال: «من أنا؟». قالوا: أنت إلٰه (والعياذ باللّه). فنزل الإمام من علىٰ راحلته، ومرّغ خدّه علىٰ التراب، وقال لهم: «أنا عبد من عبيد اللّه، واللّه إن لم ترتدعوا لأضرمن عليكم ناراً». ثم أنشد:

لما رأيت الأمر أمراً منكرا أجّجت ناري ودعوت قنبرا[1]

فهؤلاء الذين وصلوا إلى هذه الدرجة من الغلوّ عمد إلى حرقهم، فقد فهو عليه السلام وضع لنا هذا الدستور بشكل عملي، وأمرنا بفعله اقتداءً بسنته الفعلية والقولية الشريفة.

ونحن كما نرفض الغلاة نرفض العيون التي يكون ملؤها الحقد، والتي تحاول أن تضع حجاباً بينها وبين الواقع، فكل ما نريده هو أن يأخذ هذا الرجل حقّه في الحياة التاريخ ويتربّع على كامل مساحته التي أُعطاه إياها الرسول صلى الله عليه وآله مترجماً لأوامر السماء[2]. ولماذا لا يعطىٰ حجمه الحقيقي

---

(١) اختيار معرفة الرجال ١: ٢٨٨ / ١٢٨، المبسوط (الشيخ الطوسي) ٧: ٢٨١، نيل الأوطار ٨: ٦، وفيه: قال الحافظ: إن إسناده صحيح. فتح الباري ٦: ١٠٦، ١٢: ٢٣٨، تأويل مختلف الحديث: ٧٠، دستور معالم الحكم (ابن سلامة): ١٩٦، التمهيد ٥: ٣١٨، ميزان الاعتدال ١: ٦٢٦، الأنساب ٥: ٤٩٩، شرح نهج البلاغة ٨: ١١٩، كنز العمّال ١١: ٣٠٢ / ٣١٥٧٨.

(٢) قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ المائدة: ٦٧. انظر حول هذه الآية، وإلى كونها في بيعة خمّ: عمدة القاري ١٨: ٢٠٦، تفسير الثعلبي ٤: ٩٢، شواهد التنزيل ١: ٢٣٩، ٢٥١، ٢٥٢، ٢: ٣٩٢، مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (الخوارزمي): ٧، مطالب السؤول

هذا؟ إن التاريخ الذي كتب بأيدٍ ملطّخة بالحقد على أهل البيت عليهم السلام وبدمائهم أو مشتركة في إراقتها يتناسى ويتغاضى عن الكثير ممّا له عليه السلام، وكأنه يستكثر ويستنكر عليه أن يكون له عليه السلام ذلك أو أن يذكره له؛ فمثلاً قتلى أُحد كان عددهم ثمانية وعشرين قتيلاً ثمانية عشر منهم كانوا بسيف علي بن أبي طالب، فلماذا لا يذكر له هذا؟ وهل هي إلا الأحقاد الكامنة والضغائن الدفينة؟

المقدمة الرابعة: أنه عليه السلام ليس لفئة بعينها

إن من يرد أن يلج في حياة الرجل العظيم فمن الخطأ أن يحتسبه على جهة معينه أو فئة ما، وأفدح من هذا أنه يُصرّ على كونه عليه السلام كذلك. إنه عليه السلام ليس ملكاً لطائفة أو طبقة في المجتمع الإسلامي، وليس هذا شأنه فقط، بل شأن كل صحابي خدم الإسلام وله إنجازات بحقّه[1]. ونحن نفخر ونعتز به لما قدّم في سبيل الإسلام؛ لأنه يمثل رصيداً له في حياة المسلمين. فعلي عليه السلام للمسلمين كافة؛ لأنه وقف كل ذرة من كيانه للإسلام والمسلمين، ووهب كل جارحة من جوارحه في خدمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودينه القويم. فكل جزء من كيان أمير المؤمنين عليه السلام موقوف للإسلام ليفنيه من أجله؛ وبهذا كان عليه السلام عطاءً للإسلام وكياناً موقوفاً عليه؛ فيجب ألّا يُنظر إليه من زاوية خاصّة. والقلم السليم هو القلم الذي ينظر إليه عليه السلام على أنه باب من الأبواب المفضية إلى الإسلام، ونافذة من نوافذ عطائه الثرّ. فإن

في مناقب آل الرسول: ٩٤، ٩٥، ينابيع المودّة ٢: ٢٤٩، ٢٨٤، الملل والنحل ١: ١٦٣.

(١) ولهذا فإننا لا يمكن أن ننسى عبد الله بن رواحة، وعثمان بن مظعون، وحنظلة غسيل الملائكة، وعاصماً حميّ الدبر، وغيرهم من الأبطال الأفذاذ والمجاهدين في سبيل اللّه والإسلام.

كان هذا الرجل قد اتّصف بسمات تميّزه عن غيره فيجب ألّا يثير هذا الأمر في نفوس البعض البغض، ويقدح في صدورهم كوامن الحقد والشنآن، يقول أحد الأدباء:

لو رأى مثله النبيّ لآخا ٭ وإلّا فاخطأ الانتقادُ[1]

المقدمة الخامسة: أن تاريخ عليعليه السلام كتب بأيد غير محايدة

إن هذه المساحة الزمنية الواسعة التي تفصلنا عن أمير المؤمنينعليه السلام تحتاج إلى ألف عين موضوعية فاحصة لكتابته بشكل علمي ومنهجي صحيح. والواقع أنه يصعب القول بأن هذا التاريخ يمكن أخذه عن طريق محايد، أو أنه كتب بأقلام تقف على الحياد. وببالغ الأسف نقول: هذا هو الذي حدث. إننا يمكن أن نقسم فترات كتابة التاريخ آنذاك إلى قسمين يعود كل قسم منهما إلى عصر، كالآتي:

١ ـ العهد الأُموي

فالأُمويون حينما جاؤوا حاولوا صياغة التاريخ وإعادة كتابته بشكل يتلاءم تماماً مع مآربهم وأهدافهم الجاهلية، سيما ما حصل في زمن معاوية الذي سخّر بيت المال، ووظّف كل الإمكانات للقضاء على كل ذكر يخصّ علي بن أبي طالب. ثم جاء من بعده عبد الملك بن مروان وأبناؤه، وواصلوا المسيرة نفسها[2]. وخلال هذا اتخذت هذه الحرب

---

(١) البيت للسيد محمد الهندي. الأنوار العلوية: ٣٤٠. وقد قال له رسولنا الأكرمصلى الله عليه وآله في حديث المؤاخاة: «إنما ادّخرتك لنفسي، أنت أخي في الدنيا والآخرة». الطبقات الكبرىٰ ٣: ٢٢، المعجم الكبير ١١: ٦٣، تاريخ مدينة دمشق ٤٣: ٨، كنز العمّال ١١: ٥٩٨ / ٣٢٨٧٩، ٦٠٨ / ٣٢٩٣٩، ٦١٠ / ٣٢٩٥٥، ١٣: ١٤٠ / ٣٦٤٤٠.

(٢) ومن ذلك محاولة الوليد تعمية الأمر على من سأله عن الإمام السجادعليه السلام في قصة تناول

صفة دمويّة؛ حيث انتهى الأمر بمجزرة دموية تناولت البيت الهاشمي كلّه.

٢ ـ العهد العباسي

ثم جاء دور العباسيين الذين تسنّموا سدّة الحكم باسم البيت العلوي، لكن عهدهم كان أشدّ وأنكى على الهاشميين، حيث حاربوهم بكل ما استطاعوا وما أُوتوا من قوة وقدرات وطاقات. ثم أعقبهم ذيولهم وصنائعهم من السلاجقة والأتراك الذين انقلبوا عليهم، وهؤلاء فعلوا كفعلهم في أهل البيت عليهم السلام. وكذلك فعل التتر ما فعل غيرهم.

بل إن الأمر تجاوزه وامتدّ إلى الآن، حيث لا زلنا نجد من يكتب بحقد وعداء لعلي بن أبي طالب عليه السلام. وهذا كلّه يحتاج لإعادة نظر؛ لأنه لا بدّ من تصحيح الوضع الخطأ، كما يجب ألا تضيّع هذه الثروة التي غطّاها التاريخ بالضباب. فعلينا أن ندرسه عليه السلام كما هو؛ كي تأخذ دنيا الإسلام حقّها الواجب لها من عطائه الثّر الضخم؛ لأنه عطاء للمسلمين كافّة.

للحجر الأسعد بعد أن عجز عن تناوله، لولا أن الفرزدق فضحه، فقال:

هذا الذي تعرف البطحاءُ وطأتَهُ ... والبيت يعرفه والحلّ والحرمُ
هـذا ابنُ خيرِ عبادِ الله كلِّهِمُ ... هذا التقيُّ النَّقيُّ الطاهرُ العَلَمُ
وليس قولُك مَن هذا بضائرِه ... العُربُ تعرفُ من أنكرتَ والعجمُ
في كفه خَيزُرَانٌ ريحُهُ عَبِقٌ ... من كفِّ أروعَ في عِرنينِه شَمَمُ
يُغضي حياءً ويُغضَى من مَهابتِهِ ... فلا يُكَلَّمُ إلّا حينَ يبتسمُ
يكادُ يُمسِكُهُ عِرفانُ رَاحَتِهِ ... رُكنَ الحطيمِ إذا ما جَاءَ يَستَلِمُ

إلى آخر ميميّته الرائعة. مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٦.

ومن ذلك أن أحد كتّاب الوالي الأمويّ خالد بن عبد الله القسريّ على الكوفة سأله عن مصير الروايات التي فيها مدح لأمير المؤمنين عليه السلام؛ فهل يذكرها، أم لا؟ فقال له خالد: لا تذكرها إلّا أن تجده في قعر جهنم.

وبعد هذه المقدمات نرجع إلى سيرة هذا الرجل العظيم لنتناولها ناحية ناحية، كل ناحية بمبحث إن شاء الله تعالىٰ:

المبحث الثاني: في أنه عليه السلام أكبر من الوعاء الذي احتواه

لقد اختار الله تعالى لهذا الرجل العظيم أوعية احتوته، وعادة ما تكون الأوعية (الظروف) أكبر من المظروف، غير أن هذا الأمر على العكس مع علي بن أبي طالب عليه السلام فهو دوماً وأبداً أكبر من الظرف الذي احتواه إلّا صدر رسول الله صلى الله عليه وآله. والأوعية التي اختارها الله تعالى لهذا الرجل على نوعين: مادية ومعنوية، وهي أوعية تتناسب مع أمير المؤمنين عليه السلام من حيث طهارته وألقه.

وهنا نقطة ابتلي بها علي بن أبي طالب عليه السلام كما ابتلي بها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله حيث يروي غيرنا من أبناء المذاهب الإسلامية أن أبوي الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ماتا مشركين. فهم يروون عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله نزل على قبر اُمّه فناجى ربه طويلاً ثم بكى، حتى اشتدّ بكاؤه، وبكى المسلمون لبكائه وقالوا: ما بكى نبي الله صلى الله عليه وآله بهذا المكان إلّا وقد حدث في اُمّته شيء لا نطيقه. فقال صلى الله عليه وآله لهم: «ما يبكيكم؟». قالوا: يا نبي اللّه، بكينا لبكائك. فقال: «نزلت على قبر فدعوت الله أن يأذن لي في شفاعته يوم القيامة، فأبى الله أن يأذن لي، فرحمتها وهي اُمي فبكيت. واستأذنت ربّي في أن أستغفر لها فلم يأذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي. ثم جاءني جبريل عليه السلام فقال: تبرّأ من اُمّك كما تبرّأ إبراهيم عليه السلام من أبيه.»[1].

---

(١) مسند أحمد ٢: ٤٤١، صحيح مسلم ٣: ٦٥، سنن ابن ماجة ١: ٥٠١، المستدرك على الصحيحين ١: ٣٧٤، ٣٧٥، ٢: ٦٠٥، صحيح مسلم بشرح النووي ٧: ٤٥، مجمع الزوائد ١: ١١٧.

ويعلّق بعض علمائهم على هذا بالقول: هذا أمر عظيم. وفعلاً لهو أمر عظيم أن نتصوّر أن أبوي الرسول صلى الله عليه وآله مشركان نجسان، وأن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قد وصل إلى الدنيا بوعاء نجس؛ ذلك أن المشركين نجس[١]. وهذا ظلم للرسول صلى الله عليه وآله وافتراء عليه.

الوعاء الأول: صلب النبي إبراهيم عليه السلام

الواقع أن رسول الله صلى الله عليه وآله طاهر من طاهر[٢]، وهؤلاء الأطهار بعضهم من بعض، وهو صلى الله عليه وآله الذي يقول لأمير المؤمنين عليه السلام: «أنت مني وأنا منك»[٣].

ويروي ابن سيرين أنه صلى الله عليه وآله قال له: «أنت ختني وأبو ولدي»[٤]. أي أنك ياعلي من سنخي ومن طينتي نفسها. فعلي عليه السلام في خطّ الإمامة، وهو امتداد لخطّ النبوّة.

ثم إنه ينبغي التنبيه إلى أن بيت عبد المطّلب عليه السلام لم يعرف الشرك أبداً، وهو ابن نبي الله ابراهيم الخليل عليه السلام، فعلي عليه السلام ابن إبراهيم الخليل عليه السلام ومن وعاء النبي إبراهيم الخليل عليه السلام.

الوعاء الثاني: الكعبة المشرّفة

وبعد أن اختار الله تعالى لأمير المؤمنين عليه السلام الوعاء الذي ولد منه، جاء

---

(١) قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ التوبة: ٢٨.

(٢) فنحن نخاطبهم بما وصفوا به أنفسهم في زيارتهم فنقول: «أشهد أنكم كنتم نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهّرة، لم تنجّسكم الجاهلية بأنجاسها، ولم تلبسكم من مدلهمّات ثيابها» مصباح المتهجد: ٧٢١ / ٨٠٧.

(٣) مسند أحمد ١: ١٠٨، ٤: ١٦٤ ـ ١٦٥، ٥: ٣٥٦، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٢٩٦ ـ ٢٩٧، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٣٣.

(٤) مسند أحمد ٥: ٢٠٤، السنن الكبرى (النسائي) ٥: ١٤٩، خصائص أمير المؤمنين عليه السلام (النسائي): ١٢٢، كنز العمّال ١١: ٦٩٣ / ٣٣١٠٩، ١٢: ٢٥٥ / ٣٦٧٥٥.

دور اختيار الوعاء الذي يولد فيه، فكان أمر الله تعالى أن اختار له الكعبة المشرّفة موضع ولادة، وهو ما لم يكن لأحد قبله ولا لأحد بعده مطلقاً. واختيار الكعبة المقدّسة وعاءً لولادته عليه السلام له دلالات إيجابية عدّة؛ لأن الكعبة وعاء مشرّف في نظر المسلمين عامّة، فهي أشرف البيوت عند الله وأكرمها عليه، لكن لا بد من بيان أن الظرف هنا لم يكن أشرف من المظروف البتّة كما ذكرنا في صدر هذا المبحث. والدليل على هذا أنّ الخليفة عمر بن الخطّاب حينما مرّ على الحجر الأسعد نظر إليه ثم خاطبه بقوله: «أما واللّه، لولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله يقبّلك ما قبّلتك». ثم قبّله[1].

فالله تعبّدنا بإكرام الحجر والبيت لكن لا على أساس أنهما أشرف من رسول الله صلى الله عليه وآله أو من علي أمير المؤمنين عليه السلام[2]، فالنبي صلى الله عليه وآله أشرف الموجودات الممكنة، والإمام علي عليه السلام جزء من رسول الله صلى الله عليه وآله بنصّ القرآن الكريم: ﴿**تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**﴾[3]؛ ولذا فإنه عليه السلام يأخذ حكم رسول

---

(١) مسند أحمد ١: ١٦ـ١٧، ٢٦، ٣٤، ٣٥، ٤٦، ٥١، ٥٣ـ ٥٤، صحيح البخاري ٢: ١٥٩ـ ١٦٠، ٢: ١٦٢، صحيح مسلم ٤: ٦٦ـ ٦٧، سنن ابن ماجة ٢: ٩٨١ـ ٩٨٢ / ٢٩٤٣.

(٢) بل ورد أن المؤمن عامّة له حرمة عند الله أعظم من حرمة بيت الله الحرام أو مثلها، قال رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله في إحدى حجّاته: «إن الله عزّ وجل حرّم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقونه». الخصال: ٤٨٧، عوالي اللآلي ١: ١٦١ / ١٥١، بحار الأنوار ٢١: ٣٨١، مجمع الزوائد ٣: ٢٠، صحيح ابن خزيمة ٤: ٢٩٩، المنتقى من السنن المسندة (ابن الجارود النيسابوري): ٢١٢. وقال الصادق عليه السلام: «إن حرمة المؤمن أعظم من حرمة هذه البنيّة... إن المؤمن لو قال لهذه الجبال: أقبلي أقبلت». الاختصاص: ٣٢٥، بحار الأنوار ٤٧: ٩٠.

(٣) آل عمران: ٦١.

الله صلى الله عليه وآله هنا.

إذن اختيار الكعبة وعاءً له عليه السلام يعدّ من المناقب الشريفة والفضائل العظيمة، لكنه عليه السلام يبقى أشرف من الكعبة كما رسول الله صلى الله عليه وآله أشرف منها.

الوعاء الثالث: صدر نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله

وهذا الوعاء من الأوعية المعنوية، وقد جاءت هذه الحالة نتيجة تخطيط السماء، فترعرع أمير المؤمنين عليه السلام ونما في رعاية أشرف موجود وأعظم مخلوق. لقد كان صلى الله عليه وآله يوجره اللبن في فمه، ويهزّ له مهده، ويضجعه إلى جانبه، ويحمله على صدره ويطوف به شعاب مكّة المكرّمة إلى أن كبر. فلم يكن صلى الله عليه وآله يفارقه، وبعد أن كبر راح صلى الله عليه وآله يصحبه معه إلى غار حراء. قالت للنبي صلى الله عليه وآله إحدى نسائه: إن لي ليلة من تسع ليالٍ، ثم يأتي علي وتخلو به فيها وتتركني؟ فقال صلى الله عليه وآله لها: «إياك أن تغضبيه، والله لا يغضبه أحد إلا ويكبّه الله على منخريه في نار جهنم».

وهكذا استلهم عليه السلام من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فيوضاته وآدابه، يقول عليه السلام: «وقد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة؛ وضعني في حجره وأنا ولد، يضمّني إلى صدره، ويكنفني إلى فراشه، ويمسّني جسده، ويشمّني عرفه. وكان يمضغ الشيء ثم يلقمُنيه»[1].

فأي وعاء أشرف من هذا الوعاء؟ وهكذا فإن الله تعالى اختار لعلي عليه السلام البيوت الطاهرة والأمكنة الطاهرة. وكل وعاء مرّ به علي بن أبي طالب عليه السلام فهو من اختيار الله تعالى له، حيث إنه تعالى أراد له ذلك.

---

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ١٩٢، ينابيع المودّة ١: ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

الوعاء الرابع: الوادي المقدّس الذي دفن فيه

ثم اختار له تعالى الوعاء الذي حلّ فيه جسده الطاهر، وهذا الوعاء والتربة التي حلّ فيها هو عبارة عن وادٍ مقدّس. وعند بعض المفسرين أن الوادي المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[(١)] هو التربة التي دفن فيها علي بن أبي طالب عليه السلام. وقد أشار عبد الباقي العمري إلى هذا المعنى في قوله:

إذا نحن زرناها وجدنا نسيمها ... يفوح لنا كالعَنبر المتنفّسِ
ونمشي حفاةً في ثراها تَقدُّساً ... نَرى أننا نمشي بوادٍ مُقدسِ[(٢)]

المبحث الثالث: أنه عليه السلام شهيد موقف

لقد سقط عليه السلام ليلة التاسعة عشرة من رمضان شهيد مبادئ عاش من أجلها واستشهد من أجلها، وكرس كل حياته لها. إن بإمكانه عليه السلام أن يحتوي المقدمات التي أدّت إلى قتله، وبوسعه أن يمنع حدوث هذا الأمر، لكنه إن فعل فعلى حساب المبادئ يفعل، وهو عليه السلام ليس من هذا النمط الذي يبيع مبادئه. ولتوضيح ذلك نقول: أليس بإمكان الإمام علي عليه السلام أن يقتل الأشعث بن قيس وعبد الرحمن بن ملجم وغيرهما وينحّيهم عن الساحة، ويخلّص الأُمّة من شرورهم؟ لكنه لم يشأ أن يفعل.. كان عليه السلام يردّد: «وقد عاتبتكم بدرّتي التي أُعاتب بها أهلي فلم تبالوا، وضربتكم بسوطي الذي أُقيم به حدود ربّي فلم ترعووا، أتريدون أن أضربكم بسيفي؟ أما إني أعلم الذي تريدون ويقيم إودكم، ولكن لا أشتري صلاحكم بفساد

---

(١) طه: ١٢.

(٢) لم نعثر عليهما لعبد الباقي العمري، بل هما للبهاء زهير في ديوانه: ١٧٧.

نفسي »(١).

ومعنى هذا أنه عليه السلام لا يريد أن يفسد مبادئه من أجلهم.

وحينما بايعه ابن ملجم ثم أدبر عنه، دعاه أمير المؤمنين عليه السلام فتوثّق منه ألّا يغدر ولا ينكث ففعل، ثم أدبر عنه فدعاه عليه السلام ثانية فتوثّق منه ألّا يغدر ولا ينكث ففعل، ثم أدبر عنه فدعاه عليه السلام ثالثة فتوثّق منه كذلك، فقال ابن ملجم: والله يا أمير المؤمنين، ما رأيتك فعلت هذا بأحد غيري. فقال أمير المؤمنين عليه السلام:

« أريد حباءه ويريد قتلي　　عذيرك من خليلك من مرادِ

امضِ يابن ملجم، فوالله ما أرى أن تفي بما قلت »(٢).

فكان عليه السلام يقول بعد ذلك: « ما ينتظر أشقاها أن يخضّب هذه من هذه؛ شوقاً إلى ربّي عزّ وجلّ وتصديقاً. إني إلى لقاء ربّي لمشتاق، ولحسن ثوابه لمنتظر راجٍ، وإني لعلى الصراط المستقيم في يقين من أمري وبيّنة من ربّي »(٣).

وكان عليه السلام يعرف أن هناك عناصر من الخوارج تتربّص به، لكنه لم يرد أن يثلم مبدأً من مبادئ الإسلام، فيقتص قبل الجناية. وهو عليه السلام بهذا لم يشأ أن يحاسب على النوايا أو يعاقب عليها، فصمد وصبر، فالذي انتهى به

---

(١) الكافي ٨: ٣٦١ / ٥٥١، أنساب الأشراف: ٤٥٨ ـ ٤٥٩ / ٤٩٨.

(٢) الإرشاد ١: ١٢، أنساب الأشراف: ٥٠٢ / ٥٥١. والبيت لعمرو بن معدي كرب، وقد تمثّل به عليه السلام. انظر أُسد الغابة ٤: ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٣) المسترشد في الإمامة: ٣٦٦ ـ ٣٦٧، مقاتل الطالبيّين: ١٨، الآحاد والمثاني (الضحّاك) ١: ١٤٨ / ١٧٦، المعجم الكبير ١: ١٠٥، تاريخ الإسلام ٣: ٦٤٧، شرح نهج البلاغة ٦: ١١٤، كنز العمّال ١٣: ١٨٧ / ٣٦٥٥٧، وفي بعضها أنه عليه السلام أنشد: اشدد..

حيازيمك للموت　　فإن الموت لاقيك

ولا تجزع من الموت　　إذا حلّ بواديك

إلى القتل هو موقفه الذي وقفه من أجل الإسلام، فقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين[١]. يقول العقاد مناقشاً مواقف علي بن أبي طالب عليه السلام: لماذا نحّى علي معاوية ولم يبقِه في الحكم؟ ولماذا ساوى في العطاء بين عامّة الناس والرؤساء، مع أنه كان بوسعه أن يمايز في العطاء؟ ثم يعلّق قائلاً: إن هؤلاء يريدون من علي عليه السلام أن يكون معاوية؛ وعلي لا يكون إلّا علياً، ومعاوية لا يكون إلّا معاوية.

وقد كلّمه أكثر من شخص في مهادنة معاوية، وعدم الإلحاح في المساواة في العطاء، فقال عليه السلام لهم: «أتريدونني أن أطلب النصر بالجور؟ لا والله، لا أفعل ذلك ما طلعت شمس، وما لاح في السماء نجم»[٢].

فهذا ليس نصراً وإنما هو ضياع وانهزام. وهكذا نجد أنّ الإمام علياً عليه السلام في مثل هذه الليلة كان صريع مبدأ وشهيد موقف، وقد شعر بأن مجتمعه بدأ يضيق به، فكان عليه السلام يردّد:

تلكم قريش تمنّاني لتقتلني فلا وربّك ما ضرّوا وما ظفروا

---

(١) قال عليه السلام: «أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله أن أقاتل بعده الناكثين والقاسطين والمارقين». المستدرك على الصحيحين ٣: ١٣٩، ١٤٠، مسند أبي يعلىٰ ١: ٣٩٧ / ٥١٩، المعجم الكبير ٤: ١٧٢.

(٢) الأمالي (الطوسي): ١٩٤ / ٣٣١، ونسب العتاب فيه لجماعة من أصحابه عليه السلام، وفي نهج البلاغة /الكلام: ١٢٦ ما نصّه: «والله، ما أطور به ما سمر سمير، وما أمّ نجم في السماء نجماً. لو كان المال لي لسوّيت بينهم، فكيف وإنما المال مال الله؟ ألا وإن إعطاء المال في غير حقّه تبذير وإسراف، وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة، ويكرمه في الناس ويهينه عند الله. ولم يضع امرؤ ماله في غير حقّه ولا عند غير أهله إلّا حرمه الله شكرهم، وكان لغيره ودّهم. فإن زلّت به النعل يوماً فاحتاج إلى معونتهم فشرّ خدين وألأم خليل».
وكما مرّ من محاولات المغيرة، انظر: بحار الأنوار ٤٢: ١٧٠، مروج الذهب ٢: ٣٩١، شرح نهج البلاغة ٦: ٣٠١.

إن يـقتلوني فـرهن ذمّـتي لهُـمُ بذاتِ ودقينِ لا يعفو لها أثرُ[١]

وكان عليه السلام يردّد هذه الأبيات ثم يضع يده الكريمة على شيبته الشريفة، ثمّ يصعد المنبر ويقول: «اللهم إني قد مللتهم وملّوني، وسئمتهم وسئموني، فأبدلني بهم من هو خير لي منهم، وأبدلهم بي من هو شرّ لهم مـني. اللـهم مثّ قلوبهم ميث الملح في الماء»[٢].

لقد كان المجتمع المحيط به يتسلّل إلى معاوية، وكلّما حاول عليه السلام أن يروّضه على قبول الصلاح استعصى على الترويض والإصلاح، حتى وصل به الأمر أن أصبح في حالة من التعفّن والفساد يصعب بل يتعذّر معها العلاج إلّا بالسيف، وقد أبى أن يورد سيفه هذا المورد.

ثم إن المتتبع للتاريخ لا بدّ أنه وجد أن الخوارج ليسوا وحدهم من قتل أمير المؤمنين عليه السلام، بل إن هناك عناصر كانت تعيش في قلب الكوفة، شركت في قتل علي عليه السلام وخطّطت له، وغاية مافي الأمر أن الخوارج كانوا الأداة المنفذّة لهذه الجريمة البشعة. يقول أرباب التواريخ: وعندما دخل هذا الشهر المبارك كان علي عليه السلام يوزّع إفطاره بين بيت عبد اللّه بن جعفر وبيت ابنه الحسن عليه السلام وبيت ابنه الحسين عليه السلام، فكان كلّ ليلة يفطر عند أحدهم على شيء من الخبز والملح، وإن زاد فبشيء من اللبن. وهكذا كان ديدنه عليه السلام في هذا الشهر الكريم، ثم يقصد المسجد ليتنفّل فيه.

وكان عليه السلام على هذا الحال حتى الليلة التاسعة عشرة، تقول أُم كلثوم: دخل أبي الدار وقت الإفطار ليلة التاسعة عشرة من رمضان، رفعت لأبي

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٩٦، الفائق في غريب الحديث ٢: ٦٦ ـ روق، النهاية في غريب الحديث والأثر ٢: ٢٧٩ ـ روق، ٥: ١٦٨ ـ ودق.

(٢) الغارات ٢: ٦٣٦، تاريخ مدينة دمشق ١: ٣٦١.

أمير المؤمنينﷺ طبقاً فيه إفطاره، وكان فيه إدامان، فالتفت إلي قائلاً: «بنية، ارفعي أحد الإدامين، أما علمت أن من طاب طعامه وشرابه طال وقوفه بين يدي الله؟».

تقول أُمّ كلثوم: فلما أردت أن أرفع بعض النباتات التي كانت في الطبق قال: «لا، ارفعي اللبن». ثم أكل شيئاً من ذلك وقال: «من أدخله بطنه النار فأبعده الله»(١).

تقول: ثم رمقﷺ السماء بطرفه ثم قال: «يامن قصده الضالون فأصابوه مرشداً، وأمَّ إليه الخائفون فرأوه موئلاً، ولجأ إليه العائذون فرأوه معقلاً»(٢).

ثم دخل حجرته وراح يتنفّل بركعات، وكان يخرج بين آونة وأُخرى ويطيل النظر إلى السماء، فقلت: أبه، أراك تطيل النظر إلى السماء؟ فقال: «هي هي والله الليلة التي وُعدت بها، والله ما كَذبت ولا كُذبت». ثم يعود إلى حجرته، إلى أن انبلج عمود الفجر، فقامﷺ ونزل إلى الدار، وكان فيها إوزّ أُهديت للإمام الحسنﷺ، فرفرفن في وجهه، فذدت عنه تلك الطيور، فقال: «دعيهن فإنهن صوائح ونوائح، وفي غداة الغد ينزل القدر المحتوم».

تقول أُم كلثوم: فقلت له: «يا أبتاه، أراك تتطيّر هذه الليلة؟ فقالﷺ: «لا يا بنيتي، إن أباك قتل الأبطال وخاض الأهوال، فما دخل الجوف له خوف، وما دخل في قلبي رعب، وليس منا من يتطيّر، ولكن للموت علامات ودلالات يتبع بعضها بعضاً»(٣).

---

(١) الدعوات: ١٣٧ ـ ١٣٨ / ٣٤٠، مناقب أمير المؤمنينﷺ (محمد بن سليمان) ٢: ٨٢ / ٥٦٧، بحار الأنوار ٤٠: ٣٤٠ / ٢٦، تاريخ مدينة دمشق ٤٨: ٢٣٠، كنز العمال ٣: ٧٨٢ / ٨٧٤١.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٨٤.

(٣) بحار الأنوار ٤٢: ٢٧٧، باختلاف.

فاختنقت بعبرتها، ثم فتح باب الدار فتعلّق مئزره به فـانحلّ، فأخـذ يشدّه ويقول: «اشدد..

حيازيمك للموتِ فإن الموتَ لاقيكا
ولا تغترّ بالدهر إذا كان يواسيكا
كما أضحكك الدهرُ كذاك الدهرُ يبكيكا»

﴿١٤﴾

أهداف البيعة في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: معنى البيعة

البيعة هي العلاقة التي تربط الحاكم والمحكوم، أو بمعنى آخر هي العقد الاجتماعي. وقد أسماها المشرع الإسلامي بيعة لأن فيها نوعاً من المعاوضة؛ ذلك أننا نعرف أن البيع هو عملية معاوضة بين البائع والمشتري، فيعاوض كل منهما ما عند الثاني بما عنده؛ فالبائع يعاوض الثمن بالمثمن، والمشتري يعاوض المثمن بالثمن. والبيعة لا تخرج عن هذا الإطار فهي عملية تتوفر على المعاوضة؛ فالإنسان المحكوم يعطي الطاعة للخليفة أو الحاكم أو الإمام، الذي في مقابلها يعطيه الحقوق الاجتماعية والسياسية الأُخرى ويوفّرها له.

وهذا يعني أن هناك التزاماً ينشأ من خلال هذه البيعة بين الطرفين،

---

(١) الفتح: ١٠.

فيوفّر الطرف الأول ـ وهو الحاكم ـ حقوق المحكومين وحمايتهم شريطة أن يلتزموا له بالطاعة والولاء والمعونة متى طلبها منهم. وفي ضوء هذا كل إنسان له الحق في الحياة والحرية والاستقرار والأمان، وهذه الحقوق له الحقّ في أن يطالب الحاكم بتوفيرها له، لكنه حينما يفعل ذلك فإن الحاكم بالمقابل له الحق في أن يطالبه والمحكومين الآخرين بحق الطاعة. وحينئذٍ فإنها ترجع إلى أصل التبادل والتعاوض.

وربما يعترض معترض هنا فيقول: ما حاجة النبي إلى الناس حتى يطلب منهم المبايعة إن كانت بهذا المعنى المعاوضي أو التبادلي؟ يقول أحد الكتاب الإسلاميين: إن البيعة مظهر من مظاهر الشورى. ثم يقول: ومن جملة الأدلة على الشورى مسألة البيعة؛ حيث إن المبايعين يختارون ويعبرون عن رأيهم عن طريق ممارسة هذا النمط، وهو البيعة.

لكن لنا أن نسأل في هذا المقام فنقول: هل إن النبوة مما يمكن أن تتمّ بالاختيار؟ وعندما يبعث الله نبياً فهل إنه تعالى يجعل شرعية هذا النبي وطاعته نابعتين من البيعة، أم إن الجميع مجبورون على طاعة الله وطاعة رسله وأنبيائه كما عليه التعاليم الحقة النابعة من أديان السماء؟ إن طاعة الله وطاعة النبي مفروضة؛ سواء كان هناك بيعة أو لم تكن، فالله جلّ وعلا خلقنا وهو يعرف حاجتنا إلى الصلاح، ويعرف نواقصنا، فيرسل إلينا الأنبياء، ويبيّن لنا أن وظيفته مساعدة العقل الإنساني في توجيه الإنسان إلى الوجهة الصحيحة؛ لأن عقل الإنسان قاصر لوحده عن إدراك ذلك.

وبهذا الاعتبار فإننا نجد أن المتكلمين والفلاسفة يقولون: إن العقل نبي داخلي، والنبي المرسل عقل خارجي؛ لأنه يوجّه العقل الداخلي ويسدّده.

وبهذا فإنه يمكن القول بأن دعوى أن العقل وحده قادر على أن يحقق السعادة والرفاهية للمجتمع هي دعوى غير صحيحة وباطلة؛ فالقوانين المستمدّة من العقل وإن كان البعض يظن أنها ناجحة، كادّعائه ذلك في أوروبّا مثلاً، أو في العالم المتحضر، أو في بعض الدول التي ليس فيها أديان سماوية لا يمكن لوحدها أن تحقق سعادة الإنسان. ودليل هذا ما نلاحظه من الأمراض المنتشرة والحروب والتقتيل والتنكيل وما إلى ذلك مما يحدث في هذه الدول.

وعليه فلو أن العقل وحده كان قادراً على إيجاد مادّة السعادة للإنسانية، فإننا سوف لن نجد مثل هذه الأُمور المخلّة بالقوانين والمخلّة بالسعادة الإنسانية طاغية في تلك المجتمعات. وعليه فإن العقل ما لم يسانده أمر خارجي وهو النبوة، فإنه لا يتمكن من إيجاد تلك السعادة. ففي تلك المجتمعات نجد هنالك الفقير فقراً مدقعاً والغني غنى فاحشاً، وهذا نتيجة قوانين العقل لوحدها.

ولا يظنن البعض أن ذلك غير موجود في الدول الإسلامية، فهو موجود لأنها لا تعتمد قوانين السماء في تشريعاتها إلّا بشكل صوري.

إذن فالعقل وحده غير قادر على توفير السعادة النفسية، وكل ما يشاع حول ذلك هو هراء وخيالات وأوهام؛ لأن الفرد لا يمكن أن يشعر بشيء من السعادة والراحة والأمن والاستقرار في ذلك المجال بعيداً عن قوانين السماء؛ وإن كانت هنالك تصورات حول تلك القوانين توحي للآخرين بأنها تمثل الجنة التي وُعد بها الإنسان. فالحقيقة أن السعادة هي ما رسمتها السماء، والله جلّ وعلا هو الذي خلق الخلق وهو أعرف بما يصلحهم ويصلح لهم، وما يفسدهم ولا يصلح لهم.

ولهذا السبب فإننا نقول بأنه تعالى هو الوحيد القادر على سن قوانين يمكن أن توفر للإنسان السعادة، في حين أن العقل الإنساني قاصر عن إيجاد ذلك؛ لأنه أساساً قاصر عن فهمه، بل إنه يتأثر بمؤثرات بسيطة جداً حيث إن الإنسان ما إن يفقد أعصابه لسبب أو لغيره حتى نجده يغيّب عقله عن تصرفاته، ويتحوّل إلى كائن بهيمي، وبالنتيجة فإنه سوف لن يكون ذا قابلية على إيجاد القوانين الصحيحة التي تخدم البشرية [١].

إذن فالله جل وعلا أرسل الأنبياء وفرض علينا طاعتهم بغض النظر عن كون هذه الطاعة جاءت بعد بيعة أو من غير بيعة؛ ذلك أن النبي صلى الله عليه وآله لا يحتاج إلى أن يبايعه أحد حتى تثبت نبوته لأن النبوات أمر فرضه الله جل وعلا وهذا ما يجب الطاعة فيه سواء كانت هنالك بيعة أو لم تكن.

المبحث الثاني: في شرعية الإمامة

إن المسلمين اختلفوا فيما بينهم حول الشرعية التي يستمدّ منها الإمام المعصوم أو الخليفة بعد النبي صلى الله عليه وآله سلطتهما، فهم في هذا على قسمين:

الأول: أنها تُستمدّ من الأمّة

إن أصحاب هذا الرأي يذهبون إلى أن المشروعية التي تمنح الإمام سلطته ورئاسته على الأمة هي مشروعية مستمدة من الانتخاب أو من

---

(١) وهذا ما يسمى بأخذ العامل النفسي أو الذاتي في عملية التشريع، ذلك أن الإنسان حينما يتصدى بنفسه للتشريع وسن القوانين فإنه لا يمكن أن يسنها بعيداً عن رغباته النفسية وعن إرادته وعن مشتهياته وعمّا يرغب فيه؛ فمن غير الممكن أن يسنّ إنسان قد اعتاد القتل قانوناً يحاسب على جريمة القتل، ومن غير الممكن أن يسنّ إنسان قد اعتاد الربا قانوناً يجرّم الآخرين الذين يمارسون عملية الربا ويحرّم ذلك عليهم. وكذلك في غيرهما من القوانين الخاصّة بالنساء والخاصة بالبيوع وما إلى ذلك.

الشورى. وهؤلاء هم المذاهب الإسلامية من غير الإمامية والزيدية.

الثاني: أنها مستمدّة من السماء

وهؤلاء هم الإمامية والزيدية، فهم يقولون بأن الإمام أو الخليفة الشرعي المنصّب لرئاسة الدين والدنيا يجب أن يكون مستمداً شرعيته من الرسول صلى الله عليه وآله، أي بنصّ من الله جل وعلا، ومن رسوله صلى الله عليه وآله بشخصه فيقول: فلان خليفة من بعدي، وإمام من بعدي.

ومن هنا فإنه يستمد شرعيته في قيادة هذه الأمة ورئاستها وحكمها من السماء ذات السلطة المطلقة، والصلاحية المتفرّدة.

ويجب أن نلاحظ هنا أن الإمامة والنبوة أمران يشتركان في طبيعة واحدة؛ ذلك أن الإمام لا ينصّب إلّا بعد ارتحال النبي؛ حتى لا تبقى الأرض خالية من حجة على الناس؛ ولذا فإن النبي صلى الله عليه وآله ينصّب عوضاً عنه أو نيابة عنه إماماً من بعده، أو خليفة له من الأشخاص الذين تتوفر فيهم الصفات المناسبة لقيادة الأمة كافّة.

وهناك مِن الناس مَن يذهب إلى أن القرآن الكريم يمكن أن يقوم مقام النبوة. وهذا خطأ واضح؛ لأنه لو كان صحيحاً لانتفت الفائدة من وجود النبي صلى الله عليه وآله ذلك أن القرآن كان موجوداً والنبي كان موجوداً معه، فلو كان فيه كفاية لكان وجود النبي صلى الله عليه وآله عبثاً، والله تعالى منزّه عن العبث، والنبي صلى الله عليه وآله وجوده ضرورة حتمية تفرضها العقول ويفرضها الواقع.

إن النبي صلى الله عليه وآله يطبق القرآن ويبلّغ تعاليمه، ويشرف على تطبيقه، ويتابع ممارسة الأمور الدينية والدنيوية. وكذلك الأمر بالنسبة للإمامة؛ لأنها امتداد طبيعي للنبوة، وحينئذٍ فإننا سوف لن نحتاج إلى مسألة الشورى.

المبحث الثالث: في المبايعة لله ولرسوله ﷺ

تقول الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾، إن الله تعالى قد فرض على الناس طاعة النبي ﷺ سواءً بايعوه أو لم يبايعوه؛ ذلك أنه جل وعلا قد نصبه في هذا المنصب، وقد جعله في هذه الوظيفة الإلهية السماوية. وعليه فإن البيعة ليس لها تأثير من قريب أو من بعيد في مشروعيّة النبي ﷺ والنبوة، ولا في مصداقيتهما.

والدليل على هذا أن النبي ﷺ نبي وإن لم يبايعه الناس كما حصل مع الكثير من الأنبياء عليهم السلام الذين حدَّثنا عنهم القرآن ممّن لم يؤمن بهم قومهم أو آمن بهم منهم رهط قليل جدّاً.

وبناء على هذا فما فائدة البيعة؟ إن البيعة ما هي إلّا وسيلة من وسائل إظهار الطاعة، وليست وسيلة من وسائل تنصيب النبي ﷺ الذي نصبته السماء سلفاً؛ ولذا فإن النبي ﷺ استدعى المسلمين في بدء الإسلام ليبايعوه ذكوراً وإناثاً؛ الذكور بالمصافحة المباشِرة، والإناث بصورة غير مباشرة، وذلك بأن وضع النبي ﷺ لهنَّ طستاً فيه ماء، ووضع يده الشريفة فيه، ثم تأتي المرأة وتضع يدها فيه وتبايع. وبهذه الصورة تمّت البيعة للنبي ﷺ حرصاً على عدم الملامسة بين الرجل والمرأة.

وكانت بيعة النبي ﷺ في حقيقتها بيعة لله جل وعلا، كما نصّت عليه آية المقام، وهذا يعني أن النبي ﷺ مجرّد نبي حامل لشريعة السماء، وأن المقصود في الأصل بالطاعة والبيعة هنا هو الله جلّ وعلا. ولتوضيح هذا الأمر نقول: إن النبي هل يستطيع أن يجتهد في بعض القضايا أم لا؟ فالقرآن مثلاً عالج قضايا اقتصادية وأُخرى اجتماعية وغيرهما سياسية، لكنه لم يعالج جميع القضايا المطروحة بالساحة أو التي سوف تطرح

وتأتي، ولم يتطرق إلى ذكرها أو ذكر علاجها، ومنها قضايا عالقة تشغل بالَ الكثير من المفكرين والمختصين. كما أن القرآن الكريم ليس فيه أحاديث مروية.

مناطق الفراغ في التشريع

وتأسيساً على هذا لنا أن نسأل: هل إن للنبي ﷺ الحق في أن يجتهد فيها أم لا؟ إن بعض العلماء يقولون: إن للنبي ﷺ أن يجتهد في أُمور لا نصّ فيها. أما نحن فنقول: ليس هناك من شيء لا نصّ فيه، بمعنى أن هذه الأُمور التي لم يتطرق القرآن إلى ذكرها فإنها يمكن إدخالها تحت عمومات أُخرى وقواعد أخرى لتندرج تحتها؛ وبالتالي فإننا نوجد لها الحكم الشرعي المناسب. فهناك مناطق تسمى مناطق الفراغ وهي المناطق التي وردت فيها نصوص لكن النبي أو الإمام عليه السلام لم يستعملاها ولم يطبقاها؛ لعدم الحاجة إليها، ومن ذلك أنه مثلاً في القرن العشرين قد استحدثت الكثير من الوسائل المعاملية على صعيد النظام الاقتصادي فهناك البنوك وهناك النظام المصرفي وهناك الحوالات والسندات والأسهم وما إلى ذلك، وهذه كلّها لم تكن موجودة في زمن النبي ﷺ، فهل يعني أننا نتوقف عن هذه المعاملة لأنها لم تكن موجودة في زمنه ﷺ؟

والجواب طبعاً لا؛ لأن هذا النمط من التفكير يشلّ الحياة ويوقفها، مقيّداً إياها عن أن تتحرّك، أو أن تتطور في حال أنها متطورة ومتغيرة، فإن جمدنا على ما كان موجوداً أو معروفاً في زمن النبي ﷺ فإننا حينئذٍ سوف نجعل من الحياة وحدة جامدة غير قابلة للتحرك وغير قابلة للتطوّر مع أنها متطوّرة.

كما أن الإسلام لا يريد أن يكون عقبة في طريق تقدمهم وتطورهم، بل إنه جاء ليدفع الناس نحو التقدم والتطور، واستيعاب ما يستجدّ في الحياة وما يحدث فيها من اكتشافات، وما إلى ذلك.

وعليه ففي مثل هذه الحالة ما الذي يمكن لنا أن نفعله؟ وكيف نستدل على أن هذه المعاملة مما يجب أن يترك أو مما يجوز أن يفعل أو يجب ألّا يفعل؟ إن الدليل الذي نتبعه أو نتوسّل به في الوصول إلى هذه النتيجة، وإلى كون هذه المعاملة مباحة أو غير مباحة هو أن ننظر إليها من زاوية أخرى، فنقول: هل إن في هذه المعاملة ربا أم لا؟ وهل فيها غرر ـ أي جهالة ـ أم لا؟ وحينئذٍ نحكم؛ فإن كان في المعاملة ربا فإننا سوف نحكم بحرمتها؛ ذلك أن الله جلّ وعلا يقول في محكم كتابه الكريم: ﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾[1]، فكل معاملة ربوية هي معاملة محرمة، وبالتالي فإن هذه المعاملة المصرفيّة أو البنكية سوف نحكم بحرمتها؛ لأن النصّ يشملها بلحاظ وجود الربا فيها، وإن لم يكن فيها ربا أو عائق شرعي آخر فإننا سوف نحكم بصحتها لدخولها تحت عموم الأدلة كما أننا نلاحظها من جانب آخر أيضاً، وهو وجود الغرر فيها، فإن كان فيها غرر فإن المعاملة باطلة؛ لأن عندنا أن من شروط صحة المعاملة: المعلومية، أي أن يكون المثمن معلوماً، فلو قال أحد لشخص آخر: بعتك الشيء الفلاني، وقال له الثاني: قبلت، ولم يكن يعلم بصفات ذلك الشيء وخصائصه فإن هذه المعاملة حينئذٍ تعتبر باطلة في حكم الشارع المقدس؛ لأن فيها غرراً أو جهالة كما ذكرنا؛ إذ لابدّ من معلومية المبيع؛ من حيث صفاته، ومن

---

(١) البقرة: ٢٧٥.

حيث هيئته وكيفياته، وما إلى ذلك.

البراءة العقلية

وعليه فإن المعاملة ما لم يكن فيها غرر أو ربا أو أي مانع آخر من الموانع الشرعية التي تحكم ببطلان المعاملة فإنها حينئذٍ تكون صحيحة وشرعية؛ ذلك أن الله جل وعلا يقول في محكم كتابه الكريم: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[1]، أي أن كلّ شيء لنا حلال ومباح حتى يثبت أنه حرام بالدليل الشرعي. وهذا ما يسمى بالبراءة العقلية وهي أن العقل يحكم بقبح أن الله يعاقب الإنسان على شيء دون أن يبين له حرمة ذلك الشيء أو محظوريته، أي أنه لابدّ أن يبين الله جل وعلا محظورية هذا الشيء، ثم بعد ذلك تأتي مرحلة العقوبة عليها، وما لم يكن هناك بيان فليس هناك من عقوبة؛ لأنه يقبح العقاب بلا بيان.

رجع

إذن فإن الله جل وعلا يقول للنبي صلى الله عليه وآله: إنك حامل رسالة السماء، وإن المسلمين حينما يبايعونك فإنما يبايعونك لأجل هذا؛ لا لأنك لحم ودم، وإنك إنما أصبحت عظيماً في نظرهم ونظر السماء لأنك رسول الله، ولأنك الوسيط بين الله وبين الناس والوسيلة لهم إليَّ. والإمامة لها عين هذا المفهوم وتمامه؛ لأنها الامتداد الطبيعي والشرعي للنبوة، وحينئذٍ فإننا سوف لن نحتاج لانتخاب أو بيعة أو ما إلى ذلك إلّا إذا أراد الفرد المسلم أن يظهر الطاعة إلى الإمام أو النبي.

---

(١) الإسراء: ١٥.

نظرية العقد الاجتماعي ومستلزماتها

وهنا نقطة أود أن أذكرها حول البيعة وهي أن البيعة عبارة عن عقد اجتماعي، ويعبر عنه جان جاك روسو المفكر الفرنسي بقوله: كل حاكم بينه وبين المحكومين عقد اجتماعي، فحين يرضون به حاكماً يرضى بهم أناساً عندهم حقوق عليه أن يوفرها لهم، فإذا انفصم العقد اختلّت البيعة. وعلى ضوء هذا التقرير نقول: إن على الحاكم أن يؤدي جميع حقوق الناس المالية في الحريات والأمن، وتوفير وسائل العمل وما إلى ذلك، وأن يحافظ على أموالهم وأعراضهم وأنفسهم، وأن يضمن لهم حقوقهم المالية جميعاً بالتساوي. اعترض جماعة على أمير المؤمنين عليه السلام في خصوص توزيعه الثروة بين المسلمين ومساواته بين السيّد والعبد، فقال عليه السلام: «لو كان المال لي لسوّيت بينهم، فكيف وإنما المال مال الله تعالى»[١].

فهو عليه السلام يريد أن يبيّن لهم أنّ المسألة المالية تخصُّ المسلمين جميعاً وليست لمجموعة دون أخرى، وعليه فلابد من توزيعها بالعدل والسوية بينهم.

إذن فالبيعة هي عملية يتم بها التبادل والمعاوضة بين الطاعة وحقوق المجتمع، وقد ذهب الأئمة عليهم السلام ممّن تسنّم دفّة الحكم إلى تطبيق هذا المعنى وإن حنث بعض رعيّتهم ببيعته، حيث إن أمير المؤمنين عليه السلام حينما جاء إلى الحكم وجاء الناس ليبايعوه كان فيهم طلحة بن أبي عبد الله الذي يقول عنه المؤرخون: إن أول يد بايعته هي يد طلحة، وكانت يد طلحة شلاء، أي مقطوعاً أحد أصابعها، فلمّا بايعه رآه قبيصة بن ذؤيب

(١) نهج البلاغة / الكلام: ١٢٦.

الأسدي ـ وكان واقفاً ـ فقال: والله، لا تتم هذه البيعة؛ فإن أول يد بايعته هي يد شلّاء[1].

وهذا كلام لا أثر له بل هو مبني على التطيّر المنهي عنه في الإسلام، لكن حدث أن اتّفق أنّ الذي كان أول المبايعين له كان أول الناكثين بيعته. ولهذا فإن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في واقعة الجمل أرسل ابن عبّاس إلى الزبير، فقال له: أرسلني ابن خالك، وهو يقول لك: «ما عدا ممّا بدا؟ عرفتني بالمدينة وأنكرتني بالبصرة، ألم تبايعني طائعاً غير مكره؟ فما الذي رابك مني فاستحللت به قتالي؟». فجعل الزبير ينقر بالمروحة في الأرض[2].

المبحث الرابع: تأويل ولا تجسيم

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، وهنا نقطة أود أن ألفت النظر إليها، وهي أن البعض يتّهمنا بأننا نأوّل القرآن ولا نأخذه على ظاهره، ونحن نقول: نعم هذا صحيح؛ لأننا مضطرون لأن نعمد إلى التأويل وأن نترك التفسير الذي يأخذنا إلى ما يخالف العقائد الحقّة في بعض الحالات.

ضرورة تأويل آية المقام

ومن ذلك آية المقام، فحينما تقول الآية الكريمة: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، فهذا يقتضي أن تأوّل هذه الآية الكريمة؛ لأن عدم التأويل يستلزم أموراً عديدة كلّها تبتعد عن روح الإسلام وأسسه ومفاهيمه، ومنها:

---

(١) شرح نهج البلاغة ٤: ٨.

(٢) حديث مصعب ١: ٣٦ـ ٣٧ / ١١، شرح نهج البلاغة ٩: ٣١٧، الشافي ٤: ٣٢٤.

الأول: التجسيم

فالقول بأن له تعالى يداً حقيقية مادية جارحة، يعني أنه تعالى جسم، وإذا كان كذلك فهذا يعني أن له رجلاً ولساناً وشفة وعيناً وما إلى ذلك.

ومعلوم أن جميع هذه الأُمور تعني أن الله جلّ وعلا محدود، وأنه جسم من الأجسام، وبما أنه كذلك فلابدّ من أنه يحتاج إلى مكان يحلّ به، ويحتاج إلى هواء يحيط به.

الثاني: المغايرة والتركيب والتلاشي

كما أن إثبات التجسيم له تعالى يعني أن له جهتين، والجزء الأيمن من كلّ جسم هو غير الجزء الأيسر منه، وهذا يعني أنه تعالى قد أصبح مركّباً، والمركب يضمحلّ ويتلاشى. وحينئذٍ لا يمكن أن يكون إلهاً؛ لأن الإله لا تعتريه ما تعتري بني البشر أو الفانيات من عوارض وما إلى ذلك من صفات تلحقها.

ومن هنا فإننا مضطرون إلى أن نأوّل بعض الآيات؛ حتى نبتعد عن بعض التفسيرات السطحية التي تؤول إلى الكفر، وهذا يعني إرجاع المتشابه من الآيات إلى المحكم منها، والمحكم في خصوص المقام هو قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(٢)، فإذا كان له تعالى يد ظاهرة أدركتها الأبصار وهذا ينافي محكم الكتاب.

وكذلك الأمر حينما نأتي إلى قوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾(٣)، فإننا

---

(١) الأنعام: ١٠٣. (٢) الشورى: ١١.

(٣) التوبة: ٦٧.

ملزمون بأن نأوّل؛ لأن الله جل وعلا لا يمكن أن ينسى؛ ذلك أن نسيانه تعالى يعني تدهور العالم وصيرورته إلى الخراب والدمار والتفكك. كما أنه يناقض أو ينافي ما هو معلوم من صفاته جلّ وعلا، وهي أنه تعالى لا يغفل ولا ينسى، وأنه عالم مطلقاً.

إذن لابدّ لنا على ضوء هذه المعطيات أن نأوّل هذه الآيات لا أن نفسرها على ظاهرها، وأن نقول: إنها من متشابه الكتاب الذي لابدّ أن يرجع إلى محكمه، كما نصّ على ذلك القرآن الكريم[١].

ويمكن أن نسند هذا القول بما يروى من أن السيد الحكيم لما ذهب إلى الحجّ كان هناك شخص بصير من علماء أهل السنة، فجاء إلى زيارة السيد، وبعد أن استقبله ورحب به: قال له مهما كان من خلاف بيننا في الفروع فإن الخلاف يبقى علمياً وطبيعياً. فأجابه الرجل الضرير بقوله: لا ليس الكلام على هذه الشاكلة؛ ذلك أن عندنا أشياء رئيسة وفي الأصول نختلف فيها معكم. فقال له السيد: مثل ماذا؟ فقال له الرجل: أنتم مثلاً تؤوّلون القرآن. فقال له السيد: نحن مضطرون إلى ذلك وإذا لم نؤوّله فإننا حينئذٍ سوف نقع في مشاكل نحن في غنى عنها ولا حصر لها. فقال له الشيخ الضرير: ليس هنالك من مشكلة، ولا داعي حينئذٍ إلى تأويل القرآن. فقال له السيد: ألم تقرأ القرآن؟ قال: نعم. فقال له السيد الحكيم: وهل قرأت قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾[٢]؟ فسكت الرجل محرجاً وقد أفحمته الآية والحجّة.

---

(١) قال تعالى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الأَلْبَابِ﴾ آل عمران: ٧.

(٢) الإسراء: ٧٢.

ذلك أن الأعمى في هذه الآية قطعاً لم يقصد به فاقد البصر، وإنما هي مأوّلة بمعنى عمى القلوب[١].

وعليه فإننا يجب ألّا نحمل ألفاظ القرآن على ظاهرها في كلّ حال وفي كل مقام؛ لأن منها ما يأخذ بأعناقنا ويلجئنا إلى أن نأوّله حتى يتناسب مع العقائد الصحيحة ومع الآيات الأُخرى المحكمة التي أُمرنا بردّ المتشابه إليها. وعليه فحينما تنص الآية الكريمة فتقول: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ فإننا حينئذٍ نكون مضطرين إلى تأويلها بما يخالف ظاهرها، وهذا التأويل هو أن المقصود بيد الله جل وعلا هنا قوته وسيطرته وسلطنته على كل الموجودات، بمعنى أن قوة الله تعالى فوق قوة الناس جميعاً لأن اليد (بمعنى القوة) الخالقة والبارئة والمعطية هي يد الله جلّ وعلا.

المبحث الخامس: شروط البيعة

يذكر الفقهاء والعلماء أن البيعة هي عبارة عن عقد من العقود كما ذكرنا، ووفق التشريع الإسلامي فإن العقد لا يصح إلّا من بالغين، بمعنى أنه لا يجوز أن يعقد الصبي عقداً من العقود فيما لو كان عمره أقلّ من العمر الشرعي وهو عمر التكليف. والمراد بالبلوغ هنا هو البلوغ العقلي وليس البلوغ البايولوجي (القدرة على الإنجاب)[٢] أي أن الإنسان إذا بلغ سن التكليف وهو عاقل غير سفيه فإنه حينئذٍ يصح منه العقد؛ لأن تصرفاته حينئذٍ سوف تكون خاضعة لميزان العقل فلا ينخدع ولا يمكن أن يغشّ في المعاملة، كما أنه يمكن أن يضع الأشياء مواضعها، أما إذا بلغ وهو

---

(١) قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ الحج: ٤٦.
(٢) كما سبق أن نوّه المحاضر إلى ذلك في أكثر من محاضرة.

سفيه أو مجنون فإنه حينئذٍ لا يعتبر بالغاً يصح منه العقد.

وبهذا فإن المعاملة والمعاقدة لا تتم إلّا إذا كان الشخصان المتعاقدان يتصفان بأنهما ذوَي بلوغ عقلي أو نضوج عقلي. والدليل على هذا صحة البيعة التي وقعت من الحسنين عليهما السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله فهما كانا صغيرين حينما توفي صلى الله عليه وآله؛ فقد كان عمر الإمام الحسن عليه السلام سبع سنين، وكان عمر الإمام الحسين عليه السلام ست سنين، وقد بايعا جدّهما الأكرم صلى الله عليه وآله كما بايعه أصحابه. وهذه المسألة يذكرها أغلب المسلمين، ولولا أن النضج البايلوجي لا مدخلية له في الأمر لما قبلت بيعة الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام.

وبهذا فإننا نرى أن المقصود بالبلوغ هو البلوغ العقلي، وهذا يعني أنهما عليهما السلام لم يكونا بالصغيرين من الجهة العقلية. وهكذا فإننا نصل إلى نتيجة هي أن الصغر والكبر عندهما عليهما السلام لا يضيرهما بشيء؛ فالنبي صلى الله عليه وآله عاملهما معاملة البالغ الراشد، وهذا طبعاً يدلّ على وجود ميزة لهما.

وكان الإمام الحسين عليه السلام من ضمن الثلاثة الذين كتب يزيد بن معاوية إلى عامله على المدينة الوليد بن عتبة أن يحضرهم ليأخذ البيعة منهم، وهم: الإمام الحسين عليه السلام، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير. وقد سبقه أبوه معاوية إلى ذلك حيث إنه جاء في إحدى السنوات حاجّاً فاستقبله الناس باعتباره الحاكم، ولمّا لم يجد هؤلاء الثلاثة بين المستقبلين وجّه إليهم مَن يحضرهم، وقد أمر خلال ذلك ثلاثة من رجاله ووضع في أيديهم السيوف، وأمرهم أن يقف كل واحد منهم خلف واحد من هؤلاء الثلاثة، وأن يضربوا عنق كل من يعارض كلامه، أو يقاطعه، أو ينفي، أو يهز رأسه منهم نافياً ما يقوله معاوية. ثم صعد المنبر فخطب الناس وقال: قد

علمتم سيرتي فيكم، وصلتي لأرحامكم، وحملي ما كان منكم، ويزيد أخوكم وابن عمّكم، وأردت أن تقدّموه باسم الخلافة، وقد بايع هؤلاء الثلاثة، فما ترون؟ فسكتوا فقال: ألا تجيبون؟ مرّتين[1].

غير أن اللعبة انكشفت بعد ذلك ولم تنطوِ على الناس؛ حيث إنهم قد عرفوا أن عبد الله بن عمر لم يكن راضياً عن هذه البيعة ولا عبد الله بن الزبير ولا الإمام الحسين عليه السلام، وأنه لم تكن هنالك بيعة منهم إطلاقاً. وهنا بدأ الناس بالتحدث بهذا الموضوع.

هذا حال البيعة التي حاول الأُمويّون أخذها لأنفسهم، وإذا لم يكن في البيعة اختيار فما قيمة هذه البيعة؟ نحن ذكرنا في صدر المحاضرة أنّ البيعة هي عبارة عن مبايعة ومعاقدة واتفاق بين الطرفين: الحاكم والمحكوم، لكن الأُمويّين أرادوا أن يجعلوها بيعة قسرية غير مستندة إلى رضا أحد الطرفين. فلمّا أن توفي معاوية أرسل يزيد ـ كما ذكرنا ـ كتاباً إلى واليه الوليد بن عتبة وأمره بإحضار هؤلاء الثلاثة وأخذ البيعة منهم، كما أمره بأن يضرب عنق كل من يرفض المبايعة وخاصة الإمام الحسين عليه السلام وقال له: إن امتنع عليك فاضرب عنقه وابعث برأسه إليّ.

فأحضر الكتاب إلى مروان بن الحكم وأخذ رأيه فأشار بإحضار الإمام الحسين عليه السلام وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن مطيع وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر وأخذ بيعتهم وقال له: فإن أجابوا، وإلّا فاضرب أعناقهم. فقال الوليد: ليتني لم أكُ شيئاً مذكوراً، لقد أمرتني بأمر عظيم، وما كنت لأفعل.

---

(١) الكامل في التاريخ ٣: ٥١٠.

ثم بعث الوليدُ عبد الله بن عمرو بن عثمان خلف هؤلاء، وكانوا مجتمعين في المسجد، فلما حضر رسوله قال الحسين عليه السلام للجماعة: «أظن أن طاغيتهم هلك؛ رأيت البارحة أن منبر معاوية منكوس، وداره تشتعل بالنيران».

فدعاهم الرسول إلى الوليد فقال له الإمام الحسين عليه السلام: «اسبقني وسألحق بك». فلمّا ذهب الرسول جمع الإمام عليه السلام أهل بيته وأحضرهم معه وأمرهم بأن يقبضوا على سيوفهم وينتظروا؛ فإن خرج رجعوا معه، وإن سمعوا صوته عليه السلام قد علا على الوليد، فليدخلوا ليمنعوه منه عليه السلام.

فلمّا دخل عليه السلام عليه نعى إليه معاوية، وأخبره أن الخلافة تمّت ليزيد، وأمره بالبيعة له، فقال الإمام الحسين عليه السلام: «نحن أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ويزيد فاسق، شارب الخمر، وقاتل النفس، ومثلي لا يبايع لمثله، ولكن نصبح وتصبحون، وننظر وتنظرون أينا أحقّ بالخلافة والبيعة».

وحق للإمام عليه السلام أن يقول فيه مثل ذلك؛ فإنه حقاً شارب خمر، وفاسق، وقاتل للنفس المحترمة، وقد ترجم هذا المعنى الآلوسي ـ مع أنه الأكثر تعصّباً من أبناء جلدته ـ حيث يؤيّد قول معاصره الشاعر إذ يقول:

يـزيد عـلى لعـني عـريض جـنابه فأغـدو بـه مـن لعـنه ألعـن اللـعنا

إن المؤمن غير لعان ولا سباب [١]، فكلّ ذلك لا داعي له، لكن في بعض الحالات نجد أن الواقع يفرض نفسه في مثل هذه الأُمور، وهي أُمور تلجئ إلى أن يسب أحد الناس أو يلعن بما يفعل ويرتكب من معاصٍ.

---

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس المؤمن بطعّان ولا بلعّان ولا الفاحش البذيء». مسند أحمد ١: ٤٠٥.

ومن هذا ما يفعله يزيد وهو على منبر المسلمين.. يزيد الذي يروي الجميع عنه أنه كان يرقى منبر المسلمين ويقول:

أقول لصحب ضمّت الكأس شملهم	وداعي صبابات الهوى يترنّمْ
خذوا بنصيب من نعيم ولذّة	فكلٌ وإن طال المدى يتصرّمْ[1]

فهذا المنبر هو في حقيقته منبر رسول الله ﷺ؛ لأنه امتداد لذلك المنبر الذي شرّفه ﷺ بالجلوس عليه، وعليه فإن من يصعد عليه يجب أن يكون إنساناً واعياً مؤمناً ملتزماً، وليس إنساناً منحلاً تحرّكه الخمر يميناً وشمالاً. فمثل هذا في حقيقة أمره لا يعدو كونه مأساة حلّت بالمسلمين ولذا فإن الإمام الحسين قال للوليد: «ومثلي لا يبايع لمثله، ولكن نصبح وتصبحون، وننظر وتنظرون أينا أحقّ بالخلافة والبيعة».

وكان الوليد من عقلاء الأمويّين، وكان بعيد الغور والفكر، وممّا يذكر له أنه كان قد نهى عبيد الله بن زياد عن الاقتراب من الإمام الحسين عليه السلام وإلحاق الأذى به، وحذّره بأنه سوف يوقع نفسه بذلك في مشاكل جمّة لا حصر لها؛ لأن دم الحسين عليه السلام لا يبقى معه بناء، وسيهدم الحكم من أساسه ولكن هذا الأخير لم يطع أمره.

وهنا قال له الوليد: انصرف يا أبا عبد الله مصاحباً على اسم الله وعونه حتى تغدو عليّ. وكان مروان قد أسرّ إلى الوليد أن اضرب رقبته، ثم قال جهراً: لا تقبل عذره واضرب رقبته، فغضب الحسين عليه السلام وقال: «ويلي عليك يابن الزرقاء، أنت تأمر بضرب عنقي؟ كذبت ولؤمت؛ من الذي يقتلني؛ أنت أم هو؟».

---

(١) جواهر المطالب (ابن الدمشقي) ٢: ٣٠١.

ثم خرج الإمام عليه السلام، فلمّا ابتعد قال مروان بن الحكم للوليد: والله لئن فارقك اليوم لا قدرتم عليه حتى تكثروا القتلى، وسترى ما يصير أمره إليه. فقال: ويحك إنك أشرت إليّ بذهاب ديني ودنياي، والله ما أُحبّ أن ملك الدنيا لي وأني قتلت حسيناً، والله ما أظن أن أحداً يلقى الله بدمه إلّا هو خفيف الميزان.

وبقيت هذه المسألة في نفس مروان إلى أن رأى الإمام الحسين عليه السلام بعد يومين من هذا الحوار خارجاً من المدينة، فقصده وقال له: أبا عبد الله أطعني ترشد. فقال عليه السلام: «قل». قال: بايع أمير المؤمنين يزيد؛ فهو خير لك في الدارين. فقال الإمام الحسين عليه السلام: «وعلى الإسلام السلام؛ إذ قد بليت الأمة براعٍ مثل يزيد. ولقد سمعت جدي صلى الله عليه وآله يقول: الخلافة محرمة على آل أبي سفيان»[1].

وانصرف الإمام الحسين عليه السلام إلى مقصده وانصرف مروان وهو حانق، وقد كتم ذلك وحفظها، إلى أن جيء برأسه الشريف إليه وهو في المدينة، ذلك أن يزيد أمر بإرسال الرأس إلى المدينة وإلى واليه عليها عمر بن سعيد الأشدق، وقال له: نفّس عن روحك؛ فإن هذا ابن الذي قتلكم في واقعة بدر، فأدرك ثأرك.

فأخذ الرأس ووقف أمام قبر النبي صلى الله عليه وآله وقال: يا محمد ثار بثارات بدر. ولما سمع النوح والبكاء في بيت بني هاشم أنشد بيته المعروف:

عجّت نساءُ بني زياد عَجّةً ... كعجيجِ نِسوتِنا غداةَ الأرنبِ[2]

---

(١) انظر في كل ذلك: مثير الأحزان: ١٣ ـ ١٥، الأخبار الطوال: ٢٢٧ ـ ٢٢٨، تاريخ الطبري ٤: ٢٥١ ـ ٢٥٢.

(٢) الإرشاد ٢: ١٢٣، شرح الأخبار ٣: ١٥٩، تاريخ الطبري ٤: ٣٥٧، الكامل في التاريخ

حيث خرجت أم لقمان بنت عقيل وهي ضاربة بيدها على رأسها ومعها أخواتها وهي تقول:

ماذا تقولون لو قال النبي لكم ... ماذا فعلتم وأنتم آخرُ الأُمم
بعترتي أهلِ بيتي بعد مفتَقَدِي ... منهم أُسَارى ومنهُم ضُرِّجوا بِدَمِ[1]

فلما سمع بكاء العلويات ونوحهنَّ اطمأن وبعث ذلك في نفسه شيئاً من الراحة والفرح ومن التشفي. وهكذا نجد أن هؤلاء اللئام قد أبكوا النساء، وطبعوا بيوت الهاشميين بطابع اليأس والأسى واللوعة والنحيب، وجعلوا منها بيوتاً يغلب عليها الشجا والأنين، وخصوصاً بيت الحسين بن علي عليه السلام التي كانت تدور فيه عقيلة الطالبيين وهي تقول:

منازل كانت نيّرات بأهلها ... تولّى عليها غبرة وقتامُ
ألا لا تزان الدار إلّا بأهلها ... على الدار من بعد الحسين سلامُ

* * *

يناعي اشبعد تدري اشغدالي ... شفت ونتي وهضمة عيالي
على حي أهل المعالي ... عجب نزلهم صوت عالي
اخذ معصبي وانخة بدالي ... بيت وبكى من الزلم خالي

* * *

تلك الديار العامرات بأهلها

٤: ٨٩.

(١) الإرشاد ٢: ١٢٤، تاريخ الطبري ٤: ٣٩٤، تهذيب الكمال ٦: ٤٣٠، تهذيب التهذيب ٢: ٣٠٥، الكامل في التاريخ ٤: ٨٩، البداية والنهاية ٦: ٢٦١، ٨: ٢١٥.

﴿١٥﴾

خلافة الرسول ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: موضوع الوصية في الإسلام

هذه الآية الكريمة تتوجّه باللوم والعتاب للمهاجرين والأنصار في واقعة أُحد، وتفهمهم بأن النبي ﷺ إذا قُتل[2]، فليس لهم أن ينفكّوا عن رسالته؛ لأن الأمر يتعلق برسالة إلهية عامة وثابتة وليس بأمر شخصي يحيا زمناً ثم يفارق الدنيا إلى حيث الرفيق الأعلى. فالأشخاص سيموتون مهما طال بهم الدهر ومهما عُمّروا، أما الرسالات فعلى العكس من ذلك، سيّما إذا كانت رسالة حق أو رسالة سماء فهي ستعيش وتخلد أبد الدهر. وعليه فإن عليهم أن يجعلوا ارتباطهم بالرسالة أولاً وآخراً؛ مات صاحبها أو

---

(١) آل عمران: ١٤٤.

(٢) بعد أن نادى الشيطان: إن محمداً قد مات. فهربوا.

عاش بين ظهرانيهم؛ فالرسالة لا يمكن أن تموت. فالآية الكريمة نبهت إلى هذا المعنى.

ومن الثابت عندنا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يستعد للقاء الله تعالى كان قد خطط لكل شيء يتعلق بمصير الرسالة والدين، ولذا فإنه صلى الله عليه وآله وسلم قد خرج من الدنيا وقد أكمل كل شيء يتعلق بالإسلام، ولم يترك وراءه ثغرة في هذا الباب. وهنا نقطتان ينبغي الإشارة إليها، هما:

النقطة الأولى: تربّص أعداء الإسلام الداوئر به

إننا نعرف أن في القرآن الكريم سورةً كاملة في خصوص المنافقين، وهي السورة التي أنزلها الله جلّ وعلا وفضح فيها نوايا المنافقين وتوجّهاتهم وأفعالهم وأمانيهم. هذا فضلاً عن الآيات القرآنية الكريمة المبثوثة في مطاوي سوره الشريفة، فهناك الكثير من الآيات المنتشرة في القرآن الكريم والموزعة على سوره والتي تعالج مفهوم المنافقين، وتفضح أفعالهم وتفضح نواياهم.

إذن فهناك الكثير من المنافقين، وهناك الكثير من مسلمة الفتح الذين ألجأهم الخوف أو بريق الذهب أو الحصول على الغنائم إلى الدخول في الإسلام وهم ليسوا معتقدين فيه اعتقاداً صحيحا. فهؤلاء كانوا يطلبون الدنيا عبر الانتماء إلى هذا الدين، وهم الذين عبّر عنهم القرآن الكريم بقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾[١].

ثم إن هناك جماعة أخرى هي جماعة المتربصين بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم الدوائر

---

(١) الشورى: ٢٠.

من أمثال أبي سفيان وجماعته وهم الذين كانوا يتربصون بالنبي صلى الله عليه وآله متى يقضي أو متى يُفعل به شيء حتى ينقضوا على هذا الإسلام، وكان هؤلاء وأولئك الذين أسلموا طلباً للدنيا وللمنزلة ولبريق الذهب يمثلون طبقةً كبيرة، وفعلاً كان لهم تأثير كبير بحيث إنهم بمجرد أن توفّي النبي صلى الله عليه وآله وكان أمير المؤمنين عليه السلام جالساً في بيت النبي وكان عليه السلام منشغلاً بإعداد النبي صلى الله عليه وآله الذي تركه المسلمون مسجىً دون أن ينشغلوا بتجهيزه وتكفينه ودفنه ولذا كان عليه السلام منشغلاً بتجهيزه وتكفينه ودفنه؛ وإذا بصارخ بباب الدار بعد مؤتمر السقيفة مباشرةً وكان صاحب الصوت يصرخ: أيتولّى هذا الأمر ضئيل تيم؟ أين الأذلّان عليٌ والعباس؟

فخرج الإمام عليٌ عليه السلام إليه وإذا به أبو سفيان، فقال له: «ما الذي تريده؟». فقال له: أيتولّى هذا الأمر فلان وأنت جالس؟ أتريد أن أملأ لك المدينة خيلاً؟ أبا حسن ابسط يدك حتى أبايعك. إنني على استعداد كامل أن أملأ المدينة الآن بالخيل والرجال لينصروك ضد من تولى الخلافة بعد النبي صلى الله عليه وآله فالتفت إليه الإمام عليه السلام وزجره قائلاً: «أبا سفيان، أجاهليةٌ بعد إسلام؟ إنك والله ما أردت بهذا إلّا الفتنة، وإنك والله طالما بغيت بالإسلام شرّاً. لا حاجة لنا في نصيحتك».

فكأن لسان حال الإمام عليه السلام: وهل أنا غائب عنك وعما تريده؟ إنني أعرفك حق المعرفة فأنت أنت الذي تريد أن تفعل ما تفعل بهذا الدين ولا أرى إلّا إنك تريد أن تعيد إلينا هبل لتنصبه على ظهر الكعبة، ثم قال له الإمام عليه السلام: أخرج فلا حاجة لنا بخيلك فخرج وهو يتمثّل بشعر المتلمّس:

إن الهوان حمار الأهل يعرفه	والحرّ ينكره والرسلة الأجدُ
ولا يقيم على ضيم يراد به	إلّا الأذلّان عيرُ الحيِ والوتدُ

هذا على الخسف معكوس برمته ... وذا يشخ فلا يبكي له أحدُ[1]

فهذا وأمثاله يريدون أن ينتهزوا أول فرصة تسنح لهم حتى يعودوا بالناس إلى الجاهلية ويطمسوا معالم الإسلام وينصبوا هبل على قبر النبي صلى الله عليه وآله، ولذا فإن الإمام عليه السلام بحكمته ونظرته الثاقبة لم يكن ليغفل عن أفعاله أو لتخفى عليه نوايا مثله؛ ولذا فقد طُرد من المدينة المنورة.

إذن فالمنافقون والمؤلفة قلوبهم ومسلمة الفتح والمتربصون بالنبي الدوائر كلّ هؤلاء كانوا يمثلون خطراً داهماً ضدّ الإسلام، وممكن أن ينقضوا عليه في أية لحظة من اللحظات، وكل هذه المجاميع التي يصح التعبير عنها بأنها لم يدخل الإسلام قلوبها كانت متوثبةً للهجوم على الإسلام والقضاء عليه. فكل هذا الوجود الخطر على الإسلام المتمثل بهذه الشرائح التي تريد أن تقضي على الإسلام، ويخرج النبي صلى الله عليه وآله من الدنيا دون أن يستخلف على هذا الدين وأهل هذا الدين وأتباع هذا الدين من يقوم بشؤونهم، ويضع حدّاً لمثل هؤلاء المنافقين؟ إن هذا لا يصح أن يفعله حتى الإنسان العادي فكيف بالإنسان الرسالي.. بحامل الرسالة وحامل نبوءة السماء؟ وإن القول بأن النبي صلى الله عليه وآله لم يعين إطلاقاً لهذا الأمر ولم يستخلف أحداً هو أشبه شيءٍ بالقول بأن الإسلام لم يكن. إذن فهذا الفرض لا يمكن أن نقبله بأي حالٍ من الأحوال أبداً، وبهذا فإن هذا الفرض يُطرح من الحسابات؛ لأنه غير صحيح.

النقطة الثانية: خلافة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله

بما أن الإسلام عبارة عن منظومة من التعاليم والأحكام، فممّا لا شك

(١) تاريخ الطبري ٢: ٤٤٩.

فيه أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قد أكمله، فالقرآن الكريم نزل على مدى ثلاث وعشرين سنة، وعلى المساحة التي تشمل كل سورة فإنه قد تضمن الأحكام الشرعية التي تتعلق بالأفراد والمجتمع كافّة. ثم إن السنّة النبوية المطهرة تكفلت بشرح الغامض من القرآن الكريم وتبيان مالم يبينه لنا في آياته الكريمة. وحينئذٍ لم يبقَ إلّا أمر إعداد الأُمة لمواصلة طريقها ومسيرتها على منهج الإسلام والقرآن بعد موته صلى الله عليه وآله وسلم.

وبتعبير آخر: الوسيلة التي تجعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعيش من بعد موته والتحاقه بالرفيق الأعلى. وهذا أمر طبيعي جداً؛ إذ أنه لا يمكن بطبيعة الحال أن تخلو الأرض من خليفة يمثّل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأن هذا معناه أن تموت هذه الرسالة بمجرد موت النبي صلى الله عليه وآله وسلم. فلابد إذن من استمرار هذه الرسالة، وهذا معناه أنه لا بد من إيجاد الامتداد الطبيعي والإلهي لحمل هذه الرسالة المقدسة من بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

إذن فلا بد من وجود زعامة تتولّى الحفاظ على الإسلام ورعاية قوانينه وأحكامه، وكذلك تتولى مسؤولية القيام بشرح الأحكام وتنفيذها. فهناك افتراضات لابد من استقرائها لمعرفة ما الذي تحقق منها وما الذي لم يتحقق، وهذه الافتراضات يمكن حصرها بالتالي:

الفرض الأوّل: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مات ولم يوصِ

وهذا الفرض يذهب إليه طائفة كبيرة من المسلمين الآن، لكن لنرَ إن كان هذا الفرض ممكناً أم لا. ونحن بطبيعة الحال نقولها جازمين وبشكل حازم وحاسم لا يقبل الردّ: إنه فرض غير ممكن وغير وارد؛ لأننا نعرف أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يخرج من المدينة لأمر ما من أُموره إلا واستخلف عليها

من يقوم مقامه وإن قصرت مدة غيابه عنها[١]. فما خرج في غزوة من غزواته ولا في سفرٍ من أسفارهِ إلا واستخلف عليها من ينوب عنه فيها ليدير شؤونها وشؤون الدولة وأهلها.

استخلاف أمير المؤمنين عليه السلام على المدينة

وفي غزوة تبوك خلّف عليها أمير المؤمنين عليه السلام، وهي الغزوة الوحيدة التي تخلّف فيها عليه السلام عن القتال مع الرسول صلى الله عليه وآله، وكان تخلّفه عليه السلام عنها بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله حيث استدعاه صلى الله عليه وآله وبينّ له أنه لا ينبغي أن يغيب في هذه الغزوة بالذات إلّا وهو مكانه، فلابدّ من استخلافه فيها لأمر كان صلى الله عليه وآله يرى عاقبته. ثم قال له: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبيّ بعدي؟»[٢].

وممّا يُستغرب له أشدّ الاستغراب أن هذا النصّ الصريح وهذا الفعل الصريح لا يعتبره المؤرخون المسلمون وغير المؤرخين منهم دليلاً على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام، لكن لمجرّد أن يمرض الرسول صلى الله عليه وآله فيعجز عن الصلاة بالمسلمين فيقدموا واحداً يصلّي بهم يُعدّ هذا دليلاً كافياً في النصّ عليه، وقالوا: لقد رضيه النبي صلى الله عليه وآله لديننا، فكيف لا نرضاه لدنيانا؟[٣].

---

(١) لقد ذكرنا ذلك مفصّلا في ج ٢ ص ١٩٨ / الهامش: ٢.

(٢) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٣ ـ ١٤، صحيح مسلم ٧: ١٢٠، الجامع الصحيح ٥: ٣٠٢ / ٣٨٠٨، ٣٠٤ / ٣٨١٣ ـ ٣٨١٤، السنن الكبرىٰ (النّسائي) ٥: ٤٤ / ٨١٣٨ ـ ٨١٤٣، فتح الباري ٧: ٦٠

(٣) فهذا التصرّف الوحيد يصلح أن يكون دليلاً على صحة خلافته وإمامته. أما تصرّفات الرسول صلى الله عليه وآله الكثيرة التي ملأت بطون الكتب من مثل الحديث المارّ، وحديث «هو نفسي» وكذا قوله صلى الله عليه وآله: «هو خليفتي من بعدي» فلا تصلح دليلاً على إمامة أمير

إننا لا نريد أن نبخس أحداً حقه أبداً سيّما إذا كان من الصحابة، لكننا في الوقت نفسه نقول: إن النصوص إمّا أن تكون لها تلك المعطيات، أي أن أقوال الرسول إما أن تكون في كل حال نصّاً يجب التعبد به والانقياد له أو لا، أما أن تكون تارةً كذلك وتارةً ليست كذلك حسب ما تمليه الرغبات والأهواء فهذا أمرٌ بعيدٌ عن الموضوعية بعداً شاسعاً، وليس هو من المنهج العلمي في شيء.

على أية حال فنحن نتساءل هنا حول ما إذا كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد خرج من الدنيا ولم يوصِ مع ما كان يفعله من استخلاف أحد صحابته على عاصمة الدولة الإسلامية عند غيابه عنها[1]. إن هذا ما لا يجوز تصوره في حق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنه صلى الله عليه وآله وسلم أعلم بأحكام الله تعالى الذي أوجب الوصية في مربض شاة، فكيف لا يعرف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وجوب الوصية في كيان دولة كامل ينطوي على جميع الجوانب الحيوية في الدولة من اقتصاد وإدارة وسياسة وعلاقات. ثم أليس القرآن الكريم يقول: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ**﴾[2]؟ والخير هو المال، والمال هو كل ما يتموّل به الإنسان، بمعنى أنه ما يصحّ أن يكون متموّلاً ويقتنى، فالسلع والحاجات هي أموال حتى وإن كان شاةً واحدة، فمازالت يُتمول بها فهي مال.

أي أن الله جل وعلا يفرض على الإنسان ألّا يخرج من الدنيا حتى

المؤمنين عليه السلام، إن هذا لهو العجب العجاب.

(١) مع أن الخليفتين أبا بكر وعمر أنفسهما قد أوصيا؛ فأوصى أبو بكر لعمر، وأوصى عمر لواحد من ستّة: وجعل كفّة عبد الرحمن هي الراجحة إذا تساوى الطرفان؛ لما في الأمر من ضرورة وأهمية ارتأياها، فكيف بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهو أعلم الجميع وأحكمهم. بل لا وجه للتفاضل لانعدام جهة الاشتراك؟.

(٢) البقرة: ١٨٠.

يوصي ولو بهذه الشاة. وإذا كان الإسلام يعطي للوصية هذه الأهمية الكبرى بخصوص الشاة أو ما هو أدنى منها ثمناً، فكيف هو الحال بأمةٍ بأكملها، وبمصير أُمة، وبمستقبل أمة، وبوجود أمة، سيّما أننا إذا علمنا أن المسلمين بلغوا في عصر النبي ﷺ عشرات الآلاف، ثم بعد جيل النبي بدأت تصبح مئات الآلاف، وبعد جيل الخلفاء أصبحت الأمة الإسلامية بالملايين. وهكذا أصبحت تتنامى وتكثر فهل من المعقول أن يترك النبي ﷺ هذه الأمة دون وصية وهو حامل رسالةٍ تأمر بالوصية ولو بشاة؟ إن هذا لا يمكن قبوله ولا يمكن تصوره أبداً.

وقد يقول قائل: إن المسلمين في ذلك الوقت كان يكفيهم القرآن، وكان يكفيهم الصحابة.

والجواب: صحيح أن يقال: إن القرآن فيه تبيان كل شيء[1] وأنه ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾[2] لكن الواقع يقول بأن القرآن الكريم يحتاج إلى القائم عليه ليفسرَ ويبين معانيه وليوضح الغرض والمراد منه، فهو يحتاج إلى من يشرحه.

والدليل على هذا الكلام كما ذكرت قبل فترةٍ وجيزة في إحدى محاضراتي هو أنه ليست هنالك آية في القرآن الكريم لا نجد فيها خلافاً بين المفسرين، فكل آية متنازعٌ فيها وفي معانيها وفي مدلولاتها فمن غير الممكن واقعاً أن يكون هناك إجماع بين المفسرين على معنىً معين ما لم يقف الرسول ﷺ أو القائم مقامه في هذا المجال وفي هذه الرسالة ليبينا للناس ويقولا لهم: هذا هو المعنى المراد من الآية الكريمة. بل إن هذا

---

(١) قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ النحل: ٨٩.

(٢) الأنعام: ٣٨.

الأمر يتعدى المبهمات ليصل حتى إلى الأمور الواضحة وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرا﴾[1]، فالقرآن يقول: الحمل والفصال سنتان ونصف لكن بعض المسلمين يقول بأنه سنتان، وبعضهم يقول بأنه أربع سنين، وبعضهم يقول بأنه عشر سنين، وبعضهم يقول بأنه عشرون سنة. وهذا اختلاف واضح في تحديد فترة الحمل والرضاعة.

إذن فنحن في مقام العمل والتطبيق إلى أي رأي من الآراء يجب علينا أن نرجع؟ وهكذا هو الحال في مختلف الجوانب القرآنية، فما من جانب قرآني إلّا وبين المسلمين فيه خلاف واختلاف في تفسيره وبيان المراد منه. وعليه فلا يمكن توحيد رأي المسلمين برأي واحد حول منظور واحد أو حول آية واحدة، ولا يمكن أن يتم هذا إلّا إذا نصّ عليه النبي صلى الله عليه وآله أو من أنابه النبي عنه فيقول: إن هذا المعنى هو المتعين وهو المراد من هذه الآية الكريمة.

الفرض الثاني: نظرية الوصاية للأمة

وينص هذا الفرض على أن النبي صلى الله عليه وآله قد أوصى ولكن لا لشخص بعينه بل للأمة بكاملها.. أوصى للأُمة بأجمعها، بمعنى أن النبي صلى الله عليه وآله ترك مسألة إدارة شؤون المسلمين واختيار خليفة له إلى الأُمة ليتشاوروا فيما بينهم لانتخابه واستخلافه. وإزاء هذا الفرض فإن لنا أن نوجه بضعة أسئلة إلى الفقه الإسلامي وإلى التاريخ الإسلامي لنطلب منهما أن يفسرا لنا

---

(١) الأحقاف: ١٥.

بعض الإشكالات التي تعترضنا أمام هذا الفرض، فنطلب منهما تفسيرات وشروحاً وإجابات لهذه الأسئلة:

السؤال الأول: الدليل على نظرية الشورى

وهنا نسأل التاريخ والفقه الإسلاميين فنقول: ما هو الدليل على أن الأمر كان شورى؟ ومتى عُمل بالشورى في تاريخ المسلمين؟ طبعاً سوف يستدل هنا في هذا المقام على أمر الشورى بآيتين:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾[١].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[٢].

الرد على الاستدلال بالآية الأولى

وللإجابة والرد على هذا الاستدلال نقول بخصوص قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ فإن جميع المفسرين يقولون بأن هذه الآية هي في مقام مدح الأنصار[٣]؛ لأن هؤلاء كانوا إذا نزل بأحدهم أمر أو حصل له شيء مشكل فإنه لا يستبد برأيه فيه ولا يحاول بأن يحله من نفسه بل إنه يرجع إلى إخوانه وأصحابه فيشاورهم ويستضيء بآرائهم ويستنير بمشورتهم على حل مشكلته. فكان الأنصاري يطرح مشكلته أمام أصحابه ويتداولون هذه المشكلة فإذا أقروا حلاً معيناً عمل به وإن لم يقروه تركه، وبهذا فإنهم كانوا يعملون بمبدأ العقل الجماعي.. العقلية الجماعية التي كانت تسدد كثيراً من الآراء التي يمكن ألّا تصيب فيما إذا كانت آراء شخصية بعيدة عن الشورى.

---

(١) الشورى: ٣٨. (٢) آل عمران: ١٥٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٣٦.

وبناء على هذا فلا يمكن توجيه الآية إلّا بهذه الصورة وهي أن الأنصار مدحهم القرآن الكريم؛ لأنهم يحلون مشاكلهم بمبدأ التشاور والتداول في هذه المشاكل ليصلوا إلى الحلول المناسبة فيقروها. وبما أن الخلافة الإسلامية أمر مهم فإن المسلمين عمدوا إلى إيجاد حل له عن طريق مبدأ الشورى، فهذا هو أقرب الطرق وأيسرها لتقريب الاستدلال بهذه الآية على مبدأ الخلافة.

وهذا الكلام إنما يتم ويعتبر صحيحاً فيما لو لم يكن هنالك نص من السماء على خلاف الشورى، فلو لم يكن هنالك نص فإن الشورى تبقى هي الحل، أما مع وجود النص من السماء على شخص بعينه بأنه هو الخليفة بعد النبي فإن هذا الكلام وهذا الاستدلال يعتبران ساقطين عن الاعتبار؛ لأنه لا شورى ولا اجتهادَ في مقابل النصوص السماوية. وإن شاء الله تعالى سوف أُبين من خلال البحث ما هو المراد من النصوص التي لا يجوز الاجتهاد إزاءها.

ومن هذا نخلص إلى أن هذه الآية الكريمة نزلت في خصوص مدح الأنصار ولا علاقة لها من قريبٍ أو من بعيد بالحكم ونظرية الحكم وتحديد الحاكم الشرعي أو الخليفة الشرعي بعد الرسول صلى الله عليه وآله.

الردّ على الاستدلال بالآية الثانية

وأما في خصوص قوله تعالى: وشاورهم في الأمر فإن المفسرين ينصون على أن الله جل وعلا إنما أمر نبيه صلى الله عليه وآله بمشاورة المسلمين لعدة أسباب منها:

السبب الأوّل: استجلاب مودّة الصحابة

أي أنه صلى الله عليه وآله حينما يخاطبهم في الأمور المهمة ويسألهم حول بعض

المسائل المصيرية التي تهمّ الإسلام والدولة وتمس الوجود فإنه بذلك يكون قد وضع حجر الأساس لانقيادهم ولتقبلهم، ولإشعارهم بأنهم ذوو مكانة عنده أو ذوو أهمية لديه. إذن فهذا السبب هو استجلاب مودة هؤلاء كيلا ينفروا من الإسلام وكيلا يتّهموا الرسول صلى الله عليه وآله بأنه يستبد بالرأي لوحده[1].

السبب الثاني: استبيان الناصح من غير الناصح

ذلك أن الرسول صلى الله عليه وآله بما يعرفه من حلول وما يعرفه من دسائس عند البعض من الشرائح التي انتسبت إلى الإسلام والتي مرّ ذكرها فإن هؤلاء من خلال مشورتهم ومن خلال إشارتهم على الرسول صلى الله عليه وآله يتّضح منهم الناصح لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وآله وللإسلام من الذي يريد أن يكيده.

السبب الثالث: تعليم المسلمين حسن المشورة

أي أنه صلى الله عليه وآله يريد أن يقول للمسلمين جميعاً بأنكم ـ كما أني أشاوركم بأموري وأمور الدولة ـ عليكم أن تتشاوروا فيما بينكم في أموركم ولحل مشاكلكم وقضاياكم التي تعلق.

إذن فهذه الآية أيضاً لا علاقة لها من قريبٍ أو من بعيد في قضية الإدارة وقضية الحكم والخلافة بعد النبي صلى الله عليه وآله.

وهذه تفاسير المسلمين بين أيدينا وهي تفاسير يبلغ عدّها المئة والخمسين تفسيراً أو أكثر، وكلها لا تنصّ على أن لهذه الآية علاقة بمبدأ الحكم والإدارة في الإسلام، وكذلك السنة النبوية فإنها تخلو من النصوص التي لها علاقة بمبدأ الشورى حول الحكم في الإسلام بعد

(١) فتح القدير ١: ٣٩٣.

النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فليس هنالك من حديث في السنة النبوية المطهرة يأمر المسلمين بأن ينتخبوا لهم خليفةً شرعياً من بعده عن طريق الشورى.

لكن لو تنزّلنا وقلنا: إن في القرآن آيات وفي السنة النبوية أحاديث وروايات تنصّ وتأمر بمبدأ الشورى حول قضية الخلافة والحكم في الإسلام، فهنا لنا أن نتساءل: ما هي معالم الشورى؟ وما هي حدودها؟ وهل امتثل الصحابة أمر الشورى أم لم يمتثلوه؟ إن الشورى تعني التداول، يعني أن هناك جماعة كبيرة من المسلمين تمثل المسلمين جميعهم تتداول فيما بينها لتقرير مصير الأُمة، أو لإيجاد حل لهذه المشكلة. ولو رجعنا إلى قضية السقيفة لوجدنا أن الذين انطلقوا من السقيفة وقد بايعوا كانوا اثنين فقط. وتنص الرواية على أن هذين جاءا بالخليفة، وكانوا كما تنص الرواية يخبطون الناس خبطاً بالسيوف ويأمرون الناس والمسلمين بمبايعته حتى بايعوا له[1]. وهذان الاثنان اللذان بايعا الخليفة هما عمر ابن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح، فهل هذه هي الشورى التي تضع حلاً لمشكلة تتعلق بمصير الأمة ووجودها؟ وهل مجلس الشورى الذي ينعقد ينعقد باثنين فقط؟ ولنفرض أن مجلس الشورى قد انعقد باثنين ثم تزايد وأصبح عشرين رجلاً، وأن هذا هو أمر مشروع فلماذا إذن نصّ الخليفة الأول على شخصٍ من بعده بعينه ولم يجعل الأمر شورى بين المسلمين؟ فقد قال قولته الشهيرة: إني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب. فدخل عليه أحد المسلمين وقال له: ماذا تقول لله غداً؟ قال: أقول له: إني استخلفت عليهم خيرهم[2]. وهذه

(١) قريب منه في تاريخ الطبري ٢: ٤٥٩.

(٢) السنن الكبرى (البيهقي) ٨: ١٤٩، شرح نهج البلاغة ١: ١٦٥، الطبقات الكبرى ٢:

الرواية يرويها أبناء المذاهب الإسلامية الأُخرىٰ.

وبناء عليه فأين مبدأ الشورى؟ ثم كان الأمر مع الخليفة الثاني وقد خرج عن الطريقين فلم يعمل بالتعيين كما عمل أبو بكرٍ ولم يعمل بالشورى كما فُعل مع أبي بكرٍ؛ فقد عمد إلى ستةٍ أوصى إليهم بأن تكون الخلافة في أحدهم بعد أن يتفقوا عليه، ثم أمرهم بأنه لو انقسم هؤلاء الستة إلى قسمين متساويين فإن عليهم أن يرجّحوا كفة الجماعة التي فيها عبد الرحمن بن عوف، وهكذا فإن الجماعة التي اختارت عثمان بن عفان كان فيها عبد الرحمن بن عوف، وفعلاً تمت البيعة لعثمان ابن عفان.

إذن فهل هذا الأمر من الشورى بشيء؟ وأين موقع الشورى من النص والتطبيق؟ وبناء على هذه التفسيرات وبناء على هذه الوقائع يتّضح ما هو المراد من الشورى. ثم إن هذا الذي يدّعي دعوى الشورى دون أن يكون هنالك عنده دليل ناهض يعضده ينبغي عليه أن يخجل من نفسه وأن يحترم مخّه وهو يطلق مثل هذه الدعوى التي لا دليل عليها ولا أساس لها بناء على ما بينّا من ردود ونقوضٍ على أدلّتها.

على أية حال فالنبي صلى الله عليه وآله لم يعتمد نظرية الشورى إطلاقاً، وكذلك الإسلام لم يعتمد نظرية الشورى أيضاً، ومن غير المعقول أن يكِل النبي صلى الله عليه وآله هذا الأمر (أمر الشورى) إلى الأمة، والأمة إلى الآن لم تصل إلى المستوى المطلوب في حمل رسالة القرآن.

---

٢٧٤. الثقات (ابن حبّان) ٢: ٢. وفيه: رفع أبو بكر يديه وقال: اللهم إني قد وليته بغير أمر نبيك.

وهنا نقول: إن كان الأمر شورى، فما الضرورة لهذا القول؟ وإن كان هذا القول نابعاً عن إحساس أبي بكر بالمسؤولية، وتوقّع الخوف أو المكروه من أجله؛ كما توحيه عبارة «بغير أمر نبيك» فهذا يعني أن في الأمر تعدّياً على خليفة شرعي بعينه.

وربما يقول قائل: إن هذه الدعوى دعوى خطرة وهي تمس الأُمة كلها.

والجواب: أن هذه الدعوى صحيحة ودليل صحتها هو بالرجوع إلى الأدلة والحقائق التاريخية التي مر بها المسلمون، ومن ذلك واقعة أُحد التي خالف المسلمون فيها قول الرسول طمعاً في الغنيمة مع أن الرسول أمرهم بألّا يبارحوا أماكنهم التي وضعهم فيها وفق خطته العسكرية للمعركة، ولكنهم مع ذلك خالفوا طلباً للغنيمة فكان ما كان من أمر هزيمة المسلمين وفرارهم عنه صلى الله عليه وآله. وكذلك الحال في يوم موت الرسول صلى الله عليه وآله وفيما كان الرسول صلى الله عليه وآله يحتضر أمرهم بأن يأتوه بدواة وقرطاس كي يكتب لهم كتاباً يحقق وجودهم ويثبتهم، لكنهم رفضوا.

ونحن لا نريد أن نقول: إن بعض المسلمين قال: إنه يهجر، لكننا نقول بما تقوله الروايات عند المذاهب الإسلامية من أن أحد المسلمين قال فيها: قد غلب عليه الوجع[١] ومعنى غلب عليه الوجع أن كلامه ليس كلام شخص متّزن، وعليه فإنه لا قيمة له. أليس هؤلاء هم الذين كانوا المسلمين في زمن الرسول صلى الله عليه وآله؟ وهل يتّهم المسلم الرسولَ الذي لا ينطق عن الهوى بأنه قد غلب عليه الوجع؟ بمعنى أن كلامه كلام مريض وليس كلام رجل متّزن في كامل قواه العقلية، وأن كلامه ليس بحجة فلا تأتوه بقرطاسٍ ودواة ولا تطيعوا ما أمركم به. فإذا كان هذا حال المسلمين والنبي حيٌّ بينهم.. والنبي لم يزل بين ظهرانيهم، فما هو الحال فيما إذا كان الأمر بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله عنهم؟

---

(١) مسند أحمد ١: ٣٣٦، صحيح البخاري ٧: ٩، صحيح مسلم ٥: ٧٦.

الردّ على الشورى بقول أبي بكر وعمر

ونحن حينما نرجع إلى الفقه الإسلامي عند المذاهب الإسلامية الأخرى وإلى كتب التاريخ والسير فإننا سنجد أن الخليفة الثاني قد فرق في العطاء بين المسلمين، ومن هؤلاء المؤلفة قلوبهم الذين نصت عليهم الآية في إعطائهم الزكاة، وهؤلاء المؤلفة قلوبهم كان الرسول صلى الله عليه وآله يعطيهم شيئاً من الزكاة بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ... وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾[1]؛ ليستميلهم إلى الإسلام، وحينما جاء الخليفة الثاني منع الزكاة عنهم وقال: إن الإسلام إنما فرض لهؤلاء سهماً؛ لأنه في أول أمره كان ضعيفاً، أما الآن وقد قوي فلا حاجة له بهم. ولمّا قيل له في ذلك بأنه إنما يخالف النص، أجابهم بأنه يسترشد بروح النصّ.

فإذا كان الخليفة الثاني يرى منع الزكاة عن هؤلاء لأنهم لا يمكن أن يكونوا بمستوى المسلم الصحيح أو الحقيقي، فكيف يمكن أن يوكل أمر الأمة إلى المسلمين وفيهم من هو من المؤلفة قلوبهم، وفيهم من هو من المتربصين وما إلى ذلك؟ وسوف أروي هنا رواية وقعت أو حادثة حدثت بين الخليفة الثاني وبين عبد الله بن عباس رضي الله عنه وهي واحدة من الحوادث التي وقعت بينهما، تقول الرواية التي تنقل هذه الحادثة: دخل عبد الله بن عباس رضي الله عنه المسجد النبوي فوجد الخليفة الثاني وحولة مجموعة من الشعراء وقد تساءلوا فيما بينهم، فسأل أحد الجالسين قائلاً: أي الناس أشعر؟ فقال له عمر بن الخطاب: أنا لا أعرف في الشعر، وهذا ابن بجدتها قد جاءكم (يعني عبد الله بن عباس)، فاسألوه. فلما دخل عبد الله بن

(١) التوبة: ٦٠.

عباس وجلس إلى جانب الخليفة الثاني التفت إليه عمر بن الخطاب وقال له: يابن عبّاس، هل لك إلى أن تخبرنا عن أي الناس أشعر؟ فقال ابن عباس: أشعر الناس زهير بن أبي سلمى حيث يقول في مدح قوم من غطفان يقال لهم بنو سنان:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم	قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا
قوم أبوهم سنان حين تنسبهم	طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا
إنس إذا أمنوا جن إذا فزعوا	مرزّؤون بهاليل إذا جهدوا
محسّدون على ما كان من نعم	لا ينزع الله منهم ما له حسدوا

فقال عمر: والله لقد أحسن، وما أرى هذا المدح يصلح إلّا لهذا البيت من هاشم لقرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وآله. ثم قال: يابن عبّاس، أتدري ما منع الناس عنكم؟ قال: لا. قال: لكني أدري. قال: ما هو؟ قال: كرهت قريش أن تجتمع لكم النبوّة والخلافة فتجفخوا جفخاً وتنفخوا نفخاً، فنظرت قريش لنفسها فاختارت، ووفقت فأصابت. فقال ابن عباس: أيميط أمير المؤمنين عني غضبه فيسمع؟ قال: قل ما تشاء. قال:

أما قولك: إن قريشاً كرهت، فإن الله تعالى قال لقوم: **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾**[1] أي أنك جعلت المناط في أحكام الله تعالى وأوامره هو كراهة قومنا وعدم كراهتهم، فلو كره قومنا نزول القرآن الكريم فهل يترك الله تعالى إنزاله؟ ولو أن قومنا كرهوا نزول الوحي والإسلام ـ كما حصل بالفعل ـ فهل يترك الله تعالى أمره ويمتنع عن إنزاله على الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله؟ والحاصل أنه لو أراد الله تعالى شيئاً وكرهته

---

(١) محمد: ٩.

قريش فهل نتركه طاعة لقريش ومعصية لله؟

وأما قولك: إنا كنا نجخف ـ أي يصبح عندهم كبرياء وتضخّم ـ فلو جخفنا بالخلافة جخفنا بالقرابة، ولكنا قوم أخلاقنا مشتقّة من خلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1]، وقال له: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

وأمّا قولك: فإن قريشاً نظرت لنفسها فاختارت ـ ولنلاحظ التعبير هنا وهو (قريشاً اختارت)، بمعنى أن المسلمين جميعاً لم يختاروا بل إن الذي اختار هو قريش فقط، وهم جزء من المسلمين وليسوا كلهم، فهناك الأنصار وهناك القبائل العربيّة المسلمة من غير قريش، فإن كان الأمر متعلّقاً بكون قريش قبيلة النبي فبنو هاشم أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ ولذا فإن أمير المؤمنين عليه السلام لمّا بلغه احتجاج أهل السقيفة بهذا قال عليه السلام: «احتجّوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة»[3]؛ لأنهم أقرباء نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وخاصّته وأبناؤه، وغيرهم من قريش أبعد عنه منهم، وهذا هو تعبير الخليفة الثاني نفسه ـ فليس من حقّ قريش أن تختار لنفسها، ذلك أن الله تعالى يقول: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[4]، وقد علمت أن الله اختار من خلقه لذلك من اختار. أي أن الله تعالى اختار وقضى ولم يترك الأمر هملاً أو دون أن ينزل فيه حكماً.

وأما قولك: ووفقت فأصابت، فليس الأمر كذلك؛ لأن الذي يختار خلاف ما اختار الله تعالى لم يوفّق، فلو نظرت قريش من حيث نظر الله لها

(١) القلم: ٤. (٢) الشعراء: ٢١٥.
(٣) نهج البلاغة / الكلام: ٦٧.
(٤) القصص: ٦٨. أي أنه تعالى جعل كل اختيار خلاف اختياره جلّ وعلا شركاً.

لو فقت وأصابت.

ثم نفض ابن عباس ثيابه وقام، فقال عمر: على رسلك يابن عباس، أبت قلوبكم يا بني هاشم إلّا غشّاً في أمر قريش لا يزول، وحقداً عليها لا يحول. فقال ابن عباس: مهلاً، لا تنسب هاشماً إلى الغشّ؛ فإن قلوبهم من قلب رسول الله صلى الله عليه وآله الذي طهّره الله وزكّاه، وهم أهل البيت الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[1].

وأما قولك: حقداً، فكيف لا يحقد من غصب حقّه ويراه في يد غيره؟ فقال عمر: أمّا أنت يابن عباس، فقد بلغني عنك كلام أكره أن أُخبرك به، فتزول منزلتك عندي. قال: وما هو؟ أخبرني به؛ فإن يكُ باطلاً فمثلي أماط الباطل عن نفسه، وإن يكُ حقّاً فإن منزلتي عندك لا تزول به. قال: بلغني أنك لا تزال تقول: أُخذ هذا الأمر منك حسداً وظلماً. قال:

أما قولك: حسداً، فقد حسد إبليس آدم فأخرجه من الجنة، فنحن بنو آدم المحسود.

وأما قولك: ظلماً، فأمير المؤمنين يعلم صاحب الحقّ من هو. ثم قال: ألم تحتجّ العرب على العجم بحقّ رسول الله صلى الله عليه وآله، واحتجّت قريش على سائر العرب بحق رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فنحن أحق برسول الله صلى الله عليه وآله من سائر قريش. فقال له عمر: قم الآن فارجع إلى منزلك.

فقام، فلما ولّى هتف به الخليفة عمر: أيها المنصرف، إني على ما كان منك لراعٍ حقّك. فالتفت إليه ابن عباس وقال: إن لي عليك وعلى كلّ المسلمين حقّاً برسول الله صلى الله عليه وآله، فمن حفظه فحقّ نفسه حفظ، ومن أضاعه

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

فحقّ نفسه أضاع. ثم مضى [١].

أي أن الخليفة الثاني كأنما استشعر أن المدح هذا إذا كان لا يليق إلا ببني هاشم وهم أهل له فلماذا إذن ذهبت الخلافة عنهم، فكأنما أجاب عن إشكالٍ مضمر. وعبد الله بن عباس قد أمسك بزمام المبادرة بعد أن قال له الخليفة الثاني ما قال، فهو لم يكن بالذي تفوت عليه مثلُ هذه الأمور ولذا فإنه احتج عليه بما احتج.

على أية حال فإننا حينما نلاحظ المحاورة نجد فيها أن قريشاً قد اختارت وليس المسلمون هم من اختار، وموضع الشاهد هنا أنه يقول له: قريشٌ اختارت ونحن اخترنا ولم يستدل عليه أو على مدّعاه بمبدأ الشورى بل إنه استدل عليه أو نسب هذا الفعل إلى اختيار قريش خاصة دون أن يكون للمسلمين عامة. ولو أن هناك نظرية واضحة المعالم للشورى لاحتجّ بها الخليفة عليه وقال له: على رسلك فإننا إنما تشاورنا في الأمر واخترنا أبا بكرٍ في تلك الحادثة؛ وعليه فلا وجه لادعائكم الأمر دوننا؛ لأننا قد أثبتناه للخليفة الأول بحقّ الشورى، وهو حقّ مأمور به. وبما أن الخليفة الثاني لم يحتج بهذا بل احتج باختيار قريش فهذا يدل على أن مبدأ الشورى لم يكن معمولاً به، وعلى أن الشورى لم تكن منظورة في اختيار الخليفة الأول.

ثم إنه ليس هنالك من صحابي احتج للخلافة ولصحتها ولصحة إعطائها لأبي بكرٍ بمبدأ الشورى، بل إن الخليفة الأول نفسه لم يحتج في السقيفة بمبدأ الشورى فلم يقل أنا جئت بالشورى بل إنه قال: نحن أهل

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢: ٥٢ ـ ٥٥، مناقب أهل البيت عليهم السلام: ٤٥٣ ـ ٤٥٤.

بيت النبي محمد وعشيرته ولا ينازعنا سلطان محمد إلّا ظالم. فهذا كل احتجاجه، وليس فيه إشارة إلى مسألة الشورى، فلا الخليفة الأول ولا الخليفة الثاني يحتجّان بالشورى في مسألة الخلافة واستخلاف الرسول بل إن الخليفة الأول يحتجّ بقرابة النبي التي عبر عنها الإمام علي عليه السلام بأنهم احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة، واحتج الخليفة الثاني باختيار قريش وليس هنالك من ذكرٍ مطلقاً لقضية الشورى.

ولهذا فإن الأنصار رفضوا هذا القول وهذا المبدأ حتى إنهم وصل بهم الأمر إلى أن يقولوا: منّا أمير ومنكم أمير، فقام عمر بن الخطاب وقال: والله لا ينازع عشيرة محمد في سلطانه إلّا ظالم[1]. ورُفِضَ «مبدأ منّا أمير ومنكم أمير».

إذن مبدأ الشورى لم يحتج به أيّ صحابي في صدر الإسلام حول صحة الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا القرآن الكريم بين أيدينا وهذه السنة النبوية المطهرة أيضاً بين أيدينا دون أن نجد فيهما ما يشير إلى هذا المبدأ أو هذه النظرية في خصوص تعيين الخليفة بعد الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم. فمن أين انبثقت نظرية الشورى؟ وبهذا فإننا نغلق باب القول بمبدأ الشورى أو بنظرية الشورى لأنها نظرية لا أساس لها في الإسلام، ولم يحتجّ بها أو يستدل بها صحابيّ سواءً كان الخليفة نفسه أو أحد الصحابة الآخرين في كل احتجاجاتهم ومناقشاتهم.

الفرض الثالث: النصّ

ووفق هذا الرأي فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد أوصى بالخلافة من بعده لشخص

---

(١) تاريخ الطبري ٢: ٤٥٧، الكامل في التاريخ ٢: ٣٣٠.

معيَّن، وأن النصوص والروايات النبوية الشريفة قد نصت على هذا الأمر. وهذه النصوص (لحسن حظّنا) تملأ كتب الحديث والسير والتاريخ، وإنما قلنا: لحسن حظنا، لأننا نعرف ما هو التاريخ ومن الذي كتب التاريخ وما الذي حصل في التاريخ.. التاريخ الذي يقول عن النبي صلى الله عليه وآله : إنه قد غلبه الوجع حينما قال لهم «ايتوني بدواة وقرطاس أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً»(١).

المبحث الثاني: نماذج من محاولات تشويه التاريخ

فهذا التاريخ الذي يحمل حقداً على هذا البيت النبوي لا يمكن أن يحفظ لنا هذا الأمر، لكن الله شاء ـ وهذا كما قلنا من حسن حظنا ـ أن يكون في التاريخ أو في الكتب الأُخرى إشارات أو ذكر لهذا الأمر.

فهذا التاريخ مشبع بالتزوير، وسنضرب على هذا عدّة نماذج:

الأنموذج الأوّل: نسبة كلمة «غلبه الوجع» لأمير المؤمنين عليه السلام

إنّنا حينما نرجع إلى كتاب (حياة محمّد) لتوفيق الحكيم نجده يذكر أن هذه الكلمة (غلبه الوجع أو إنه ليهجر) قد ذكرها عمر وعلي. هكذا ينص توفيق الحكيم حول هذه الواقعة، وهل من المعقول أن يقولها علي بن أبي طالب الذي انتقل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله إلى الرفيق الأعلى ورأسه على صدره؟ إن هذا هو المستحيل بعينه لكن هذا الكاتب كأنما كبرت عليه الكلمة أن تُنسب للخليفة الثاني وحده فحاول أن يخفف وطأتها بنسبتها إلى عليّ عليه السلام معه، وهذا هو التاريخ الذي نتكلم عنه، إنه تاريخ مشوه مزور يحاول فيه البعض طمس الحقائق وتشويه الصور الواضحة

(١) مسند أحمد ١: ٣٥٥، صحيح البخاري ١: ٣٦، ٧: ٩، صحيح مسلم ٥: ٧٥ـ٧٦.

للوصول إلى مآرب يرتؤونها.

الأنموذج الثاني: فرية أنّ السجّاد عليه السلام يلعب بالشطرنج

ينقل الدميري في كتابه (حياة الحيوان الكبرى) أن الإمام الشافعي يجيز اللعب بالشطرنج ولا يرى به بأساً إلّا وقت الصلاة، فإنه لا يجيزه بمعنى إنه لا يجيزه إذا حل وقت الصلاة. فإذا أدى المسلم صلاته فحينئذٍ لا بأس عليه في أن يلعب، وحينما ينتقل بعد ذلك الدميري إلى نقل موقف الإمام زين العابدين عليه السلام من مسألة اللعب بالشطرنج، فإننا نجده يقول: وكان زين العابدين يلعب بالشطرنج[1].

وقصد الدميري هنا هو عين قصد الحكيم هناك فهو لا يريد أن يقع اللوم على عاتق الشافعي وحده فأراد أن يشرك معه أحداً في هذا، ولم يجد أمامه غير زين العابدين عليه السلام؛ لأنه من هذا البيت الذي نسب توفيق الحكيم إلى أحد أفراده كلمةً قالها عمر بحق الرسول صلى الله عليه وآله. أي أنه يريد أن يجد مبرّراً لفتوى الشافعي ولم يجد أمامه سوى زين العابدين وسيد الساجدين عليه السلام الذي قيل ما قيل فيه وبحقه من علماء المسلمين.

وهكذا نرى أن تاريخاً مثل هذا لا يمكن أن يحفظ لنا نصوصاً يمكن أن يستدل بها في المقام على نظرية النص أو على حقيقة النص، لكن مع ذلك ولمشيئة الله جلّ وعلا فإننا نجد أن التاريخ قد حفظ لنا نصوصاً كثيرة في هذا المجال مبثوثة ومنتشرة في كتب التاريخ والسير والحديث، ومن هذه النصوص ما يرويه أبو ذر رضي الله عنه بقوله: والذي بعث محمداً بالحق نبياً لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله آخذاً بيد علي عليه السلام في جانب الكعبة وهو يقول له:

---

(١) حياة الحيوان الكبرى ٢: ٦٢ ـ ٦٣.

«يا علي حربك حربي وسلمك سلمي»[(١)]، ويقول له صلى الله عليه وآله: «من أحبك ختم الله له بالأمن والإيمان، ومن أبغضك فليس له نصيب من الإسلام»[(٢)]، ويقول له صلى الله عليه وآله: «أخي ووزيري وناصري وخليفتي من بعدي»[(٣)].

وليس هذا الأمر مقتصراً على النصوص الحديثية بل إنه تجاوزها إلى النصوص الأدبية أيضاً التي عاصر أصحابها النبي صلى الله عليه وآله؛ فهناك الكثير من النصوص الأدبية التي قيلت في زمن النبي صلى الله عليه وآله والتي تعبر عن الإمام علي عليه السلام بأنه الوصي والخليفة من بعد النبي محمد صلى الله عليه وآله[(٤)]. وهناك نصوص أُخرى قيلت بعد وفاة الرسول في حادثة السقيفة ومنها نص شعري قاله عبد الله بن أبي سفيان بن الحرث بن عبد المطلب حيث يقول:

وإن ولي الأمــــر بـــعد مـــحمد ... علي وفـي كلّ المـواطـن صـاحبُه

وصـــي رســول الله حــقاً وصـنوه ... وأول من صلّى ومن لان جـانبُه[(٥)]

هــذا وهــناك الكـثير مـن النـصوص غيره تـثبت هـذا الأمـر لأمـير المؤمنين عليه السلام.

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٤، المناقب (الخوارزمي): ١٩٩، وقاله له بهذا المعنىٰ أحاديث كثيرة، انظر الحاوي للفتاوي ٢: ٤٤.

(٢) مسند أبي يعلىٰ ١: ٤٠٣ / ٥٢٨، المعجم الكبير ١٢: ٣٢١، كنز العمال ١١: ٦١١ / ٣٢٩٥٥، ١٣: ١٥٩ / ٣٦٤٩١، وقال: قال البوصيري: رواته ثقات.

(٣) ورد هذا الحديث عن الصادق الأمين صلى الله عليه وآله في حق أمير المؤمنين عليه السلام بصيغ كثيرة ومناسبات عدّة، انظر: الكافي ١: ٣٢١ / ٧، الأمالي (الصدوق): ٣٥٤ / ٤٣٢، السنن الكبرىٰ (النسائي) ٥: ١٢٦ / ٨٤٥١، المعجم الكبير ١٢: ٣٢١.

(٤) كنص حسان بن ثابت الذي يقول فيه:

يـناديهمُ يـوم الغـدير نـبيُّهم ... بـخمٍّ وأسمِعْ بـالنبي مـناديا

مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (الكوفي) ١: ١١٩، مناقب آل أبي طالب ٢: ٢٣٠.

(٥) شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٣١.

الأنموذج الثالث: فرية عبد الله بن سبأ

ومع كل هذا يأتي التاريخ النتن الذي يقول بأن عبد الله بن سبأ هو صاحب نظرية الوصاية إلى الشيعة أو إلى علي ابن أبي طالب عليه السلام لأن عبد الله بن سبأ هو مؤسس المذهب الشيعي.

حقيقة عبد الله بن سبأ

وهذا الأمر يمكن الرد عليه من عدة جوانب:

الجانب الأول: أن عبد الله بن سبأ هو شخصية وهمية غير حقيقية ولا وجود لها.

الجانب الثاني: أنه على فرض وجوده فإن الذين يثبتون وجوده فإنهم يثبتونه في زمانٍ متأخرٍ على وجود المذهب الشيعي، كما أنه نشأ في العراق وليس في المدينة المنورة وفي خلافة علي ابن أبي طالب عليه السلام أما هذه الأبيات المارة لسفيان ابن الحرث ابن عبد المطلب فإنها قيلت في الحجاز وليس في العراق وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم مباشرة أي قبل وجود عبد الله بن سبأ وقبل خلافة علي بن أبي طالب عليه السلام بما يقارب الثلاثين عاماً، فهل إن عبد الله بن أبي سفيان بن الحرث تنبأ بهذه الأبيات قبل أن يُخلق عبد الله بن سبأ؟ إن هذا أمر غير معقول.

وكذلك النصوص الأدبية التي وقعت في حرب صفين، النصوص التي كانت تصف الإمام علياً عليه السلام بأنه وصي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخليفته، فيقول الوليد بن جابر بن ظالم الطائي:

شذوا فداء لكُمْ أُمي وأبْ	فإنما الأمر غدا لمن غلبْ
هذا ابن عمّ المصطفى والمنتجبْ	تنميه للعلياء سادات العربْ

ليس بموصوم إذا نص النسبْ أول من صلّى وصام واقتربْ[1]

وكذلك غيره من الشعراء الذين يستعرضون هذه النصوص أو هذه الحقائق التي تصفه عليه السلام بأنه الخليفة والوصي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله. وكل هذه النصوص قبل أن يخلق عبد الله بن سبأ الموهوم في مخيّلات وأذهان مزوري التاريخ والحاقدين على أهل هذا البيت عليهم السلام. وهؤلاء الذين يدّعون وجوده يقولون: إن عبد الله بن سبأ هذا هو الذي حرّك أهل مصر للثورة على الخليفة الثالث، وهو الذي حرّك أبا ذر، وهو الذي حرّك أهل الكوفة، وهو الذي زرع فيهم قضية الوصاية إلى الشيعة وإلى علي بن أبي طالب عليه السلام.

وحينما نطّلع أكثر على ما يكتبه هؤلاء عن عبد الله بن سبأ فإننا نستطيع أن نصفه بأنهم يكتبون عن عقل الكتروني ضخم موجود في مكان ما من هذا العالم ويمد أذرعته وسيطرته على العالم كله فيحركه أنى شاء وكيف شاء. وهذا طبعاً راجعٌ إلى تلك العقليات التافهة التي خلقته في مخيلتها وحاولت أن تصبه في كتب التاريخ. وقد أجاد الدكتور طه حسين حينما عبّر عنه بقوله: لقد ادّخره خصوم الشيعة للشيعة[2]، أي أنه كيان وهمي

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٦: ١٢٩.

(٢) قد ذكر الدكتور طه حسين هذه الأُسطورة السبئيّة، حيث إنه استعرض الصورة التي رسمت لابن سبأ أولاً، ثم سخّف هذه الفكرة بعد تحليل دقيق، وانتهى به إلى القول بأن عبد الله بن سبأ شخصيّة وهميّة خلقها خصوم الشيعة، ثم دعم رأيه بالأمور التالية:

١ - أن كل المؤرّخين والثقات لم يشيروا إلى قصّة عبد الله بن سبأ، ولم يذكروا عنها شيئاً.

٢ - أن المصدر الوحيد عنه هو سيف بن عمر، وهو رجل معلوم الكذب ومقطوع بأنه وضّاع.

٣ - أن الأُمور التي أُسندت إلى عبد الله بن سبأ تستلزم معجزات خارقة لفرد عادي، كما تستلزم أن يكون المسلمون الذين خدعهم عبد الله بن سبأ وسخّرهم لمآربه، وهم ينفّذون

وخيال غير موجود ادّخره خصوم الشيعة للشيعة ليحاربوهم به.

أهدافه بدون اعتراض بأنهم في منتهى والسخف.

٤ - عدم وجود تفسير مقنع لسكوت عثمان وعمّاله عنه مع ضربهم لغيره من المعارضين كمحمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر وعمّار وغيرهم.

٥ - عدم وجود أثر لابن سبأ ولجماعته في واقعة صفّين وفي حرب النهروان.

ولهذا قال: إن عبد الله بن سبأ شخص ادّخره خصوم الشيعة للشيعة، ولا وجود له في الخارج.

الفتنة الكبرى ١: ١٣١.

وقد ورد في سيف بن عمر راوي الأُكذوبة قدح كثير نذكر منه على سبيل المثال:

١ ـ يقول ابن حبان: كان سيف بن عمر يروي الموضوعات، وقالوا: إنه كان يضع الحديث، واتّهم بالزندقة. كتاب المجروحين ١: ٣٤٥.

٢ ـ كما يقول عنه الحاكم النيسابوري: اتهم سيف بالزندقة، وهو بالرواية ساقط. عنه في تاريخ الإسلام ١١: ١٦٢.

٣ ـ وقال عنه ابن معين: ضعيف. تاريخ ابن معين ١: ٣٣٦ / ٢٢٦٢.

٤ ـ وقال عنه: متروك. مجمع الزوائد ١٠: ٢١.

٥ ـ ونقل الذهبي في كاشفه عنه تضعيفه له: الكاشف في معرفة من له رواية في كتب الستة ١: ٤٧٦ / ٢٢٢٤.

٦ ـ وقال عنه: يروي عن خلق كثير مجهولين. ميزان الاعتدال ٢: ٢٥٥ / ٣٦٣٧.

٧ ـ وقال: ضعيف. الأوائل: ٨١.

٨ ـ وقال عنه النسائي صاحب (السنن): ضعيف. الضعفاء والمتروكين ١٨٧ / ٢٥٦.

٩ ـ وقال عنه العقيلي: ضعيف. ضعفاء العقيلي ٢: ١٧٥ / ٦٩٤.

١٠ ـ وقال عنه ابن عدي: ضعيف. الكامل في ضعفاء الرجال ٣: ٤٣٥ / ٨٥١.

١١ ـ وقال عنه الطبراني: ضعيف. الأوائل: ٨١.

١٢ ـ وقال عنه الرازي: ضعيف. الجرح والتعديل ٤: ٢٧٨ / ١١٩٨.

١٣ ـ وقال سبط ابن العجمي: كان يضع الحديث، اتهم بالزندقة. الكشف الحثيث: ١٣١ / ١٣٥.

١٤ ـ وقال عنه أبو نعيم: متهم في دينه، مرمي بالزندقة، ساقط الحديث، لا شيء. الضعفاء: ٩١ / ٩٥.

١٥ ـ وقال عنه الهيثمي: ضعيف. مجمع الزوائد ١: ١٥٢، ٤: ١٥١.

الأنموذج الرابع: فرية أنّ «المولى» تعني ابن العم

إذن فالواقع أن وصاية النبي محمد صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين عليه السلام ثابتة معلومة وقد وقف بها النبي صلى الله عليه وآله يعلن عنها أكثر من مرّة ويصدح قائلاً: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه»[١].

ومعنى «أنا أولى بكم من أنفسكم» أن لي حق التصرف بأموالكم وبأنفسكم وفق الضوابط الشرعية والسلطة الممنوحة من السماء. وهذه الولاية التي هي لي أنا أُعطيها لعلي بن أبي طالب عليه السلام في حين أن التاريخ المزور يأتي ليقول: إن الرسول أخذ بيد عليٍ في ذلك الموقف الشديد الحرارة وفي ذلك الجمع الغفير والجماعة العظيمة ليقول لهم: إن علي بن أبي طالب هو ابن عمي؛ لأن من معاني المولى هو ابن العم[٢]. وما دام الخصم يأخذ

الركيزة الثانية: السري بن يحيى، كما يسميه الطبري، وهو ليس بالسري بن يحيى الثقة، لأن السري بن يحيى الثقة يكون زمانه أقدم من الطبري، فقد توفي سنة (١٩٧) هـ في حين أن الطبري قد ولد سنة (٢٢٤) هـ. فالفرق بينهما سبعة وخمسون عاماً. ولا يوجد عند الرواة سري بن يحيى غيره؛ ولذلك يفترض أهل الجرح والتعديل أن السري الذي يروي عنه الطبري يجب أن يكون واحداً من اثنين، كل منهما كذّاب وهما: السري بن إسماعيل الهمداني الكوفي، والسري بن عاصم الهمداني نزيل بغداد المتوفى سنة (٢٥٨)هـ، والذي أدرك ابن جرير الطبري وعاصره أكثر من ثلاثين عاماً. وكل من هذين قد كذّبه أهل الحديث، فقد اتهموهما بالوضع، كما فعل ابن حجر في (تهذيب التهذيب)، و(لسان الميزان)، والذهبي في (ميزان الاعتدال)، والجوزي في (تذكرة الموضوعات)، وغيرهم.

وقد ذكر النقاد للطبري سبعمائة حديث وحديثاً واحداً، وهذه الأحاديث تغطي زمن الخلفاء الثلاثة، وأسانيد هذه الروايات كلها عن السري الكذاب وعن شعيب المجهول، وعن سيف الوضاع المتهم بالزندقة.

(١) مسند أحمد ١: ٨٤ وغيرها، ٤: ٢٨١ وغيرها، ٥: ٣٤٧ وغيرها، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٢٩٧، سنن ابن ماجة ١: ٤٥، وغيرها كثير.

(٢) لسان العرب ١٥: ٤٠٨ ـ ولي.

النصوص بهذه الكيفية وبهذه الصورة وبهذا الفهم الساذج السطحي، فما الفائدة من سرد النصوص التاريخية الكثيرة له؟

وأحب أن أؤكد بأن علي بن أبي طالب عليه السلام في غنىً عن كثيرٍ من النصوص، بمعنى أننا لا نريد أن نزكّي علي بن أبي طالب لأنه قد وردت بحقه الفضيلةُ الكذائية أو الحديث الكذائي، بل إننا نريد أن نستقرئه بعيداً عن كل النصوص وعارياً عن الفضائل التي قيلت بحقه وهو أهل لها، فنأخذه مجرداً عن كل تلك الأقوال التي قيلت فيه والفضائل التي وردت بحقه، ثم لنرى هل هو يستحق أن يكون في المنزلة التي وُضع فيها أو لا يستحق أن يكون. وهذا معناه أن كل تلك الفضائل والأحاديث التي وردت بحقه هي إنما وردت لأنه أهل لأن ترد فيه، لا أنه وضع في هذه المكانة لأن هذه الأحاديث قد وردت فيه.

وهذا يدفع بنا إلى أن نأخذ علي بن أبي طالب كياناً مسلماً مجرداً عن الخصوصيات الأُخرى كافة، ثم نقارنه بالكيانات الإسلامية الأُخرى مجردة أيضاً عن تلك الخصائص، ثم لنرى من هو الأفضل منهم ومن هو الأحق بأمر هذه الأمة. وبعد هذا التجريد هل يمكن أن يقال: إننا يمكن أن نجدَ ندّاً لعلي عليه السلام؟ طبعاً لا. وكما قلنا فإن هذا الأمر مأخوذٌ مجرداً عن كل الخصوصيات بغض النظر عن كوني شيعياً وكونك شيعياً وما إلى ذلك [١]. وعليه فإننا لا يمكن أن نجد له من يمكن أن يقارعه علماً أو حلماً أو شجاعةً أو كرماً وقدماً في الإسلام وأصالةً وكفاحاً عن المسلمين، إننا لن نحتاج إلى النصوص بهذا المجال في شيء لأن النصوصَ لا يمكن أن

---

(١) ولذا فقد كتب فيه حتى أهل السنة، بل وحتى المسيحيّون كما فعل جورج جرداق، والشاعر بولس سلامة صاحب (ملحمة الغدير).

تزيد علياً عليه السلام شيئاً مادام هو في تلك المكانة التي أهلتهُ لها خصائصه الكريمة وصفاته الشريفة:

غالى يسارٌ واستخفَّ يمينُ بك يا لكُنهِك لا يكاد يبينُ
تُجفى وتُعبد والضغائن تغتلي والدهر يقسو تارةً ويلينُ
وتظلّ أنت كما عهدتُك نغمة للآن لم يُرقَ لها تلحينُ
فرأيت أن أرويك محض رواية للناس لا صور ولا تلوينُ
فلأنت أروع إذ تكون مجرّداً ولقد يضرّ برائع تثمينُ
ولقد يضيق الشكل عن مضمونه ويضيع داخل شكله المضمونُ
إنـي أتيتك أجتليك وأبتغي ورداً فعندك للعطاش معينُ
وأغضّ عن طرفي أمام شوامخ وقع الزمان وأسّهن متينُ
وأراك أكبر من حديث خلافة يستامها مروان أو هارونُ
لك بالنفوس إمامةٌ فيهون لو عصفت بك الشورى أو التعيينُ
فدع المعاول تزبئرّ قساوةً وضراوةً إن البناء متينُ

إذن فدراسة أمير المؤمنين عليه السلام دراسة موضوعية بعيدة حتى عن النصوص توصل الدارس والباحث إلى أنه مِلاك الفضائل والصفات الحميدة بما له من سابقةٍ في الإسلام، وكفاحٍ عنه وعن دين السماء وعن رسول السماء. ومع كل هذا فإن من يُرد نصوصاً في هذا الخصوص فإن بين أيدينا العشرات من المصادر والكم الهائل من النصوص التي تتناول صفات هذا الرجل وفضائله الحميدة، يروي الدارقطني والسمعاني في (فضائل الصحابة) عن عائشة أنها قالت: والله لقد وضعه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى جانبه وأخذ يدنيه إليه.

وهذه الخصيصة لم تكن لتفارقَ علياً عليه السلام في منزلته من رسول الله صلى الله عليه وآله؛ ولذا فإنه حتى في اللحظات الأخيرة من الحياة الشريفة للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله نجد أمير المؤمنين عليه السلام يفارقه، ونجده عليه السلام يصف تلك اللحظات بقوله: «ولقد وسدتك في ملحودة قبرك، وفاضت روحك بين صدري ونحري»[١].

وهذا النص الشريف وغيره يثبت أن علي بن أبي طالب عليه السلام لم يكن بالذي يفارق رسول الله صلى الله عليه وآله ليلاً ولا نهاراً.

والنصوص التي وردت في هذا الخصوص هي نصوص صريحة لا تحتمل معنىً آخر غير هذا الذي يتبادر إلى ذهن قارئها منه، فهل من المعقول أن يعتبر توكيل الخليفة الأول بالصلاة بالمسلمين نيابةً عن الرسول مدركاً وحجةً ودليلاً على صحة إمامته، ولا يمكن أن تعتبر كل هذه الفضائل والروايات والأفعال التي قالها وقام بها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله دليلاً على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام[٢]؟ ومن ذلك قضية نزول براءة حيث أخذ النبي صلى الله عليه وآله الآيات ودفعها إلى أبي بكرٍ وأمره بأن يتلوها على المشركين، فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أبا بكر بأن يبلّغها، ثم أتبعه أمير المؤمنين عليه السلام، فلما كان ببعض الطريق هبط جبرئيل عليه السلام فقال: «يا محمد لا يبلغن رسالتك إلا رجل منك». فأرسل أمير المؤمنين عليه السلام خلفه، وأركبه العضباء (ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله)، فرجع أبو بكر وقال: يا رسول الله، أشيء نزل من السماء؟ قال صلى الله عليه وآله: «نعم».

---

(١) الأمالي (الطوسي): ٢٠٦ / ١٢٤٤.

(٢) فاستخلفه صلى الله عليه وآله على المدينة، واستخلفه في فراشه ليلة الهجرة، وأنابه عنه في كثير من الأمور في السرايا وفي غيرها، مضافاً إلى ذلك جميع ما قال بحقّه من فضائل.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «لما نزلت عشر آيات من براءة على النبي صلى الله عليه وآله دعا أبا بكر ليقرأها على أهل مكة، ثم دعاني صلى الله عليه وآله فقال: أدرك أبا بكر، فحيثما لقيته فخذ الكتاب منه فاقرأه على أهل مكة. فلحقته فأخذت الكتاب منه، ورجع أبو بكر فقال: يا رسول الله نزل فيّ شيء؟ قال صلى الله عليه وآله: لا ولكنه جبرئيل جاءني فقال: لن يؤدّي عنك إلاّ أنت أو رجل منك»[١].

وفعلاً أخذ علي بن أبي طالب عليه السلام الآيات من صدر سورة براءة وتلاها على المشركين.

وهناك الكثير الكثير من الفضائل التي تُروى بحق علي بن أبي طالب عليه السلام لا يتسع المقام لذكرها ويضيق الوقت عن أن يسعها. وكل هذا لا يعده البعض دليلاً على صحة إمامته مع أنهم يعدون صلاة ركعاتٍ بالناس دليلاً ومسوغاً للخلافة والإمامة. إن هذا لهو مورد العجب وعين العجب، فهذه الركعات اعتبرت نصاً على إمامة أبي بكر وكل تلك الصفات والوصايا والأفعال لا يمكن أن تعتبر نصاً مع أنها تزخر بها كتب المذاهب الإسلامية الأُخرى!

خلاصة الموضوع

إذن فالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله لم يخرج من الدنيا حتى وضع الأمر في نصابه وحتى أوصى إلى من يلي الأمر من بعده وعيّنَ خليفته وأكملَ رسالة السماء وأتم نعمة الدين على المسلمين، وهكذا خرج رسول الله صلى الله عليه وآله من الدنيا إلى لقاء ربه جلّ وعلا وهو مثلوج الفؤاد بما أتم من نعمة هذا الدين

---

(١) سنن الدارمي ٢: ٦٧ ـ ٦٦، السنن الكبرى (النسائي) ٥: ٢٤٧ ـ ٢٤٨، مناقب أهل البيت عليهم السلام (الشيرواني): ٤٦٠ ـ ٤٦١.

وأكمل رسالة السماء. أما أن المسلمين لم يأخذوا بهذا النص ولم يعملوا به فهذا أمر يرجع إليهم ويرجع إلى تاريخهم ويرجع إلى أهوائهم التي ساقتهم في هذا المجال.

وما إن توفي الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم حتى بات أهل هذا البيت كما يعبر عنهم الإمام الصادق عليه السلام بقوله: «لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بات آل محمد عليهم السلام بأطول ليلة، حتى ظنّوا أن لا سماء تظلّهم، ولا أرض تقلّهم؛ لان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتر الأقربين والأبعدين في الله. فبينا هم كذلك إذ أتاهم آتٍ لا يرونه ويسمعون كلامه، فقال: السلام عليكم أهل البيت، ورحمة الله وبركاته؛ إن في الله عزاء من كل مصيبة، ونجاة من كل هلكة، ودركاً لما فات. ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[1]. إن الله اختاركم وفضلكم وطهركم، وجعلكم أهل بيت نبيه، واستودعكم علمه، وأورثكم كتابه، وجعلكم تابوت علمه وعصا عزّه، وضرب لكم مثلاً من نوره، وعصمكم من الزلل وآمنكم من الفتن...»[2].

وهنا أحب أن أؤكد على أن المجتمع المكي لم يكن يعامل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم على أساسٍ من النبوة.. على أنه رسول السماء، وعلى أنه حامل دين الله جلّ وعلا وعلى أنه منفّذ الوحي في الأرض. والدليل على هذا أن فتح مكة كان في السنة العاشرة للهجرة حيث دخل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم مكة فاتحاً، وأمر العباس وقال له: «مر أبا سفيان فليقف ولينظر إلى كتائب المسلمين حينما تمر عليه». وفعلاً بعد أن مرّت عليه الكتائب التفت أبو سفيان إلى العباس وقال له: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً.

---

(١) آل عمران: ١٨٥.

(٢) الكافي ١: ٤٤٤ ـ ٤٤٦ / ١٩.

فقال له العباس ﷺ: ويلك إنها النبوة وليست الملك[١].

أي أن هذا الرجل لم يعرف النبوة ولم يؤمن بالله طرفة عينٍ أبداً؛ لأنه لم يدخل الإسلام إلّا خوفاً من القتل، وإلّا قبيل رحلة الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى بفترة قليلة. وعليه فمثل هذا لا يمكن أن يؤمن بالله إيماناً حقيقياً، وبالتالي فهو لا ينظر إلى الرسول ﷺ على أنه نبي بل على أنه ملك استطاع أن يحكم الناس بقوته. فمثل هذا المجتمع الذي خلفه النبي ﷺ وراءه كان ينظر إلى علي على أنه هو الذي وتر الأبعد والأقرب وليس النبي؛ لأنهم يرون أن علياً هو الذي فعل هذا؛ ولهذا فإنهم يحملون علياً ﷺ المسؤولية الجنائية ـ إن صح التعبير ـ عن هؤلاء الذين قتلهم في معارك المسلمين ضد الكفر والشرك والنفاق.

وهؤلاء لم يكتفوا بهذا القدر بل إنهم وسّعوا دائرة المسؤولية الجنائية من شخص علي ﷺ إلى كلّ أبناء البيت النبوي المطهر، فما هي إلّا هنيهة حتى أصبح بيتُ النبي ﷺ عرضةً للهجوم وما هو الأمر إلّا بين عشية وضحاها حتى تنتهك حرمة البيت النبوي. يقول عبد الفتاح في أحدِ فصوله: وهل وضع على الألسن عقال أن تتكلم عن نارٍ وضعت على بيت فاطمة؟ وهذا ما أكده الشاعر حافظ إبراهيم بقوله:

وقولة لعلي قالها عمر ... أكرم بسامعها أنعم بملقيه

حرقت دارك لا أبقي عليك بها ... ما لم تبايع وبنت المصطفى فيها[٢]

وإذا بهذا البيت الذي كان يقف عليه النبي ﷺ كل يومٍ عند صلاة

---

(١) مجمع الزوائد ٦: ١٦٤، ١٧٠، المعجم الصغير ٢، ٧٥، المعجم الكبير ٧، ٧٦، ٢٣: ٤٣٥، وغيرها كثير.

(٢) ديوان حافظ إبراهيم ١: ٧٥.

الفجر وينادي: «الصلاة يا أهل البيت، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[1] ...»[2]. ويستمر على هذا ستة أشهر لا يبارحهم حتى يخرجوا إلى الصلاة، وإذا به بين عشيةٍ وضحاها يصبح عرضةً لنيران القوم، فقد التهمت ألسنتها تلك الدار التي عاش فيها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وإذا بتلك الباب التي يقول عنها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «باب فاطمة بابي وبيتها بيتي، فمن هتكه فقد هتك حجاب الله»[3]، تضطرم فيها النار ويدخل القوم عنوة إلى بيت الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «كانت جدتي الزهراء في معاصمها».

وهي صورة طبيعية ينفي فيها الإمام كل المبالغات، ويصور هؤلاء القوم حينما عاجلوها في الدخول عليها إلى دارها، وكان أمير المؤمنين داخل الدار بيده القرآن يريد أن يتم نسخه، وكانت الزهراء كما نقل الإمام الصادق عليه السلام في معاصمها، أي في ثيابها ولم يكن عليها رداء فاستترت من القوم وراء الباب؛ لأنهم عاجلوها بالدخول ولم تكن تستطيع أن تجد شيئاً لتضعه عليها، وحينما تدافع الجمع دخولاً إلى الدار وهي خلف الباب تسبب ذلك الجمع بالضغط على الباب فكان أن سقط جنينها وسقطت على الأرض مغميّ عليها، وعندها خرج أمير المؤمنين عليه السلام فرأى الجمع الغفير الحاشد الذي توجّه به إلى المسجد. وفي هذه الأثناء فتحت السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام عينيها فوجدت نفسها في فراشها وابنتها زينب

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) مسند أحمد ٣: ٢٥٩، ٢٨٥، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣١، شواهد التنزيل ٢: ١٩، سير أعلام النبلاء ٢: ١٣٣، ١٣٤، تهذيب الكمال ٣٥: ٢٥٠.

(٣) بحار الأنوار ٢٢: ٤٧٧.

قربها، فو الله ما قالت: كسر ضلعي، ولا قالت: سقط جنيني، ولا قالت: الألم الذي يخالجها بل إنها أول ما فتحت عينيها سألت ابنتها زينب عليها السلام قائلةً: «بنية أين أبوك؟».

وهذا أول سؤال ينطق به لسانها بعد صحوها من إغمائتها. قالت: أماه لقد أُخرج من الدار، فخرجت مولاتنا الزهراء عليها السلام تقوم ويقعدها الألم وتمشي قليلاً وتجلس لتستريح وكانت قد أُخذت بيد الحسن والحسين بعد أن وضعت شيئاً على رأسها والدم ينزف منها وهي تنادي: «خلّوا عن ابن عمي وإلّا لأكشف للدعاء رأسي». فالتفت الناس فإذا بهم يرون فاطمة الزهراء عليها السلام فراح يحث بعضهم بعضاً على الرجوع عن هذا الجمع الذي جاء لأجل علي، فالتفت الخليفة الثاني إلى غلامه وقال له: ويحك أرجعها، أما ترى كيف أنها أرجعت الناس عنّا؟ فرجع إليها قنفذ وجعل يجلدها بسوطه الذي راح يتلوى على كتفيها، فأدارت وجهها إلى قبر أبيها:

بويه الوغد عمداً ضربني ومن سطرته للگاع ذبني
من الناس ما واحد حشمني

قالت: «والله لا أرجع». فرجع إليها خالد وجعل يضربها بمقبض سيفه فأبت أن ترجع وتابعت أمير المؤمنين عليه السلام إلى المسجد وصاح الناس بالرجلين: خلياه لها. فأطلقا علياً عليه السلام، فأقبل إليها وقال لها: «كيف أنت؟». فقالت له: «كيف أنت يا بن عم رسول الله؟ فإني إن كنتَ بخير كنتُ بخير معك وإن كنتَ بشرٍ كنتُ بشرٍّ معك». وقبل ذلك بادر إليها سلمان المحمدي عليه السلام قائلاً: يا ابنة رسول الله لقد بعث الله أباك رحمةً للعالمين فلا

تكوني سبباً في هلاك هذه الأمة. فقالت: «يا عم أخذوا حقّنا فصبرت، وكسروا ضلعي فصبرت، ثم يريدون أن ييتموا أولادي! فوالله لا أرجع حتى أرى علي بن أبي طالب معي».

ولكنها اضطرت للتراجع بعد ذلك رضوخاً لطلب أمير المؤمنينعليه السلام دون أن تتمكّن من نسيان لوعتها، وبقيت على هذه الحال حتى وافت ربّها في جنان الخلد مع أبيهاصلى الله عليه وآله راضية مرضيّة:

بأبي التي ماتت وما ماتت مكارمها السنية

دفنت وبين ضلوعها آثار ضرب الأصبحية[1]

---

(١) الأصبحية: سياط تنسب إلىٰ ذي أصبح، ملك من ملوك حمير. لسان العرب ٢: ٥٠٧ ـ صبح، ٣: ٤٩٢ ـ ربذ.

﴿١٦﴾

أمير الزاهدين عليه السلام

عن نوف البكالي رضي الله عنه قال: رأيت أمير المؤمنين عليه السلام ذات ليلة وقد خرج من فراشه فنظر في النجوم، فقال لي يا نوف: أراقد أنت أم رامق؟ فقلت: بل رامق يا أمير المؤمنين. فأخذ أمير المؤمنين عليه السلام بيدي وقال: «يا نوف، طوبى للزاهدين في الدنيا الراغبين بالآخرة، أُولئك قوم اتخذوا الأرض بساطاً، وترابها فراشاً، وماءها طيباً والقرآن شعاراً والدعاء دثاراً، ثم قرضوا الدنيا قرضاً على منهاج المسيح»[1].

المباحث العامة للموضوع

المبحث الأوّل: الحياة الدنيا في نظر المشرّع الإسلامي

لعل أوّل تساؤل يرد هنا هو أن علي بن أبي طالب عليه السلام لما كان تلميذ الإسلام، وأوّل من استوعب أحكامه ومفاهيمه استيعاباً كاملاً بكل أبعادها ومستوياتها، ولما كانت الدنيا من جملة اهتمامات الإسلام، بل إن

---

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ١٠٤.

درجة الاهتمام بها عين درجة الاهتمام بالآخرة[١]، فلذا كان من المفروض أن تحظىٰ بنوع اهتمام عنده عليه السلام، مع أن الملاحظ غير هذا؛ فهو عليه السلام لم يكن للدنيا عنده شأن، ولم تأخذ منه مأخذاً أو يعرْها أي اهتمام[٢]، فلم ذلك يا ترىٰ؟

---

(١) قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا﴾ القصص: ٧٧. وكما في قول الإمام الكاظم عليه السلام: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» الفقيه ٣: ١٥٦، ونسب للرسول صلى الله عليه وآله بلفظ: «احرث لدنياك...». النهاية في غريب الحديث ١: ٣٤٦ ـ حرث.

(٢) فهو عليه السلام القائل: «لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء ألّا يقارّوا على كظّة ظالم ولا سغب مظلوم لألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز». نهج البلاغة / الخطبة: ٣ المعروفة بالشقشقية.

وقال عليه السلام: «من زهد في الدنيا استهان بالمصيبات، ومن ارتقب الموت سارع إلى الخيرات». نهج البلاغة / الحكمة: ٣١.

ورئي عليه إزار خلق مرقوع فقيل له في ذلك، فقال: «يخشع له القلب، وتذلّ به النفس، ويقتدي به المؤمنون». نهج البلاغة / الحكمة: ١٠٣.

وقال عليه السلام: «إن الدنيا والآخرة عدوان متفاوتان، وسبيلان مختلفان، فمن أحبّ الدنيا وتولّاها أبغض الآخرة وعاداها. وهما بمنزلة المشرق والمغرب ومابينهما، كلّما قرب من واحد بعد من الآخر، وهما بعدُ ضرّتان». نهج البلاغة / الحكمة: ١٠٤.

وقال عليه السلام: «مثل الدنيا كمثل الحية؛ ليّن مسّها، والسمّ الناقع في جوفها، يهوي إليها الغرّ الجاهل، ويحذرها ذو اللب العاقل». نهج البلاغة / الحكمة: ١١٩.

وقال عليه السلام من ضمن ما قال وقد سمع رجلاً يذمّ الدنيا: «من ذا يذمّها وقد آذنت ببينها، ونادت بفراقها، ونعت نفسها وأهلها فمثلت لهم ببلائها البلاء، وشوّقتهم بسرورها إلى السرور، وراحت بعافية وابتكرت بفجيعة ترغيباً وترهيباً، وتخويفاً وتحذيراً، فذمّها رجال غداة الندامة، وحمدها آخرون يوم القيامة، ذكّرتهم الدنيا فتذكّروا، وحدّثتهم فصدقوا، ووعظتهم فاتعظوا؟». نهج البلاغة / الحكمة: ١٣١.

وقال عليه السلام: «الدنيا دار ممرّ إلى دار مقرّ. والناس فيها رجلان: رجل باع فيها نفسه فأوبقها، ورجل ابتاع نفسه فأعتقها». نهج البلاغة / الحكمة: ١٣٣.

وقال عليه السلام: «إنما المرء في الدنيا غرض تنتصل فيه المنايا، ونهب تبادره المصائب. ومع كلّ

إن ديننا الإسلامي في تعاليمه وأحكامه لم يفرّق بين جانب وآخر، ولم يفرّط في جانب لحساب آخر، فهي (تعاليمه) واحدة؛ سواء كانت فيما يخصّ العقيدة أو فيما يخصّ الفقه أو فيما يخصّ الأخلاق. فقد وضع أخلاقيّات تنظّم الدنيا. وهناك عقائد وفقه لهما علاقة بالدنيا ويختصّان بها؛ فهناك فقه سياسي وفقه أخلاقي وفقه اقتصادي وآخر اجتماعي، وكل هذه الأقسام للعناية بالدنيا والحياة وتنظيمهما. فالتشريع الإسلامي يعطي الدنيا اهتمامات واسعة جداً، ويخصّص لها مساحة واسعة من أحكامه وقوانينه؛ بحيث إنه لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلّا كان له فيهما حكم أو رأي، ولم يترك باباً يلجه إنسان أو حالة من الحالات يمكن أن يقع فيها أحد إلّا وضع لها علاجاً مسبقاً؛ فهو يضع الحلول والأحكام لجميع المسائل والمشاكل مسبقاً، أي قبل الابتلاء بها؛ كي يجد المكلّف أحكاماً لكلّ ما يمكن أن يَبتلي به، أو يقع فيه من ابتلاءات.

جرعة شرَق، وفي كل أكلة غصص، ولا ينال العبد نعمة إلّا بفراق أُخرى، ولا يستقبل يوماً من عمره إلّا بفراق آخر من أجله. فنحن أعوان المنون، وأنفسنا نصب الحتوف، فمن أين نرجو البقاء وهذا الليل والنهار لم يرفعا من شيء شرفاً إلّا أسرعا الكرّة في هدم ما بنيا، وتفريق ما جمعا؟». نهج البلاغة / الحكمة: ١٩١.

وقال عليه السلام: «من أصبح على الدنيا حزيناً فقد أصبح لقضاء الله ساخطاً». نهج البلاغة / الحكمة: ٢٢٨.

وقال عليه السلام: «يا أيها الناس متاع الدنيا حطام موبئ، فتجنّبوا مرعاه...حكم على مكثرٍ بها بالفاقة...ومن استشعر الشغف بها ملأت ضميره أشجاناً لهن رقص على سويداء قلبه، هم يشغله وهم يحزنه؛ كذلك حتى يؤخذ بكظمه فيلقى بالقضاء منقطعاً أبهراه، هيّناً على الله فناؤه وعلى الإخوان إلقاؤه...إن قيل: أثرى قيل: أكدى». نهج البلاغة / الحكمة: ٣٦٧.

المبحث الثاني: تعريف الزهد

إذا تقرّر هذا فما معنىٰ قول أمير المؤمنين عليه السلام : «طوبىٰ للزاهدين في الدنيا»؟ وهل أن لدينا تصوّراً مسبقاً عن الزهد؟ وما هو تعريف الزهد الذي يقصده أمير المؤمنين عليه السلام؟ هل إنه عليه السلام يقصد به ترك الدنيا والاستمتاع بها وبملذّاتها، وبما وضع اللّه تعالىٰ فيها من مباهج؟ فمعلوم أن الحياة فيها حاجات للطعام والشراب والسكنىٰ والجنس، ويجب إشباع كلّ هذه الحاجات عند الإنسان بالطرق المشروعة طبعاً. فما معنىٰ الزهد في الدنيا إذن؟ وهل الدنيا المأمور بالزهد فيها إلّا هذه؟

إن الدعوة إلىٰ الزهد في الدنيا دعوة قديمة، وقد وردت علىٰ ألسنة المصلحين والأولياء والأخلاقيّين، فهناك نداء مستمرّ إلىٰ الزهد علىٰ مرّ تاريخ البشرية. أمّا أبعاد هذا الزهد وتعريفه فيحتاجان إلىٰ توضيح وبيان علىٰ ضوء قول الإمام عليه السلام : «طوبىٰ للزاهدين في الدنيا»؛ ذلك أن الزهد الذي يخالج أفهام الناس لأوّل وهلة كما مرّ هو الابتعاد عن الناس واعتزالهم، وعدم التفاعل مع المجتمع من بعيد أو من قريب. وهو تصوّر مخطوء ومغلوط؛ لأن الإسلام لم يأتِ ليواجه الحياة بهذه السلبيّة والعدمية، بل إنه واجهها بكلّ مشاكلها وأبعادها بشكل إيجابي فاعل وكامل، وحشد لذلك العديد من النظريات، وهيّأ لكلّ بعد من أبعادها الأجواء المناسبة لتطبيقها؛ مراعاة للمنهج السليم في الحياة ومشاكلها وتطبيق نظريات الحلول لها ولما يعترض الإنسان فيها.

الإسلام ينظم الحياة

الإسلام ونظام استصلاح الأراضي

وهكذا فقد وضع الإسلام النظم والقوانين التي تحكم العلاقات

الإنسانية، والتي تنظّم الزراعة وأحكامها، وأحكام الأراضي وإصلاحها واستصلاحها؛ فقنّن توزيع الأراضي وتمليكها وجعلها وسيلة الإنتاج الأولىٰ. فقد وضع أحكام امتلاك الأراضي بحيث إنه قنّن المقدار الذي يمكن للفرد أن يأخذه منها، والثمن الذي سيبذله إزاءها.

حالات امتلاك الأرض

هناك حالتان من حالات التملّك التي يمكن أن يستفيد منها الفرد حيال مسألة استثمار الأراضي، هما:

الأولىٰ: الحالة الاعتيادية

وهي الحالة التي تكون فيها الأراضي الصالحة للزارعة واسعة متوفّرة، فلكل إنسان هنا أن يأخذ مايستطيع إصلاحه وإعماره وزراعته بأي مساحة كانت. فلو أن شخصاً يستطيع استصلاح عشرين دونماً من الأرض أو أكثر بماله وما يتمكّن من توفيره من وسائل ومكائن وآلات لحراثة الأرض وزراعتها وحصاد منتوجها وبيعه، فإن له الحقّ في أن يتملّك كلّ تلك المساحة ويزرعها ليُفيد منها ويستفيد.

الثانية: الحالة الاستثنائية

وهي الحالة التي تكون فيها مساحة الأراضي الصالحة للزراعة محدودة، ولا يمكن أن تغطّي حاجات من يريد، فيعطى ما يريد، أو يُعطى بما يتناسب مع إمكاناته المادية. وهنا لفقهائنا رأي هو أن الإنسان يعطىٰ من الأرض مقداراً يستطيع أن يعالجه ويصلحه بنفسه لا بمن يستأجرهم. فعليه هنا أن يأخذ أرضاً لا تزيد إمكانية إحيائها عن إمكانياته الشخصيّة؛ سواء كان ذلك الإحياء بيده أو بآلة يملكها، أما أن

يأخذ أرضاً أكبر من ذلك ثمّ يستأجر لها أُناساً يحيونها ـ بحجّة أنه يملك الإمكانات المادّية لذلك ـ فلا.

كما أن الإسلام يعطي الأرض من يحييها ويملّكه إياها، أمّا إذا عطّلها ولم يستثمرها فإن الإسلام يسحب ملكيّته لها ويقوم بمصادرتها ثمّ يعطيها لمن يزرعها ويستثمرها[١].

قانون العمل في الإسلام

وكما أن الإسلام قنّن الأراضي ووضع لها أحكاماً، فكذلك قنّن العمل ووضع له ضوابطه وأحكامه وضمن حقوق العامل والمستثمر. وقانون العمل في الإسلام لا يضاهيه قانون أبداً، فما فيه من ضوابط وقوانين وضمانات لكلّ أطراف العمل يجعله صاحب ريادة بين القوانين التي تحكم العمل والمنظِّمة له. ونظرته لعوامل الإنتاج ـ الإنسان والمعمل والخامة المستعملة في الصناعة، كما يطلق عليها ذلك علم الاقتصاد الحديث ـ تختلف عن تنظير كلّ قانون آخر لها. والفقهاء المسلمون ذكروا لهذا الجانب قوانينه وتشريعاته الخاصّة به، فرسموا بها حقوق العامل وحقوق صاحب العمل؛ عبر حساب كلفة الإنتاج وكيفية توزيع الفائض عنها. وهذا بطبيعة الحال يدخل في مجال الفقه الاقتصادي الذي أخذ صورته الكاملة في الإسلام.

ونحن نأمل من الكتّاب المسلمين أن يتناولوا هذا الموضوع بشكل موسّع، وأن يوفّوه حقّه من البحث والتنقيب؛ فهو موضوع ما زال في

---

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أحيا أرضاً مواتاً فهي له». تهذيب الأحكام ٧: ١٥٢ / ٦٧٣، فتح الباري ٥: ١٤، وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «من أحيا أرضاً فهي له». تهذيب الأحكام ٤: ١٤٥ / ٤٠٤.

بداياته. وقد تناولت موضوع العمالة وعالجته برسالتي التي تقدّمت بها في جامعة القاهرة، وكان موضوعها حول العمالة بالذات، أي بخصوص فائض القيمة.

نظرية فائض القيمة

لقد تعبت كثيراً وعانيت ما عانيت في سبيل استخلاص هذه النظرية من مصادرها؛ ذلك أني لاحظت أن بعض الكتّاب حينما ينقلون نظرية لأحد العلماء أو المنظّرين فإنهم لا ينقلونها عنه مباشرة؛ بل إنهم ينقلونها عن غيره، وهذا عن غيره أيضاً دون الرجوع إلىٰ مظانّها الأصلية أو مؤلّفات صاحبها. وحينما ترجع إلىٰ تلك المظانّ أو المصادر الأصليّة لهذه النظرية فإنك تجدها مغايرة تماماً لما ينقل بخصوصها. كما أن هناك من ينقل نظريّة وهو لا يعيشها، وهذا في الواقع لا يُعدّ عملاً علميّاً. فمن لم يكن هذا عمله فإنه سيجهد نفسه، وسوف لن يصل إلىٰ نتيجة ما خصوصاً في مجال نظرية فائض القيمة؛ لأنها معقّدة جداً.

والذي يريد أن يدرس هذه النظريّة دراسة واعية فإنه ينبغي عليه أن يقوم بدراسة المصطلحات الماركسية؛ لأنها تدخل في صميمها. وإن شاء اللّه تعالى سنتطرق لها بشكل مفصل، وسنتعرّف علىٰ ملامحها وطبيعتها في بعض محاضرتنا القادمة.

فالإسلام إذن واجه صاحب العمل وواجه العامل، وأعطىٰ كلّاً منهما ضمانات وحقوقاً كاملة. وعليه فإن النظرية العمّالية قد عُولجت بشكل كامل في التشريع الإسلامي.

الإسلام ينظم العلاقات الاجتماعيّة الأسريّة

ومن جهة أُخرىٰ فإن الإسلام قام بتنظيم العلاقات الأُسرية والاجتماعية كافّة، ووضع ضوابط تحكم علاقة الإنسان بمجتمعه وبنفسه وبأُسرته. وهو يخرج مع الإنسان في أوّل خطوة من خطواته وهو يجتاز باب بيته، ويدلف معه إلىٰ الشارع، فهو يقول له: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾[1]. ثمّ إنه يأمره بأن يحمل الخير لغيره كما يحمله لنفسه، بل وأن يحمل الخير للدنيا لا الشرّ، ويأمره بأن يكون متواضعاً ومتخلّقاً بأخلاق الأنبياء عليهم السلام وورثتهم، وألّا يصعّر خدّه للناس، وألّا يمشي في الأرض مرحاً، ثمّ يؤكد ذلك بقوله الكريم: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾[2].

ويدخل مع الإنسان إلىٰ الأسوق والشركات، ويقول له: ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾[3].

وبهذا فالإسلام يجعل الإنسان دائماً في مواجهة الحدث الذي هو ذاهب إليه، ولن يترك له منطقة فارغة دون أن يملأها بما يناسبها من القوانين والأحكام. فالإسلام إذن لا يكتفي بتنظيم الدولة فقط، بل إنه ينظّم البيت والسوق، والنفس والذوات، وعلاقة الإنسان بزوجته وأخيه، وأُسرته ومجتمعه، ويؤطرها بقواعدها المناسبة، ويدفع الإنسان للعمل الدؤوب لتحصيل هذا.

يروي المفضل بن عمر أنه لقي الإمام الصادق عليه السلام في فصل الصيف،

---

(١) النساء: ٨٦. (٢) الإسراء: ٣٧.

(٣) الأعراف: ٨٥.

وبيده مسحاة وهو يرشح عرقاً، فسأله قائلاً: إلىٰ أين يا سيدي؟ فقال له: «عندي بستان، وأردّت أن أسقيه وأُصلحه». فقال له: إذا متّ فماذا تقول للّه؟ فأجابه عليه السلام بأنه سيقول حينها بأنه قد خرج إلى حيث وجّهه وأمره، أي من حيث يكتسب قوته، فقد قال تعالىٰ: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِزْقِهِ﴾[1]؛ لأن اللّه يحبّ العبد المحترف[2]، وما أكل ابن آدم طعاماً أفضل من كدّ يده[3]، فسكت المفضّل. فهو عليه السلام يريد أن يقول له: إذا لم تكن تفقه المسائل، فلا تتفيقه على غيرك؛ فإن اللّه قد أمرني بأن أعمل وأعول عيالي، فأنا ذاهب لأمر اللّه، بل أنا في حدود طاعة اللّه تعالى وفي نطاق أوامره.

المبحث الثالث: الزهد شعبتان

إذن كيف يكون توجيه كلمة أمير المؤمنين عليه السلام: «طوبىٰ للزاهدين»؟ إن توجيه هذا الحديث الشريف يمكن أن يتمّ بالقول: إن الزهد له شعبتان في المنظور السليم والتصوّر الصحيح اللذين رسمتهما لنا الروايات الشريفة والسنة المطهّرة:

الشعبة الأولىٰ: عدم إهلاك النفس حسرات علىٰ الدنيا

فالآية الكريمة تقول: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[4]. وهي هنا تصوّر حال الانسان حينما يتوقّع من عمل ما،

---

(١) الملك: ١٥.

(٢) الخصال: ٦٢١، الجامع لأحكام القرآن ٤: ١٨٩.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢: ٥٧٠.

(٤) الحديد: ٢٢ ـ ٢٣. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «الزهد كلّه بين كلمتين من القرآن، قال اللـه

يقوم به أو مشروع اقتصادي يدخله أن يكون مردوده المادي ونفعه المالي كبيرين، ثمّ يأتيه منهما أقلّ مما توقّع بكثير، وتكون النتيجة أن يترك نفسه تتأكّل تحت وطأة الحزن، فينتابها الألم والحسرة على ما فات من متاع زائل. فالإسلام يقول لهذا: لا تهلك نفسك حسرات على الدنيا. وهنا يتدخّل القرآن الكريم ليقول له: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾. فالإنسان باستسلامه لليأس والحزن على الدنيا، ولحسراته عليها لن يستطيع أن يحصل على شيء من الدنيا ثانية.

فالإسلام يوجّهنا ويحذّرنا من أن ننظر إلى ما عند غيرنا نظرة غير مشروعة، ويضع لجاماً لتصرّفاتنا إزاء هذا الأمر؛ ليهذّبنا ويحدّ من تطرّفنا: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ﴾[1]. وهو يطالبنا بأن نكتفي بما عندنا مما آتانا اللّه تعالى، ولا نطمح إلى ما وراء ذلك مع بذل الجهد لأجله.

الشعبة الثانية: اجتراح المال في الحلال وصرفه في الحلال

وهذا أيضاً تصوّر سليم للزهد رسمته لنا السنة المشرّفة، فالإنسان يجب أن يعمد إلى الطرق المشروعة في الكسب فينتهجها، وبعد أن يحصل على المال الحلال يضعه في قناة نظيفة مشروعة توصله إلى هدفه الصحيح من موارد الصرف التي يرتضيها اللّه لنا. فهذا التصرّف في الكسب والعطاء عبارة عن تفاعل مع المجتمع بالمورد، كما أنه لأجله، فإن كان هذا التفاعل غير سليم ومنحرفاً فسوف ينعكس سلباً على

سبحانه: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾. ومن لم يأسَ على الماضي ولم يفرح بالآتي، فقد أخذ الزهد بطرفيه». نهج البلاغة / ٤٣٩.

(١) طه: ١٣١.

المجتمع.

والانحراف هنا قد يتمثّل بسرقة حقّ الغير، أو غشّ الغير في المعاملة وغيرها، أو خديعته لأجل الاستيلاء علىٰ ما يملك، وهي نوع من السرقة أيضاً ووجه من وجوهها. وقد يتمثّل الانحراف باحتكار السلع والبضائع والأطعمة فيجيع المحتكر الآخرين، وقد يتمثل الانحراف أيضاً بالصرف غير المشروع، كإنفاق المال علىٰ موارد الحرام من شرب خمر وانخراط في مجالس اللهو والفجور وغير ذلك. ومما يروىٰ في هذا المجال أن أبا حنيفة صاحب المذهب الإسلامي المعروف كان له جار من الكيّالين مغرم بالشراب، وكان يغني على شرابه بقول العرجي:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهةٍ وسدادِ ثغرِ

قال فأخذه العسس ليلة وحبسوه، ففقد أبو حنيفة صوته واستوحش له، فقال لأهله: ما فعل جارنا الكيّال؟ قالوا: أخذه العسس، وهو في الحبس. فلما أصبح أبو حنيفة توجّه إلى الأمير عيسى بن موسى فاستأذن عليه، فأذن له، فلمّا دخل عليه أقبل عليه عيسى بن موسى وسأله عما جاء بسببه، فقال: أصلح الله الأمير، إن لي جاراً من الكيّالين أخذه عسس الأمير ليلة كذا، فوقع في حبسه. فأمر عيسى بن موسى بإطلاق كلّ من في الحبس إكراماً له، فأقبل الكيّال على أبي حنيفة يتشكّر له، فلما رآه أبو حنيفة قال له: هل أضعناك يا فتى؟ يعرّض له بشعره الذي ينشده، قال: لا والله[1].

فمعنىٰ الانحراف في الصرف: انحراف المجتمع بالنتيجة، وإلّا فإن

---

(١) المستطرف في كل فن مستظرف ٢: ٣٢٠ ـ ٣٢١.

شارب الخمرة إنما يشرب ما يُنفد عقله ويضرّه بعد أن كان قد اشتراه بما تعب من أجله وعرق لكسبه في حرّ الصيف أو في برد الشتاء، فها هو يصرفها في مورد ملوّث. وربما يصرفها كذلك في الاعتداء علىٰ أعراض الناس الذي هو أبرز مصاديق الانحراف في المجتمع.

فالزهد إذن علىٰ ضوء هذا التصوّر الذي نحن بصدده هو اكتساب المال من الحلال وصرفه في الحلال، وهذا هو معنىٰ الزهد في أسلم مفاهيمه، لا أنه ترك لذائذ الحياة؛ لأن هذا مفهوم سلبي للزهد، ويتعارض مع المفهوم الإسلامي له. سئل الإمام الصادق عليه السلام عن الزهد فأجاب السائل بأن اللّه عزّ وجلّ خلق النعم فإن لم يتمتّع بها الإنسان، فمن يتمع بها إذن؟

علىٰ أي حال فإن اللّه خلق الأرض وسخّرها لنا بأجمعها، بما فيها من بحار ومحيطات، وما أودع داخلها من حلية ولباس وطعام ومعادن وزراعة وغيرها. فإذا كان الإنسان لا يتمتّع بهذا كلّه فلمن يُترك إذن؟ هل يترك للحيوان يتمتّع به وحده؟ طبعاً لا؛ فإن لبسك من حلال وأكلك من حلال وتصرّفك من حلال لا ينافي الزهد أبداً، فكلْ ما شئت والبس ما شئت لكن لا تتعدّ حدود اللّه أو حدود مراعاة المجتمع، وهي الضوابط الأخلاقية التي حثّنا الإسلام علىٰ لسان الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وآله الطاهرين عليهم السلام علىٰ اتّباعها[1].

(١) قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «إن اللّه افترض عليكم فرائض فلا تضيّعوها، وحدّ لكم حدوداً فلا تعتدوها، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تكلّفوها».
سنن الدار قطني ٤: ٢٩٨، وفي كنز العمّال ١: ٣٨١ / ١٦٥٦ نحوه.
وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إن اللّه افترض عليكم فرائض فلا تضيّعوها، وحدّ لكم حدوداً فلا تعتدوها، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها، وسكت لكم عن أشياء ولم يدعها نسياناً. فلا تتكلّفوها». نهج البلاغة / الحكمة: ١٠٥.

أما القائل خلاف هذا، والداعي إلىٰ نبذ الحياة الدنيا كلّها، فهو شاذّ لا علاقة له بالإسلام ولا للإسلام به؛ لأنه بعيد عن الإسلام وواقع الإسلام الذي يتعامل مع الحياة بشكل واقعي بعيد عن الطوباويّة والمعالجات السلبيّة لمشاكلها، وبعيد عن الهروب من مشاكلها أو آفاتها. كما أن هذا الداعي يصوّر الإسلام بصورة غريبة عنه لا تمسّ حقيقته بشيء أبداً.. بصورة تنفرّ الناس منه وتبعدهم عنه.

وقد يسأل سائل فيقول: لكن ألم يكن أهل البيت عليهم السلام كذلك؟ ألم يمتنعوا من لذائذ الدنيا ويأكلوا الجشب ويلبسوا الخشن ويعيشوا عيشة الفقراء مع أن اللّه تعالىٰ سخّر لهم الدنيا؟

والجواب: أن هذا صحيح، لكن وضع أهل البيت عليهم السلام يختلف عن غيره، ذلك أنهم عليهم السلام قمم ونجوم أهل الأرض وأمانهم ومقتداهم[1] فهم يتأسّون بأضعف الناس[2].

ورواه الصدوق رحمه الله وزاد عليه: ثم قال عليه السلام: «حلال بيّن، وحرام بيّن، وشبهات بين ذلك، فمن ترك ما اشتبه عليه من الإثم فهو لما استبان أترك. والمعاصي حمى اللّه عزّ وجلّ، فمن يرتع حولها يوشك أن يدخلها». الفقيه ٤: ٥٣ / ١٩٣.

(١) قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «أهل بيتي أمان لأهل الأرض، فإذا ذهب أهل بيتي أتى أهل الأرض ما يكرهون». انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، المعجم الكبير ٧: ٢٢ ـ ٢٣، نوادر الأُصول (الحكيم الترمذي) ٣: ٦٦،٦٣ / الأصل: ٢٢٢، ينابيع المودّة ١: ٧٢ / ٤ وغيرها

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إني مخلّف فيكم الثقلين: كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً. ولقد نبّأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض». المعجم الكبير ٧: ٢٢ ـ ٢٣، نوادر الأُصول (الحكيم الترمذي) ٣: ٦٦،٦٣ / الأصل: ٢٢٢، ينابيع المودّة ١: ٧٢ / ٤، وانظر شواهد التنزيل ١: ١٨٩، ١٩١.

(٢) فعن الرضا عليه السلام أنه قال لمحمد بن أبي نصر: «البس وتجمّل؛ فإن عليّ بن الحسين عليهما السلام كان يلبس جبّة الخز بخمسمئة درهم، ومطرف الخزّ بخمسين ديناراً، فيشتو فيه، فإذا خرج

دخل أمير المؤمنين عليه السلام على العلاء وقد بنى له داراً ولا يريد أن يدخلها، فأنّبه الإمام عليه السلام على ذلك، وبيّن له أن الله أكرم من أن يأمره ببناء دار له، ثم يكره له أن يسكنها. ولما احتج له العلاء بسيرته هو عليه السلام في هذا

الشتاء باعه، فتصدّق بثمنه». وتلا هذه الآية: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾. تفسير العياشي ٢: ١٩ / ٣٤.

ودخل سفيان الثوري وعليه ثياب الصوف على الصادق عليه السلام وكان عليه ثياب رقاق، فقال له: يا مولاي، إن جدّك علياً عليه السلام كان يلبس من الثياب ما خشن، فلم لا تقتدي به؟

فقال عليه السلام: «كان جدّي في زمان ضيق بعدُ، لم تتّسع الدنيا على المسلمين كاتّساعها في هذا الوقت، ونحن قوم إذا وسّع الله علينا، وسّعنا على أنفسنا؛ لأن الله إذا أنعم على عبده بنعمة، أحبّ أن يرى أثرها عليه. وإنما خلق الله الدنيا وما فيها من الملاذّ للمؤمن، لا للكافر؛ لأنّه لا قدر له عنده. ولو كان عليّ عليه السلام في مثل هذا العصر، لما وسعه إلّا أن يسلك مثل ما سلك أهله؛ لئلّا يقال: إنه مُراءٍ، ولئلا يشتم بثيابه ومأكله، مع أن علياً عليه السلام كان والياً، فلو أنّه لبس مثل هذا؛ لاتّهمه المسلمون على أموالهم. فينبغي له أن يكون كواحد من فقراء المسلمين في المعاش والرياش؛ حتّى يسهل على الفقير فقره إذا نظر للوالي وما هو عليه، وأمّا أنا، فلست بوالٍ، ولو كنت والياً لاقتديت به». الكافي ٦: ٤٤٢ / ٨.

ويؤيّد قول الإمام الصادق عليه السلام هذا ما روى ابن عبد ربّه من أنه أصابت الربيع بن زياد الحارثيّ نشّابة في جبينه، فكانت تنتقض عليه في كلّ عام، فأتاه أمير المؤمنين عليه السلام عائداً له، فقال له أخوه الربيع: يا أمير المؤمنين، ألا أشكو إليك أخي عاصماً؟ قال: «وما به؟».

قال: لبس العباء، وترك الملاء، وغمّ أهله، وأحزن ولده. فقال عليه السلام: «عَلَيَّ عاصماً».

فأُتي به، فعبس الإمام عليه السلام في وجهه وقال: «ويحك يا عاصم، أترىٰ أنّ الله أباح لك اللذّات، وهو يكره أخذك منها؟ أنت أهون على الله من ذلك. أوما سمعته يقول: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾؟ فاطر: ١٢؟ أما والله، إن ابتدال النعمة بالفعال، أحبّ إليه من ابتدالها بالمقال. وقد سمعته تعالى يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ الضحى: ١١، ويقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَاتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾؟».

قال عاصم: فعلام اقتصرت أنت يا أمير المؤمنين على لبس الخشن، وأكل الجشب؟

فقال عليه السلام: «إن الله افترض على أئمّة العدل أن يقدّروا أنفسهم بالقوام؛ لئلّا يشنع بالفقير فقره».

فما برح أمير المؤمنين عليه السلام، حتّى لبس عاصم الملا، ونبذ العبا. العقد الفريد ٢: ٣٧٣ ـ ٣٧٤.

الباب أجابه بما معناه: أن حالك غير حالي ؛ فإني أُريد أن أُعايش أضعف الناس، وأن أُشاركهم مستواهم المعيشي ؛ فلا أتميّز عنهم ؛ لأن هذه هي وظيفة القائد والراعي. ومن ناحية أُخرىٰ فأنا إن فعلت ذلك فربما يظنّ البعض أني أسرقهم أموالهم، ولا أُريد لأحد أن يقول: سلبني علي بن أبي طالب حقّي وتمتّع به في قصر وتركني أرزح في كوخ، بل أُريد أن أُشعره بأني وإياه في مستوىً واحد.

وهذا قد وقع فعلاً، فبعد قدومه الكوفة أعدّ له الجند قصر الأمارة وهيؤوه، وطلبوا منه أن ينزل به، فرفض ذلك وقال: «لا والله، إنه قصر الخبال، جنّبونيه». ثمّ اشترىٰ له بواري وحصراً، وبنىٰ له بيتاً من قصب يلامس رأسه إذا قام فيه، ذلك البيت الذي استحال ـ بعد لحوقه عليه السلام بالرفيق الأعلىٰ تبارك وتعالىٰ ـ قمّة شمّاء تناطح السماء عزّة وسمّواً ورفعة وطيب ذكر. وقد قارن أحد الأُدباء المعاصرين بينها وبين قبّة الخضراء التي كان يسكنها معاوية، والتي كلّفته من بيت مال المسلمين ثمانية عشر بعيراً ذهباً وفضّة، ثمّ بعد ذلك حوّلها إلىٰ سجن. وقد كان معاوية يسكنها في الوقت نفسه الذي كان الخليفة الشرعي المنصوص عليه والمنتخب من الأُمة أمير المؤمنين عليه السلام يسكن تلك الخربة التي بناها من البوراي والحصر، يقول هذا الأديب:

قُم وارمُقِ النجفَ الأغرَّ بنظرةٍ ... يرتدُّ طرفُكَ وهوَ باكٍ أرمدُ

تلكَ العظامُ أعزُّ ربُّك شأنَها ... فتكادُ لولا خوفُ ربك تُعبَدُ

أبداً تُباكرُها الوفودُ يَحُثُّها ... من كلِّ صوبٍ شوقُها المُتوقِّدُ

نازعتْها الدنيا ففزتَ بورِدِها ... ثُمَّ انطوىٰ كالحُلْمِ ذاكَ المورِدُ

وَسعَت إلى الأخرى فأصبحَ ذِكرُها في الخالدينَ وعطفُ ربِّكَ أخلَدُ[١]

وأي سعي كان الناس يسعون إليه مع علمهم أنه لم يكن إلّا قصباً وحصراً وبواريَ؟ كان عظماء الناس يسعون إليه على جفونهم فضلاً عن أرجلهم. وما أروع ما صوّره عبد الباقي العمري في قصيدته، وكان قادماً نحوه في سفينة في نهر الفرات، وفيها أنشد قصيدته التي يقول فيها:

بنا من بنات الماء للكوفة الغرّا صبوح سرت ليلاً فسبحان من أسرى[٢]

وبعد أن لامست قدماه الرمل الطاهر أنشد قائلاً مرتجلاً أبياتاً رائعة منها:

ولمّا سرينا للغريّ عشيّةً لمن قد ثوى فيه احتراماً وتبجيلا
ربطنا بأخفافِ المطيّ ثغورَنا فأوسعت الصحراءَ لثماً وتقبيلا

فالدنيا بطبيعة الحال بالنسبة لأمير المؤمنين عليه السلام ولأهل البيت عليهم السلام لا تعني شيئاً، وهم يريدون ألّا يمتازوا عن غيرهم من ضعفة الناس. ثمّ إن القرآن الكريم يرفع عقيرته آناء الليل وأطراف النهار منادياً: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[٣].

المبحث الرابع: في معنى الرغبة في الآخرة

ثمّ قال عليه السلام: «الراغبين في الآخرة»، وتتجلّى الرغبة في الآخرة بطاعة اللّه والرغبة فيما عنده وطلبه، وذلك بعلائق الإنسان مع الناس والمجتمع.

---

(١) من قصيدة للشاعر السوري محمد مجذوب بعنوان (على قبر معاوية)، وقد مرّ قسم منها في ج ٢ ص ٣٤٤.
(٢) ديوان عبد الغفّار الأخرس: ١٦٤ (تخميس قصيدة العمري).
(٣) الاعراف: ٣٢.

وهذه العلائق يجب أن يحكمها الدين والشرع، وألّا تكون تحت مقياس وتوجيه الحاجة والمصالح الشخصية، بحيث إن عيادة المريض وإلقاء التحية وغيرهما تصبح أُموراً تقيّدها تلك المصلحة فلا يعاد المريض إلّا إذا كان من أصحاب الأموال والجاه، ولا تلقىٰ التحية إلّا علىٰ ذوي الشرف والغنىٰ، ويترك الفقير دون مراعاة لتلك الأخلاقيات معه لا لشيْ سوىٰ أنه فقير معدم. وهذا الذي يوقف فعله علىٰ مثل هذه المقاييس الدنيوية النفعيّة لا يبتغي وجه اللّه حتماً؛ لأن وجه اللّه يؤتىٰ من كل جهة ومع كلّ مورد، بغض النظر عن خصوصيّات ذلك المورد.

فالذي ينشد وجه اللّه تعالىٰ يرىٰ في عيادة الفقير إحساناً لمؤمن يستوجب عليه رضا اللّه، ويرىٰ أن إلقاء التحيّة عليه مرتبة من مراتب الأخلاق والسموّ الروحي، ويرىٰ أن علاقته الطيّبة مع الناس وودّه لهم وقضاء حوائج المحتاج منهم والفقير هي من موجبات مغفرة اللّه ورضوانه. فمثل هذا ينمّ سعيه وعمله عن أنه للآخرة، وعن رغبته فيها.

المبحث الخامس: معنىٰ اتّخاذ القرآن شعاراً

ثمّ قال عليه السلام: «الذين اتّخذوا القرآن شعاراً»، ومعنىٰ اتّخاذ القرآن شعاراً: أن القرآن يلاصقهم كما يلاصق الشعار الجسم، وهو الثوب الذي يلاصق الجسم، فعند العرب أنه شعار، والذي يكون فوقه دثار.

فالزاهدون هم الذين يريد منهم ألّا يفارقهم القرآن ولا يفارقوه بحال من الأحوال، وهو ملاصق لعقولهم وتفكيرهم كما يلاصق الثوب أجسامهم. وهذا الزاهد هو المسلم الحقّ في نظره (سلام اللّه عليه)، وهذا المسلم الحقّ هو الذي يكون كلامه من القرآن وفيه، وآدابه آداب

القرآن وخلقه خلق القرآن؛ فالقرآن مستودع وافٍ لكل هذه المفاهيم. وكم هو أمر جميل أن يتفهم المسلم القرآن ويعرف أهدافه ومراده، وهذا طبعاً لا يتأتىٰ إلّا بالتواصل اليومي المستمرّ مع القرآن؛ فلابد للمسلم أن يقرأ كل يوم منه ما يتيسّر ولو عشر آيات من أجل العظة والتأدّب بآدابه والتبرّك به. ومن لم يستطع أن يقرأ فبإمكانه أن يستمع لمن يقرؤه. وعلىٰ المسلم ألّا يكتفي بقراءة القرآن، بل أن يسأل عن معانيه وشروحه ومسائله وحِكمه وأحكامه ومغازيه[١]؛ كي يكون علىٰ مستوىٰ المسلم الواعي المثقف بالثقافة والوعي الإسلاميين.

العرب والقرآن

وأحبّ أن اُلفت نظرك إلىٰ نقطة هامة هي أن العرب في الجزيرة كانت آذانهم تستذوق النغم الموسيقي في الكلام ـ أي أنهم كان عندهم حسّ منغّم ـ فكانوا إذا سمعوا الشعر طربوا له سيّما إذا نال إعجابهم ووقر في سمعهم إيقاعه، فهم ذوّاقون للفن الأدبي؛ وهذا هو الذي يجعل أحدهم يطرق وهو يسمع مقطوعة أدبية أو قصيدة شعر حتىٰ ينتهي منشدهما منهما. يروىٰ أن أحد الشعراء لمّا أنشد هذا البيت:

تزجي أغنّ كأن أبرة روقه ... قلم أصاب من الدواة مدادها

سجد له الشعراء، فلما قيل لهم في ذلك قالوا: نحن نعرف مواضع السجود في الشعر كما تعرفون مواضع السجود في القرآن[٢]. فهم

(١) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبّر ولا في عبادة ليس فيها تفكّر». الكافي ١: ٣٦ / ٣.

(٢) البيت لعدي بن الرقّاع. أمالي المرتضىٰ ٣: ٩٨، ٤: ٣٧ ولم يذكر موضع الشاهد، شرح

يقولون: كما أنكم تسجدون حينما تصلون إلىٰ موضع السجود في آيات معلومة من القرآن الكريم فكذلك نحن نسجد حينما نسمع ما يستوجب السجود من الشعر؛ لعظمته ورفعته وروعته.

وهذا طبعاً ناشئ مما خلّفه الإيقاع الموسيقي للبيت في مسامعهم، فهو الذي يجعلهم يحبّون سماع الشعر ويطربون له.

وكذلك القرآن الكريم فإنه حينما نزل لم يَبقَ للنصوص الأدبية شعراً ونثراً ذكر، ولم يُسمع لها أثر؛ لأن القرآن الكريم بما فيه من معانٍ وإيقاع وفن أدبي رفيع رائع، وجوّ روحي قد ملك عليهم أسماعهم[1]. وقد خلق بتلك الروحية العالية التي كانت تغطي كل مساحاته وأبعاده من ذلك العربي الذي كان لا يعرف في ليله إلّا السلب والنهب والقتل والشدة، خلق منه إنساناً مؤمناً عطوفاً شغوفاً يعمر ليلَه القرآنُ الكريم تلاوة وتفكراً وعملاً بمبادئه وأحكامه. وقد أصبح ينزل في كل واقعة عند حكم القرآن ولو كان عليه، بعد أن كانت أنفته تمنعه حتىٰ من تقبيل أطفاله.

وهكذا يُسمع إيقاع القرآن ليلاً من بيوتات المسلمين وهو يأسر سامعه بما فيه من صور أدبية رائعة تشخّص وتبيّن الكثير من الحقائق. وحينما يُصغىٰ إليه وهو يصف ما أعد الله تعالىٰ للصالحين من ثواب وجزاء ومكافأة يُلفىٰ وقد أخذ يمنح الوجود والمسامع صوراً كلّها عطاء

نهج البلاغة ١١: ١٥٢.

(١) وكمثال علىٰ ذلك فإن الوليد بن المغيرة لما سمع من النبي من قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ... ﴾ [النحل: ٩٠] قال: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمونق وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وما يقول هذا بشر. مناقب آل أبي طالب ١: ٤٩، مجمع البيان ٦: ١٩٢، الجامع لأحكام القرآن ١٠: ١٦٥، ١٧: ١٥١، ١٩: ٧٤.

وذوق، ويستشعر الإنسان معها لذّة النعمة تخالجه. فمثلاً حينما يقول: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * هَلْ أَتَى عَلَى الإنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً * إِنَّا خَلَقْنَا الإنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً * إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلاً وَأَغْلالاً وَسَعِيراً * إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً * يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً * فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً * وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً * مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾[١]. فإن السامع سوف يحسّ بروعة الإيقاع وشريط الصور الممتعة المشرقة، فهو يستعرض نعيماً قد صُوّر بأدقّ تصوير.

وحينما يصف سخط اللّه تعالىٰ علىٰ المجرمين بقوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾[٢] فإن السامع يجد نفسه وهو يتلقّى أروع وصف لحال المجرمين الذين سيعذبهم اللّه، وسيجد صوراً مرعبة ملؤها الرهبة والخوف. وهذا طبعاً كلام مع الإنسان الذي يملك خلفية ثقافية أدبية ولغوية جيّدة، فهو الذي سيؤخذ بها وستأسر له مجامع قلبه.

فقوله عليه السلام: «الذين اتخذوا القرآن شعاراً» أي جعلوا القرآن هاديهم

---

(١) الدهر: ١ ـ ١٤. (٢) إبراهيم: ٤٨ ـ ٥٠.

وإمامهم ومرشدهم، وهو معهم أينما كانوا في عقولهم وأذهانهم وعلى ألسنتهم. وأنا أعتقد أن أغلب بيوت المسلمين الآن لا يُسمع فيه صوت القرآن الكريم، فهم يقتنونه ويركنونه على الأرفف للتبرّك بوجوده ليس إلّا، أما أن يقرؤوه ويتّبعوا ما جاء الرسول به فهذا لم يكن من أغلبهم. وهذه كارثة كبرى، وإلّا أين الذي يستيقظ عند الفجر ويناجي اللّه بكلامه الذي أنزله على نبيه محمّد صلى الله عليه وآله وسلم[1]؟

وقد سئل أحد العبّاد الملازمين لبيوتهم: ألا تستوحش من ملازمتك بيتك؟ فقال: لا. فقيل له: لماذا؟ فأجاب: إذا أحببت أن يكلمني اللّه قرأت القرآن؛ لأنه كلام اللّه، وإذا أحببت أن أُكلّم اللّه صلّيت.

وأنا لا أُريد من على هذا المنبر من كلّ إنسان أن يكون كذلك؛ لأنه لا يمكن لكل إنسان أن يفعل هذا الفعل من جهة، ولاشتماله على جنبة سلبيّة من جهة أُخرى، وهي اعتزال الناس وعدم التفاعل مع المجتمع. كما أني لا أُريد أن أخلق هذا الاستعداد للتصوّف عند الإنسان، أو أُحتّم عليه أن يملكه، لكن كل ما أُريده هنا هو أن يجلس المؤمن كلّ يوم صباحاً فيؤدّي صلاته ويناجي اللّه تعالى بالقرآن والدعاء. وما عندنا من الأحاديث التي وردت في السنة النبويّة الشريفة في الحثّ على قراءة القرآن الكريم شيء كثير، ومنها قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «من قرأ القرآن في المصحف متّع

---

(١) عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام فقلت: متى يحرم الطعام والشراب على الصائم، وتحلّ الصلاة.. صلاة الفجر؟ فقال: «إذا اعترض الفجر وكان كالقبطية البيضاء، فثم يحرم الطعام ويحلّ الصيام وتحلّ الصلاة صلاة الفجر». قلت: فلسنا في وقت إلى أن يطلع شعاع الشمس؟ فقال عليه السلام: «هيهات أين تذهب؟ تلك صلاة الصبيان». الكافي ٤: ٩٩، الفقيه ٢: ١٣٠ / ١٩٣٤.

بصره وخفّف عن والديه وإن كانا كافرين »[١].

المبحث السادس: المراد من الأرض في الحديث الشريف

ثمّ قال عليه السلام: « وأرض الله فراشاً »، المراد بالأرض هنا: التواضع، حيث إن الأمر ينتهي بهؤلاء الزاهدين إلىٰ أن يجلسوا حيث هم وحيث ينتهي بهم المجلس، ولا يداخل أحدهم أمر دنيوي من قبيل أن الرفعة والسموّ وغيرهما هي أُمور تكون بتسنّم الكراسي وتناول المناصب. كما أنهم يعلمون جيداً أن الكرسي الذي يمتطيه صاحبه يكون أفضل من صاحبه في كثير من الأحيان. يقول أحد الأدباء، وقد رأىٰ طبيباً اسمه توما راكباً علىٰ حمار له:

قال حمار الطبيب توما لو أنصفوني لكنت أركبْ
لأنني جاهل بسيط وراكبي جهله مركّبْ[٢]

وكرامة الإنسان ليست من كرسي يجلس عليه أو طنفسة يفترشها ويتربّع عليها، بل إن من هو أهل لأن يكون كذلك إذا جلس علىٰ التراب أحاله إلىٰ عرش وقمّة من أنفس وأثمن ما في الوجود؛ ولذا كان أمير المؤمنين عليه السلام يفرح إذا ما كُنّي بأبي تراب. وسبب تلك الكنية وحبّه لها أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أدركه ذات يوم نائماً، وقد خلص التراب إلىٰ جسمه، فقال صلى الله عليه وآله وسلم له: « قم أبا تراب »[٣]. يقول أحد الأدباء:

ألبا تراب للتراب تفاخرُ أنْ كانَ منْ أمشاجِهِ لك طينُ
الناسُ من هذا الترابِ وكلُّهم في أصلِهِ حمأً بهِ مسنونُ

---

(١) الكافي ٢: ٦١٣ / ١، ثواب الأعمال: ١٠٢.
(٢) المثل السائر ٢: ٣٣٨.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٦٠.

لكـنما مـن ذا التـرابِ حـوافـرٌ ... ومـن التـرابِ حـواجبٌ وعـيونُ
فـإذا اسـتطالَ بك التـرابُ فـعاذرٌ ... فـلأنتَ مـن وجـهِ التـرابِ جـبينُ
وإذا رجـعتَ إلى التـرابِ فـلمْ تـمتْ ... كـالجذرِ ليس يـموتُ وهـو دفـينُ
لكـنَّهُ يـنمو ويـفترعُ الثـرىٰ ... وتـرفُّ مـنهُ بـراعـمٌ وغـصونُ[(١)]

فالحقيقة أن هذا الرجل العظيم قد اتّخذ له من التراب عرشاً، وهو الذي أصبح فيما بعد ذهباً متألّقاً يناطح السماء؛ فهو أبو تراب الذي عشق التراب، وما كان لينقص من قدره أو يقلّل من قيمته، بل التواضع هو الذي يرفع الإنسان ويسمو به[(٢)]. وهذا لا يعرفه ولا يدركه إلّا ذو النفس الكبيرة والهمّة العالية.. النفس التي تدرك أن كبرها وسموّها هما فيما تحمل من إنسانيّة وعطاء للمجتمع.

المبحث السابع: الإسلام نظيف

ثمّ قال عليه السلام: «وماءها طيباً»، إن أطيب الطيب هو الماء، والماء هنا كناية عن النظافة، فهؤلاء الزاهدون من صفاتهم أنهم دائماً علىٰ نظافة وطهارة. والرواية تقول: «المؤمن قاذورة»[(٣)].

---

(١) ديوان المحاضر ١: ١٩.

(٢) قال الإمام الصادق عليه السلام: «إن في السماء ملكين موكلين بالعباد؛ فمن تواضع لله رفعاه، ومن تكبّر وضعاه». الكافي ٢: ١٢٢، مشكاة الأنوار: ٤٠١.

وقال الشاعر:

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر ... علىٰ صفحات الماء وهو رفيعُ
ولا تكُ كالدخان يعلو بنفسه ... إلىٰ طبقات الجو وهو وضيعُ

وقال آخر:

حبلىٰ السنابلِ تنحني برؤوسِها ... والفارغاتُ رؤوسُهن شوامخُ

(٣) عن النبي صلى الله عليه وآله أنه كان قاذورة، لا يأكل الدجاج حتى يعلف. والقذر: خلاف النظافة، وهو

وهذا الحديث وغيره من الأحاديث التي تحثّ علىٰ النظافة[1] هو الذي جعلنا ننظر إلىٰ الزهد بهذا المنظار الإيجابي المستقىٰ من السنة، وإلّا فإن البعض يعتقد واهماً بأن الزهد هو الاعتزال عن المجتمع وعدم التفاعل معه، وهو الثياب المتّسخة والجسم القذر. فالإمام عليه السلام يريد أن يصحّح هذا المفهوم المخطوء في أذهان الناس فيقول: «اتّخذوا... ماءها طيباً». فاللّه تعالىٰ قد خلق لنا هذا الماء كي نتطهر به ونتنظف، دخل يوما أبو الأحوص الجشمي إلىٰ المسجد، فرآه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسخ الثياب نتن الرائحة، فقال صلى الله عليه وآله وسلم له: «هل عندك أموال؟». قال: نعم. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «من أيها؟». قال: أعطاني اللّه من كلّها؛ من الإبل والبقر والغنم والمزارع والتجارة. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أما وجدت ما تلبسه؟».

فكأنه صلى الله عليه وآله وسلم يقول له: ألم تجد ما تغسل به بدنك؟ مع أن هذا الأسلوب

مجتنب؛ فمن ثم قيل: قذّر الشيء، إذا اجتنبه كراهة له. قال العجاج:

وقذّري ما ليس بالمقذور

ومنه قالوا: ناقة قذور، إذا كانت عزيزة النفس لا ترعى مع الابل، ورجل قاذورة، إذا كان متقذّراً. الفائق في غريب الحديث والأثر ٣: ٧٥.

فالقذر لفظ من الأضداد.

(١) كقوله عليه السلام: «تنظفوا بالماء من النتن، والريح الذي يتأذى به. وتعاهدوا أنفسكم فإن اللّه عزوجل يبغض من عباده القاذورة الذي يتأنف به من جلس إليه». الخصال: ٦٢٠.

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأنس: «يا أنس، أكثر من الطهور يزد الله في عمرك، فإن استطعت أن تكون بالليل والنهار على طهارة فافعل، فإنك تكون إذا مت على طهارة متّ شهيداً».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «تنظّفوا بالماء من الرائحة المنتنة؛ فإن الله تعالى يبغض من عباده القاذورة».

وعنه عليه السلام: «غسل الثياب يذهب الهم وهو طهور للصلاة». مكارم الأخلاق: ٤٠:

«تنظفوا بكل ما استطعتم، فإن الله تعالى بنى الإسلام على النظافة، ولن يدخل الجنة إلا كل نظيف». الجامع الصغير ١: ٥١٧ / ٣٣٦٩، كنز العمال ٩: ٢٧٧ / ٢٦٠٠٢.

ليس من خلق النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، فهو واسع الخلق بتعبير القرآن الكريم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[(١)]، لكنه حينما وصل الأمر إلىٰ النظافة وعدم الاهتمام بها وإلىٰ إيذاء الغير بتركها ضاق ذرعاً بأبي الأحوص وقال له ما قال.

فهو صلى الله عليه وآله وسلم يذكّره بأن اللّه تعالىٰ حينما أنعم عليه بكل هذه النعمة فمن الواجب عليه أن يظهر الشكر له علىٰ ما أنعم به عليه، وأن يتمتّع بهذه النعمة؛ فيلبس اللباس الحسن، وينظف جسمه ويطهره من الأقذار والنجاسات. ويريد من الناس أن يقتدوا به، فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم مثال النظافة والطهارة[(٢)].

وقد كان الحسنان عليهما السلام غاية في النظافة؛ فقد كانت الزهراء عليها السلام تباشر تنظيفهما والعناية بهما كلّ يوم، ثمّ تلبسهما ثياباً بسيطة ونظيفة، وتأخذهما إلىٰ جدّهما حيث يدرجان إلىٰ حجره الشريف، فيفتح صلى الله عليه وآله وسلم ذراعيه الطاهرتين ليضمّهما إلىٰ صدره ويظلّل عليهما وهما في حجره، فتأخذ اليد اليمنىٰ الحسن عليه السلام واليد اليسرىٰ الحسين عليه السلام وينحني علىٰ تلك الشفاه ليشبعها لثماً وتقبيلاً.

يا رسول اللّه، ليتك تنظر هذه الشفاه التي لامست شفاهك كيف أن عصا يزيد تعبث بها ضرباً بما يحمله من حقد وضغينة علىٰ آل بيتك (صلوات اللّه وسلامه عليهم):

---

(١) القلم: ٤.

(٢) عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «كانت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ممسكة إذا هو توضّأ أخذها بيده وهي رطبة. فكان إذا خرج عرفوا أنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم برائحته». الكافي ٦: ٥١٥ / ٣.

يناعي اشبعد تدري اشبگالي وشـخلّفت عـندي اللـيالي

* * *

مـنازل كـانت نـيرّاتٍ بأهـلها تـوالى عـليها غـبرة وقـتامُ

ألا لا تـزان الدار إلّا بأهـلها على الدار من بعد الحسين سلامُ



﴿١٧﴾

أضواء على حياة عليّ عليه السلام

خطب ألمّ بركن الدين فانهارا	أورى الغداة بقلب المصطفى نارا
فأي حادثة في الدين قد وقعت	فألبسته من الأشجان أطمارا
كرّت وقد شمّرت عن ساقها فرمت	فجدّلت بطلاً في الحرب كرّارا
هذا علي أمير المؤمنين لقىً	مضرّجاً بدم من رأسه فارا
قد غيّب الخسف بدراً منه مكتملاً	وغيّض الحتف بحراً منه تيّارا
أودى ومن حوله للمسلمين ترى	من دهشة الخطب إقبالاً وإدبارا[1]

المباحث العامّة للموضوع

المبحث الأول: نقاط مضيئة في سيرته عليه السلام

لكي يتمكّن الباحث من معرفة شيء يسير من الحياة السياسية لأمير المؤمنين عليه السلام ومعطيات خلافته لابدّ له من المرور ببعض الجوانب التي تسلط الضوء على ما انتهى إليه عليه السلام خلال مجيئه إلى تلك الخلافة حتى مصرعه (سلام الله عليه). وهذا الجانب بحاجة إلى تغطية كاملة؛ ذلك أن الإمام عليّاً عليه السلام تتوفر حياته على جوانب كثيرة كان من المفروض أن تكون

---

(١) الأبيات للشيخ كاظم السبتي الذاكر النجفي رحمه الله. نهج السعادة ٧: ١٧٥.

عواملَ استقرارٍ واستتبابِ أمنٍ، لا أن تصبح عوامل تؤدي إلى نشوب تلك الحروب الداخلية التي خاضها الإمام علي عليه السلام من أجل تثبيت وحدة الدين وتقوية شوكته، ومن هذه العوامل:

الأول: النسب

فكل الجوانب والظروف التي من حياة الإنسان.. أي إنسان يعيش أجواء متلائمة متناسقة ومتناغمة، ويعيش الأمن والاستقرار كانت كلها مجتمعة عند أمير المؤمنين عليه السلام؛ فقد كان العرب يعتدّون بالأنساب، ويرون أن الذي يتولى أُمورهم يجب أن تتوفر فيه أُمور عدة منها أن يكون ذا نسب شريفٍ وعالٍ، ولا أقل من ألّا يصل إلى مستوى هابط.

ومن هذه الناحية فإن أمير المؤمنين عليه السلام غني عن التعريف؛ ذلك أن هاشماً كان قلب قريش، وكان بيت عليٍّ عليه السلام قلب بني هاشم. وقد سلط القرآن الكريم الضوء على مسألة النسب في بعض من آياته، فهو عندما يفرق بين مجتمع الدنيا والآخرة يقول: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾[١].

أي أن هذا النسب الذي تعتزون به في الدنيا ليس له اعتبار قائم في الآخرة، بل إنه لا اعتبار له أصلاً[٢].

إذن فمن ناحية النسب نجد أن الإمام علياً عليه السلام كان صاحب الحظَّ الأوفر بين جميع الصحابة والقريشيين منهم خاصة، باعتبار أن قريشاً كانت لها الزعامة على العرب، وكان لبيت هاشم الزعامة على قريش. وكما ذكرنا

---

(١) المؤمنون: ١٠١.

(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ايتوني يوم القيامة بأعمالكم لا بأنسابكم؛ فإني لا أُغني عنكم من الله شيئاً». بحار الأنوار ٧: ٢٤١ ـ ٢٤٢. التفسير الكبير ٤: ٨٧.

فإن قلب بني هاشم كان بيت علي عليه السلام؛ لأنه يرجع إلى عبد المطلب وعبد المطلب هو قلب بني هاشم.

إذن هذه الجوانب التي يجب أن يسلط الضوء عليها هي أُمور عدة وكانت النقطة الأولى التي سلطنا الضوء عليها هي جهة النسب

الثاني: الشخصية المتكاملة

إن الناس عندما يطلبون المثل الأعلى فإنهم ينشدون صفات معينة عنده، وأول هذه الصفات أنهم كانوا يبحثون عن البطولة فيه، فهم كانوا يمجّدونها أي تمجيد، وكانوا يمجّدون الشخص الذي توجد فيه كلَّ تمجيد، فكانوا يرون في شخص البطل في ساحة الحرب أنه المثل الأعلى، وأنه الشخص الذي يجب أن يقتدى به وأن يحتذى.

وتمجيدهم للبطولة إنما هو من حيث ما كانوا عليه من تركيبة ومن طريقة معيشة وتعامل مع الحياة والآخرين. وهذا المعنى أو هذا المضمون لا يمكن لأحد أن ينكره في حقّ علي عليه السلام؛ فالبطولة والشجاعة عنده (سلام الله عليه) أشهر من نار على علم، وقد وصلتا إلى درجة من الاشتهار بحيث إن الإنسان لا يحتاج إلى أن يبرهن عليهما أو على أنه عليه السلام هو الشجاع والبطل. لقد كان عليه السلام إذا دخل الحرب فرَّ الناس من بين يديه كما تفر المعزى بين يدي الأسد، وكان العرب يعتبرون أن الفرار من الحرب عارٌ إلّا الفرار من سيف علي بن أبي طالب عليه السلام.

وهذا المعنى يضاف إلى رصيد أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الجوانب المشار إليها، وهو رصيد وافر. وبالرجوع إلى التاريخ الطويل للإمام عليه السلام في هذا المجال، وإلى إنجازاته الصارخة في ميدان البطولة والشجاعة والبسالة فإننا نجد أن هذا المجال قد مجّدته السماء والأرض، وامتلأت

به كتب التاريخ، وأشادت بذكره إشادة لا نظير لها؛ وعليه فإننا لسنا بحاجة إلى إثباته أو البرهنة عليه. ومما ينشده الناس في مجال البطولات هو التصاق البطل بالأمة، واندماجه مع الجماهير، وكونه يتعايش معها ويتعامل مع قلوبها.

وقد بلغ أمير المؤمنين عليه السلام في قلوب الناس مبلغاً لم يبلغه أحدٌ قبله ولا بعده إلّا رسول الله صلى الله عليه وآله، بحيث إنه عليه السلام قد وصل به الأمر إلى أن ينام على دقعاء من الأرض حتى يلتصق ظهره بالتراب، فكان عليه السلام لا يتميز عن سائر الناس بشيء، ولم يكن يفكر في أن يتميز عنهم أو أن يشار إليه على أنه فوقهم. ومن طبيعة الإنسان أنه إذا اجتمعت فيه مزايا كثيرة فإنه غالباً يصيبه نوع من الغرور إن لم يكن الغرور كله، أما عليٌ عليه السلام فكان خلاف ذلك تماماً، فكان مع ما عنده من المزايا التي لا عدّ لها ولا حصر، والتي أشادت بها السماء قبل الأرض نجده في قمة التواضع، وفي منتهى الخلق النبيل مع الآخرين، وهذا في نفسه يعد قمة في النضوج، فلم يكن لأحد أن يراه متميزاً عن غيره من المسلمين، وهو على قمة هرم السلطة بلباسه أو طعامه أو في شرابه؛ سواءً كان ذلك في الساحة المدنية أو الساحة الحربية.

ومن هذا أنه عليه السلام كان إذا مر في سوق الكوفة لم تكن له علامة تميزهُ عن الناس الموجودين فيه، فكان الناظر إليه يحسبه بدوياً بما عليه من ملابس بسيطة. وهذه الملابس لم تكن تتعدى شملة قد شمرَ طرفيها إلى أنصاف ساقيه.

نعم هناك شيء واحد يميزه، وهو أنه كان يحمل بيده عصا ويأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويأمرهم بطاعة الله وبتقواه،

وبالابتعاد عن الغش بالمعاملة.

الثالث: العلم

فهوﷺ لم يكن ليجاريه أحد في علمه ولا في لوازمه؛ من فصاحة وبلاغة وما إلى ذلك، فقد كان العلم المبرز فيها، وقد بلغ القمة ووصل إلى الشأو الأقصى في كل ذلك. فكانﷺ المثل الأعلى لغيره في العلم [١].

وكما ذكرنا فإن هذه النقاط كانت مشفوعة بالشجاعة والأخلاق العالية، والنفس الكبيرة والنبيلة، وكرم الطباع، وحبّ الله جلّ وعلا وطاعته، والانقياد إليه، والفناء فيه، وما إلى ذلك.

المبحث الثاني: أسباب اضطراب الدولة في أيامهﷺ

وإذا كانت كل هذه المؤهلات التي ذكرناها بأجمعها موجودة عندهﷺ، فإن من المفروض أن الأمور ستستقر أكثر بعد مجيئه إلى الحكم، لكن الذي سطره لنا التاريخ هو أن الاستقرار بدأ يتراجع في عهده، إذ أن فيه كثرت الحروب الداخلية، وقد انشغلﷺ بهذه الحروب، وبتثبيت كلمة الله جل وعلا عن الفتوحات الخارجية إلّا ما ندر منها.

وحينما نتمعنُ في الوضع أو الظروف السياسية التي عاصرت الإمامﷺ فإننا سوف نتلمس فيها ومن خلالها جملة من الأسباب أدت إلى حصول هذا الصراع إبان دولتهﷺ، وهو صراعٌ تحول إلى مضاعفات خطرة بعد رحيله من الدنيا، ومثل علي لا يرحل عن الدنيا.

إذن فهناك جملة من الأسباب أدت إلى اضطراب الوضع السياسي

---

(١) ولقد ذكر ابن أبي الحديد فصلاً في انتماء جميع العلوم إليهﷺ. انظر شرح نهج البلاغة ١: ١٧ ـ ٢٩.

والإداري إبان خلافة أمير المؤمنين عليه السلام؛ صيّرت من الإمام شخصاً كان دأبه أن يحاول جاهداً معايشة هذا اللون من الصراع وهذه الدوامة السياسية التي انعكست مضاعفاتها كما قلنا على الحياة العامة، وعلى كتب التاريخ أيضاً، ومن هذه الأسباب نذكر:

السبب الأول: الحسد

إن من النادر أن نجد شخصاً قد اجتمعت فيه كل المزايا الحسنة، والصفات النبيلة، والطبائع الكريمة كما اجتمعت عند عليٍّ أمير المؤمنين عليه السلام، لقد اجتمع فيه من الصفات ما لم يجتمع لغيره إلّا أنبياء الله ورسله، فقد كان عليه السلام مثالاً في كل أمر حسن، ومثالاً في كل منقبةٍ يحمدُ عليها صاحبها دون أن يكون هناك حدّ أو حصرٌ لتلك الأُمور الحسنة أو المناقب الجميلة. يقول أبو الطفيل: قال بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهي قالة تكلّف قائلها ثمناً غالياً ـ: «لقد كان لعلي بن أبي طالب عليه السلام من السوابق ما لو أن سابقة منها فرّقت بين الخلائق لوسعتهم خيراً»[١]. وهذا ما جعله عليه السلام هدفاً لسهام حقد القوم وحسدهم، الذي يمكن إجماله بالآتي:

الأول: الحسد على النُّبل

وفعلاً فأي شيء عند هذا الرجل العظيم وليست له القابلية على أن يغطي المجتمع كله؟ لقد كان عليه السلام ذا نفس نبيلة لو طرح نبلها على الدنيا جميعاً لغطاها؛ فقد وسع نبل نفسه حتى ألدّ أعدائه، وهذا النبل والكرم في الطباع لم يكونا ليفارقاه حتى في أصعب الظروف التي مرت به، فكانا

---

(١) الأمالي (الطوسي): ٣٩١ / ٨٥٩، شواهد التنزيل ١: ٢٨ ـ ٢٩، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٤١٨، أسد الغابة ٤: ٢٣.

يسموان به عن الحقد والغيظ، ومقابلة الآخرين بما يقابلونه به، والنزول إلى مرحلة الأخذ بالثأر حتى مع من رام تمزيقه، يلجﷺ ساحة الحرب في معركة الجمل فيأمر مناديه أن ينادي جيشه ويأمرهم ألّا يأخذوا شيئاً من معسكر أهل الجمل أبداً. فيأتيه شخص من جنده وأتباعه ويقول له: يا أمير المؤمنين، أتباح دماؤهم ولا تباح أموالهم؟ قالﷺ: **«هؤلاء إخواننا بغوا علينا، فلا تتناولوا شيئاً من معسكرهم»**[١].

وكان بعد المعركة يمر عليهم وبيده عصاً يقلب بها بعض الأشلاء وهو ينظر إليها ويملأ الدنيا بحسراته وبآهاته وبألمه؛ لأنهم صرعوا وهو يعلم أن مصيرهم النار لأنهم قاتلوه، وهم إذ قاتلوه فإنما قاتلوا إماماً، وبغوا على خليفةٍ شرعي. فكانﷺ يتألم لأجلهم؛ لأنهم سوف يدخلون النار بسببه.

ومن مظاهر نبله (صلوات الله وسلامه عليه) في تلك المعركة أن امرأة استقبلته لمّا دخل البصرة بعد واقعة الجمل، ووقفت له بباب الدار، وقالت له: يا قاتل الأحبّة، أيتمت ولدنا أيتم الله ولدك. فقالﷺ: **«لو كنت قاتل الأحبّة لقتلت من في هذه الحجرة»**[٢].

ولم يكن فيها سوى مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير والوليد بن عقبة بن أبي معيط، ثم تنهد تنهداً عميقاً نم عمّا في نفسه الكريمة من ألم وحزن.

الثاني: الحسد على الزهد والتواضع

نعم، إنها نفسٌ تختلف سنخيتها عن سنخية النفوس التي عاصرتها

---

(١) تفسير العياشي ٢: ٢٠ / ٥٣.

(٢) دعائم الإسلام ١: ٣٩٤، مناقب آل أبي طالب ٢: ٩٨، الجمل (ضامر بن شدقم): ١٤٧، تاريخ الطبري ٣: ٥٤٣، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٠٥.

أجمع؛ ففي الوقت الذي كانت فيه تلك النفوس تلتهب حقداً، كانت نفسه الشريفة عليه السلام تفيض رحمةً وعطفاً وودّاً وشفقةً على الآخرين. وكيف لا يكون كذلك وهو ابن القرآن وتلميذ السماء، والابن النجيب لرسول الله صلى الله عليه وآله، وهو ترجمان القرآن في سلوكه وفي كل جزئية من جزئيات حياته؟ وكيف لا يكون كذلك وهو الذي قد رُبي في حجر الرسالة، ونشأ في مربع الرعاية الإلهية؟

إذن لابدّ لشخص يجمع كل تلك الصفات أن يكون على هذه الشاكلة وأن يكون بهذه النفس الطيبة الكريمة، وبهذه الدرجة من السمو.. الدرجة التي ينتهي الأمر معها إلى أن يجود صاحبها بكلّ ما تصل إليه يده من ذهب وفضة، ويفرّقه على غيره من المسلمين، ثم يؤوب إلى بيته وهو يحمل رغيفاً من الخبز لا يكاد يتناوله إلّا بصعوبة بالغة؛ لأنه كان رغيفاً جافاً قاسياً. وكان يأكل بضع تميرات يشتريها من صاحبها ميثم، ثم يمسح على بطنه ويقول: «من أدخله بطنه النار، فأبعده الله»[1]..

وهكذا نجد أنه عليه السلام قد أبى أن يتناول شيئاً من حطام الدنيا ومن زادها إلّا ما يقوّم بها بدنه على عبادة الله جل وعلا. وقد ذكر لنا التاريخ أنه عليه السلام أبى أن يتناول حتى من الهدية التي تهدى إليه؛ فقد أُهديَ إليه بخبيص أو فالوذج ـ على رواية ـ فمدّ يده إليه ليأكل منه، ثم سحبها ولم يذق منه شيئاً، ثم قال لأصحابه: «هلمّوا وكلوا». فقالوا له: نراك رفعت يدك عنه؟ فقال عليه السلام: «لم أكن لآكل من شيء لم يأكل منه رسول الله صلى الله عليه وآله، فكلوا هنيئاً مريئاً».

---

(١) الدعوات: ١٣٨ / ٣٤٠، مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (محمد بن سليمان) ٢: ٨٢ / ٥٦٧، بحار الأنوار ٤٠: ٣٤٠ / ٢٦، كنز العمّال ٣: ٧٨٢ / ٨٧٤١، تاريخ مدينة دمشق ٤٨: ٢٣٠.

فورعه عليه السلام انتهى به إلى أن يمنعه عن تناول طعام مباح له، أو ممارسة رغبة مباحة؛ وذلك ابتغاء وجه الله جلّ وعلا ونزولاً في مستوى معيشته عليه السلام لمستوى أدنى الناس معيشةً؛ حتى يوازيهم وحتى يساويهم في مأكلهم ومشربهم وملبسهم(١).

وهذا الأمر في حقيقته شيء أكثر من عادي في سلوكه؛ لأنه عليه السلام قد ربّى نفسه على هذه المزايا التي كانت مبعثاً على أن يحسده الآخرون عليها؛ فقد حسده الأبطال والشجعان، وحسده أهل العلم، وحسده أهل الانقطاع إلى الله جل وعلا؛ لأنهم كانوا لا يستطيعون أن يصلوا إلى المستوى الذي وصله. وهكذا كان الشجعان يفرّون بين يديه في الحرب، ووصل الأمر به أن أحدهم يذكر معاوية بن أبي سفيان بقوله:

أبت لي عفّتي وأبى بلائي ... وأخذي الحمدَ بالثمن الربيحِ
وإقدامي على المكروه نفسي ... وضربي هامةَ البطل المشيحِ
وقولي كلّما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدي أو تستريحي(٢)

ومع كلّ هذا فإننا نجد من يشتمُ عليّاً عليه السلام حتى الآن، والذي ينبغي بهذا الشاتم أن يكون عنده ولو شيء يسير من النبل، يرفعه عن شتم هذه

(١) وقد أوضح عليه السلام هذا الأمر لعاصم في محاورة هذا الأخير معه، فقال (سلام الله عليه): «إن اللّه افترض على أئمّة العدل أن يقدّروا أنفسهم بالقوام؛ لئلّا يشنع بالفقير فقره». العقد الفريد ٢: ٣٧٣ ـ ٣٧٤.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «فينبغي له ـ الوالي ـ أن يكون كواحد من فقراء المسلمين في المعاش والرياش؛ حتّىٰ يسهل على الفقير فقره إذا نظر للوالي وما هو عليه». الكافي ٦: ٤٤٢ / ٨.

(٢) تفسير الثعلبي ٤: ٥٢، تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات: ٣٥٩، شرح نهج البلاغة ٢: ٢٢٣، ٨: ١٨، ٥٩: ٢٠٣.

الشخصية العظيمة، وهو إذ يشتم علياً فإنما يشتم نفسه؛ لأن علياً عليه السلام ينحسر عنه الشتم، ويعود على قائله؛ فهو عليه السلام طهر طاهر مطهر؛ لا تضيره تلك النفوس الخانعة الخاضعة، ولا تؤثر فيه تلك الألفاظ التي لا تسمو إلى أن تصل إليه.

إذن فلابد أن يحسد من كان على هذه الدرجة العظيمة من الفضائل.

الثالث: الحسد على العلم والمعرفة

وكان عليه السلام فوق كلّ هذا يتصدّى لحل المشاكل والقضايا العالقة بين المسلمين في القضاء وغيره، ومن ذلك أنه جيء بامرأة إلى عمر ومعها رجلان؛ أحدهما ابن زوجها السابق والثاني زوجها الحالي، والولد يتّهمهما بقتل أبيه، فقال عمر: أنقتل نفسين بنفس واحدة؟ فلننتظر حتى نرى رأي علي بن أبي طالب. فقال عليه السلام: «نعم يقتل أكثر من نفس بنفس واحدة، أرأيت لو أن أكثر من رجل سرقوا جزوراً؛ فأخذ كل رجل منهم جزءاً منها، أكنت تقطع أيديهم؟». قال: نعم. قال عليه السلام: «فهذه كتلك».

وكان هذا دأب المسلمين، فكلّ مسألة تواجههم كانت أعينهم ترقب علي بن أبي طالب عليه السلام ليجد حلّاً لمشكلها ومعضلها. ومثل هذه المواقف، ومثل هذه الأمور حتماً ستترك حسداً لا حدَّ له في نفوس من يراه من المسلمين آنذاك؛ لأنه كان العلم والعيلم، والمتصدّي في كل الساحات الحياتية في زمانه؛ فهو الرائدُ والمبرّز والمقدّمُ في ميدان الحرب، وهو الرائدُ والعلَمُ في ميدان العلم، وهو الرائدُ والمقدّمُ في ميدان القضاء؛ الذي يدعى إلى حل المعضلات والملمّات في القضايا كافة فيحلّها ويحلّ مشكلها ومعضلها دون أن يتردّد، ودون أن يتلكّأ.

هذا كلّه مع بيان العلة والدليل الذي من أجله حكم بهذا الحكم وهذه

القضيّة، أو أفتى بهذه الفتوى.

الرابع: الحسد على الشجاعة والبطولة

وكما ذكرنا في المبحث الأول فإنه عليه السلام كان مثالاً في الشجاعة لا يرقى إليه أحد، ولا يصل إلى مستواه بطل مهما كانت شجاعته وبطولته، إضافة إلى ذلك كرم الأخلاق وحسن الطباع والشيم العالية ونبل النفس التي كان يُخضع نفسه الشريفة لها حتى في ميادين القتال[1]، وما إلى ذلك.

الخامس: الحسد على قربه من الرسول صلى الله عليه وآله

وكل هذه الأمور كما ذكرنا تبعث على الحسد.. الحسد حتى من الأقارب والمختصّين بالرسول صلى الله عليه وآله، مضافاً إليه قربه الشديد من رسول الله صلى الله عليه وآله؛ ومن هذا أن أُسامة بن زيد وكان قد ربي في بيت رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان يعرف موقع علي بن أبي طالب عليه السلام من رسول الله صلى الله عليه وآله، ومع هذا نجده يتخلّف عن بيعته عليه السلام، ولم يكن لديه من دافع سوى حقد دفين كامن في نفسه على هذه الشخصية العظيمة، فلم يكن ليطلب علياً بثأر حتى يقال: إنه لم يبايعه ثأراً منه. والأنكى من هذا أنه كان يسمع رسول الله صلى الله عليه وآله - كما هو شأن كثير من المسلمين - يقول لعلي بن أبي طالب عليه السلام: **«حربك حربي وسلمك سلمي»**[2]، **«من أحبك ختم الله له بالأمن والإيمان، ومن أبغضك فليس له نصيب من الإسلام»**[3].

---

(١) كموقفه من عمرو بن عبد ودّ العامري، إذ أبى عليه السلام أن يقتله مباشرة بعد أن بصق اللعين عليه،
فتمهّل عليه السلام حتى سكن عنه الغضب، ثم قتله لله تعالى وفي سبيله.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٤، المناقب (الخوارزمي): ١٩٩، وقد بيّن صلى الله عليه وآله مكانته عليه السلام للمسلمين في خصوص هذا المعنى في أحاديث كثيرة، انظر الحاوي للفتاوي ٢: ٤٤.

(٣) مسند أبي يعلى ١: ٤٠٣/ ٥٢٨، المعجم الكبير ١٢: ٣٢١، كنز العمّال ١١:

ومع ذلك فإنه لا يضمر له في نفسه إلّا البغض والحسد، وهذا ما دفعه إلى التخلف عن البيعة له مع أنه قد رأى أن علياً عليه السلام قد استأثر بحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد أخذ مكانه ومكانته من بعده. فهذا الأمر يمثّل أحد الأمور التي كانت بمجموعها تشكّل دافعاً له لأن يحسد. والحسود يبحث عن ثغرة مهما صغرت لينفذ منها حتى يحطّ من قيمة المحسود.

لكن أي شيء يمكن أن يقال عن علي عليه السلام؟ هذا التاريخ بين أيدينا، ولم يستطع أن يجد له ثغرة من الثغرات إلّا أن يفتعل أحدهم مثلبة وينسبها إليه، ومن ذلك أن يقول أحدهم: لقد دُميت أصابع علي بن أبي طالب من كثرة تسوّره جدران بيوت نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فهل هذه لغة عالم أو فقيه؟ إن هذا القدح كما نعلمه نحن ويعلمه قائله لا يصل إلى علي بن أبي طالب عليه السلام منه شيء، بل إنه يرتدّ سهاماً قاتلة على نحر قائله، فتكيدهُ بما افترى على مثل هذه الشخصية الإلهية العظيمة[١] إن مثل هذا الذي يطلق سهامه على علي لهو يعلم حق العلم أن هذه السهام ستعود عليه هو نفسه وتصيبه. ثم إنه لا يعلم أنه بهذا الكلام إنما يشتم النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم ويهتك حرمة نسائه وعرضهنّ.. فحقّاً إن هذا الشتم سينحسر عن علي عليه السلام ويلتصق بصاحبه؛ لأنه لا يجد في عليٍّ ما يستحق ذلك الشتم.

وهنا نقطة ينبغي التنويه إليها هي أن هذا الحسد قد خدم علي بن أبي طالب عليه السلام، وهذا ما يقرره الشيخ الشفهيني بقوله:

---

٦١١ / ٣٢٩٥٥، ١٣: ١٥٩ / ٣٦٤٩١، وقال: قال البوصيري: رواته ثقات.

(١) وكما نسب إليه من قضية الصلاة وهو ثمل وقد رددنا كل هذا وعليه في ج ٢ ص ٧٨ ـ ٧٩.

إن يحسدوك على علاك فإنما ... متسافل الدرجات يحسد من علا

إني لأعذر حاسديك على الذي ... أولاك ربك ذو الجلال وفضّلا[١]

إذن فالحسد لم يكن لينال من أمير المؤمنين عليه السلام، ورحم الله أبا حيان الأندلسي حيث يقول:

عداي لهم فضلٌ عليّ ومنّةٌ ... فلا أبعد الرحمنُ عني الأعاديا

هُمُ بحثوا عن زلّتي فاجتنبتها ... وهم نافسوني فارتقيت المعاليا[٢]

السبب الثاني: الحقد

وكان الحقد من قريش على هذا الرجل في أشد حالاته، وأبعد مدياته، وأوسع مستوياته. وهذا طبيعي منهم، ونروي هنا حادثةً وقعت عقيب موقعة بدر، فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بقتلى بدر فسحبوا إلى القليب فطرحوا فيه، ثم وقف صلى الله عليه وآله عليهم فقال: «يا أهل القليب، هل وجدتم ما وعدني بكم ربّي حقاً».

وكان أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة لمّا رأى أباه يسحب إلى القليب كره ذلك؛ لأن عتبة أباه كان من رجالات قريش، فعرف النبي صلى الله عليه وآله الكراهية في وجهه، فقال له: «يا أبا حذيفة، كأنك كرهت ما ترى؟». فقال: يا رسول الله، إني والله ما كنت بشكّ في الله ولا رسوله، ولكن أبي كان رجلاً سيّداً حليماً ذا رأي، فكنت أرجو أن يهديه رأيه إلى الإسلام، فلما فات ذلك منه، ووقع فيما وقع فيه أحزنني ذلك[٣].

وأبو حذيفة هذا كان له موقف قبل انتهاء المعركة حيث إن رسول

---

(١) الغدير ٦: ٣٨٨. (٢) الكنى والألقاب ١: ٦١.

(٣) مسند ابن راهويه ٢: ٥٧٣ ـ ٥٧٤ / ١١٤٨، صحيح بن حبان ١٥: ٥٦٢ ـ ٥٦٣.

الله صلى الله عليه وآله نهى يوم بدر أن يُقتل أحد من بني هاشم، وكذلك أبو البختري، وقال صلى الله عليه وآله: «إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أُخرجوا كرهاً، لا حاجة لنا بقتلهم؛ فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري فلا يقتله، ومن لقي العبّاس بن عبد المطلب عمّ رسول الله فلا يقتله، فإنه إنما خرج مستكرها». حيث إن قريشاً قالت للهاشميّين: لا تبقوا بين ظهرانينا ومحمد خارج لقتالنا، بل لابدّ من أن تخرجوا معنا وتقاتلوه.

وهنا قال أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة: أنقتل آباءنا وإخواننا وعشائرنا، ونترك العبّاس، والله لئن لقيته لأُلحمنّه السيف[1].

وهذا المعنى إذا أردنا نقله إلى باقي أفراد قريش وغير قريش فإننا نجد أن دواعي الحقد ومسبباته موجودة عندهم، وكامنة في صدورهم ضدّ الإمام علي عليه السلام؛ لأنه صاحب النصيب والأوفر والعدد الأكبر من القتلى، فقد كان معظم القتلى في معظم الغزوات من فعل سيفه. فهؤلاء لا يمكن لهم أن ينسوا مصارع آبائهم أو إخوانهم إلّا إذا كان فيهم من بلغ من الإيمان مبلغاً عظيماً، أو كان ذا مستوى من الورع، أو التفاني، أو التضحية في سبيل الله بكل شيء؛ فإنه حينئذٍ يمكن له أن ينسى هذه الحالة.

وبهذا فإننا نجد أن أغلب بيوتات قريش كانت تطلبه بثأر وكانت تحقد عليه. وهذا المعنى قد عبّر عنه الخليفة الثاني في محاورته مع عبد الله بن عباس ذات مرّة، يقول عبد الله بن عبّاس رضي الله عنه: كنت مع الخليفة عمر فقال لي: يابن عبّاس، أتدري ما منع الناس عنكم؟ قال: لا. قال: لكني أدري. قال: ما هو؟ قال: كرهت قريش أن تجتمع لكم النبوّة والخلافة فتجفخوا

---

(١) الكافي ٨: ٢٠٢ / ٢٤٤، شرح نهج البلاغة ١٤: ١٨٢ ـ ١٨٣.

جفخاً، وتنفخوا نفخاً، فنظرت قريش لنفسها فاختارت، ووفقت فأصابت. فقال ابن عباس: أيميط أمير المؤمنين عني غضبه فيسمع؟ قال: قل ما تشاء. قال:

أما قولك: إن قريشاً كرهت، فإن الله تعالى قال لقوم: **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾**(١). أي أنك جعلت المناط في أحكام الله تعالى وأوامره هو كراهة قومنا وعدم كراهتهم، فلو كره قومنا نزول القرآن الكريم فهل يترك الله تعالى إنزاله؟ ولو أن قومنا كرهوا نزول الوحي والإسلام ـ كما حصل بالفعل ـ فهل يترك الله تعالى أمره، ويمتنع عن إنزاله على الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله؟ والحاصل أنه لو أراد الله تعالى شيئاً وكرهته قريش فهل نتركه طاعة لقريش ومعصية لله؟

وأما قولك: إنا كنا نجخف ـ أي يصبح عندهم كبرياء وتضخّم ـ فلو جخفنا بالخلافة جخفنا بالقرابة، ولكنا قوم أخلاقنا مشتقّة من خلق رسول الله صلى الله عليه وآله الذي قال الله تعالى فيه: **﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾**(٢)، وقال له: **﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾**(٣).

وأمّا قولك: فإن قريشاً نظرت لنفسها فاختارت، فليس من حقّ قريش أن تختار لنفسها، ذلك أن الله تعالى يقول: **﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾**(٤)، وقد علمت أن الله اختار من خلقه لذلك من اختار. أي أن الله تعالى اختار وقضى، ولم يترك الأمر هملاً، أو دون أن ينزل فيه حكماً.

---

(١) محمد: ٩. (٢) القلم: ٤.

(٣) الشعراء: ٢١٥.

(٤) القصص: ٦٨، أي أنه تعالى جعل كل اختيار خلاف اختياره جلّ وعلا شركاً.

ولنلاحظ التعبير هنا وهو (قريشاً اختارت)، بمعنى أن المسلمين جميعاً لم يختاروا بل إن الذي اختار هو قريش فقط، وهم جزء من المسلمين وليسوا كلهم، فهناك الأنصار وهناك القبائل العربيّة المسلمة من غير قريش، فإن كان الأمر متعلّقاً بكون قريش قبيلة النبي فبنو هاشم أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله؛ ولذا فإن أمير المؤمنين عليه السلام لمّا بلغه احتجاج أهل السقيفة بهذا قال عليه السلام: «احتجّوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة»[١]؛ لأنه عليه السلام وولديه عليهما السلام أقرباء نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله وخاصّته والحسنان عليهما السلام ابناه، وغيرهم من قريش أبعد عنه منهم. و على أيّة حال فهذا هو تعبير الخليفة الثاني نفسه.

وأما قولك: ووفقت فأصابت، فليس الأمر كذلك؛ لأن الذي يختار خلاف ما اختار الله تعالى لم يوفّق. فلو نظرت قريش من حيث نظر الله لها لوفقت وأصابت.

ثم نفض ابن عباس ثيابه وقام، فقال عمر: على رسلك يابن عباس، أبت قلوبكم يا بني هاشم إلّا غشّاً في أمر قريش لا يزول، وحقداً عليها لا يحول. فقال ابن عباس: مهلاً، لا تنسب هاشماً إلى الغشّ؛ فإن قلوبهم من قلب رسول الله صلى الله عليه وآله الذي طهّره الله تعالى وزكّاه، وهم أهل البيت الذين قال الله تعالى فيهم: **﴿إنّما يُرِيدُ الله لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾**[٢].

وأما قولك: حقداً، فكيف لا يحقد من غصب حقّه ويراه في يد غيره؟ فقال عمر: أمّا أنت يابن عباس، فقد بلغني عنك كلام أكره أن أُخبرك به،

(١) نهج البلاغة / الكلام: ٦٧.
(٢) الأحزاب: ٣٣.

فتزول منزلتك عندي. قال: وما هو؟ أخبرني به؛ فإن يكُ باطلاً فمثلي أماط الباطل عن نفسه، وإن يكُ حقّاً فإن منزلتي عندك لا تزول به. قال: بلغني أنك لا تزال تقول: أُخذ هذا الأمر منك حسداً وظلماً. قال:

أما قولك: حسداً، فقد حسد إبليس آدم فأخرجه من الجنة، فنحن بنو آدم المحسود.

وأما قولك: ظلماً، فأنت تعلم صاحب الحقّ من هو. ثم قال: ألم تحتجّ العرب على العجم بحقّ رسول اللهصلى الله عليه وآله، واحتجّت قريش على سائر العرب بحق رسول اللهصلى الله عليه وآله؟ فنحن أحق برسول اللهصلى الله عليه وآله من سائر قريش. فقال له عمر: قم الآن فارجع إلى منزلك.

فقام، فلما ولّى هتف به عمر: أيها المنصرف، إني على ما كان منك لراعٍ حقّك. فالتفت إليه ابن عباس وقال: إن لي عليك وعلى كلّ المسلمين حقّاً برسول اللهصلى الله عليه وآله، فمن حفظه فحقّ نفسه حفظ، ومن أضاعه فحقّ نفسه أضاع. ثم مضى[1].

أي أنهعليه السلام يريد أن يقول له: إن الذي يختار غير ما اختار الله له وضدّه فإنه غير معلوم من أمره أنه موفّق، ﴿**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ**﴾.

فالمحاورة على بساطتها تكشف عن معنى كبير؛ لأنها ليست من شخص من عامّة الناس بل إنها من الخليفة الثاني، وهو عمر بن الخطاب، وهو الشخص الملمّ بأحوال قريش؛ ولهذا فإنه يقول له: ليس من السهل أو اليسير أن تطيب نفوس قريش تجاهكم، ولا تظنن أن صاحبك ـ يقصد

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢: ٥٢ ـ ٥٥، مناقب أهل البيتعليهم السلام: ٤٥٣ ـ ٤٥٤.

أمير المؤمنين عليه السلام ـ يمكن أن يجد له مكاناً في قلوب هؤلاء ؛ لأنه طافٍ على بحرٍ من الدماء، وعلى جبال من أشلاء الضحايا من المشركين وجثثهم ممن ذهبوا بسنانه وسيفه، وهو يدافع عن دين السماء وعن نبي السماء.

وبهذا فإنه في مكان لا يحسد عليه، بل إن هذا المكان خلق له حقداً دفيناً كامناً لا حدود ولا أمد له في صدور القرشيين. وهذه أُخت عدي تقول حينما خرج أمير المؤمنين عليه السلام ليمتطي جمله:

لاهُــمَّ فــاعقر بــعليٍ جــمَلَه ولا تبارك بـبعير حـمَلَه[1]

وفوق ذلك فإننا نجد أن إحدى نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم حينما بلغها مصرعه قالت:

وإن يكُ نــائياً فــلقد نــعاهُ نعيٌ ليس في فيه التـرابُ[2]

ذلك أن العرب كانوا إذا فقدوا عزيزاً عليهم ثم ذكره أحدٌ ونعاه فإنهم يقولون له: في فيك التراب، أي ملأ الله فاك تراباً، لأنك جئت بهذا الخبر الشؤم. هذا في حين أن الذي حدث هو أن عائشة تصف هذا الذي جاء بنعي أمير المؤمنين عليه السلام بأنه ليس في فيه التراب ؛ لأنه لم يجئ بخبر مشؤوم بالنسبة لها، بل إنه جاء بخبر مفرح.. جاء بخبر فألٍ حسن تراه ؛ ولذا فإنها لم تدعُ عليه بأن يكون التراب في فمه، وهو دعاء مذمّة واستنكار واستقباح من القائل.

فهي لا تذمّ ناعي أمير المؤمنين عليه السلام، ولا تستقبح قوله ولا تستنكر عليه قوله هذا؛ ذلك أن أمير المؤمنين عليه السلام قد وتر الأقرب والأبعد في سبيل الله

---

(١) القائلة هي أُخت علي بن عدي من بني عبد العزّىٰ بن عبد شمس. تاريخ الطبري ٣: ٤٩٣، الإصابة ٥: ٥٣ / ٦٢٧٧.

(٢) الجمل: ٨٤، تاريخ الطبري ٤: ١١٥.

جلّ وعلا، فما من بيت من بيوتات قريش إلّا ولعلي بن أبي طالب عليه السلام فيه نضْح من الدماء دفاعاً عن الحق وعن السماء وتعاليم السماء ونبي السماء صلى الله عليه وآله. وبهذا فإننا نرى أن هذه الحوادث تكشف عن ذلك الحقد الذي يغلي في عروق هؤلاء، وهو حقد لم يأتِ من فراغ كما بيّنا.

السبب الثالث: أنه عليه السلام سار بسيرة العدل

ومعلوم أن من يسيره بسيرة العدل فإنه حتماً سوف يرضي جماعة مستضعفة، ويغضب منه جماعة أُخرى من ذوي الجاه والسلطان والمال وما إلى ذلك. فالسير بطريق العدل والصواب ـ وهو وضع الشيء في موضعه ـ يخلق حالة من الغضب عند شريحة عريضة من المجتمع[1].

ونضرب مثالاً على هذا، وهو أن الحاكم لو أراد مثلاً أن يلغي المصارف الربوية فإن الطبقات العامّة سوف يرضون بهذا ويستبشرون به، ويشجعون الحاكم عليه ويساعدونه؛ لأنه يكون بهذا القرار قد خلّصهم من هؤلاء المرابين الذين يمتصّون عرقهم وكسبهم بغير وجه حقّ، كما أنه يكون بهذا قد حقّق لهم مكسباً من المكاسب وهو حفظ أموالهم.

هذا في حين أن الطبقة المرابية التي كانت مستفيدة من النظام القديم سوف تعلن غضبها وثورتها واستنكارها لهذا القرار، وتعمد إلى خلق الفتن والمشاكل ضدّه؛ كي تطيح به؛ لأنه يكون قد أضرّ بمصالحها، وقد سدّ على أفرادها باباً من أبواب الرزق وإن كان رزقاً غير حلالٍ وغير مشروع.

---

(١) ورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قوله: «ما ترك الحقّ من صديق». كشف الخفاء ١: ٣٦٢ـ ٣٦٣ / ١١٥٥.

والمستفيدون من البنوك الربوية كما هو معلوم هم أصحاب رؤوس الأموال الذين يفترضون سلفاً بأن هذا الحاكم إنما يريد ضرب مصالحهم عبر إغلاق الأسواق في وجه استثماراتهم الربوية، ومعاملاتهم غير المشروعة. وهؤلاء طبعاً هم غالباً ما يكون في أيديهم الحل والعقد، لأنهم مجموعة التكتلات التي تمتلك وسائل القوة، فهذه الطبقة الخاصة سوف يستثار في نفوسها حقدٌ لاحدود له؛ لأنها ترى من نفسها أنها طبقات مميزة، والطبقات المميزة تفترض أنها يجب ألّا تساوى مع الآخرين في التعامل أو العطاء أو الكسب أو ماتملك، بل وعلى كل مستويات الحياة وأصعدتها.

فإذا حصل أن ذلك قد وقع بفعل قرار ترى أنه يسلب منها مكانتها وحقوقها وامتيازاتها فإنها تعمد إلى محاربة هذا القرار، ذلك أنها لا شيء يمنعها من الوقوف في وجه من يحاول مصادرة ذلك منها، بل إنها لا تتوانى عن ترك حتى الواجبات أو المستحبات الأكيدة في سبيل ألّا تنزل بنفسها مع الطبقة المتدنية؛ لأنهم يرون أنهم أرفع شأناً وأعلى مكاناً وأسمى مقاماً من هؤلاء الناس الذين يعدّونهم بنظرهم على أنهم من السوقة.

والتاريخ يحدثنا أن بعض المسلمين كان لا يصلي جماعةً، وكان يقول: إن في هذه الجماعة من يزاحمني من السوقة وعليه فلا أريد أن أضع نفسي في موضع مزاحمة معهم؛ أنفة من هذا، وتأنفاً من أن يكون من منزلتهم. كما أنه يحدثنا أن جماعة من قريش وهم عتبة وشيبة وحكيم بن حزام والوليد قد دخلوا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا له: نحن نريد أن نجلس إليك ونسمع منك، لكن يمنعنا من ذلك هؤلاء الأراذل الذين اتّبعوك، وهم

يحيطون بك.

إذن فإرضاء الطبقة العامة يؤدي إلى إغضاب وإزعاج الطبقات الخاصة المنتفعة بفعل وجودها، ومكانتها، وشأنيتها الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية، وما إلى ذلك، ولهذا فإننا نجد أن أمير المؤمنينعليه السلام كان يقدم رضا العامة لأنهم الطبقة المسحوقة والطبقة التي تقف مع الحق غالباً. كتبعليه السلام إلى مالك الأشتر قائلاً: «**وليكن أحبّ الأمور إليك أوسطها في الحقّ، وأعمّها في العدل، وأجمعها لرضا الرعيّة، فإن سخط العامّة يجحف برضا الخاصّة، وإن سخط الخاصّة يغتفر مع رضا العامّة... وإنما عماد الدين، وجماع المسلمين، والعدّة للأعداء العامّة من الأمّة**»[١].

ذلك أن العامة هم القاعدة العريضة، وهم الذين يصنعون الحياة بعرقهم، وهم الذين ينسجونها ويصوغونها بكدّهم وتعبهم؛ فلابدّ إذن أن يعطى الجائع البائس فرصته في الحياة. وهذا هو الذي يفسّر لنا كيف أن الإمام علياًعليه السلام كان ملتصقاً بالجماهير، متحسّساً لهمومهم ومشاكلهم ومعاناتهم، محاولاً أن يضع حدّاً لها. لقد كانعليه السلام يحمل على يديه الشريفتين أنات الضعفاء، وآلام المكلومين، وتأوّهات الجائعين والبائسين.

وهذا بطبيعة الحال قد سبب له مشكلة كبيرة مع أبناء الطبقة الخاصة الذين أعلنوا عصيانهم له وغضبهم منه بمجرد وصوله إلى السلطة، وأخذه الحقّ ممّن أخذه عنوة ودون حق وأرجعه إلى أهله[٢].

---

(١) نهج البلاغة / ٥٣، عهدهعليه السلام لمالك الأشتر.

(٢) قال أمير المؤمنينعليه السلام عندما انتهت إليه الخلافة: «والله لو وجدتها مهرت بها النساء لرددتها، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق». نهج البلاغة / الكلام: ١٥.

دخل عليه بعض من أصحابه وقالوا له: كيف تريد أن تساوي بين الناس؛ سيّدهم وعبدهم في العطاء، والواقع يفرض أن يكون هناك تمايز بينهم؟ فرؤساء العشائر مثلاً يجب أن يميزوا بالعطاء عن أفراد عشائرهم، والعرب يجب أن يميزوا بالعطاء عن العجم، فلا يأخذ المولى كما يأخذ العربي على حدّ سواء، بل لابدّ من إعطاء المولى دون ما يعطى إلى العربي، ولهذا فعليك أن تفرق في العطاء في كل ما ذكرنا. فقال لهم الإمام عليه السلام: «أتأمروا أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه؟ والله، ما أطور به ما سمر سمير، وما أمّ نجم في السماء نجماً. لو كان المال لي لسوّيت بينهم، فكيف وإنما المال مال الله تعالى»[1].

وهذا كله قد أوجب سخط الطبقة الخاصة عليه بل وحتى الأُدباء والشعراء، كجرير وغيره الذين تعوّدوا أن يأخذوا أموالاً من الطغاة والسلاطين بغير حق، ذلك أنهم كانوا يأخذون أموالاً من المدح الكاذب، مما دفع بجرير هذا وغيره من الشعراء إلى تركه والالتحاق بمعاوية، يقول أحد الشعراء:

أنا لا أُريد الشعر إن جدّت بنا ... نوب يخلّي ما عناه ويقبعُ
أو أن يُباع فيُشترى إكليله ... تاج من المدح الكذوب مرصّعُ

فهذا يأخذ أموال غيره ويذهب بها بكلمة أو كلمتين دون أن تكونا بوجه حق، ولو أنها كانت بوجه حق كأن يكون الممدوح يستحق كلام مادحه فإنه يمكن أن يهون الأمر، ويمكن أن يقال حينئذٍ: إنه لا بأس به، أما إذا كان الممدوح غير أهلٍ لهذا فإنه يكون قد اكتسب هذا المال عن طريق

(١) نهج البلاغة / الكلام: ١٢٦.

الكذب وكلام الزور.

إذن فهؤلاء يكسبون الأموال من غير حلها ويأخذونها ثم ينفقونها في غير حلّ كذلك، في حين أن أمير المؤمنين عليه السلام لم يكن ليعطي المال لجرير وأمثال جرير؛ ولهذا فإنه كان ممن تخلف عن بيعته والتحق بمعاوية كما ذكرنا. وكذلك تخلف عن بيعته حسان بن ثابت حيث إنه لم يحصل على الأموال التي كان يبغي الحصول عليها من أمير المؤمنين عليه السلام؛ فأمير المؤمنين عليه السلام كان يمنح عطاءه كله لمن يحتاجه، لكنه لم يكن بالذي يمد يده لبيت مال المسلمين ويأخذ منه ويعطي الشعراء والمتملّقين[1].

وهكذا نجد أن كثيراً من الشعراء والرؤساء قد التحقوا بمعاوية بعد أن منّاهم وأعطاهم الأموال الجزيلة، وقد بلغ مقدار ما أعطاه لبعضهم مئة ألف دينار أو أكثر. دخل الأحنف بن قيس، وجارية بن قدامة، والجون بن قتادة، والحباب بن يزيد أبو منازل على معاوية بن أبي سفيان، فأعطى كلّ رجل منهم مئة ألف درهم، وأعطى الحباب سبعين ألف درهم.

فلما خرجوا منه وكانوا في الطريق، سأل بعضهم بعضاً عمّا أعطاه معاوية، فأخبروا بجوائزهم، فرجع الحباب إلى معاوية، فقال له: ما ردّك يا أبا منازل؟ قال: فضحتني في بني تميم، أَما حسبي صحيح؟ أوَلست ذا سن؟ أوَلست مطاعاً في عشيرتي؟ فقال معاوية: بلى أنت كذلك. قال: فما بالك خسست بي دون القوم، فتعطي الأحنف ورأيه رأيه ـ وكان علويّ الرأي والهوى ـ مئة ألف درهم وتعطيني ورأيي رأيي ـ وكان عثمانيّ

---

(١) قدم على أمير المؤمنين عليه السلام خراج إصفهان، فقال: «أيها الناس، اغدوا فخذوا، فوالله ما أنا لكم بخازن». ثم أمر ببيت المال فكنس ونضح، ثم صلّى فيه ركعتين ثم قال: «يا دنيا، غري غيري». الغارات ١: ٨٣ ـ ٨٤، وسائل الشيعة ١٥: ١٠٩ ـ ١١٠ / ٢٠٠٨.

الرأي والهوى ـ سبعين ألف درهم؟ فقال: يا حباب، إني اشتريت منه دينه بما أعطيته، أمّا أنت فقد وكلتك إلى دينك ورأيك في عثمان بن عفّان، فإني أبقيت لك دينك؛ لأنك عثماني، وأنا أُريد أن أُبقيك على عثمانيّتك. فقال الحباب: يا أمير المؤمنين، فاشترِ مني أيضاً ديني. فأتمّها له مئة ألف درهم، وألحقه بالأحنف ورفيقيه.

ثم لم يأتِ على الحباب بعد ذلك أُسبوع حتى مات، ورُدّ المال بعينه إلى معاوية[1].

فهذا النمط من الناس كان مستعداً لأن يعيش في ظل معاوية ويبيع دينه، ولم يكن ذا استعداد لأن يعيش تحت جناح أمير المؤمنين عليه السلام من غير مال؛ لأنه يرى أنه سوف لن يحصل على ما يحصل عليه من معاوية.

وهذا في واقع الأمر انتكاسة وهبوط بالإنسان عن طريق الإنسانية؛ لأن معاوية وأمثاله كانوا يرون أن المكانة يمكن أن يأخذها الناس عن طريق شراء الضمائر والذمم وبيع الحقيقة والدين والرسول والكتاب والعترة[2]، مع أن مثل هذه المكانة ليست بمكانة ذات قيمة، وإنما هي منحدر ومستنقع قذر يلجه أُولئك من ذوي النفوس الضئيلة الوضيعة؛ لأنهم قد ساموا بها من باع عليهم مكانتهم هذه بدينهم.

وعليه فإن هؤلاء كانوا يرون أن تقديم الإمام عليه السلام للعامة قد أُجحف برضا الخاصة.. الخاصة التي دبرت مصرعه. أما العامة فقد أُنوا أنة واحدة

---

(١) انظر: الغارات ٢: ٧٥٤، تاريخ مدينة دمشق ١٠: ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

(٢) أعطى معاوية سمرة بن جندب أربعمئة ألف درهم ليروي أن قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ ـ البقرة: ٢٠٧ ـ نزل في عبد الرحمن ابن ملجم؛ إذ باع نفسه لله عندما ضرب علي بن أبي طالب عليه السلام. الصراط المستقيم ١: ١٥٢، النصائح الكافية: ٢٥٣.

حينما صرع عليه السلام ولم تخرج تلك الأنة والآهة من قلوبهم إلى يومنا هذا.

السبب الرابع: مجيئه عليه السلام إلى كرسي الخلافة بعد عثمان

فلو أنه عليه السلام جاء إلى الخلافة بعد أبي بكر أو عمر لما حصل كل هذا، ولما وصل به الأمر إلى أن يحارب وأن يقتل. وبيان ذلك أن الأمور بعد الخليفتين الأولين كانت طبيعية إلى حد ما، فقد كانت الأمور بيد الخليفة نفسه يسيرها كيف يشاء، أما بعد مجيء عثمان إلى الحكم فإنه لم يكن سوى صورة وواجهة للحكام الحقيقيين الفعليين الذين كانوا يديرون الحكم ويديرون دفّته، وهم بنو أمية، ويمثلهم ـ على رأسهم ـ مروان بن الحكم الذي حكم المسلمين باسم الخليفة عثمان الذي لم يكن أمامه سوى شكل وصورة كما ذكرنا.

مؤاخذته عليه السلام على أسلوب عثمان في الحكم

وعليه فلابدّ هنا من أن نشير إلى جملة من مؤاخذته عليه السلام على أسلوب عثمان في الحكم، ومنها:

الأولى: تسليمه مقاليد الحكم لمروان

ومروان ورهطه هم الفئة التي طردها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المدينة المنورة ونفاها منها[1]، لكن عثمان أعادهم إليها، فاستغلّوا الظروف التي كان عليها، وحكموا حكماً حقيقياً باسمه.

---

(١) حيث إنه صلى الله عليه وآله وسلم طرد الحكم أبا مروان إلى الطائف. انظر: الإحكام في أصول الأحكام (ابن حزم) ٢: ٢٠٣، مجمع الزوائد ٨: ٤٣، المعجم الكبير ١٢: ١١٥، شرح نهج البلاغة ١: ٣٣٥، ٣: ٣٠، ٦: ١٤٩.

الثانية: إيثاره أقرباءه بمال المسلمين

وهذا الأمر ـ جعْل عثمان مجرّد علامة في الحكم ـ أدى إلى حدوث نوع من التسيب لا حدود له، وعندما جاء الإمام علي عليه السلام إلى الحكم عمل جاهداً على إصلاح ما أفسده هؤلاء، لكنه وجد الأمر في غاية الصعوبة والتعقيد؛ فمثلاً أنه عليه السلام قد وجد أن خمس أفريقيا قد أُعطي إلى مروان بن الحكم؛ ولذا فإن من الصعب على مثل هذا أن تجود نفسه بإرجاع هذه الأموال إلى بيت مال المسلمين بعد أن طوعت له أخذها بغير وجه حق، فهو لم يكن ليرتضي أن يعطي ما يملك من أموال هي في الحقيقة أموال المسلمين إلى بيت المال ثم يرجع فيأخذ عطاءه منه حاله في ذلك حال أدناهم دون أن تكون له ميزة عليهم.

الثالثة: تعطيل حدود الله لاعتبارات شخصية

كما أنه عليه السلام قد وجد أن حدود الله قد عطّلت، فقاتِل الهرمزان ونظائره لم تقم عليهم الحدود؛ ذلك أن إقامة الحدود تستوجب غضب جهات معينة، وليس هنالك صلابة عند أولئك الذين تسلموا كرسي الحكم بأن يأخذوا بحقّ الله وبحقّ المظلومين من هؤلاء. وهذا ما حدا بأمير المؤمنين عليه السلام ـ بمجرّد أن جاء ـ إلى أن يصلح الأوضاع المتردية، وكان إصلاحها أعسر من العسير. كما أن الزمن كذلك لم يسعفه، إذ لم يكن لديه وقت كافٍ لإصلاح كل تلك الأخطاء، وكل ذلك الخلل الذي وقع فيه من سبقه.

ثم إنه يؤخذ عامل الزمن بعين الاعتبار، عند محاولة دراسة آثار تلك الظاهرة وعلاجها والقضاء عليها، فقد كانت خلافته أربع سنوات وثمانية

أشهر تقريباً، وهي فترة قصير سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار فيها مجموعة الحروب التي استنزفت كلّ هذه الفترة، وهو ما دفع به عليه السلام لأن يعمد إلى إصلاح كل هذه الأخطاء منذ لحظة وصوله الحكم، أو منذ لحظة اعتلائه كرسي الخلافة.

السبب الخامس: المساواة بين العرب والموالي

ولبيان هذا الأمر نروي هذه الحادثة، حيث إنه عليه السلام كان في يوم من الأيام جالساً في مسجد الكوفة عند بيت المال، فدخلت عليه امرأتان إحداهما مولاة مملوكة والأخرى عربيّة حرّة، تسألانه العطاء، فأمر لكل واحدة منهما بكرّ من طعام وأربعين درهماً، فأخذت المولاة العطاء الذي أُعطيت وذهبت، وقالت العربيّة: يا أمير المؤمنين، تعطيني مثل الذي أعطيت هذه، وأنا عربية وهي مولاة؟ فحمل أمير المؤمنين عليه السلام قبضتين من التراب وقال: «والله، إني لا أرى فرقاً بين هذه وبين هذه، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[١] ...». ثم قال عليه السلام لها: «إني نظرت في كتاب الله عزّ وجلّ، فلم أرَ فيه فضلاً لولد إسماعيل على ولد إسحاق»[٢].

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) انظر السنن الكبرى (البيهقي) ٦: ٣٤٩، كنز العمّال ٦: ٦١٠ ـ ٦١١ / ١٧٠٩٥. وفي الكافي ٨: ٦٩ / ٢٦ أنه عليه السلام خطب فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس، إن آدم لم يلد عبداً ولا أمة، وإن الناس كلّهم أحرار، ولكن الله خوّل بعضكم بعضاً، فمن كان له بلاء فصبر في الخير فلا يمنّ به على الله عز وجل. ألا وقد حضر شيء ونحن مسوّون فيه بين الأسود والأحمر». فقال مروان لطلحة والزبير: ما أراد بهذا غيركما.
ثم وزّع عليه السلام المال، فأعطى كل واحد ثلاثة دنانير، وأعطى رجلاً من الأنصار ثلاثة دنانير، وجاء بعد غلام أسود فأعطاه ثلاثة دنانير، فقال الأنصاري: يا أمير المؤمنين، هذا غلام أعتقته بالأمس تجعلني وإياه سواء؟ فقال عليه السلام: «إني نظرت في كتاب الله، فلم أجد لولد إسماعيل على ولد إسحاق فضلاً».

وهذا ليس بالأمر السهل ولا الهيّن عند هؤلاء، بل إنه من الأُمور الحساسة والهامة في المجتمع آنذاك، فليس من السهل أو اليسير أن يجد العربي نفسه وقد وضع على قدم المساواة مع الموالي من غير العرب. فهذا من الأُمور التي أوجبت سخط المجتمع عليه، وأوجبت بذلك نقمة كبيرة منه عليه عليه السلام.

المبحث الثالث: علي عليه السلام يمثّل جوهر الإسلام

هذا كله مع أنه عليه السلام لم يكن يهدف لشيء سوى تجسيد رسالة الإسلام وتجسيد تعاليم السماء الحقّة، وهي المساواة بين المسلمين كافة دون فرق بينهم بالنسب أو اللون أو العرق والدم وما إلى ذلك. وهذا الأمر أدى إلى حدوث هذه الحروب الداخلية التي اشتعل أوارها إبان خلافته؛ لأن من حارب لم يكن يريد سوى تجسيد مفاهيم الجاهلية وقيمها. فحرب الجمل مثلاً إنما وقعت لأن طلحة والزبير لم يحصلا على ما كانا يؤمّلانه من الجاه والسلطة والأموال، فقد كان عليه السلام يمنعهما من الوصول إليها؛ لأنها ليست لهما بل هي حقوق المسلمين؛ وبالتالي فإنهما ليس لهما الحقّ في الأخذ منها.

ثم وقعت بعدها حرب صفّين والنهروان، وكان ضحية المعركة الأخيرة الخوارج؛ لأنهم قد غرر بهم، فهم لم يكونوا سوى أداة منفذة لقتل علي بن أبي طالب عليه السلام؛ لأن الذي تولى مصرعه وخطط له هم قريش المتمثلة بمعاوية والأشعث بن قيس وعمرو بن العاص. وهنا نجد أن قريشاً قد لعبت الدور الكامل والكبير في اغتيال الإمام عليّ عليه السلام، ففي مثل هذه الليلة المشؤومة التي اغتيل فيها الحق والدين. يحدثنا التاريخ أن

معاوية كان يلبس درعاً كاملة حينما خرج إلى الصلاة، وكأنه كان يعرف ما سوف يحدث؛ ولذا فإن الضربة التي تلقاها ضربة خفيفة يراد منها إضاعة معالم الاغتيال.

فالعملية لم تكن تعدو تمثيلية كتب السيناريو لها معاوية وعمرو بن العاص، وكان المنفذون لها هم الخوارج كما يذهب إلى ذلك محمود عباس في كتابه (اليمين واليسار في الإسلام). وكذلك الأمر مع عمرو بن العاص حيث إنه لم يخرج تلك الليلة إلى الصلاة، بل إنه تكلف المرض وادعاه ليحمي نفسه من هذه الضربة فقام بتكليف رئيس شرطته للخروج والصلاة مكانه. وكان الأشعث بن قيس ومجموعة من العناصر التي اشتركت في هذه المؤامرة متهيئين وعلى أتم الاستعداد للقيام بما خطّطوا للقيام به ومن أجله، وهو اغتيال أمير المؤمنين عليه السلام.

ومع كل هذا نجد أن أحد المؤرخين عندما يتناول هذه المسألة يحاول أن يضفي عليها بعداً قومياً، كما فعلوا في مسألة قتل الخليفة الثاني حيث إنهم اتهموا أبا لؤلؤة، مع أنه لم يكن سوى أداة منفذة في القتل، وكان المخطّط والمنظّر لعملية اغتياله هو المغيرة بن شعبة وجماعة من الأُمويّين الذين كبر عليهم ما كان يفعله عمر في أيامه الأخيرة من انحيازه إلى بني هاشم، وإظهاره ملامح الاحترام لهم والميل إلى جانبهم.

وباختصار فإن مواقف عمر في أيامه الأخيرة قد تغيرت إزاء الأُمويّين والبيت الهاشمي، فقد بدأ يميل إلى أبناء هذا البيت، وكانت قد ظهرت على لسانه عبارات كثيرة في مدحهم وفي مدح الإمام علي عليه السلام حيث إنه كان يحاول أن يدنيه إليه، وأن يقربه منه، في الوقت الذي لمس الأُمويّون منه أنه بدأ يبتعد عنهم. وهنا رأوا أن هذا الأمر سوف يتفاقم، وسيخرج من

أيديهم ويؤول إلى بني هاشم.

هذا هو السيناريو الحقيقي لمقتل الخليفة عمر، أما ما يذهب إليه البعض من المحلّلين من أن أبا لؤلؤة كان قد كلّم الخليفة عمر بأن يشفع له عند المغيرة؛ لأن الأخير كان يأخذ منه كل أُسبوع مئة درهم ـ باعتباره مولى له ـ كجزية أو كضريبة على عمله، فلم يفعل الخليفة ذلك، ولم يكلّم المغيرة في هذا الأمر؛ مما أدّى إلى حقد أبي لؤلؤة عليه وقتله، فليس بشيء ذي أهمية.

إن هذا في واقع الأمر ليس مبرّراً للقتل، وليس سبباً معقولاً لأن يؤدي إلى أن يقدِم أبو لؤلؤة على هذا الأمر، غير أن هذا التفسير وهذا التحليل انتشر لأن الأمويّين كانوا وراءه، ولأنهم كانوا يريدون له أن ينتشر بهذه الصورة وبهذه الشاكلة. وهذا ما نجده كثيراً في تاريخنا حيث إننا نجد أن هناك الكثير من القضايا التي لها باطن وظاهر، بمعنى أنها عملة ذات وجهين، فتقرأ من وجه واحد ولم تقرأ من الوجه الثاني.

إذن فقضية اغتيال الإمام علي عليه السلام ليست كما أرادوا لها أن تكون ـ أي ذات صبغة قومية ـ لكنهم حاولوا صبغها بتلك الصبغة، فادعوا أن أحد هؤلاء الثلاثة الذين تكفّلوا بقتل الثلاثة هو مولى واسمه زادويه، حيث إنهم يذكرون بأن هؤلاء الثلاثة قد اجتمعوا في الحجّ، وخططوا لعملية الاغتيال. لكن من الواضح أن هؤلاء قد صبروا ما يقارب التسعة أشهر لتنفيذ عمليتهم، مع أنه ليس هنالك من مبرّر لكل هذا التأجيل، وهذه الفترة هي الزمن المحصور بين ذي الحجة حيث اجتمعوا وخطّطوا، وبين رمضان حيث تفرّقوا ونفّذوا.

غير أن الحقيقة هي أنهم اجتمعوا في عمرة في مكة ورتّبوا الأمر هناك،

وكان الأشعث بن قيس حاضراً معهم ومتهيّئاً لتوفير كلّ ما يحتاجونه لهم، ووضع نفسه في خدمتهم ومساعدتهم في تحقيق أمر اغتيال أمير المؤمنين عليه السلام الذي عزموا عليه. والذي يدعم هذا الطرح أبيات مشهورة لأبي الأسود الدؤلي الذي كان يعيش في قلب الحادثة، حيث يقول:

ألا أبلغ معاوية بن حرب ... فلا قرت عيون الشامتينا

أفي الشهر الحرام فجعتمونا ... بخير الناس طرا أجمعينا

ومن بعد النبي فخير نفس ... أبو حسن وخير الصالحينا

كأن الناس إذ فقدوا علياً ... نعام جالَ في بلدٍ سنينا

وكنا قبل مهلكه بخير ... نرى فينا وصيّ المسلمينا

فلا والله لا أنسى علياً ... وحسن صلاته في الراكعينا

لقد علمت قريش حيث كانت ... بأنك خيرهم حسباً ودينا

فلا تشمت معاوية بن حرب ... فإن بقيّة الخلفاء فينا[1]

يروي المؤرخون أن عمرو بن العاص لما بلغه نعي أمير المؤمنين دخل على معاوية فأخبره الخبر وقال له: إن الأسد الذي كان يفترش ذراعيه في العراق قد قضى نحبه. فقال:

قل للأرانب ترعى أينما سرحت ... وللضباع بلا خوف ولا وجلِ[2]

إذن، فيد الأمويّين ومآربهم كانت واضحة في عملية اغتيال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، الذي بمصرعه صرع الحق وصرع الدين،

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٩٨، تاريخ الطبري ٤: ١١٦، المعجم الكبير ١: ١٠٣، أنساب الأشراف: ٥٠٨، الكامل في التاريخ ٣: ٣٩٥.

(٢) ناسخ التواريخ (القسم المختصّ بحياة أمير المؤمنين عليه السلام): ٦٩٢.

يقول أحد الشعراء:

وليتها إذ فدت عمراً بخارجةٍ فدت علياً بمن شاءت من البشرِ[(١)]

فهذه الضربة لم تكن على هامة علي عليه السلام، بل إنها قد وقعت على هامة الإسلام، فصرع بمصرعه عليه السلام العدل والاستقامة والدين والحق؛ لأنه عليه السلام كان بحق راهباً من رهبان الليل.. كان إذا جن عليه ليله رمقَ السماء بنظره يناجي ربه ويصلي، ويتلو آيات كتابه، حتى جاءت تلك الليلة المشؤومة التي أقصي فيها الإسلام عن الحياة بإقصائه عنها. وبعد أن سرى السم في جسده الشريف جاؤوه بأثير بن عمر، وهو كبير الأطباء في ذلك الوقت، الذي أمر بأن يحضروا إليه شاة ويذبحوها ويخرجوا له رئتها، فاستخرج منها عرقاً وأنزله في دماغ أمير المؤمنين عليه السلام، فلمّا أخرجه التفت إليه وقال: سيدي أوصِ وصيتك، واعهد عهدك؛ فإن ضربة عدو الله قد وصلت إلى أُمّ رأسك.

يقول الأصبغ: لمّا دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام ووقع بصري عليه رأيت رأسه وقد عُصب بعصابة صفراء فوالله ما أدري أوجهه أشدّ اصفراراً أم العصابة، فبكيت، وكان رأسه على صدر ابنه الإمام الحسن عليه السلام، فتفصّد وجهه عرقاً، فمدّ الإمام الحسن عليه السلام يده إلى جيبه واستخرج منديلاً وراح يمسح به العرق عن وجه أبيه، وهو يقول: «أبة، أراك وقد تكلّل جبينك عرقاً؟». قال: «بني إن المؤمن إذا نزل به الموت عطف عِرنينُه، وسكن حنينُه، وعرق جبينه»[(٢)].

---

(١) كشف الغمة ٢: ٦٦، سبل السلام (العسقلاني) ٢: ١١.

(٢) قطعة منسوب ذيلها ـ من قوله: عطف ـ لأمير المؤمنين عليه السلام من خطبته خالية من الألف.

يقول المؤرّخون: كان عليه السلام بين الآونة والأخرى يرمق السماء بطرفه ويقول: «رفقاً بي ملائكة ربّي، لمثلها فليعمل العاملون»[1].

فلما سمعه عياله علت أصواتهم بالندب والبكاء:

الليله مسه المحراب خالي	يعماد خيمتنا يغالي
ما چنت اظن لنّ الليالي	بيك اتغدر وتخيّب آمالي

* * *

هذي المحاريبُ أينَ القائمون بها ... والليلُ مُرخٍ من الظلماء أستارا

انظر: شرح نهج البلاغة ١٩: ١٤١، كنز العمّال ١٦: ٢١١ / ٤٤٢٣٤، وعليه فليس فيها: إن المؤمن إذا نزل به الموت.

(١) وفيات الأيمّة: ٥٨.

﴿ ١٨ ﴾

عليّ عليه السلام ميزان العدل

من خطبة لمولانا أمير المؤمنين عليه السلام:

«اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان

منا منافسة في سلطان ولا لالتماس شيء

من فضول الحطام، ولكن لنردَ المعالم من

دينك؛ فتُقام المُعَطَّلة من حدودك، ويأمن الضعيف من عبادك. اللهم إني أول من أناب، وأسلم وأجاب، لم يسبقني أحد بالصلاة إلّا رسول الله صلى الله عليه وآله»[١].

المباحث العامّة للموضوع

مقدمة حول بعض الاجتهادات المخطوءة في صدر الإسلام

هذه الخطبة تعدّ من المواطن التي أعرب فيها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن تحليل بعض مواقفه، وبالذات موقفه في الصدر الأول. والمسألة في الواقع هي جواب لسؤال مضمر في النفوس؛ لأن بعض الناس يتساءل: إن ما نعرفه عن علي عليه السلام من هيكله ووضعه العام أنه ليس إنساناً حبّاباً للدنيا أو الكرسي، أو يتهالك على شيء من الرغائب المؤقّتة، فلماذا إذن وقف

---

(١) نهج البلاغة / الكلام: ١٣١.

موقف السلبيّة من الصدر الأول، فامتنع عن البيعة مدة من الزمن ثم أخذ يبدي تذمّره من بعض التصرّفات؟ فما هو الدافع الذي دفعه لذلك؟

وهنا لا بد من السؤال: هل إن الوضع العام في الصدر الإسلامي كان منحرفاً عن الإسلام، أو إنه في خطّ الإسلام ولكن فيه اجتهادات مخطوءة؟ فإن كان منحرفاً عن الإسلام فالواجب على الإمام عليه السلام أن يجاهد ويقاتل ولو بنفسه. فهذا الفرض إذن لا سبيل إلى الأخذ به، ولا بد من الأخذ بالفرض الثاني وهو أن الوضع كان في خطّ الإسلام لكن كان فيه اجتهادات مخطوءة. وبتعبير آخر فإن هناك مناهج تختلف عن منهج الإمام عليه السلام الذي يتّضح عندما قال له عبد الرحمن بن عوف: أُبايعك على كتاب اللّه وسنّة رسوله صلى الله عليه وآله وسيرة الشيخين. فقال له عليه السلام: «بل على كتاب اللّه وسنة رسوله، وأجتهد برأيي»[١].

فالمسألة إذن أن الخطّ كان خطّاً إسلاميّاً، وهذا هو الذي يفسّر لنا مواقفه عليه السلام الإيجابية؛ كإرسال أبنائه إلى الفتوحات[٢]، ووقوفه مراراً وهو يشارك بالنظريّة وإبداء الرأي[٣]، وحضوره الاجتماعات والمجالس[٤]،

(١) المسترشد في الإمامة (الطبري الشيعي): ٣٦٥، بحار الأنوار ٣١: ٣٩٩، شرح نهج البلاغة ١: ١٨٨، وانظر المحصول في علم الأُصول ٦: ٨٦.

(٢) انظر: طبقات المحدثين بأصبهان (ابن حبان) ١: ١٩١، تاريخ جرجان: ٤٨.

(٣) كما في قضيّة التأريخ في الإسلام وتحديد بدايته، فقد اختلف المسلمون حول ذلك في خلافة عمر بن الخطاب؛ حيث قام رجل لعمر فقال: أرّخوا بتاريخ الروم، فإنّهم يؤرّخون من عهد ذي القرنين. فقال لهم أمير المؤمنين عليه السلام: «أرّخوا من مهاجرة رسول اللّه صلى الله عليه وآله». فرضوا بذلك. انظر: تاريخ الطبري ٢: ٣، الكامل في التاريخ ١: ١١.

(٤) فقد ذكر التاريخ لنا كمّاً هائلاً من قضاياه العجيبة التي حكم بها أيام الخلفاء قبله، ومن رام الاستزادة فليرجع إلى كتاب (قضاء أمير المؤمنين عليه السلام) فقد ترك لنا فيه ثروة كبيرة في هذا المجال، ومنها مارواه المفسّرون والمحدّثون والفقهاء والمؤرّخون، انظر مثلاً: مسند أبي داود

وهذا بدافع حفظ بيضة الإسلام.

فالخطّ إذن خطّ إسلام، ولكن هناك منهج فيه أخطاء، وهو في نظر الإمام عليه السلام لا يؤدي إلى الإسلام بالشكل المطلوب الذي يريده هو. فليست المسألة هي ضم جماعة إلى جماعة، أو ضم قطعة من الأرض إلى قطعة أُخرى، وإنما هي مسألة صنع مسلم حقيقي. وهذه النقطة هي التي اختلفت فيها المناهج.

المبحث الأول: أنه عليه السلام أرفع من أن ينافس في سلطان

يقول الإمام عليه السلام: «اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان». وقد تستغرب من هذا الأُسلوب، وهو أن الإمام عليه السلام يستشهد باللّه، ويضع في صدر خطبته هذا اللون من التأكيد مع أن منزلته فوق الشبهات، فما هو الدافع لذلك؟ الدافع هو أن الدعاية كانت عاتية أقوى من الواقع، وغالب الناس سذّج تأخذهم الدعاية، وليس بعيداً عنك ما يحدث في زماننا من أثر الدعاية التي تجعل من بعض الأصنام أُناساً، فتقلب الحقّ باطلاً، وتغير النظريّة رأساً على عقب. فالناس يعيشون الواقع، ولكن لا يعيشونه بعقولهم إنما بآذانهم، ورحم اللّه شوقيّاً حيث يقول:

ملأ الجو هتافاً ... بحياة قاتليه

يا له من ببغاءٍ ... عقلُه في أذنيهِ

فالدور الدعائي له من الإمكانية أن يقلب الحق باطلاً وبالعكس.

فالإمام عليه السلام ينطلق من هذا الواقع لطرد هذه الشبهات عن الأفهام، فهو

الطيالسي: ١٨، الجامع لأحكام القرآن ١٥: ١٦٣، عون المعبود ٩: ٣٧١، والكثير غيرها.

يقول لهم: لا تتصوّروا أن ما ترونه من موقفي هو بدافع من الرغائب المؤقّتة، وإنما هو في خطّ المبدأ العامّ، ولا تتصوّروا أنها قضيّة شخصيّة أبداً، أو أن من وراء موقفي السلبي هذا أهدافاً ضيقة تعود عليّ بالنفع.

والدليل على ذلك أن الإنسان إنما يريد السلطان إما لإرضاء شعور بالنقص في داخله، فهو يريد أن يشعر أن الناس تنحني له وتسمع وتطيع وهو يأمر وينهى ويفعل ما يشاء، أو لاستفادة من حطام كالمال والكرسي والمركز. وهذان كلاهما غير موجودين عند أمير المؤمنين عليه السلام، وسيرته أوضح دليل على ذلك؛ فهو ذو نفس قوية متكاملة لا تشعر بأي لون من ألوان الشعور بالحاجة إلى الغير[١]، وهو الصادق الأمين الذي أعرب عن هذا بقوله: «والله لا يزيدني كثرة الناس حولي عزّة، ولا تفرّقهم عني وحشة»[٢].

وهذا الذي آمن به جسّده على أرض الواقع، فقد دخل عليه جماعة من أصحابه وأرادوا منه أن يتهاون قليلاً مع البعض على حساب المبادئ، فلم يفعل. ومن جملة من دخل إليه مالك الأشتر فقال له: ماذا تصنع يا أمير المؤمنين؟ الأولى أن تفضّل الرؤساء على سائر الناس، والعرب على الموالي، وتستميل من تشكّ في ودّه. فتبسم أمير المؤمنين عليه السلام، وبلهجة الواثق الذي لا تزيده الحياة إلّا شعوراً بالسموّ

---

(١) خرج عليه السلام على أصحابه يوماً وهو راكب، فمشوا معه، فالتفت إليهم فقال: «لكم حاجة؟».
فقالوا: لا يا أمير المؤمنين، ولكنا نحبّ أن نمشي معك. فقال لهم: «انصرفوا؛ فإن مشي الماشي مع الراكب مفسدة للراكب ومذلّة للماشي».
وركب مرّة أُخرى فمشوا خلفه فقال: «انصرفوا؛ فإن خفق النعال خلف أعقاب الرجال مفسدة لقلوب النوكى». المحاسن ٢: ٦٢٩ / ١٠٤، مشكاة الأنوار: ٣٦٤.
والنوكى: الحمقى. لسان العرب ١٠: ٥٠١ ـ نوك.

(٢) نهج البلاغة / الكتاب: ٣٦.

والرفعة مهما وصلت، قال عليه السلام لهم: «أتريدونني أن أطلب النصر بالجور؟ لا والله، لا أفعل ذلك ما طلعت شمس، وما لاح في السماء نجم»[(١)].

إنه عليه السلام يقول لهم: أنا لا أسحق مصالح الجماهير من أجل كرسي أجلس عليه، ولا أعتدي على حقوق الناس من أجل شيء تافه لا يعدل شيئاً.

يقول أحدهم في علي عليه السلام:

إنـي أتـيتُك أجـتليك وأبـتغي ... ورداً فـعندك للـعطاش مـعينُ

وأغضُّ مـن طرفي أمام شوامخٍ ... وقـع الزمـان وأسُّـهُنَّ مـتينُ

وأراك أكـبرَ مـن حـديث خـلافةٍ ... يسـتامُها مـروانُ أو هـارونُ

لك بـالنفوس إمـامةٌ فـيهونُ لو ... عـصفت بك الشورى أو التـعيينُ

فـدع المـعاول تـزبئرّ قساوة ... وضـراوة إن البـناء مـتينُ[(٢)]

فهو عليه السلام يقول: لو كانت الأموال لي لواسيت بينهم، فكيف وهي أموال اللّه تعالىٰ وأموالهم؟

وهذه المفاهيم كانت غريبة كثيراً عن العصر الذي كان يعيشه أمير المؤمنين عليه السلام، فقد كان الحاكم آنذاك يرى نفسه أنه ظلّ اللّه وخليفته في الأرض، يقول معاوية: المال مال اللّه وأنا خليفة اللّه؛ إن شئت أعطيت،

---

(١) الأمالي (الطوسي): ١٩٤ / ٣٣١، ونسب العتاب فيه لجماعة من أصحابه عليه السلام، وفي نهج البلاغة / الكلام: ١٢٦ ما نصّه: «والله، ما أطور به ما سمر سمير، وما أمّ نجم في السماء نجماً. لو كان المال لي لسوّيت بينهم، فكيف وإنما المال مال الله؟ ألا وإن إعطاء المال في غير حقّه تبذير وإسراف، وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة، ويكرمه في الناس ويهينه عند الله. ولم يضع امرؤ ماله في غير حقّه ولا عند غير أهله إلّا حرمه الله شكرهم، وكان لغيره ودّهم. فإن زلّت به النعل يوماً فاحتاج إلى معونتهم فشرّ خدين وألأم خليل».
وكما مرّ من محاولات المغيرة، انظر: بحار الأنوار ٤٢: ١٧٠، مروج الذهب ٢: ٣٩١، شرح نهج البلاغة ٦: ٣٠١.

(٢) ديوان المحاضر ١: ٢٠.

وإن شئت منعت. وهذه هي العقليّة التي كانت سائدة حينذاك، ولكن أمير المؤمنين عليه السلام يأتي حاملاً هذا المفهوم الجديد: الأموال أموالهم، وأنا أُمَثِّل مصالحَهم. وهذا اللون من الفكر ـ كما قلنا ـ جديد جداً على المنطقة والبيئة اللتين عاش فيهما أمير المؤمنين عليه السلام.

فلم يكن الكرسي بالذي يستهوي علياً عليه السلام ويستميله ويزيده شيئاً من الشعور بالزهو والخيلاء، بل العكس هو الصحيح، فالتراب الذي يجلس عليه وإلى جانبه بعض رفاقه الذين يألفهم ويأنس بهم ويميل إليهم نفسياً أكبر في عينه وألذّ لنفسه وأمتع لقرارته من أن يجلس على كرسي يرى أنه جلس عليه بغير حقّ، إنه أبعد عن هذا وأكبر.

وفي الوقت نفسه لم يكن يرى أن التكامل الجسدي يمر عبر ملابس زاهية مُحَلاَّة بالذهب يتباهى بها، أبداً، يقول عليه السلام: «ولقد رقعت مدرعتي حتىٰ استحييت من راقعها، وحتىٰ قال لي قائل: ألا تنبذها عنك؟ فقلت اعزب عني، فعند الصباح يحمد القوم السرىٰ»[1].

وكان عليه السلام يقول: «ما لعلي ولنعيم يفنىٰ ولذة لا تبقىٰ؟»[2].

ولئن أبى عليه السلام أن يلبس رداء من هذا النوع، فقد لبس رداء الحمد ضافياً على امتداد السنين، يقول أحد الشعراء:

ابـا حسنٍ إنْ ربَّعوا بك دَستَهُم	فيوشَكُ أن يُمسي كما شئتَ خاويا
فأنت حديثُ الدهرِ ما زلت طافحاً	على فمه تُروَىٰ وما زال راويا
وأنت حديثُ الدهرِ مهما تناسَلَت	لياليه أياماً وآبت لياليا

---

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ١٦٠، عيون المواعظ والحكم: ٤٠٥، وقد رأينا أنه عليه السلام يشتري الثوبين بخمسة دراهم فيلبس ذا الدرهمين ويعطي ذا الثلاثة دراهم لقنبر. انظر روضة الواعظين: ١٠٧.

(٢) نهج البلاغة / الكلام: ٢٢٤.

وما مِدحتي تُوليك فخراً وإنما أردُّ بإطرائي عليك الطواريا
إذا الملأ الأعلى تحذر بالثنا عليك فما شاني وشأن ثنائيا

المبحث الثاني: من مظاهر زهده عليه السلام

ثم قال عليه السلام: «ولا لالتماس شيء من فضول الحطام». وما قيمة الأموال[١] عند هذا العملاق الذي كان يرى في الرغيف كفاية له[٢]، وفي المُرقَّعة ثوباً له، ويأبى أن يمدّ يده إلى طعام ما لم يكن طيّباً[٣]. وماذا خلَّف من الأموال عند استشهاده؟ لقد أوقف كلّ ما لديه في سبيل الله[٤]، وكل ما خلفه سبعمئة درهم كان قد خصصها لشراء أجير كانوا بحاجة إليه في البيت يساعدهم في نقل الماء والحطب وغير ذلك[٥]، وكان أمير

(١) لقد عاش عليه السلام ومات وما بنى لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة. تهذيب الأسماء ٢: ٣٤٦، أُسد الغابة ٤: ٢٤، مناقب أمير المؤمنين (الخوارزمي): ٧٠، البداية والنهاية ٨: ٥٥. وقد باع عليه السلام سيفه وقال: «لو كان عندي ثمن عشاء ما بعته». كشف المحجّة: ١٢٤.
وقد قال عليه السلام: «أنا الذي أهنت الدنيا». ترجمة الإمام علي (ابن عساكر) ٣: ٢٠٢، البداية والنهاية ٨: ٥.

(٢) وهو عليه السلام القائل: «والله لو شئت لاهتديت الطريق إلىٰ مصفىٰ هذا العسل...»، وسيأتي. نهج البلاغة /الكتاب: ٤٥. والقائل: «من أدخله بطنه النار فأبعده الله». الدعوات: ١٣٨ / ٣٤٠، مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (محمد ابن سليمان) ٢: ٨٢ / ٥٦٧، تاريخ مدينة دمشق ٤٨: ٢٣٠، كنز العمال ٣: ٧٨٢ / ٨٧٤١.

(٣) أي مكتسباً من حِلّ.

(٤) فقد وقف عليه السلام على الحاجّ مئة عين استنبطها في ينبع. مناقب آل أبي طالب ٢: ١٢٣، وقد تصدّق عليه السلام بكل حوائطه وما استنبط من عيون ووقفها على المسلمين، ولم يُبقِ منها شيئاً حين وفاته كما هو صريح خطبة ولده الحسن السبط عليه السلام حين توفي والده. الفتوح (ابن أعثم) ٤: ١٤٦، ترجمة الإمام علي (ابن عساكر) ٣: ٥٨، ٦٠.

(٥) الإمامة والسياسة ١: ١٦٢، الفتوح (ابن أعثم) ٤: ١٤٦، الاستيعاب (هامش الإصابة) ٣: ٤٨، تاريخ الإسلام ٢: ٢٠٧. وقد أمر بردّ هذا المبلغ إلى بيت المال بعد وفاته كما ذكره الإمام الحسن عليه السلام في خطبته. الفتوح (ابن أعثم) ٤: ١٤٦، وقد مرّ ما في هذا الهامش

المؤمنين عليه السلام يتولّى ذلك بنفسه، فكان ينقل الماء والحطب حتى في أيّام خلافته، وكان يخرج صباحاً يدور في الأسواق ثم يرجع وبيده شيء من التمر الذي أشتراه من ميثم التمار عليه السلام، فيلتقيه شرطة الخميس ويطلبون منه حمل هذا التمر عنه فيقول: «أبو العيال أحقّ بحمله»[1]. فيحمله إلى البيت، ويقوم بأعماله البيتية كأي إنسان عادي[2]، ثم يأتي إلى دكة القضاء.

فكان عياله بحاجة إلى من يساعدهم، ولذا كان يدّخر من عطائه الخاصّ شيئاً ليأخذ لعياله أجيراً يساعدهم في البيت. والزهراء عليها السلام نفسها من قبل كانت تطحن بيدها عند إقامة أمير المؤمنين عليه السلام في المدينة؛ ولذلك فإن هذه الطيوف تلاحق الإنسان وهو يدخل إلى القبر النبوي الشريف، يقول أحد الشعراء:

وعَفَّرتُ خدّي في ثرىً مسَّ عَفرَهُ ... لجبريل من جِنحيه ريشٌ مُزَغَّبُ

وفيه محاريبُ لآل محمدٍ ... بهنَّ ضراعاتٌ إلى الله تُنصَبُ

وآثارُ أقدامٍ صغارٍ ومهجعُ ... إلى الحسنين الزاكيين وملعبُ

وصوتُ رحى الزَّهراء تطحنُ قوتَها ... إلى جلدِ كبشٍ حيثُ تجلس زينبُ

رؤىً سوف يبقى الدَّهرُ يروي جلالَها ... وتبقى على رغم البساطة تأشبُ[3]

فكلّ ما كان عند أمير المؤمنين عليه السلام هو هذه السبعمئة درهم التي أراد أن

والهوامش الثلاثة التي قبله مفصّلاً في ج ٢ ص ٢٧٣ـ ٢٧٤ من كتابنا هذا.

(١) الغارات ١: ٨٩. مناقب آل أبي طالب ١: ٣٧٢، وفيه: رب العيال. تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٤٨٩. البداية والنهاية ٨: ٦. كنز العمّال ١٣: ١٨٠ / ٣٦٥٣٧.

(٢) وكان عليه السلام يعمل في خلافته حتى أصاب يديه المَجَل. الغارات ١: ٩٢.

(٣) ديوان المحاضر ١: ١٥. وتأشب: تجتمع. لسان العرب ١: ٢١٤ ـ أشب.

يشتري بها خادماً أو جارية لعياله. في حين أن أحد كتّاب المأمون مات، فبعث المأمون أخاه المعتصم ليحرّر تركته ويحصيها، فاشتغلوا في تحريرها شهراً كاملاً، ثم عادوا إلى المأمون فقال لهم: ما رأيتم؟ فقال المعتصم: لقد ترك ثمانية آلاف ألف دينار ـ أي ثمانية ملايين دينار باصطلاح اليوم ـ وهذا الرقم ليس في عصر النفط طبعاً إنما في عصر المعتصم الذي كان فيه الدرهم يُشغِّل عشرة عمال، فالعامل يشتغل بدانق واحد، والدينار ستة دراهم، فالدينار يشغل ستين عاملاً.

وهذا الكاتب ترك ثمانية ملايين دينار، فقال المأمون لأخيه المعتصم: ما لك مددت بها الكلام؟ والله ما كنت أرضاها لتابع من أتباعه، اتركوها لأهله[1]. فتركها المعتصم لصغاره، ووهب الأمير ما لا يملك كما يقال. أما عليّ عليه السلام، الخليفة الشرعي الذي تجبى له الأموال من الشرق والغرب فلا يترك سوى سبعمئة درهم.

المبحث الثالث: أسباب عدم اهتمامه عليه السلام بالفتوحات

ثم يقول عليه السلام في خطبته: «ولكن لنردَ المعالم من دينك»، فللدين معالم واضحة ولكن الناس لا يصلون إليها، وإنما يقعون غالباً على الشكليّات والمظاهر ولا يقعون على اللباب. فكان عليه السلام يريد أن ينشئ مجتمعاً فيه حرارة إيمان، ومنهج إسلام، ومثل هذا العمل يتطلّب تغييراً جذريّاً للمجتمع والطبائع السائدة، وهذا هو السرّ الذي جعل عصر الإمام عليه السلام خالياً من الفتوحات عدا بعض الفتوحات البسيطة؛ لأنه عليه السلام أراد أن ينشغل بالكيفيّة لا بالكميّة. وهذا أشبه بمن يكون عنده عشرة أولاد بلا

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ٨٧.

علم ولا تربية وآخر لديه ولد واحد كلّه أخلاق وعلم وتربية، فهذا الواحد هو حتماً أفضل من أُولئك العشرة كما هو واضح.

لقد كان بوسع أمير المؤمنين عليه السلام أن ينصرف إلى الفتوحات، ولا يستطيع أحد أن يتّهمه بالجبن، فهو مَن كان العرب وغير العرب يضربون المثل بسيفه، يقول أحد الشعراء:

ضربتَ ولم تضرب بسيف ابن طالبٍ بسـيف أبـي رغـوان سـيفِ مُـجاشعِ[1]

نعم قد يكون للانشغال الداخلي، وعدم انتظام الجيش الأثرُ في انحسار الفتوحات في زمنه، ولكن أحد العوامل المهمّة في ذلك هو اهتمامه عليه السلام ببناء الإنسان بناء صحيحاً، فقد دخل عليه السلام إلى الكوفة وكان لا بدّ له من بناء الإنسان فيها، وقد بنى من الناس أمثال صعصعة بن صوحان وزيد أخيه وسويد بن غفلة وهاشم المرقال وعمار بن ياسر وغيرهم، أما الأجيال التي عاصرت الإمام عليه السلام فلا تجد لها أثراً. وهذا هو حال الدنيا عبر التاريخ، فالعباقرة أفراد قلائل؛ لأنهم مَبنيُّون بناءً صحيحاً. وهذا هو الذي أراده الإمام عليه السلام في تربيته الصارمة التي جعلت البعض يهرب منه إلى معاوية[2].

فكان عليه السلام كلّما صعد المنبر قال: «سلوني قبل أن تفقدوني»[3]. فيقوم له من يقول: أخبرني، كم شعرة في لحيتي؟[4].

---

(١) البيت للفرزدق، قاله لمّا ضرب عنق رومي فنبا السيف عنه، فقال: كأني وابن اليقين وقد هجاني، ثمّ أنشد البيت. انظر مناقب آل أبي طالب ٣: ٨٣. وروي البيت ومناسبة قوله بشكل آخر في تاريخ الطبري ٥: ٣٠٦، شرح نهج البلاغة ٥: ٢٢.

(٢) كما مرّ من أمر جرير الشاعر وغيره.

(٣) نهج البلاغة / الكلام: ١٨٩.

(٤) خصائص الأيمّة: ٦٢.

المبحث الرابع: من مظاهر تعطيل الحدود في زمن مَن سبقه

ثم قالﷺ «فتُقام المُعَطَّلة من حدودك»، وهذه الحدود المعطّلة خلقت له مشكلة من أول أيام خلافته، وكم من الحدود كان معطّلاً! كما هو الحال مع المغيرة بن شعبة الذي عطّل عنه الحد، ودُرِئ عنه بشكل أو بآخر. ولم يتمكّنﷺ أن يغير من الواقع شيئاً؛ لأن تغيير الواقع يحتاج إلى وقت طويل، وإلّا فإن المغيرة مثلاً كان نصب عينيه، لكن الخليفة الثاني هو الذي درأ عنه الحد[1]، والخليفة الثاني له منهجه، ومن الصعب على الإمامﷺ أن يغيّر المنهج بهذه البساطة التي نتصوّرها.

وهناك الكثير من المسائل التي أبقاها كما هي، فقد كتب إلى قضاته: **«اقضوا كما كنتم تقضون؛ فإني أكره الاختلاف، حتى تكون للناس جماعة أو أموت كما مات أصحابي»**[2].

فهوﷺ يقول لهم: أنا صاحب منهج، ولا أستطيع أن أُنفذ ما أُريد إلّا أن أحمل الناس على منهجي، فأنا أحكم شعباً، ولا أُريد أن أحكمه بخلاف إرادته وإنما أُريد أولاً أن أطوّعه وأجعله يرتفع إلى مستوى الشعور بأن رأيي هو الأصوب، وأخلق عنده رأياً عامّاً موالياً لي، وعند ذاك أُنفذ مبادئي.

ومن الحدود المعطلة ما كان يستحقّه عبيد اللّه بن الخليفة الثاني الذي

---

(١) المسترشد في الإمامة: ٢٢٣، الاحتجاج ١: ٤١٣، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٦: ٥٦ / ٣، شرح نهج البلاغة ١٢: ٢٣٧ ـ ٢٣٨، ٢٠: ٢٣، كنز العمّال ٥: ٤٥٢ / ١٣٥٨٩، ٧: ٢٢ / ١٧٧٧٦، الإصابة ٣: ٣٠٤.

(٢) تهذيب الأحكام ٩: ٢٥٩ / ٩٧٠، صحيح البخاري ٤: ٢٠٨ ـ ٢٠٩، المصنّف (الصنعاني) ١١: ٣٢٩ / ٢٠٦٧٧، الإحكام (الآمدي) ٤: ٩، شرح نهج البلاغة ٧: ٧٢، ١٤: ٢٩، ١٩: ١٦١.

قتل الهرمزان وشخصاً آخر في المسجد انتقاماً لقتل أبيه على يد رجل فارسي[١]. ولم يكن للهرمزان ذنب سوى أن أحد أبناء جنسه قتل الخليفة، في حين أن القرآن الكريم يقول: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[٢]. ولذلك لجأ عبيد اللّه بن عمر بن الخطاب إلى معاوية أوّل مجيء الإمام عليه السلام إلى الخلافة[٣].

وهناك من الأموال ما كان يعاقَب عليه بقطع اليد؛ لأنها سرقت من بيت المال، وبُني بها البيوت، فراح يسترجعها وله في ذلك قوله المعروف: «واللّه لو وجدته قد تُزُوِّج به النساء ومُلِك به الإماء لرددته؛ فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق»[٤]. ولذا التحق الكثير من المتضرّرين بمعاوية، وكلّف هذا المنهج الإمام عليه السلام ثمناً غالياً.

المبحث الخامس: من مظاهر عدله عليه السلام

ثم قال عليه السلام: «ويأمن الضعيف من عبادك»، هذا الضعيف المسحوق الذي يُستغلّ ويُتاجر باسمه، وتسحق آدميّته لا بد أن يأمن في دولة العدل. وقد رأيناه عليه السلام حينما انتهى له الأمر كيف كان يحمل مسؤوليّة الإنسان الذي يبعد عنه مئات الأميال، يقول في كتابه لعثمان بن حنيف: «واللّه لو شئت لاهتديت الطريق إلىٰ مصفىٰ هذا العسل ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القزّ، ولكن هيهات أن يقودني هواي، أو يغلبني جشعي إلى تخيّر الأطعمة، ولعلّ

---

(١) السنن الكبرىٰ ٨: ٦١، وذكر فيه أن عبيد اللّه احتج بأنه رأىٰ الهرمزان يدفع أبا لؤلؤة لقتل أبيه. فتح الباري ٦: ١٨٩، شرح معاني الآثار (ابن سلمة) ٣: ١٩٤، شرح نهج البلاغة ٣: ٥٩، ١٠١.

(٢) الأنعام: ١٦٤.

(٣) شرح الأخبار ٢: ١٣ / ٤٠١، بحار الأنوار ٣٠: ٣٧٣، الطبقات الكبرىٰ ٥: ١٧، شرح نهج البلاغة ٣: ١٠١.

(٤) نهج البلاغة / الكلام: ١٥.

بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له بالقرص ولا عهد له بالشبع، أأبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى؟»[١].

وكان عليه السلام كثيراً ما تعجبه أبيات حاتم بن عبد اللّه الطائي:

أيا ابنةَ عبد الله يا أمّ مالكٍ ... ويا ابنةَ ذي البُردَين والأسدِ الوردِ
إذا ما صنعتِ الزادَ فالتمسي لنا ... أكيلاً فإني لستُ آكلُه وحدي
وحسبُك داءً أن تبيتَ ببطنةٍ ... وحولك أكبادٌ تحِنُّ إلى القِدِّ[٢]

وانتهى به الأمر إلى أن يبيت طاوياً ثلاثة أيام، فنزلت سورة بكاملها ترفع عقيرتها آناء الليل وأطراف النهار: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً﴾[٣].

يقول الشاعر:

جاد بالقرص والطَّوى مِلءُ جَنبيـ ... ـه وعافَ الطعامَ وهو سغوبُ
فأعادَ القرصَ المنيرَ عليه الـ ... ـقرصَ والمُقرِضُ الكرامَ كسوبُ[٤]

لقد كان هذا الرجل العظيم يطيل النظر إلى الرغيف ويندُّ ذهنه إلى كبد جائع، ونفس تبيت لا تجد طعاماً، يخرج عليه السلام إلى السوق، فلا يشتري من الثياب إلّا ما كان بدرهم أو بدرهمين، أما ما بلغ الثلاثة دراهم فيعطيه

(١) نهج البلاغة / الكتاب: ٤٥.
(٢) ديوان حاتم الطائي: ٤٣، ولم ينقل البيت الثالث.
(٣) الدهر: ٨ ـ ٩، وانظر في سبب نزولها: أسباب نزول الآيات (الواحدي): ٢٩٦، شواهد التنزيل ٢: ٤٠٣، ٤٠٥ ـ ٤٠٦، ٤٠٨، زاد المسير ٨: ١٤٥، الجامع لأحكام القرآن ١٩: ١٣٠، فتح القدير شرح الجامع الصغير ٥: ٣٤٨ ـ ٣٤٩، وانظر محاولات نفيها عنه عليه السلام والرد على ذلك في محاضرة (المودة في القربى) من ج٦.
(٤) شرح نهج البلاغة ١٩: ١٠١.

لقنبر، فقد روي أن أمير المؤمنين عليه السلام أتى سوق الكرابيس، فإذا هو برجل وسيم فقال: «يا هذا عندك ثوبان بخمسة دراهم؟». فوثب الرجل فقال: يا أمير المؤمنين، عندي حاجتك.

فلما رأىٰ أمير المؤمنين عليه السلام أنه عرفه مضى عنه، حتى انتهى إلى غلام، فقال له: «يا غلام عندك ثوبان بخمسة دراهم؟». قال: نعم، عندي ثوبان بخمسة دراهم. فأخذ الثوبين، وكان أحدهما بثلاثة دراهم والآخر بدرهمين، فقال: «يا قنبر خذ الذي بثلاثة دراهم». فقال له: يا سيّدي أنت أولى به مني؛ تصعد المنبر وتخطب الناس. فقال عليه السلام: «وأنت شاب ولك شره الشباب، وأنا استحي من ربي أن أتفضّل عليك؛ سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: ألبسوهم مما تلبسون، وأطعموهم مما تأكلون».

فلما لبس أمير المؤمنين عليه السلام القميص مدّ يده في ردن الثوب فإذا هو يفضل عن أصابعه، فقال للغلام: «اقطع هذا الفضل». فقطعه الغلام له، ثم قال: ياسيدي، هلمّ أكفّه لك. فقال له الإمام عليه السلام: «دعه كما هو؛ فإن الأمر أسرع من ذلك»[1].

المبحث السادس: في أنه عليه السلام أول من أسلم وأناب

ثم قال عليه السلام: «اللهم إني أول من أناب وأسلم وأجاب، لم يسبقني أحد بالصلاة إلا رسول الله صلى الله عليه وآله».

فهو عليه السلام يريد أن يقول: إن الذي يشفع لي بصحّة نيّتي أنني أول من ردّد شعار «لا إله إلّا الله».

وقد كان ذلك حقاً، فقد بُعث النبي صلى الله عليه وآله وكان أوّل من صدّقه علي عليه السلام

(١) روضة الواعظين: ١٠٧.

هو وخديجةعليها السلام ؛ ولذلك كانا (سلام الله عليهما) رفيقي رسول اللهصلى الله عليه وآله في المحنة وأنيسيه في الشدّة، فقد خرج يوماً وقد رمته قريش بالحجارة حتى أدمته وأبعدته إلى وادٍ من الأودية وبقي حتى الغروب، فجاءت خديجة إلى الإمام عليعليه السلام[1]، فقالت له: منذ الصباح ما رأيت رسول اللهصلى الله عليه وآله، وقد أخرجه أعداء الله، وأنا حاملة معي شيئاً من الطعام، فاصحبني لنبحث عنه. وأقبلت تنادي: أين أنت يا رسول الله، أين أنت يا ثمال اليتامى، وأخذت تجول في الوادي وعليعليه السلام معها واضعاً يده على قائم سيفه، حتى وجداه طريحاً قد أخذته الحجارة، فمسحا عنه الدم والتراب، وأتيا بهصلى الله عليه وآله، وهو يتّكئ على أمير المؤمنين وخديجةعليها السلام.

وهذا الموقف العظيم من هذه المرأة السيّدة الجليلة يُذكّرني بموقف حفيدتها يوم الطفّ، يوم جالت في وسط وادي كربلاء تبحث عن جسد صريع، ولكن شتّان بينهما، فقد وصلت جدّتهاعليها السلام إلى النبيصلى الله عليه وآله فوجدته حيّاً، فأقامته وحملته معها إلى بيته، ووجدت زينبعليها السلام أخاها صريعاً، وما حملت معها إلّا دمعة تلذع عينيها، فنضحته بدموعها، وجلست بجانب الجسد الشريف تمسح الدم والتراب عن الوجه الذي طالما اتّكأ عليه رسول اللهصلى الله عليه وآله بشفاهه:

حَـنَّتْ فَلم تَـرَ مثلَهُنَّ نـوائـحاً	إذْ ليس مِـثْلُ فَقيدِهِنَّ فَقيدا
نـادَت فَقطعت القـلوبَ لشجوِها	لكـنَّما انـتظَمَ البـيانُ فـريدا
لا العـيس تـحكيها إذا حـنَّت ولا الـ	ـورقاء تـحسن عـندها الـترديدا
تـخفي الشجا جلداً فإن غلب الأسى	ضـعفت فابـدت شـجوها المكـمودا

---

(١) في بعض المصادر أنهعليه السلام هو الذي جاءها.

إنسانَ عـيني يـا حسـينُ أخـيَ يـا   أمـلي وعِـقدَ جُـماني المـنضودا
مـا لي دعـوتُ فـلا تُـجيب ولم تكـن   عـوَّدتني مـن قـبل ذاك صُـدوداً
ألِـمِحْنَةٍ شـغلتك عـنِّي أم قِـلَىً   حـاشاك إنّك مـا بـرحت وَدودا[1]

* * *

إلمـن بـعد يـحسين مـنواي   ظـني انگـطع وانگـطع رجـواي
أنـاديك مـا يشـجيلك انـداي   ولا تسـمع اعـتابي ونـخواي

---

(١) ديوان الشيخ هاشم الكعبي: ٣٩.

﴿١٩﴾

سجدة في محراب علي‌

خَصَّكَ اللهُ فِي مَنَاقِبَ شَتَّى	هِيَ مِثْلُ الأعْدَادِ لا تَتَنَاهَى
لَيتَ عَيناً بِغَيرِ رَوضِكَ تَرعَىٰ	قَذِيَت واستَقَرَّ فِيهَا قَذَاهَا
أنتَ بَعدَ النَّبِيِّ خَيرُ البَرَايَا	والسَّمَا خَيرُ مَا بِهَا قَمَرَاهَا
لكَ ذاتٌ كَذَاتِهِ حَيثُ لَولا	أنَّهَا مِثلُهُ لَمَا آخَاهَا[١]

المباحث العامّة في الموضوع

المبحث الأوّل: الإمام‌ معجزة في كلّ أبعاده

أشار الشاعر الأزري إلىٰ موطن من مواطن الإبداع، وإلىٰ مورد من الموارد التي تحيّر الألباب في الإمام عليّ‌، ولابدّ من الالتفات إلىٰ جوانب تفرض نفسها في ترجمة هذا الرجل العظيم إذا ما أردنا المرور علىٰ ترجمته. وأوّل هذه الجوانب ـ وهو ما يبعث العَجب في النفوس، وما يلفت الأذهان إلىٰ مقدار عناية الله به‌ ـ هو كيف وصل لنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب‌ عبر هذا التأريخ الطويل شخصيّة متكاملة؟ فنحن لم نواجهْه (سلام الله عليه) وجهاً لوجه، بل نحن إنما

---

(١) تخميس الأزريّة (المتن): ٨٥.

نواجه شخصاً بيننا وبينه من التأريخ آماد طويلة، فنأخذه عن طريق القنوات التي تعكسه لنا.

ولدينا من القنوات نوعان: تأريخيّة وتقييميّة، فالقناة الأُولى تروي لنا ملابسات حياة الإنسان؛ كيف ولد، وكيف مات، وما هي صفاته وميزاته، لكن القناة الأُخرىٰ هي قناة تقييم، فعندما يمرّ إنسان ما بآخر فإنه يكوّن عنه انطباعاً معيّناً من خلال معايشته له عبر هذه القناة. وهذا الانطباع قد يرسم ذلك الإنسان بصورة موضوعيّة وقد يرسمه بصورة متحيّزة.

ونحن نعجب أشدّ العجب كيف وصل إلينا علي بن أبي طالب عليه السلام بما يحمل من مزايا وما له من شخصيّة متكاملة عن طريق هاتين القناتين، فالدنيا ـ إلّا ما شذّ ـ مرّ بها علي عليه السلام، فأوصلته لنا على الرغم منها؛ لأن التأريخ كُتب بيد أعداء علي عليه السلام، والتقييم مرّ علىٰ قوم لا ينظرون إلىٰ علي عليه السلام نظرة المستريح، وقد تلقّت علياً عليه السلام يوم تلقّته وقد وتر الدنيا، وتلقّاه التأريخ بصورة متشنّجة، فتلقّاه الحقد والأضغان والكراهة، وتلقّاه التقييم االمتضارب المتناقض.

دخل إلىٰ الدنيا وكلّه حسنات، ولكنْ حرص التأريخ علىٰ أن يقلب كلّ حسنة من حسناته إلىٰ سيّئة، وحاول الحقد أن يقلبها إلىٰ منقصة، ولكنه تراجع خاسئاً وهو حسير أمام صموده عليه السلام.

المبحث الثاني: نماذج من حياة علي عليه السلام وظلم التاريخ له

والتأريخ لم يروِ علياً عليه السلام بصورة موضوعيّة، ولم يقيّم موقفه تقييماً صحيحاً. ودعني أضرب لك بعض الأمثلة، جاء علي عليه السلام إلىٰ الحياة وخرج، ثم أتت الأقلام لتكتب عنه، وسنلاحظ الآن مجموعة من الظواهر في حياة هذا الرجل:

النموذج الأوّل: الأقلام المأجورة والأمويون

لقد كانت تلك الأقلام تحت سمع معاوية خاصّة وبصره، وتحت أسماع الأُمويّين وأعداء علي وأبصارهم عامّة، فكانوا ينظرون إليه نظرة الحقد؛ لأنك لا تستطيع أن تنظر إلىٰ قاتل أبيك ولو قتله بحقّ. وعلي عليه السلام قتل الأقرب والأبعد، وشاء الله له أن يحمل الألوية في اثنتين وثمانين غزوة، ولم يترك بطلاً من أبطال قريش إلّا وأشبع منه سيفه، وروّىٰ منه رمحه، وأخذ من علق دمائه. أفترىٰ علياً عليه السلام بعد تلك المواقف سيكتب عنه المقتول أبوه والمقتول أخوه كتابة موضوعيّة؟ كلا وألف كلا:

بــدرٌ وأحــدٌ والهِـراسُ وخـيبرٌ	والنّـهرَوانُ وقـبلَها صِـفّينُ
كـفٌّ تُـطيحُ بِـهَا وَيَـندُرُ كَـاهِلٌ	وَيَـدٌ تُـجَذُّ وَيُـجدَعُ العِـرنِينُ
هـذا رَصِـيدُكَ بـالنُّفُوسِ فَمَا تَـرىٰ	أَيُـحِبُّكَ المَـذبُوحُ والمَـطعُونُ
ومِـنَ البَـدَاهَـةِ والبَـدَاهَـةُ حَـيَّةٌ	فِـي أنْ يُـقَاضَىٰ دَائِـنٌ وَمَـدِينُ

فهؤلاء الذين كتبوا عن علي عليه السلام هم بين موتور منه، وبين طامع أنه إذا شتمه فسيأخذ جزاء شتمه له، وبين من أعمته التربية الفاسدة، وبين مضلَّل أحسن الظنّ بالتأريخ. وكل أولئك حاولوا أن يهشّموه، فراعهم أنه خرج عملاقاً من تلك الأقلام، وأنه لمّا استهدفته الأقلام كرّت منهزمة، وظل في ألقه وبهائه وعظمته، وانحسر عنه التأريخ، وهو أُعجوبة الدنيا ومفخرتها.

مرّ معاوية علىٰ الصفا والمروة وكان فيهما عبد الله بن عباس، فقال له: يابن عباس. قال: نعم، قال: أوما بلغك ما أمرنا به؟ قال: وبم أمرت؟ قال: ألّا يذكر علي بن أبي طالب. قال: أوتمنعنا من قراءة القرآن؟ قال: لا، قال:

أو تمنعنا من تأويله؟ قال: لا، ولكن أمنعكم من تأويله بألسنتكم أنتم، قال: أفتريد أن تأخذ القرآن من غيرنا وقد نزل في بيوتنا؟ فقال معاوية: قد أنبأتك فافعل ما تريد[١].

وأخذ ذلك الموقف أثره، فكان الناس إذا أراد أحدهم التحدّث عن علي عليه السلام لا يقوىٰ أن يأتي باسمه، وكان المؤرّخ يقف ويقول: حدّثني فلان عن فلان عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله، أو عن أبي زينب.

ويقف أحد العلماء فيصف لنا هذه الحالة بقوله: ما نصنع بعلي؟ إن أحببناه قتلنا، وإن أبغضناه كفرنا[٢]. وهي عبارة تعكس الواقع المرّ بأدقّ صوَره.

ويدخل رجل علىٰ إبراهيم بن سلمة بن هرمة ـ وكان له أبيات في مدح الإمام علي وولده عليهم السلام ـ فيسأله الرجل: لمن هذان البيتان:

وَمَهمَا أُلامُ عَلَىٰ حُبِّهِم ... فَإنِّي أُحِبُّ بَني فَاطِمَهْ
بَنِي البِنتِ مَن جَاءَ بالبَيِّنَا ... تِ والهَدْيِ والسُّنَنِ القَائِمَهْ؟

قال: قالهما من عضّ ببظر أمّه. فلما خرج الرجل سأل إبراهيم من يثق به: أولست قائل هذين البيتين؟ قال: نعم. قال: فلم نفيتهما عن نفسك وأنكرتهما؟ قال: ويحك، أيهما أهون، أن أنكر بيتين من الشعر أم أُشنق علىٰ باب بيتي[٣]؟

---

(١) كتاب سليم بن قيس: ٣١٥، مناقب آل أبي طالب ٢: ١٧٤، بحار الأنوار ٤٢: ٣٨.
(٢) نسب قريب من هذا القول في مناقب آل أبي طالب ٣: ١٦، بحار الأنوار ٩٢: ٤٨١ للشعبي، وهو: «ما ندري ما نصنع بعلي بن أبي طالب عليه السلام؛ إن أحببناه افتقرنا، وإن أبغضناه كفرنا!».
(٣) بيتان ثالثهما:
فلست أُبالي بحبي لهم ... سواهم من النعم السائمهْ

وهذا يعكس الواقع المرّ الذي مرّ به تأريخ هذا الرجل، والفترة العصيبة التي مرّت بمن يذكر الإمام علياً عليه السلام بخير.

وقد وهم الأُمويّون أن جعلوا شتم علي عليه السلام فاتحة الخطباء على المنابر؛ ظنّاً منهم أنهم إذا نعتوه بأبي تراب فإنما يشتمونه بذلك[1]، يقول له شاعر:

أَأَبَــا تُــرَابٍ للــتُّرَابِ تَـفَاخُرُ	أنْ كَـانَ مِـنْ أمشَـاجِهِ لَكَ طِـينُ
النَّـاسُ مـن هـذا التُّرابِ وكُلُّهم	فـي أصلِهِ حَـمأً بِـهِ مَسنُونُ
لكـنَّ مِـن هَـذا التُّـرابِ خَـوافِرٌ	ومـن التُّـرابِ حـواجبٌ وعـيونُ
فـإذا اسـتطَالَ بك التُّـرابُ فـعاذِرٌ	فـلأنتَ مـن وجـهِ التُّرابِ جَـبينُ
وإذا رجـعتَ إلىٰ التُّـرابِ فَـلمْ تَـمُتْ	كَـالجَذرِ ليس يـموتُ وهـوَ دَفـينُ
لكـنَّهُ يَـنمو ويَـفتَرِعُ الثَّـرىٰ	وتَـرِفُّ مـنهُ بَـراعِـمٌ وغُـصُونُ

أراد الأُمويّون أن يسيطروا علىٰ وسائل الإعلام ويضعوها في قناة الذمّ لعلي عليه السلام فيمسخوا سيرته في نفوس الناس، يقول أحدهم: مررت بمسجد حمص فسمعت رجلاً يشتم أبا تراب، ويسأله رجل إلىٰ جانبه: ويحك، من أبو تراب هذا؟ فيقول له: أحسبه لصّاً من لصوص الفتن[2].

فهذا هو مبلغ علمهم عن علي عليه السلام وهذا مبلغ تربيتهم في شتمه.

وقد أراد الزخم الأموي في وسائل الدعاية والعطاء الأمويّ في

تاريخ مدينة دمشق ٧: ٧٦، جواهر المطالب ٢: ٣١١، وقد ذكر هذين البيتين فقط.

(١) انظر: الإرشاد ١: ٣٠٩ ـ ٣١٠، كشف الغمّة ٢: ٣٧، بحار الأنوار ٤٢: ١٩، تنبيه الغافلين: ١٠٤، شرح نهج البلاغة ٩: ٦٤، المحاسن والمساوئ: ٤٠، جواهر المطالب (ابن الدمشقي) ٢: ٢٢٩.

(٢) مروج الذهب ٣: ٤٢.

الأموال والرهبة الأُمويّة بالسيوف أن تغلق النوافذ، فلا ينفذ منها أريج لعلي عليه السلام، ولا يخرج منها اسم له. ولكن هلم معي لنستقرئ التأريخ، ونسأل معاوية: لقد حرصت أن تشتم علياً عليه السلام على المنابر، وأن تدفنه في التراب، وأن تبرزه بصورة تشمئزّ منها النفوس، ولكن بيني وبينك التأريخ والواقع وأقلام الأحرار، فسل الأقلام بم صوّرت علياً عليه السلام وبم صوّرت معاوية، وسل التأريخ كيف يروي لنا من صفحات عن علي عليه السلام، وماذا يبعث لنا من عطره، وسله ماذا يبعث في أُنوفنا من رائحة الأمويين التي تزكم الأُنوف:

أأبَــا يــزيدَ وتــلكَ حِكــمةُ خــالقٍ ... مــاذا أقــولُ وبَــابُ سَــمعِكَ مُــوصَدُ

أيــنَ القُــصُورُ أبَــا يــزيدَ ولهــوُها ... والصَّــافناتُ وزَهــوُها والسُّــؤدَدُ

أيــنَ الدهــاءُ نــحرتَ عِــزَّتَهُ عــلىٰ ... أعــتابِ دنــياً سِــحرُها لا يَــنفَدُ

هــذا ضــريحُك لو شــعرتَ بــبُؤسِهِ ... لأســالَ مــدمَعَك المَــصيرُ الأســودُ

كُــتَلٌ مــنَ التُّــربِ المُــهين بــخِربةٍ ... سَكــرَ الذُّبــابُ بــها فَــراحَ يُــعربِدُ

خَــفِيتْ مــعالِمُها عــلىٰ سُكّــانِها ... فكأنَّــها فــي مَــجهلٍ لا يُــقصَدُ

ومَشــىٰ بــها ركبُ البِــلىٰ فــجدارُها ... عــانٍ يَكــادُ مــن الضَّــراعــةِ يسجُدُ

قُــم وارمُــقِ النَّــجفَ الأغــرَّ بــنظرَةٍ ... يَــرتدُّ طَــرفُكَ وهــوَ بَــاكٍ أرمَــدُ

تِــلكَ العــظامُ أعــزَّ ربُّك شأنَــها ... فَــتكادُ لولا خــوفُ ربِّك تُــعبَدُ

أبــداً تُــباكِــرُها الوفــودُ يَــحُثُّها ... مِــن كــلِّ صَــوبٍ شَــوقُها المُــتَوقِّدُ

نــازعتَها الدنــيا فــفُزتَ بــورِدِها ... ثُــمَّ انــطوىٰ كــالحُلمِ ذاكَ المَــورِدُ

وَسَــعَت إلىٰ الأخرىٰ فأصبحَ ذِكــرُها ... فــي الخَــالدينَ وعَــطفُ ربِّكَ أخــلَدُ[1]

---

(١) من قصيدة للشاعر السوري محمد مجذوب بعنوان (علىٰ قبر معاوية).

نعم تألّق علي عليه السلام من وراء التراب نوراً، ووقف من تحت التراب خطيباً مفوّهاً يرسم لنا عبْر العصور في منهجه وتعبيره رسالة السماء ناصعة صافية. ومرّ التراب علىٰ معاوية، فإذا انكشف عنه انكشف عمّا لا تطاق رائحته ولا يحمد ذكره. لكنه لو انكشف عن علي عليه السلام فإنما ينكشف عن مآثر وتقوىٰ وإيمان وصلة بالله، وعن روح ما عرفت إلّا الله في كلّ صورها. وتلك هي العاقبة التي رسمها الله للمتّقين. ولم تستطع كلّ تلك السنين التي مرت أن تخفي عطر علي بن أبي طالب عليه السلام:

أمـولاي هــذا مَـربعٌ فــي تُـرابِـهِ ... لحَـيدَرَةٍ جِسـمٌ وفـي أُفـقِهِ فِكـرُ

ثَلاثٌ وعشـرٌ مـن قُـرونٍ تَـصَرَّمت ... وما زال منه فوقَ هذا الثَّرىٰ عُـطرُ

وأزمــــنةٌ مَـرَّت بكـل صُـروفِها ... يشــدّ بــها زيــدٌ ويــدفعها عـمْرُو

تــمرُّ عــليه وهــي ســوداءُ غـيمةٌ ... فـيمشي إليـها وهـو مـنبلجٌ بـدرُ

أجـل تـلك عُـقبىٰ المُـتَّقين خـوالدٌ ... من الذكر لا تَفنىٰ ولا يـنتهي الذُّكـرُ

وجاء دور أبناء العمّ من العباسيّين، فكانت قسوتهم عليه أشدّ من قسوة الأُمويّين. فكان متوكّلهم يأتي بعبادة المخنث ويضع علىٰ بطنه وسادة وعلىٰ ظهره أُخرىٰ، ويرقّصه في وسط المجلس ويقول عنه: هذا الأنزع البطين، هذا أمير المؤمنين. مستهزئاً بعلي عليه السلام[1]. ولكن ابحث عن المتوكّل الآن فهل تجد له أثراً؟ اللهم إلّا عند بعض الأقلام العفنة المأجورة التي تاهت عن الحقّ وعميت عن الهدىٰ، وابحث عن علي عليه السلام فستجده عند كلّ قلم وفكر[2]. ذلك لأنه كان من الله، وما كان من الله يخلد.

---

(١) شجرة طوبىٰ ١: ١٥٧.

(٢) فقد كتب عنه وألّف فيه جملة من الكتاب من غير أبناء المذهب والدين كجورج جرداق

فعلي عليه السلام مرّ عبر القناة الأُمويّة والعباسيّة وقناة السلاجقة والتتر والأتراك وذيول الأتراك، وقنوات أعدائه الذين تزخر بهم الدنيا، وما زال ولم يزل ذلك الألقَ الذي شعّ في دنيا الإيمان، وذلك النور الذي أضاء للمسلمين، وذلك الفكرَ الذي حمل روح الإيمان فجسدّها قولاً وفعلاً، وسيبقىٰ ما بقيت الدنيا؛ لأن التقوىٰ لا عمر لها، والإيمان لا عمر له. وهكذا تتهاوىٰ الدنيا كلّها ويبقىٰ الإيمان الصالح المنوّر خالداً مهما امتدّت الدنيا ومهما طالت الظروف. وما زالت الأقلام تجرح علياً عليه السلام لكنه أقوىٰ من الجراح:

عشِقَتكَ الجِراح حيّاً ومَيتاً ... فرأيناك مُثخَناً بالجِراحِ

من جِراحِ الأقلامِ تُصميكَ زُوراً ... وجِراحِ السُّيوفِ وسطَ السَّاحِ

حَرِضَ الحِقدُ أن يُسمّي قبيحاً ... مَن بمعناك من مزايا مِلاحِ

وسيبقىٰ القمر بعيداً عن النباح مهما كان النباح قوياً، وستبقىٰ الشمس تهزأ بالشتم والشاتمين، وسيبقىٰ النور لا يعبأ بالظلام، وكل ذلك لأن علياً عليه السلام من معاجز الإسلام، ومعاجز الإسلام ممتدّة. ولعل هذا المعنىٰ هو الذي أراد الحديث الشريف أن يرسمه: «إني مخلّف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً. ولقد نبّأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليّ الحوض»[1].

استمع معي إلىٰ أحد أفراد عائلة اشتهرت ببغضها الشديد لأمير

وبوس سلامة وميخائيل نعيمة وعبد الفتاح عبد المقصود وعباس محمود العقاد الذي كتب أيضاً: أبو الشهداء الحسين بن علي، وغيرهم.

(١) ورد هذا الحديث بصيغ كثيرة وطرق أكثر. انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدرامي ٢: ٤٣٢، وغيرها.

المؤمنين عليه السلام، وهو عبد العزيز بن مروان والد عمر بن عبد العزيز، وكان يستمع إلىٰ خطيب وهو يشبع أمير المؤمنين علياً عليه السلام شتماً، ويحاول مدح الأُمويّين. ويلتفت عبد العزيز لمن معه فيقول: انظروا إلىٰ هؤلاء، إنهم إذا مدحوا أسلافهم فكأنما يكشفون عن الجيف، وإذا شتموا علياً عليه السلام فكأنما يأخذون بضبعه[1] فيرفعونه إلىٰ السماء[2]. ذلك أن الدين ما بنىٰ شيئاً واستطاعت الدنيا أن تهدمه[3].

النموذج الثاني: الأقلام المأجورة وعطاء الإمام عليه السلام

وسنبيّن هنا ظاهرة إيجابيّة أُخرىٰ في حياة هذا الرجل مع سلبيّة هذا النموذج، فنحن نعرف أن الأقلام إذا انصبّت علىٰ شيء فإن مضمونه ينفد، فلو تناول العلماء أو البلغاء أو الأُدباء موضوعاً وكتبوا فيه مرّة أو مرّتين أو أكثر فإن مضمونه سينفد وسيصبح عتيقاً. ولكن تأمّل هذا الرجل، وسل التاريخ: كم مرّ بعلي عليه السلام من الأقلام والعصور؟ لكن كلّما أخذت القرائح منه أعطىٰ عوض ذلك وتضاعف، فكلّما أرادت الأقلام أن تستنفد مضمونه وجدته خالداً متجدّداً، يقول أحد الأُدباء:

دنيا علي وهي خِصبٌ سائغٌ　　　يمتارُ منها ما استطاع المنطقُ

---

(١) الضبع ـ بسكون الباء ـ: وسط العضد بلحمه يكون للإنسان وغيره، والجمع أضباع مثل (فرخ وأفراخ). وقيل: العضد كلّها. لسان العرب ٨: ٢١٦ ـ ضبع.

(٢) الإرشاد ١: ٣٠٩ ـ ٣١٠، كشف الغمّة ٢: ٣٧، بحار الأنوار ٤٢: ١٩، وقد نقله عن الوليد بن عبد الملك، تنبيه الغافلين: ١٠٤، وقد نقله عن الشعبي، شرح نهج البلاغة ٩: ٦٤، وقد نسبه لعبد الله بن عروة بن الزبير.

(٣) قول منسوب لعبد الله بن عروة بن الزبير في حقّ أمير المؤمنين عليه السلام. انظر شرح نهج البلاغة ٩: ٦٤، المحاسن والمساوئ (البيهقي): ٧٧، البيان والتبيين ٢: ١٧٣، ونسبه في بحار الأنوار ٤٢: ١٩ للوليد بن عبد الملك.

فــؤارة اليـنبوع إن تَـمتخ لهـا كأساً تَـدافــع ضـعفُه يـتدفّقُ
تختار منها رونقاً وتـخلته الــ أسمىٰ فيلمع فوق ظنّك رونـقُ
أبـــديّة الأبـــعاد لا قَـــدمٌ لهـــا يـدنو ولا رجـلٌ تسـيرُ فتلحقُ

جاء جماعة فقيّموا علياً عليه السلام في وقته، ثم جاء آخرون بعدهم فقيّموه بتقييم آخر، وهكذا وكلّما مدّ الأديب يده إلىٰ ذات علي عليه السلام ومائدته رفدته بكل ما هو جديد، فكأن ذاته تتوالد ولا ينفد عطاؤها. ومـهما أردت أن تأخذ منها أعطتك:

يـــزيدك وجـــهه حســناً إذا مـــا زدتـــه نـــظراً(١)

وكم جال من الأقلام في حياة علي عليه السلام! يـدخل ضـرار الفـهري عـلىٰ معاوية، فيقول له: صف لي عليّاً. فيقول: اعفني. فيقول معاوية: لابدّ من وصفه. فقال: إذا أبيت فاستمع: كان والله بعيد المدىٰ، شديد القوىٰ، يقول فصلاً ويحكم عدلاً، يتفجّر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستأنس بالليل ووحشته، ويستوحش من الدنيا وزهرتها، غـزيرَ العـبرة طويلَ الفكرة، يعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جشب. وكـان كأحدنا فينا؛ يجيبنا إذا دعوناه، ويأتينا إذا سألناه، وينبئنا إذا اسـتنبأناه، ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منّا لا نكاد نرفع رؤوسنا إجلالاً له. لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله، يقرّب المساكين، ويعظّم أهل الدين.

ولقد رأيته ليلة من الليالي وقد أرخىٰ الليل سدوله، وغارت نـجومه،

---

(١) البيت للعبّاس بن الأحنف. ديوان العبّاس بن الأحنف: ١٢٩، شفاء السقام: ٣٧٧، شرح نهج البلاغة ٢٠: ٢٠٨، تاريخ بغداد ١٢: ١٢٩.

قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، يقول: «إليك عني يا دنيا، غرّي غيري، أإليَّ تعرضت؟ أم إليَّ تشوّفت[١]؟ هيهات هيهات، قد أبنتك ثلاثاً. فأمدك قصير، وزادك حقير، وخطرك كبير. آهٍ آهٍ من قلّة الزاد ووحشة الطريق».

فبكى معاوية حتى وكفت دموعه على لحيته، وقال: رحم الله أبا حسن، كان والله كذلك، فكيف حزنك عليه؟ قال: حزن من ذبح رضيعها على صدرها، فلا تهدأ دمعتها ولا ترقأ عبرتها[٢].

هذا هو علي عليه السلام في رأي معاصر له، وستسمع كذلك في أحد الجوامع من يقول: لقد فارقكم بالأمس رجل كان سهماً من مرامي الله عزّ وجلّ على عدوّه، ربّاني هذه الأُمّة، ذا شرفها وفضلها، وذا قرابة من النبي صلى الله عليه وآله قريبة، لم يكن بالنؤومة عن أمر الله، ولا بالغافل عن حقّ الله، ولا بالسروقة من مال الله. أعطى القرآن عزائمه فيما له وعليه، فأشرف منها على رياض مؤنقة، وأعلام بيّنة ذلك ابن أبي طالب[٣]. وهذا هو تقييم الحسن البصري له.

ثم انحدر مع التأريخ، وانظر ما كتبت عنه الأقلام، وتأمّل هل أخذت هذه الأقلام شيئاً مكرّراً عن علي عليه السلام؟ كلّا، فهي كلّما بحثت عن ذاته وجدت جديداً في شخصه. فما سرّ هذا العطاء الذي لا ينقطع؟ وما سرّ هذا التوالد؟ سرّ ذلك أن الإنسان يأخذ منه بقدر ما يستوعب، وهو عطاء

---

(١) تشوّفتِ: تزيّنتِ. لسان العرب ٧: ٢٣٨ ـ شوف.

(٢) مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (محمد بن سليمان) ٢: ٥٢، شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٢٦، ينابيع المودّة ٢: ١٨٩.

(٣) أمالي المرتضى ١: ١١٢، جواهر المطالب (ابن الدمشقي) ١: ٢٣٦، ذخائر العقبى: ٧٩، شرح نهج البلاغة ٤: ٩٥، فتح الملك العلي (المغربي): ٧٨، البداية والنهاية ٨: ٦.

لا ينضب. وتلك خاصّة من خواصّه أخذها من القرآن، فهو تلميذ القرآن، والقرآن لا تفنىٰ عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، وهو أحد الأشباح الخمسة الذين يقول فيهم أبو العلاء:

يـابنَ مستعرضِ الصُّفوفِ ببدرٍ والقَـنَا السُّمر مـن بـني غـطفانِ
أحـدُ الخـمسةِ الذيـن هُـمُ الأشـ ـباح في كلّ مـنطق والمـعاني[١]

فعلي عليه السلام أحد العترة الذين هم عِدل الكتاب الذي لا تفنىٰ عجائبه، ولذا فإن علياً عليه السلام لا تفنىٰ عجائبه. وكلّما بحثت في ذوات هذه العترة وجدتها غنيّة بالعطاء، وسيبقىٰ علي عليه السلام منبعاً ضخماً، كلّما امتدّت العصور وجدت في ذاته جديداً.

وقد وصل الأمر بحجم علي عليه السلام الذي لم تستوعبه الدنيا أن كان الناس فيه صنفين: كافراً به، ومؤلّهاً له[٢]. يقول له أحدهم وهو علىٰ المنبر يخطب: لله أبوك! ما أفصحك كاذباً. ويقول له آخر: أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلّا هو![٣].

وابحث في ذوات من عاصر علياً عليه السلام، فهل ترىٰ له أبعاداً في الفكر الاجتماعي أو الفلسفي أو الاقتصادي أو الأخلاقي كما تجد لعلي عليه السلام؟ أفتعجب بعد ذلك أن يقف بعض الناس لينفي عنه (نهج البلاغة)؟ لا شكّ أن في (نهج البلاغة) عطاء يضيق به ذلك العصر، وفات هؤلاء أن العبقرية ليست من الجنس العادي وإنما هي ندرة، والعبقري يختلف عن جنس

(١) ديوان سقط الزند: ٩٤.
(٢) قال له النبي صلى الله عليه وآله: «يهلك فيك اثنان: محبّ غالٍ، ومبغض قالٍ». منهاج الكرامة: ١١١، الملل والنحل ١: ١٢ ـ ١٣.
(٣) انظر بحار الأنوار ٢٥: ٢٦١ ـ ٢٣٧ / ب ١٠ في نفي الغلوّ في النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام ....

زمنه، ولو كان من جنسهم لما كان عبقريّاً. فالعبقري يسبق الزمن بما عنده من عطاء.

يمرّ بعض الكتّاب الذين ينفون عنه (نهج البلاغة) فيقول: من أين جاء علي عليه السلام بهذه العلوم التي نجدها في (نهج البلاغة)؟ ولكنه يمرّ بابن خلدون فيقول عن ريادته لعلم الاجتماع: ذلك تفاعل داخلي واختمار ذاتي نبغ فيه ابن خلدون!

فليت شعري، هل هذا التفاعل الداخلي والاختمار الذاتي وقفٌ علىٰ ابن خلدون؟ ولم لا يكون لعلي بن أبي طالب عليه السلام؟ أو تستكثر علىٰ علي عليه السلام أن يكون رائداً في علم الفلسفة أو الأخلاق ولا تستكثر ذلك علىٰ ابن خلدون؟ لكنه الحقد يعمي ويصمّ، وكذلك هي الأقلام التافهة، والنظر القاصر، ولكن، هيهات أن تُحجب الشمس بالغربال[1].

النموذج الثالث: اجتماع الأضداد في حياته عليه السلام

ومن الظواهر النادرة في حياته عليه السلام ـ وهي تستحقّ أن يلفت إليها النظر ـ أننا تعوّدنا ألّا نرىٰ إنساناً يجمع بين الشيء وضدّه، فمن العسير ـ إن لم يكن من المستحيل ـ أن يُجمع بين الشيء وضده. لكن دعني أضرب لك مثلاً، تأمل تأريخ الزهد والتصوّف، وادرس ملامح الزاهد كيف هي، ستجد أن التأريخ يصوّر الزاهدين بأنهم منعزلون عن الناس، وتغلب علىٰ

---

(١) قال المتنبي:

وإذا استطال الشيء قام بنفسه   وصفات ضوء الشمس تذهب باطلا

وقال عبد الله بن معاوية:

وعين الرضا عن كلّ عيب كليلة   كما أن عين السخط تبدي المساويا

شرح نهج البلاغة ٧: ٢٠٧، ١٦: ١١٨، ١٩: ٣٣٩، أنساب الأشراف (ترجمة أمير المؤمنين عليه السلام): ٦٣.

وجوههم الكآبة والانقباض، وعدم البشاشة والاندماج بالمجتمع. ادرس تأريخ الاجتماعيّين الذين عاشوا واندمجوا بالمجتمع فستجد عندهم صفات علىٰ النقيض من ذلك، فالشخص الاجتماعي منطلق الطلعة بشوش الوجه، ضاحك الثغر، لا يحب العزلة. ويندر أن تجد هاتين الخصلتين المتناقضتين مجتمعتين في شخص واحد. ولكن هلُمّ معي إلىٰ علي عليه السلام، فسترىٰ أنه جمع بين الاتّجاهين المتضادّين؛ فقد كان عليه السلام إذا جنّ عليه ليله تجده في محرابه كما وصفه ضرار، وتسمعه يقول: «إلهي إن طال في عصيانك عمري وكثر بالصحف ذنبي، فما أنا مؤمّل غير رضوانك ولا راجٍ غير غفرانك، اُفكّر في ذنبي فتعظم علي بليّتي، واُفكر في عفوك فتهون علي خطيئتي. آهٍ آه إن أنا قرأت بالصحف سيّئة أنا ناسيها وأنت محصيها، فتقول: خذوه. فياله من مأخوذ لا تنفعه عشيرته ولا تنجيه قبيلته! آهٍ آه من نار نزّاعة للشوىٰ، آهٍ آه من غمرة من ملهبات لظىٰ، آهٍ آه من نار تنضج الأكباد والكلىٰ»[١].

ثم يتكوّم علىٰ الرمل جسداً لا حراك فيه وقد اُغمي عليه، فلا يفيق إلّا بعد فترة طويلة، أو حتىٰ ينضح الماء علىٰ وجهه.

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «صلّىٰ علي بن أبي طالب الفجر، ثمّ لم يزل في موضعه حتىٰ صارت الشمس علىٰ قيد رمح، وأقبل علىٰ الناس بوجهه فقال: والله لقد أدركت أقواماً يبيتون لربّهم سجداً وقياماً، يخالفون بين جباههم وركبهم كأن زفير النار في آذانهم، إذا ذكر الله عندهم مادوا كما يميد الشجر، كأنما القوم باتوا غافلين».

يقول: «فوالله ما رؤي بعد ذلك ضاحكاً حتىٰ قبض»[٢].

---

(١) الأمالي (الصدوق): ١٣٨ / ١٣٦، مناقب آل أبي طالب ١: ٣٨٩.

(٢) الكافي ٢: ٢٣٦ / ٢٢، بحار الأنوار ٤١: ٢٣ / ١٧، ٤٢: ٢٤٧ / ٤٩، ٦٤: ٢٦٠ / ٦٣.

أما إذا أصبح الصباح فإنك تجده في السوق يتفقّد أحوال الرعيّة، أو تجده في مسجد الكوفة علىٰ دكّة القضاء يقضي بين الناس، أو تجده في حاجة أهله مارّاً في السوق يحمل بردائه شيئاً من التمر ويأوي إلىٰ البيت، وهو يرتجز:

أفلحَ من كانت له قوصرّهْ ... يأكل منها كلّ يوم مرّهْ[(١)]

ولا يكاد يضع الطعام عند أهله حتىٰ يخرج، فتجده عند جارية كانت قد اشترت سلعة لأهلها وأبوا قبولها، فأعادوها إلىٰ بائع السلعة الذي رفض إرجاعها، فوقفت تبكي، فيسأل علي عليه السلام البائع: «لم لا تُرجع لها السلعة؟». فيدفعه قائلاً: وما أنت وذاك؟ ويأتي الناس ليسلّموا علىٰ الإمام علي عليه السلام بإمرة المؤمنين، فيرتعد هذا الرجل ويقول: سيدي، ارضَ عني. فيجيبه عليه السلام بقوله: «ما أرضاني عنك إذا وفيت الناس حقوقهم»[(٢)]. ولم يكلّمه بشيء.

ومع كلّ تلك الأماكن التي تجده فيها تجد ثغراً لا تفارقه البسمة، حتىٰ

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٧٧، الفائق في غريب الحديث ٣: ٨٦ ـ قرر، البداية والنهاية ٨: ٣، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٤٨٠. والقوصرّة: الذي يكنز فيه التمر من البواري. الصحاح ٢: ٧٩٣ ـ قصر.

(٢) الغارات ٢: ٧١٤، الأمالي (الطوسي): ٥٦٥ / ١١٧٤، منتخب مسند عبد بن حميد: ٦٢، كنز العمال ١٣: ١٨٣ / ٣٦٥٤٧. أي أنه عليه السلام لم يجعل اعتذار الرجل إليه سبباً لرضاه عنه، بل جعل أداء حقوق الناس هو السبب في ذلك؛ لأنه عليه السلام يرى نفسه كأي أحد من المسلمين في المعاملة، وأن لا أثر لتولّيه الخلافة في ذلك. ولعلّنا لا ننسى قول ابن حنبل حينما ذكروا عنده الإمام علياً عليه السلام: «قد أكثرتم، إن كانت الخلافة قد زيّنت غير علي، فإن علياً قد زان الخلافة». الهداية الكبرى: ١٢، شرح نهج البلاغة ١: ٥٢، تاريخ بغداد ١: ١٤٥، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٤٤٦. أي أنه عليه السلام لم يتّخذ الخلافة وسيلة للتعالي على الناس.

قال قائلهم: إن فيه دعابة[١]. ولعمري ما كانت دعابة، ولكنها البشر الذي يطفح على وجوه المؤمنين، والانطلاقة التي يحتّمها الخلق العالي:

فـإذا مـا رقـقت أو بشّ وجـهٌ ... قـيل تَـلعابة كـثير المـزاحِ

واستزادوا فقيل لا رأيَ في الحر ... ب له رغـم أنـه ابـنُ كـفاحِ

وعـجيبٌ أن يَـعْوِز الرأي قـرماً ... عاش بين القنا وبيض الصّفاحِ

عركته الزحوفُ وهو ابـن عشر ... وتـفرّىٰ أديـمُه بـالسلاحِ

الوجـوهُ المُشَـوَّهات بـديهٌ ... لصقُها العيبَ بالوجوهِ الصباحِ

فعلي عليه السلام جمع بين الأضداد، فهو الزاهد الذي يذوب في قلب المحراب، وهو الاجتماعي الضاحك.

وكمثل آخر على جمعه بين الأضداد جمعه بين الصلابة والصرامة وبين الرقّة، فكلّنا يعرف مثلاً أن الذي يعيش بين الدماء والسيوف والأعضاء المقطّعة يحمل ملامح شرسة، ووجهاً شديد الصلابة والصرامة، ولا يوجد في نفسه شيء من الرقّة، ولكن حينما نمرّ في سيرة هذا الرجل نجد أخلاقه غاية في اللطف والرقّة. طلب يوماً من أحد غلمانه ماء، فلم يجبه، حتىٰ كرّر الطلب ثلاثاً. فقال له: «لمَ لم تجبني؟». قال: أمنت عقوبتك. قال: «الحمد لله الذي جعل عبدي يأمن عقوبتي، اذهب فأنت حرّ لوجه الله».

ومرّ ما بين أجساد تتراقص بدمائها بعد وقعة البصرة التي طارت فيها الرؤوس، حتىٰ دخل دار المرأة ـ وقد أفرد لها داراً خاصّة ـ وما كاد يضع قدمه في باب الدار حتىٰ انبرت له امرأة تقول: يا قاتل الأحبّة، أيتمت

---

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ٨٤.

ولدنا أيتم الله ولدك. فما حمله ذلك على الغضب، ولا فارق بشاشته، ولا عكر طبعه المليء بالرقة، وإنما أجابها والبسمة تعلو شفتيه: «لو كنت قاتل الأحبّة لقتلت من في هذه الحجرة». وكان في الغرفة عبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم والوليد[1]، وأنماط من هذا النوع الذي لا تلتقي عن ذمّه الشفتان. هذا هو هدوء عليّ عليه السلام وتلك هي رقّته، وهو الذي يأخذ السيف ويغوص في لهوات الحرب وهو يرتجز ويقول:

«ما تنقم الحرب العوان منّي ... بازل عامين حديث سنّي[2]
سنحنح الليل كأنّي جنّي ... لمثل هذا ولدتني أمّي»[3]

لقد جمع عليّ عليه السلام الأضداد في صفاته، ورحم الله الصفي الحلّي:

جُمِعتْ في صفاتك الأضدادُ ... فلهذا عزّت لك الأندادُ
خُلُق يُخجِلُ النسيمَ من اللُّطـ ... ـف وبأسٌ يَذوب منه الجَمادُ[4]

وهلمّ معي هذه الليلة لنقف على عليّ عليه السلام.. على جبين معصوب بعصابة صفراء، والدم تحت العصابة ما يزال آنذاك طريّاً، وهلمّ معي لنسبر أغوار روحه، هذه الليلة جيء إليه بقاتله في حالٍ كان السم قد أخذ

---

(١) دعائم الإسلام ١: ٣٩٤، مناقب آل أبي طالب ٢: ٩٨، الجمل (ضامر بن شدقم): ١٤٧، تاريخ الطبري ٣: ٥٤٣، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٠٥. والمرأة التي قالت له عليه السلام ذلك هي صفيّة بنت الحرث الثقفيّة امرأة عبد الله بن خلف الخزاعي.

(٢) البازل من الإبل: الذي تمّ له ثماني سنين ودخل في التاسعة، وحينئذ يطلع نابه وتكمل قوّته، ثم يقال له بعد ذلك بازل عام وبازل عامين. يقول عليه السلام: أنا مستجمع الشباب مستكمل القوّة. النهاية في غريب الحديث ١: ١٢٤. أو هو الكامل المعرفة. المعجم الوسيط: ٥٤ - بزل. يريد عليه السلام أنه عرك الحروب وهو صغير السن.

(٣) مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (محمد بن سليمان) ٢: ٥٦٩، مناقب علي بن أبي طالب (الخوارزمي): ١٥٨ / ١٨٧.

(٤) ديوان صفي الدين الحلي: ٨٨.

من رأسه مأخذاً، ورأسه في حجر ابنه الحسن عليه السلام، وعائلته تنشج من وراء الستار نشيجاً خفياً، وما كاد بصره عليه السلام يقع علىٰ قاتله ابن ملجم حتىٰ قال: «لا حول ولا قوّة إلّا بالله، والله لقد شربت اللبن ونسيت أن أترك لأسيركم منه، بالله عليكم اسقوه من شرابي، وأطعموه من طعامي. فإن عشت فأنا وليّ دمي، وان متّ فاضربوه ضربة بضربة، ولا تمثّلوا بالرجل؛ فإن المثلة حرام ولو بالكلب العقور، وأن تعفوا فذلك أحبّ إليّ»[١]. ثم أطبق جفنه وهمهمت شفتاه بذكر الله، وأخذت حبّات من العرق تترقرق علىٰ جبينه.

ومدّ الإمام الحسن عليه السلام يده إلىٰ جيبه واستخرج منديلاً وراح يمسح به العرق عن وجه أبيه، وهو يقول: «أبة، أراك وقد تكلّل جبينك عرقاً؟». قال: «بني إن المؤمن إذا نزل به الموت عطف عِرنينُه، وسكن حنينُه، وعرق جبينه»[٢].

يقول سويد بن غفلة: غدوت أنا وجماعة إلىٰ دار أمير المؤمنين عليه السلام، فسمعنا النحيب من داخل الدار، فما استطعنا أن نسكت، وعلا نحيبنا، فخرج الحسن عليه السلام فقال: «إن أمير المؤمنين يقول لكم: ارجعوا».

يقول الأصبغ: فرجع الناس إلّا أنا لم تطاوعني قدماي، فرجع الإمام الحسن عليه السلام وقال: «ألم أقل لكم: ارجعوا؟». فقلت: سيدي، والله لا تطاوعني قدماي. قال: «ادخل». فدخلت، ولمّا وقع بصري علىٰ أمير المؤمنين عليه السلام رأيت رأسه وقد عُصب بعصابة صفراء، والله ما أدري أوجهه أشدّ اصفراراً أم العصابة، فبكيت عند ذلك فالتفت إليّ أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً:

---

(١) نهج البلاغة / الوصية: ٤٧.

(٢) قطعة منسوب ذيلها لأمير المؤمنين عليه السلام من خطبته خالية من الألف، انظر: شرح نهج البلاغة ١٩: ١٤١، كنز العمّال ١٦: ٢١١ / ٤٤٢٣٤، وعليه فليس فيها: إن المؤمن إذا نزل به الموت.

«يا أصبغ لا تبكِ، إنها والله الجنّة». قلت: سيدي، أنا أعلم أنها الجنّة ولكني أبكي لفراقك. عند ذلك سمعت النساء قد علا ضجيجهن بالبكاء[1]:

اللـيله مسـه المحراب خـالي   يـــعماد خـــيمتنا يـــغالي

مـــا چـنت اظـن لنّ اللـيالي   بـيك اتـغدر وتــخيّب آمـالي

كان أولاده إلىٰ جانبه إلّا بنتاً واحدة ذهبت إلىٰ مسجد الكوفة.. إلىٰ محراب خلا من أمير المؤمنين عليه السلام فجلست تمطره بدموع عينيها:

يا مـحراب ابـوي اجـيت انـاجيك   اصـبّن ادمــوع العـين وارويك

مــن طــاح ابـويه وانـطبر بـيك   صدگ شيبته من ادمـاه تسگـيك

* * *

هـذي المحاريبُ أيـنَ القـائمون بـها   واللـيلُ مُـرخٍ مــن الظـلماء أسـتارا

---

(١) الأنوار العلوية: ٣٨٢.

﴿٢٠﴾

من وصايا أمير المؤمنين عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾(١).

مقدّمة في معنى الوصيّة، وبعض وصاياه العهدية

فرض الإسلام على كلّ مسلم ألّا يبيت إلّا ووصيّته تحت رأسه. ويقسم الفقهاء الوصيّة إلى قسمين، عهديّة وتمليكيّة. فالتمليكيّة هي تمليك عين أو منفعة بعد الموت، والعهدية هي أن يوصي المحتضر بالقيام بأشياء من بعده.

الوصيّة الأُولى: حفر أربعة قبور له للتعمية

وأمير المؤمنين عليه السلام في مثل هذه الليلة كانت عنده وصايا تمليكيّة ووصايا عهديّة، وعنده تركة من القسمين، فله تركة معنوية وأُخرى ماديّة. فمن الوصايا العهديّة التي أوصى بها في مثل هذه الليلة أنه أوصى أن

---

(١) البقرة: ١٨٠.

تحفر له أربعة قبور فيدفن في أحدها: يحفر أحدها في دار جعدة بن هبيرة ابن أخته أم هاني فاختة بنت أبي طالب، وهو البيت الذي سكنه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فحفر هذا القبر للتعمية. وقبر آخر حفروه في الرحبة وهو للتعمية أيضاً، وقبر ثالث للتعمية أيضاً حفر بجانب مسجد الكوفة. والقبر الرابع حفر في الغري بين ذكوات بيض أربع وهو القبر الذي دفن فيه، وعلم به الإمام الحسن والحسين عليهما السلام ووضعا عليه علامة، والأئمة من بعدهم تناوبوا على تبيان تلك العلامة لأصحابهم. فكان أصحاب أمير المؤمنين والأئمة يأخذون ذلك بالتسالم بعضهم عن بعض.

وكان الهدف من حفر القبور الأربعة واضحاً. فنحن نعرف أن الحكم انتقل من بعده مباشرة إلى الأمويين، والأمويون معروفون بإقدامهم على ارتكاب أي عمل من الأعمال مع خصومهم. وهذا التاريخ واضح بين أيدينا، فقد قتلوا عبد الله بن الزبير في الكعبة أقدس تربة على وجه الأرض، وقد جعلها الله حرماً آمناً، ومع ذلك سلطوا عليها المنجنيقات ورموها وهدموها وأحرقوا أستارها وأجروا الدماء في داخلها. والغريب أن تاريخنا ما يزال يمر بهم ويعتبرهم من الأبطال والرواد، وكأن الإسلام لا يعنيهم من قريب ولا من بعيد. وقد صنعوا ذلك مرتين في الكعبة[١]. فجعلوا الكعبة مجرى للدم، ومرمى تقع عليه المنجنيقات. وأسالوا فيها الدماء وصلبوا فيها ابن الزبير.

أما زيد الشهيد فأخرجوه من القبر وصلبوه أربع سنين حتى عشّشت الفاختة في جوفه، وحتى استرسل جلده على عورته فسترها. فليس

---

(١) انظر ج ٢ ص ٧٠.

عندهم مانع أن يخرجوا جثمان أمير المؤمنين عليه السلام ويصلبوه أو يفعلوا معه ما فعلوا مع غيره فيما بعد.

ولم يكن أمير المؤمنين مبالياً أن هؤلاء سوف يُخرجون جسمه ويمثلون به. إنما الذي يعنيه ألّا تحدث وصمة كهذه في تأريخ الإسلام، وإلّا فإن علياً كان نهباً مشاعاً للرماح والسيوف في طاعة الله. وقد وضع جسمه في حياته ليقطع إرباً إرباً من أجل الإسلام وما عناه ذلك. فما كان يعنيه أن يقطع جسمه بعد الموت.

وقد كان ابن الزبير يقول لأُمه أسماء بنت أبي بكر: أخشى من الأُمويّين أن يمثلوا بي بعد موتي. فقالت له: يا بني، إن الشاة لا يضرّها السلخ بعد الموت. وهذا هو الواقع. فلم يكن علي عليه السلام مهتمّاً أن يأخذوا جسمه فيمثلوا به، لكنه لم يرد أن تحدث هذه المثلبة في حضارة إسلامية، وإلّا فإن جسم علي عليه السلام كان أهون ما عند علي في سبيل الله.

ومن العبث أن نقول: إن علياً عليه السلام يحويه قبر. فإن كلّ المسلمين بالإجماع يقولون: إن النبي لا يبقى بعد موته في قبره أكثر من ثلاثة أيام، ثم يُرفع، والكثير من العلماء يذهب إلى أن الإمام كذلك. وللجمع بين الروايات يقال: إنه يعرج بروحه ويبقى جسمه. فالقبر لا يضم رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا نستطيع أن نلتمسه في حفنة من التراب في قبر مبني من اللبن، ولا نلتمس علياً عليه السلام في حفنة من التراب في قبر كذلك، يقول أحد الشعراء:

فإن قيل هذا قبره قلت أربعوا	أهذا الكيان الضخم يجمعه قبرُ
ولكنه بابٌ إلى معطياته	يعدُّ غِناه من بساحته فَقرُ

فلا يعنينا أن تكون منطقة ما قبراً لعلي، فكم أرادوا أن يسلطوا

التشكيك على مكان القبر، فجاء الخطيب البغدادي ومن بعده كثيرون، وسخّر الأمويون شعراءهم، وادعوا أن نعش علي وضع على بعير وضلّ البعير طريقه. وراح شاعرهم يقول:

فإن يكُ قد ضلّ البعير بحمله ... فما كان مهدياً وما كان هادياً[١]

ولكن انحسرت تلك الافتراءات والأكاذيب والادعاءات، وظل علي عليه السلام أكبر من أن يحويه قبر أو أن يحلّ بقبر. وهو عليه السلام لا يهمه أن يمثل بجسمه وهو يعلم سلفاً أن الجسم يعطى لله، وقد خلّد الله علياً عليه السلام على العصور فلا يضيره جسم تمزق أو تحول إلى تراب.

كانت هذه أُولى وصاياه العهدية التي أوصى بها هذه الليلة.

وصاياه عليه السلام التمليكية

الأولى: أنه عليه السلام أوصى بكتبه وسلاحه ولوائه

وهذه الوصية هي من الوصايا التمليكية، فقد أوصى بكتبه وسلاحه ولوائه، فقد كان عنده لواء مكتوب عليه هذا البيت:

هذا علي والهدى يقوده ... من خير فتيان قريش عوده[٢]

وكان عنده درع صدر لا ظهر لها، مكتوب عليها هذان البيتان:

أي يوميّ من الموت أفِرّ ... يوم لا يُقدَر أم يوم قُدِر

يوم لا يقدر لا أخشى الوغى ... يوم قد قُدّر لا يغني الحذر[٣]

---

(١) انظر الغارات ٢: ٥١٩، شرح نهج البلاغة ٤: ٨٢.
(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٨٧، بحار الأنوار ٤٢: ٦٠.
(٣) مناقب آل أبي طالب ٣: ٨٤، بحار الأنوار ٤٢: ٥٨.

وترك أربعة عشر كتاباً من مؤلفاته وتراثه العلمي وهي: كتاب القضاء، وهو مجموع القضايا التي قضى بها على دكّة القضاء في مسجد الكوفة وغيره. وكتب فيها جماعة من العلماء وما تزال حتى الآن مبثوثة في ثنايا الكتب. وهذه القضايا بعضها انفرد به وبعضها لم ينفرد به. فمما انفرد به مثلاً القضاء بشاهد ويمين إذا عدم الشاهدان.

ومن كتبه أيضاً كتاب الأحكام الفقهية، وهو مجموع الفتاوى التي كان يستفتى فيها ويجيب عليها، وكانت إجابته مباشرة من القرآن. فالفقيه الآن إذا أراد أن يستنبط الحكم يبحث عن الأصل ويستعمل الأدوات الفنية ومجموعة من العلوم، ويناقش الروايات متناً ودلالة وسنداً ثم يدرس الرواية وهل هي معارضة أو ليست معارضة، وغير ذلك من الأدوات الفنية كي يصل إلى الحكم، أما أمير المؤمنين عليه السلام فكانت يده على المنبع مباشرة. فهو يقول: «فتح لي رسول الله ألف باب من العلم ينفتح لي من كلّ باب ألف باب»[١]. وكان رسول الله يقول: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»[٢].

فكان يعطي الجواب مباشرة لأن يده كانت على الحكم بشكل مباشر، وقد أخذ ذلك من رسول الله صلى الله عليه وآله في حياته.

ومن جملة الكتب الأربعة عشر تفسير القرآن، فقد كان أمير المؤمنين عليه السلام إذا نزلت آية يسأل عنها رسول الله صلى الله عليه وآله فيكتبها ويكتب تفسيرها. وتفسير القرآن يطلق عليه كلمة «الوحي»، قال تعالى: ﴿وَلا تَعْجَلْ بِالقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أنْ يُقْضَى إلَيْكَ وَحْيُهُ﴾[٣] أي تفسيره. فقد كان النبي إذا نزلت

---

(١) الخصال: ٥٧٢ / ١، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٣٨٥.

(٢) الخصال: ٥٧٤ / ١، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٢٦، ١٢٧، المعجم الكبير ١١: ٥٥.

(٣) طه: ١١٤.

الآية يأمر الكتّاب أن يكتبوها، ويبين لهم المعنى ثم يسجِّل المعنى. وهذا القرآن الذي جمعه أمير المؤمنين هو الذي يقول عنه الإمام الصادق: إنه «مصحف فاطمة»، وإنه «مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات»، و«ما فيه من قرآنكم شيء»[1]. فهو تفسير للقرآن وليس هو القرآن.

وهذا القرآن هو الذي بدأت الأقلام الرخيصة تتجه إلى القول فيه: إن للشيعة قرآناً يخالف قرآن المسلمين. فأين هو هذا القرآن؟ فهذه آراؤنا وآراء علمائنا صريحةٌ في أن ما بين الدفتين هو القرآن، والذي يقول بالتحريف غيرنا. وبين يديّ دراسة ضخمة لعلّي أوفّق لإنجازها إن شاء الله، وهي تبين بالإحصاء من الذي يقول بتحريف القرآن. إن الذي يقول بالتحريف غيرنا لا نحنُ. وما عندنا إلا آراء شاذة لا يعتمد عليها. أما الآخرون فهم الذين يذهبون إلى التحريف.

وهذا الذي نقول عنه مصحف فاطمة ما هو إلا تفسير القرآن الذي كان يأخذه علي عن الرسول ﷺ ويكتبه، وهذا هو الذي شغله بعد وفاة النبي عن الخروج، فلم يخرج إلا بعد إكمال القرآن. فما كان يترك آية إلّا وقد دوّنها مع شرحها وتفسيرها.

ومن الكتب التي تركها (الجَفر) و(الجامعة) و(صحيفة الدولة). فالجفر جلد جدي مدبوغ مكتوب فيه بعض الملاحم وما سيحدث خلال الزمان. وهذا الجفر هو الذي يشير إليه أبو العلاء المعري:

لقد عجبوا لأهل البيت لما ... أتاهم علمهم في مسك جفرِ
ومرآة المنجّم وهي صغرى ... أرته كلّ عامرة وقفرِ[2]

---

(١) الكافي ١: ٢٣٩ / ١، بحار الأنوار ٢٦: ٣٩ / ٦٩.
(٢) اللزوميات: ٣٥٣.

وكان في هذا الجفر حتى أرش الخدش[١] كما يقول الإمام الصادق عليه السلام. أما (صحيفة الدولة) فكتب بها أحوال بني العباس ودولتهم وما يسبقها وما يجري فيها. وقد أخذ هذه الصحيفة محمد بن الحنفية، طلبها من الحسنين، فأعطوه اياها فدفعها إلى ولده أبي هاشم، ودفعها أبو هاشم إلى أولاد عبد الله بن الحسن. ولما لاحقهم مروان آخر خلفاء بني أُمية دفنوها في الصحراء بين دمشق والمدينة في مكان يسمى الحميمة أو الجميمة من أرض الشراة، ثم بحثوا عنها بعد ذلك فلم يجدوها[٢].

أدلّة كون (نهج البلاغة) له عليه السلام

وهناك مجموعة من الكتب تركها أمير المؤمنين من ضمنها (نهج البلاغة)، وقد صار موضع أخذ ورد. وقد اتبع العلماء في إثبات (نهج البلاغة) لعلي منهجاً من عدة شعب، منها:

الأوّل: منهج الأسلوب الأدبي

وهو منهج يعنى بدراسة الأُسلوب ويقوم عليه، فمن عنده تذوق للأدب وعرضت عليه قطعة شعرية فإنه يعرف لمن؛ للبحتري أو لأبي فراس أو لأبي تمام أو للمتنبي؛ لأنه يأنس بالذوق فيصبح تخصصه. وهذا أشبه بعالم الآثار الذي يؤتى إليه بقطعة حجرية فيعرف أنها من عهد ما قبل التاريخ أو من العصر الأول أو الثاني أو غير ذلك. فمنهج علي منهج متميز له ديباجة وأُسلوب خاص، فإن وضعت قطعة من قطع علي بن أبي طالب إلى جانب القطع الأُخرى تجدها متميزة واضحة. وهذا الأمر يعرفه

(١) الكافي ١: ٢٤١ / ٥، معاني الأخبار: ١٠٢ / ٤.
(٢) بحار الأنوار ٤٢: ١٠٣، شرح نهج البلاغة ٧: ١٤٩.

الأدباء وأهل الفن[١].

الثاني: وجود خطب النهج قبل ولادة الرضي

وهناك منهج آخر هو أنهم فزعوا إلى الروايات التي سبقت الشريف الرضي، فالمتأخرون ادعوا أن (النهج) اخترعه الشريف الرضي ونسبه إلى أمير المؤمنين عليه السلام. لكن الواقع هو أن أسلوب الشريف الرضي معروف وأسلوب علي معروف. ومن ناحية ثانية فإن خطب النهج موجودة قبل أن يولد الرضي بمئة سنة. وهذا ما ينص عليه العلماء.

الثالث: منهج التمحيص

فقد ادعى جماعة أن في (نهج البلاغة) ألفاظاً لم تكن موجودة في زمن علي وإنما هي مستحدثة أيام العباسيين من بعد ما حدثت الترجمة، وذلك مثل كلمة الأزل والحد. فالحد في اللغة هو الفاصل، ومعناه العلمي هو التعريف. فعندما نعرّف الفرس نقول: إنها حيوان صاهل، والإنسان نقول عنه: حيوان ناطق. وهذا لم يكن موجوداً أيام علي حتى يقول: «من حده فقد عده»[٢].

وهذه مغالطة، فإن أمير المؤمنين لم يستخدم لفظة الحد بمعناها الفني، إنما استخدمها بمعناها اللغوي. فمن حده أي من جعل له حداً وأنه جسم جالس على العرش.

وهناك مناهج متعددة استعملت وسلطت على (نهج البلاغة) فدلت على أنه من عطاء علي. يقول أحد الأدباء:

---

(١) وهو ما فعله ابن أبي الحديد. انظر شرح نهج البلاغة ١٠: ١٢٧ ـ ١٢٩.

(٢) نهج البلاغة / الخطبة: ١، ١٥٢.

شـــهد النـــبر أنــه لعــلي ... ربُّ قـولٍ عـليه مـنه دليـلُ

كل فـصل أبـو تـراب بـه يـبـ ... ـدو فتهتز بالهدير الفصولُ

فـ(نهج البلاغة) برونقه وعطائه وديباجته وبهائه هـو مـن عـطاء هـذا الرجل. فكان هذا (النهج) مما تركه من الكتب. ومما ترك من الكتب (جنة الأسماء) وهو الذي شرحه الغزالي. وقد نص عـلى هـذا مـن كـتب فـي معاجم المؤلفين(١).

هذه الكتب أعطاها لولده الحسن عليه السلام بالإضافة إلى اللواء والسيوف التي تركها ومنها ذو الفقار، ومنها حديدةُ هُبَل، وذلك لما صعد عـلى ظـهر الكعبة وأخذ الأصنام فحطمها.

وبالأمس سمعت مذيعاً يذكر فتح مكة ويقول: دخل المسلمون إلى الكعبة فحطموا الأصنام، ولم يذكر لعلي عليه السلام قليلاً ولا كثيراً، ورحمة الله على الإمام أحمد ابن حنبل لما سئل يوماً: ما بال الصحابة كلّهم كأنـهم أخوة وعلي كأنه ابن عَلّة؟ قال: لأن علياً سبقهم سـلماً، وفـاقهم عـلماً، وبزّهم شجاعة فحسدوه(٢).

كان علي عليه السلام في الصلاة فدخل سائل يقول: من منكم يقرض الله قرضاً حسناً، ويتصدق علي؟ فأشار إليه بأنملته، فتناول منه الخاتم وخرج، فلم يبرح الإمام حتى هبط الأمين جبريل يحمل هذه الآية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ

---

(١) انظر كشف الظنون ١: ٦٠٦ ـ ٦٠٧، هدية العارفين ١: ٦٦٧، وشرح جنة الأسماء للغزالي موجود في مكتبة مخطوطات آية الله السيد الگلبايگاني في قم برقم ١ / ش ٩٥٠، ورقم ٢١٣ أيضاً.

(٢) الأمالي (الطوسي): ٦٠٨ ـ ٦٠٩ / ١٢٥٦، بحار الأنوار ٢٩: ٤٨١ / ٣، وفـيهما عـن الخليل بن أحمد الفراهيدي.

﴿وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[١]، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وآله يحمل الآية ويقول: «بشراك يابن أبي طالب لقد أنزل الله فيك قرآناً»[٢]. ثم قرأ عليه الآية. وهذا ما اتّفق عليه جمهور مؤرّخي المسلمين.

الثانية: وصيته بوقف حوائطه

وكان علي عليه السلام يتختم بأربعة خواتم، تصدّق بأحدها وبقيت ثلاثة: واحد من عقيق والثاني من فيروزج وخاتم آخر، وكانت ضمن التركة التي أعطاها للإمام الحسن عليه السلام. ومما تركه من وصاياه التمليكية الحوائط الضخمة (البساتين)؛ لأنه كان يستغل قوّته ويخرج بنفسه يستنبط الماء ويزرع النخل ويفلح الأرض، حتى إذا اكتملت وقفها في سبيل الله. وكان عنده سبع مناطق، منها ينبع وأدينة وديمة وأبو نيزر والبغيبغة والعفرتان، وكلّها كان له فيها نخيل وعيون ماء. وكتب بيده وبخطّه أن يحبس أصلها ويُنفَق واردها في سبيل الله.

وهذه وصية لجهات لا لوجوه، فقد ملكها لله، وكانت هذه البساتين تغل عليه وارداً كبيراً. وقد دفع معاوية في أبي نيزر والبغيبغة الملايين من الدراهم، لكن الإمام الحسين عليه السلام امتنع[٣] وقال: «هذه صدقات أبي، ولا أبيعها». فكانت تنفق كلّها في سبيل الله.

وكان علي عليه السلام ينفقها في حياته ثم يعود إلى سوق الكوفة فينادي: «من

---

(١) المائدة: ٥٥. وانظر: شواهد التنزيل ١: ٢١٧ / ٢٢٥. الجامع لأحكام القرآن ٦: ٢٢١. تفسير القرآن العظيم ٢: ٧٤.

(٢) شواهد التنزيل ٢: ٣٤٧ / ٩٨٩. وأورده في قوله تعالى: ﴿وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ التحريم: ٤.

(٣) معجم البلدان ٤: ١٧٦ ـ البغيبغة.

يشتري مني هذا السيف؟ والله لو كان عندي ثمن إزار ما بعته»[١]:

أيها المالُ ما خدعتَ علياً حسبُه منكَ بُلغةٌ لعشائه

حتى إن أحد هذه الحوائط السبعة كان فيه عبيد ثلاثة من جملتهم أبو نيزر، فأوصى الإمام عليه السلام أن يُعتقوا من بعده شرط أن يبقوا بالحوائط خمس سنين.

الثالثة: وصيته عليه السلام بعتق مماليكه وأُمّهات الأولاد عنده

وأوصى بعتق مماليكه، وكان قد أعتق في حياته ألف مملوك من كدّ يده، ومما كان يعرق به[٢]. ولم يكن يمد يده إلى بيت المال، فكان يصبح عليه الصباح فيأخذ مسحاته، وله معها تاريخ طويل، فيأتي إلى الأرض ويسكب فيها عرقه، ويستصلحها ويبيع أحياناً بعض البساتين ويشتري بها عبيداً يعتقهم لوجه الله. ومن كان عنده وقت الضربة والوفاة أوصى بعتقهم في سبيل الله.

ومن وصاياه في هذه الليلة أنه كان عنده أُمهات أولاد[٣] عددهن سبع عشرة، فأوصى بعتق من لم تكن حاملاً، والحامل تحسب من نصيب ولدها وتعتق بعد ذلك.

أما من النقود فإن راتب علي عليه السلام من بيت المال لم يكن يتميز عن راتب قنبر، ولذا لما جاءه عقيل أخوه يحمل صبيانه وهم جياع، أو كما يقول عنهم أمير المؤمنين: «فرأيت صبيانه شعث الشعور غبر الألوان من فقرهم، كأنما

(١) الغارات ١: ٦٣، مكارم الأخلاق: ١١٤.

(٢) الكافي ٥: ٧٤ / ٢، ٤، ٨: ١٦٣ / ١٧٣، ١٦٥ / ١٧٥، ينابيع المودّة ١: ٤٤٦.

(٣) أُم الولد: الأمة التي يطؤها مولاها فتحمل وتلد منه.

سوّدت وجوههم بالعظلم»[1]، وطالبه بزيادة الراتب، أجابه الإمام عليه السلام بأنه لو كان عنده وفر ما بخل به عليه. وأنه عليه السلام لا يمدّ يده إلىٰ مال المسلمين. ثمّ قال له: «انتظر حتى يخرج عطائي من بيت المال فأعطيك إياه. أو أن تأخذ بيدي إلى سوق الصرّافين حتى أسرق لك». فقال: معاذ الله أن أُكلفك هذا. قال: «فما الفرق في أن أمدّ يدي إلى بيت المال أو أسرق من الناس؟». وانتظر عطاءه، حتى إذا جاء قال لابنه الحسن: «اكسُ عمّك جبة».

فهذا الراتب الذي كان يأخذه أمير المؤمنين عليه السلام كان يقتطع منه قليلاً قليلاً، حتى جمع منه سبعمئة درهم. وهذه كلّ تركته التي ينص عليها كلّ من كتب في تاريخه. وقد جمعها ليشتري بها جارية تساعد أهله في خدمة البيت. فهو عليه السلام ضَمِنَ ما كان خارج البيت من نقل الحطب والماء وجلب الحاجات. وممّا يذكر هنا أن الزهراء عليها السلام نفسها كانت تضمن ما بداخل البيت، فكانت تكنس البيت وترضع الإمام الحسن والحسين عليهما السلام، وتغسل الثياب، وتطحن الحبّ بالرحى، وتطهو الطعام وتقوم بالأعمال البيتيّة. حتى قال المؤرخون: إن يدها مجلت من الرحى[2]. وقد جاءت يوماً إلى النبي صلى الله عليه وآله فقالت له: «يارسول الله روحي فداك، لقد مجلت يداي من الجاروش». وكان رسول الله يعرف ذلك؛ لأنه مر يوماً فوجد علياً وفاطمة يتعاونان على إدارة الجاروش فجلس بينهما يعينهما[3].

وأتذكر هنا عبارة لأحد العلماء يقول فيها: والله لو أُعطيت جزءاً مما كان في هذا الجاروش لكان أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس. هذا

---

(١) نهج البلاغة / الكلام: ٢٢٤.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٢٠، مسند أحمد ٦: ٢٩٨.

(٣) بحار الأنوار ٤٣: ٥١ / ٤٧.

الجاروش الذي كانت تديره فاطمة كان العبّاسيّون وشعراؤهم يعيّرون به فاطمة وأنها مسكينة وأن أباها مسكين زوجها لمسكين مثله، وأنها كانت تطحن الحب بالرحى. وقد تصدّى لهم الحسين بن الحجاج النيلي المدفون عند رجلي الإمام الكاظم عليه السلام، صاحب القصيدة الفائية. ومما قال ردّاً على مروان بن أبي حفصة شاعر البلاط العباسي:

وكان قولك بالزهراءِ فاطمةٍ	قولَ امرىءٍ لَهِجٍ بالنصب مفتونِ
عيرتَها بالرَّحى والحب تطحنه	لا زالَ زادُك حباً غيرَ مطحونِ
وقلتَ إنَّ رسولَ الله زوَّجها	مسكينة بنت مسكينٍ لمسكينِ
وهي التي في غدٍ بالحشر يخدُمُها	أهلُ الجِنان بِحورِ الخُرَّدِ العِينِ[(١)]

فكانت الزهراء تطحن بتلك الرحى.

ودخل عليها الرسول صلى الله عليه وآله يوماً فرأى الإمام الحسين عليه السلام يبكي على صدرها والبيت يحتاج إلى كنس، والملابس تحتاج إلى غسل، وهي تدير الرحى، فقال: «يا فاطمة تعجّلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة»[(٢)]. ثم ذهب واشترى لها جاريتها فضة لتعينها في أُمور البيت.

فكان جميع ما تركه الإمام علي عليه السلام سبعمئة درهم أراد أن يشتري بها جارية تعين أهله على أُمور البيت؛ فقد كانوا يديرون شؤونه بأنفسهم. غير أن الموت أدركه قبل أن يفعل ذلك، فكانت هذه كلّ تركته من الدنيا.

وقد وجدت رواية تقول: إن الإمام أوصى أن تُقسم الدار إلى ثلاثة أقسام، فأي دار هذه؟ أنا لا أعرف داراً لعلي في الكوفة. وهذه يمكن أن

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١١٥.

(٢) التمحيص (الإسكافي): ٦، شواهد التنزيل ٢: ٤٤٥، كنز العمّال ٢: ٤٢٢ / ٣٥٤٧٥.

تكون الحجرة التي كانت في المدينة. والحجرة التي كانت في المدينة لم يقسمها لأنها كانت صغيرة وظل فيها أولاد الحسن. وكان بابها على المسجد، فلما جاء عبد الملك بن مروان أراد أن يوسع المسجد، فقيل له: هذه الدار لعلي بن أبي طالب وفيها ولده. قال: يخرجون منها. فامتنع الحسن أن يخرج حتى ضرب بالسياط، وهدموها وأدخلوها إلى المسجد[1].

فلم يكن لأمير المؤمنين دار، ولا أدري ما هو منشأ هذه الرواية، فعلي لم يملك داراً، ولم يضع حجراً على حجر وهذه عبارة المؤرخين.

هذا كلّ ما تركه علي من الأموال، أما الثياب فلم يترك منها شيئاً، نعم ترك تلك المدرعة التي يقول عنها هارون بن عنترة أحد أصحابه: دخلت عليه في الخورنق والسدير فرأيت عليه سمل قطيفة، فقلت له: إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك في بيت المال حقاً. قال: «إني أكره أن أرزأكم من أموالكم شيئاً، إن الله يعلم أنها القطيفة التي خرجت بها من أهلي في المدينة، وإن خرجت منكم بغيرها فأنا خائن».

تتمّة وصاياه العهدية

الثانية: وصيته بابن ملجم (لع)

أما وصاياه العهدية فهي حفر القبور الأربعة لتضييع القبر كما ذكرنا. والوصيّة الأُخرى أنه قال: «إن عشت فأنا ولي دمي، وإن متّ فاضربوه ضربة بضربة». يعني أنكم أولياء الدم، فإن شئتم قتلتموه وإن شئتم عفوتم عنه.

وأُقسم أن علياً عليه السلام لو عاش بعد تلك الضربة لأطلق سراح ابن ملجم؛

(١) مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٨، بحار الأنوار ٣٩: ٢٩ / ١١.

لأنه ظفر بمن هو أشدّ منه نكاية فعفا عنه، فابن ملجم جرح جسم علي، ولكن هناك أُناس جرحوا الإسلام فظفر بهم علي وأطلق سراحهم[١].

وهذا كان دأبه وديدنه، فهو تلميذ القرآن: ﴿وَلا تَسْتَوِي الحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ﴾[٢]!

وهكذا أوصاهم بعبد الرحمن أن إذا عشت فأنا ولي دمي، وإن قضيت نحبي فلا تمثّلوا به؛ «فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: المثلة حرام ولو بالكلب العقور... اضربوه ضربة بضربة»[٣].

الثالثة: وصيته بلوازم دفنه

ومن وصاياه العهديّة أنه أوصى الإمام الحسن بأن هناك بقايا حنوط من رسول الله هبط به جبرئيل من الجنة، وكان الإمام عليه السلام قد قسم هذا الحنوط خمسة أقسام: فقسم منه حنّط به رسول الله صلى الله عليه وآله، وقسم حنط به الزهراء عليها السلام، وقسم اختص به نفسه، وقال لهم: «ادخروا الباقي لكم».

وأوصاهم أن يحملوا مؤخر السرير فيُكفَوا مُقَدَّمَه.

الرابعة: وصيته عليه السلام بتعاهد المساجد

وأوصاهم ألّا يتركوا مسجد ربهم، وقال لهم: «لا تخلوه ما بقيتم، فإنه إن ترك لم تُناظَروا»[٤]. فالمساجد مجد المسلمين وعزّهم. وأوصاهم بالصلاة عمود الدين. وأوصاهم بصلة الأرحام وأوصاهم بأهل بيت نبيهم، وصحابة جدهم رسول الله صلى الله عليه وآله. إلى غير ذلك من الوصايا المتعدّدة التي

---

(١) كما حصل مع عمرو بن العاص، وبسر بن أرطاة وغيرهم.

(٢) فصّلت: ٣٤.

(٣) انظر نهج البلاغة / الوصية: ٤٧، قرب الاسناد: ١٤٣ / ٥١٥، تاريخ الطبري ٤: ١١٤.

(٤) نهج البلاغة / الوصية: ٤٧.

أوصى بها في هذه الليلة.

لقد ترك علي تركة مادية وقد ذكرناها، وتركة معنوية، فقد ترك على التربة التي دفن فيها بصماتِه، فهذه التربة منذ دفن فيها علي تحولت إلى مدرسة للحكمة والعلم والفكر والقرآن بكلّ أبعاده. وبصماته عليه السلام لا زالت فيها، ومن يعرف تأريخ المدارس الإسلامية كالأزهر والزيتونة يلاحظ بصمات علي واضحة على النجف. فالذي يدرس في النجف يعرف قيمة تراثها العلمي، يقول أحد الشعراء:

أيا صاح هذا مربعٌ في تُرابِهِ لحيدرةٍ جِسمٌ وفي أُفقِه فِكرُ

ثلاثٌ وعشرٌ من قُرونٍ تَصَرَّمت وما زالَ منه فوقَ هذا الثُرى عِطرُ

وأزمنةٌ مَرَّت بكل صُروفِها يَشُدُّ بها زيدٌ ويَدفعُها عَمرو

تَمُرُّ عليه وهي سوداءُ غيمةً فيمشي إليها وهو مُنبَلِجٌ بَدرُ[1]

نعم، هذا تراب أمير المؤمنين عليه السلام، مأوى أرواح المؤمنين، ومحراب الفكر، ومركز العبادة، وهذه بصمات علي عليه السلام على هذا التراب الذي يودّ العلماء أن يحصلوا على شبر منه ليضطجعوا فيه، كتب النراقي إلى معاصره السيد مهدي بحر العلوم:

ألا قُل لسكان أرضِ الغري لقد فُزتمُ بجِنانِ الخلودْ

أفيضُوا علينا من الماء أو فنحنُ عُطاشى وأنتم ورودْ[2]

هذا التراب المقدس الذي يعبر عنه عبد الباقي العمري بقوله:

إذا نحن زرناها وجدنا نسيمها يفوح لنا كالعَنبر المتنفِّسِ

(١) ديوان المحاضر ١: ٢٤١.

(٢) الفوائد الرجالية ١: ٧٤ / مقدمة المحقق.

ونمشي حفاةً في ثراها تقدُّساً   نَرى أننا نمشي بوادٍ مُقدسِ(١)

وهذا من تراثه عليه السلام المعنوي والنفسي، والمسلمون يعتقدون ببقاء النفس الناطقة، وكذلك اليونانيون، فكانوا إذا أعضلت عليهم مشكلة جلسوا إلى قبور حكمائهم يستجلونها. فمدفن علي عليه السلام محراب فكر.

الإمام عليه السلام عنوان الأحرار

وممّا ترك علي عليه السلام دماءه ودماء الشهداء من أبنائه ألوية ترفرف للأحرار على مدى الزمان، ورحم الله أبا العلاء المعري حيث يقول:

وعلى الدهر من دماء الشهيـ   ـدين علي ونجلِه شاهدانِ
فهما في أواخر الليل فجرا   ن وفي أولياتِهِ شَفَقانِ
ثَبتَا في قميصه ليجيء الـ   ـحشر مستعدياً إلى الرحمنِ(٢)

نعم ترك دماءه الطاهرة ودماء أبنائه ألوية على طريق الشهادة والشهداء تشير للأجيال أن الدم الحرّ هو الذي ينير الطريق وحده. فكلّما احتاج الزمان إلى لواء استجلى بعض تلك الألوية التي تركها علي من دمائه ودماء أبنائه:

وتركتَ للأحرار حين يلُزُّهم   عَنَتُ السُّرى ويضيقُ فيه المَهرَبُ
جُثَثَ الضحايا من بنيك تُريهمُ   أنَّ الحقوقَ بمثل ذلك تُطلبُ

فعلي عليه السلام أبو الشهداء والأحرار، وهو مفترِع طريق الشهادة، وهو من ترك الدم لواءً يرفرف خفّاقاً على طريق الحرية.. ترك جلال المصرع في

---

(١) لم نعثر عليهما لعبد الباقي العمري، بل هما للبهاء زهير في ديوانه: ١٧٧.
(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢١٣، درر السمط: ٩٣.

محرابه، وصورة يختزنها الفكر إذا دخل إلى مسجد الكوفة وواجه محرابه وكأنه يرى البيت:

يا قاتليه وهو في محرابه قتلتم الصلاةَ في محرابها

نعم، سقط في المحراب والصلاة بين شفتيه، ولسانه وقلبه عامران بذكر الله، فترك جلال المصرع في هذا المكان. وماذا ترك علي بعد؟ ترك لوعة في قلوب شيعته، ودمعة حرّىٰ في عيونهم:

أرقُّ من دمعةِ شيعيةٍ تبكي عليَّ بنَ أبي طالبِ(١)

كل هذا تركه علي في مثل هذه الليلة وقد اجتمع حوله أولاده وأصحابه وأهل بيته، وكان عليه السلام هذه الليلة يتلفت يميناً وشمالاً، يقول له الحسن: أبه، «ما لي أراك تتلفّت؟». فيقول له: «بني، هذا جدّك رسول الله، وهذا عمّي حمزة، وهذا أخي جعفر، ورسول الله يقول لي: إنك صائر إلينا عن قريب».

فلما سمعت بناته صوته تعالى بكاؤهن ونشيجهن وارتفعت أصواتهن بالنحيب، فقال أمير المؤمنين: «مهلاً لا تؤذوا إمامكم ببكائكم».

ودخل عليه ذلك اليوم مجموعة من أصحابه منهم الأُصبغ، يقول الأُصبغ: نظرت إلى وجهه مصفراً وقد عصبوه بعصابة صفراء، والله ما أدري أوجهه أشدّ اصفراراً أم العصابة، فلما وقع بصري عليه انتحبت باكياً، فقال لي: «يا أصبغ لا تبكِ، إنها والله الجنة». قلت: سيدي أنا أعلم أنها الجنة ولكن أبكي لفراقك يا أمير المؤمنين. فهدأ أمير المؤمنين قليلاً، ثم رفع رأسه إليهم، قال: «بالأمس أنا صاحبكم، واليوم أنا عبرة لكم، وغداً أنا

---

(١) مجمع الأمثال ١: ٣١٦ / ١٧١٢.

مفارقكم». فلما سمعت النساء ذلك علت أصواتهن بالبكاء[1]:

يــبويه عــلينه مــجبل العـيد　　　أعــلل ايــتامك بــالمواعــيد

واكـولـن ذخـرنـا بلچـن يعـيـد

فلما اشتدّت عليه الحالة أخذ أصحابه يتبرّكون بالدنوّ منه والسلام، فصاح الإمام الحسن: «خفّفوا على إمامكم؛ فقد احمرّت قدماه، واشتدّ عليه الألم، وثقل جفناه». فأطرق الإمام برأسه على صدر ولده الحسن، وهو يمسح ما تلاصق بجبينه من العرق، حتى إذا اشتدّت حالته سجّاه الإمام الحسن عليه السلام إلى القبلة، وأسبل يديه ورجليه، وغمض عينيه، وقضى نحبه.

---

(١) الأنوار العلوية: ٣٨٢.

﴿ ٢١ ﴾

دار السـلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: معنىٰ السلام وأقسامه

سُميت الدار بهذا الاسم لأن سورها يدور علىٰ الإنسان، وهي تعني المكان الذي يسكنه متّخذه. والقرآن الكريم يعبّر عن الجنّة بأنها دار السلام؛ للتفرقة بينها وبين الدنيا، فلماذا ينعتها الله تعالىٰ بهذا الوصف؟

لا شك أن هناك سلاماً في داخل النفس، وآخر في محيط الأُسرة، وثالثاً في المجتمع، وهذه الثلاثة مهدّدة في دار الدنيا، ولكنها في الآخرة موجودة.

سلام النفس

فالسلام في داخل النفس مهدّد في الدنيا بالصراعات الداخلية، ومن

---

(١) الأنعام: ١٢٧.

النادر أن تجد في الدنيا نفساً ليس فيها صراع داخلي، فهناك مثلاً صراع بين الغرائز والعقل، فالعقل يريد شيئاً والغرائز تريد أشياء أُخرىٰ، فتجد الإنسان ممزّقاً بين عقله وغرائزه، وتائهاً بين غلبة العقل وغلبة الغـريزة، وهو بالتالي سيعيش معذّباً في هذا الجوّ من الصراع.

وقد يكون الصراع أحياناً صراعاً وهمياً كالصراع الناشب عن الحسد، فالإنسان يحسد أخاه لأنه موهوب مثلاً، أو أن الله أنعم عليه بنعمة، فهناك من النفوس من تتمنّىٰ لو أن هذا الإنسان يحترق، وإن كان هناك من النفوس الكبيرة من يقول: إن الله أنعم علىٰ هذا بنعمة وعسىٰ الله أن يزيده ويعطيني مثله. فهذه نفس سليمة تحبّ الخير للدنيا كلّها، وتلك سقيمة عليلة موبوءة. فهناك بعض الناس من يتمنّىٰ أن يحرق غيره لا لشيء إلّا لأنه محروم ممّا حبا الله ذلك الشخص إياه.

كان النبي ﷺ جالساً بين أصحابه يوماً فقال لهم ﷺ: «سيدخل عليكم رجل من أهل الجنّة». فدخل أحد الأنصار يحمل نعله بيديه ووضوؤه ينطف، وفي اليوم -التالي كرر النبي ﷺ الفعل ذاته، فدخل الرجل نفسه، وفي اليوم الثالث تكرر الفعل أيضاً. فلما خرج الرجل تبعه عبد الله بن عمر بن الخطاب فقال له: لي إليك حاجة. قال: هات. قال: إن بيني وبين أبي برودة، وأُريد أن أحلّ عليك ضيفاً. قال: علىٰ الرحب والسعة. فذهب معه إلىٰ البيت، وراح يراقب هذا الأنصاري ليرىٰ نوع العمل الذي استحقّ به هذه المنقبة؟ فرآه يؤدّي الواجبات فقط، وعند الليل ينام علىٰ وضوء، وإذا تقلّب في نومه ذكر الله.

فلمّا أصبح الصباح سأله عبد الله عن السبب الذي استحقّ به هذه المنقبة وهو علىٰ هذه الحال الاعتياديّة من العبادة، فقال الرجل: ما هو إلّا

ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشّاً ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إيّاه. فقال عبد الله: هذه التي بلغت بك وهي التي لانطيق فتمسّك بها[١]. فهو يقول له: ما حملت لعبد أعطاه الله خيراً إلّا خيراً في نفسي، فلا أحمل حقداً عليه، فإذا رأيت أحداً أعطاه الله خيراً قلت: زاده الله خيراً.

نعم، هناك من الناس من يحمل في نفسه ناراً تلتهب، خصوصاً إذا كان فاشلاً أو دجّالاً، فهو يتمنّىٰ أن يحرق الدنيا علىٰ أهلها، لا لشيء إلّا لأنه فاشل والآخرون ناجحون، أو أن الآخرين صادقون وهو دجّال لم يستطع أن يصل بطريق دَجَلِه إلى ما وصلوا إليه. وهؤلاء بلاء ونكسة علىٰ الإنسانية، أما النفس الكبيرة فهي مطمئنّة إلىٰ ما عند الله، راضية بما حكم الله: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾[٢]. وهي النفس التي تعيش بسلام دائماً، أما النفس التي تعيش في حرب مستمرّة فهي النفس التي تحمل الحقد والحسد ولا تحبّ الخير لأحد، فهي في حرب داخلية دائمة. وهذه النفس يعالجها القرآن عند دخولها إلىٰ الجنة بقوله تعالىٰ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾[٣]. فهذه النفوس تدخل الجنة بعد عملية غسيل من نوع خاصّ، فهي تدخل الجنة خالية من الحقد والحسد.. تدخل وهي صافية تحمل الخير للناس.

سلام الأسرة

ولدينا في الدنيا أيضاً موضوع السلام في محيط الأُسرة، وهو قليل

---

(١) مجمع الزوائد ٨: ٧٨.
(٢) الفجر: ٢٧ _ ٢٨.
(٣) الأعراف: ٤٣.

خصوصاً عند بعض الآباء الجهّال، فتجد الأب يفضّل ولداً علىٰ آخر دون سبب للتفضيل، فتارة يكون أحد الأولاد مستقيماً والآخر منحرفاً؛ فيكون التفضيل هنا قائماً على أساس أن المستقيم مقدّم علىٰ المنحرف، فيشعر هذا المنحرف في قرارة نفسه أن أخاه إنما فُضل عليه لاستقامته، فيدرك المبرّر ولا ينشأ عنده الحقد. أمّا إذا كان الأمر علىٰ خلاف هذا، وكان هناك من يعامل أحد الأولاد معاملة جيّدة لأن أُمّه محبوبة، ويعامل الآخر بعكسه؛ لأن أُمّه ليست كذلك. وهذا يخلق جوّاً من الحرب داخل الأُسرة، ولا يكون التفاعل داخلها تفاعلاً سليماً، في حين أنه يُفترض أن يكون التفاعل سليماً. نقل عن النعمان بن بشير أنه قال: سألت أُمّي أبي بعض الموهبة لي من ماله، ثم بدا له فوهبها لي فقالت: لا أرضى حتى تشهد النبي ﷺ. فأخذ بيدي وأنا غلام فأتى بي النبي ﷺ، فقال: إن أُمّه بنت رواحة سألتني بعض الموهبة لهذا. قال ﷺ «ألك ولد سواه؟». قال: نعم. قال: «لا تشهدني على جور».

وفي رواية: «ألك بنون سواه؟». قال: نعم. قال ﷺ: «فكلّهم أعطيت مثل هذا؟». قال: لا. قال: «فلا أشهد على جور».[1].

فالحرب داخل الأُسرة موجودة بين الزوج وزوجه، فمثلاً قال تعالىٰ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[2] فإن كان لدىٰ الإنسان من الإمكانيّة الماليّة ما يمكن أن يوفّر بها العدل بين النساء ويسدّ الحاجة، وكان عنده الموجِب للتعدّد، فبها ونعمت، وإلّا فإن أظافر الحرب سوف تنشب داخل الأُسرة لا محالة.

---

(١) جامع المقاصد ٩: ١٧١، مسند أحمد ٤: ٢٦٨، صحيح البخاري ٣: ١٥١.

(٢) النساء: ٣.

وهناك البعض ممّن تحدث له خارج بيته مشاكل تجاريّة أو وظيفيّة، فيدخل البيتَ ويصبّ جمّ غضبه علىٰ أولاده وعياله، وقد ورد في المأثور أن أكثر عذاب القبر من سوء الخلق مع العيال[1]. فالإنسان عندما يدخل علىٰ عياله فعليه أن يحمل لهم الثغر الباسم، والروح الكريمة. فهؤلاء أشبه بالأسرىٰ عنده، وهو في نظرهم عمد البيت، فينبغي أن يحمل الطمأنينة والروح الطيّبة إليهم وهو يدخل إلىٰ البيت. ولذلك كان النبي صلى الله عليه وآله يقول: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم؛ لأني خيركم لأهلي»[2]. والثابت أنه صلى الله عليه وآله كان في منتهىٰ الخلق الكريم مع عياله.

إذن هذا السلام في محيط الأُسرة متوفّر في الجنّة، فليس في الجنة ما يوجب سوء الخلق، إذ ليس فيها موجبات خطأ أو مسبّبات للصراع والألم، ولذا فهي مؤسّسة للسلام.

سلام المجتمع

ولدينا في الدنيا حروب علىٰ مستوىً أوسع، تأكل الأخضر واليابس، وهي الحرب بين الإنسان والإنسان، وتترتّب علىٰ هذه الحروب مشاكل كبرىٰ. حدث يوماً أنَّ قبيلة أغارت علىٰ قبيلة قيس بن عاصم المنقري فأخذت منها سبايا، وبعد مدّة تصالحت القبيلتان واتّفقتا علىٰ رد السبايا، فأرجعت السبايا جميعها، إلّا امرأة واحدة هي ابنة قيس بن عاصم المنقري، فقد تزوّجت بالرجل الذي سباها، فحلف قيس ألّا تأتيه بنت إلّا ويئدَها، فقلّدته قبيلته في هذا الفعل، ثم قلّدتهم قبائل أُخرىٰ في هذا

---

(١) قريب منه في الاعتقادات: ٥٩.

(٢) الفقيه ٣: ٥٥٥ / ٤٩٠٨، سنن ابن ماجة ١: ٦٣٣ / ١٩٧٧.

الفعل. فكان الرجل ينتظر امرأته ساعة المخاض، فإن كان المولود أنثىٰ ألقاها في التراب وأهاله عليها[١]. فالقرآن يسألهم: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾[٢].

ثم تطوّر القتل إلىٰ قتل كلّ حقّ للمرأة، فهي تُقتل بمختلف الوسائل، وحتّى أوروبا التي تتشدّق بالدفاع عن حقوق المرأة فإن كلّ حقوق المرأة تقتل فيها. فنحن عندما ندرس أن هناك حوالي خمسة وعشرين فَرقاً نفسيّاً وجسديّاً بين الرجل والمرأة نفهم أن هذا يعني أن المرأة تصلح لأعمال معيّنة تتناسب مع فطرتها وأُنوثتها. فلو كنّا حريصين حقّاً علىٰ حقوقها لأعطيناها العمل الذي يتناسب مع فطرتها مع الإبقاء علىٰ الأُجور كما هي، ولكن انظر الآن إلىٰ أوروبا الغربيّة والشرقيّة فهل تجد أن المرأة تأخذ ذات الحقوق التي يأخذها الرجل؟ كلا، وإنما تعطىٰ فقط إجازة معيّنة في أيّام النفاس. وهذا في العمل ذي الأُجور اليوميّة، أمّا إذا كان العمل عمل «القطعة» ـ أي العمل الذي تعطىٰ أُجوره علىٰ ما ينتج الإنسان من القطع الصناعيّة ـ فهذا العمل إذا قصّرت به المرأة فهي تعطىٰ حسب عملها.

فلو كانت هناك رحمة وشفقة لأُعطيت المرأة الحقوق والأُجور نفسها التي يأخذها الرجل، مع الأخذ بعين الاعتبار أنها امرأة تتعرّض إلىٰ أُمور قهريّة خارجة عن إرادتها من حمل ونفاس وولادة.

وإلىٰ حد قريب لم يكن في أوروبا للمرأة ذمّة مالية مستقلّة، بمعنىٰ أنها ليس لها حساب مالي خاص بها، ولو أنها تزوّجت فليس لها الحقّ حتىٰ

---

(١) مجمع البيان ٤: ١٧١.
(٢) التكوير: ٨ ـ ٩.

أن تتسمّىٰ باسم أبيها، وإنما تصبح كالظلّ للرجل. أما في الشريعة الإسلامية فهي تحمل حقوق المرأة كاملة مذ تولد[١].

إذن لدينا في الدنيا حرب علىٰ مستوىٰ النفس، وحرب علىٰ مستوىٰ الأُسرة، وحرب علىٰ مستوىٰ الخارج أو المجتمع، فالدنيا دار حرب وليست بدار سلام. وهناك حرب أيضاً مع النفس والجسد، فالجراثيم تطارد الإنسان وتريد أن تفترسه، والجسد بهذا معرّض للمرض والآفات. فعلىٰ الإنسان دوماً أن يتوقّىٰ من الحرّ ومن البرد، والجراثيم والعدوىٰ. فالمستشفيات مثلاً تمثّل دار الحرب بين الجسد من جهة وبين الجراثيم والأمراض من جهة أخرىٰ.

أما الحرب مع النفس فهي أن النفس المطمئنة تنهىٰ الجسد عن ارتكاب الخطيئة، وهو يجنح نحو ارتكابها. وهذه الظاهرة يسجّلها بعض الأُدباء حيث يقول:

ربي روحي طليقةٌ في مُناجا ... تِكَ والجسمُ مُصفَدٌ مَكبُولُ
بَعُدَ الفرقُ بينَ رُوحي وَجِسمي ... جَسَدي آثِمٌ وَرُوحي بَتُولُ
وَأنَا السَّائِلُ المُلِحُّ وَيجلُو ... وَحشَةَ الذُّلِّ أنَّكَ المَسؤولُ

فهذا صراع بين الروح والجسد. وقد تستغرب هذه الثنائيّة التي تراها في القرآن الكريم، فهو يقول مثلاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ﴾[٢]، فتقول: ما معنىٰ أن يقي الإنسان نفسه؟ فهل

---

(١) لمزيد من المعلومات حول هذا انظر المحاضرات: (الإسلام والمرأة) و(حقوق المرأة) و(المرأة بين الحقوق والواجبات)، و(وراثة النساء)، في الجزء الأوّل من موسوعتنا هذه.

(٢) التحريم: ٦.

هما اثنان؛ هو واحد ونفسه ثانية؟ هذا هو الصراع بين الضمير والغرائز.

المبحث الثاني: الشعور بالفوت

وفي الدنيا أيضاً هناك الشعور بالفوت، وهو ألعن شيء فيها، فلو أنني بنيت قصراً جميلاً فيها، وأنفقت عليه الكثير، فأنا لا أدري هل يهبط عليَّ ملك الموت وأنا داخل إليه أو يلقاني وأنا خارج منه؟ وهذا الشعور بالفوت من ألعن آلام الدنيا. وكذلك مع الذهب والأموال، فأنا أجمعها ولا أدري هل يصبح عليّ الصباح وهي بيدي أو بيد غيري، وهل أنها ستقع بيد من يُعِيرُني بعض الأهمية أو بيد من يهملني:

كأنّي بأحبابي على حافتي قبرِ	يُهيلونه فوقي وأدمُعُهُم تُذري
ألا أيُّها المُذري عَليَّ دُمُوعَه	ستُعرِضُ في يومين عنّي وعن ذِكري
عفا الله عنّي يَومَ أُترَكُ ثاوياً	أزارُ فلا أدري وأُجفَى فلا أدري

وكل هذه الحرب لا تجدها في الجنة أبداً، ولذا يقول القرآن: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلامِ﴾، فهي دار خالية من الحقد والحسد والآلام والآفات، لا تجد فيها إلّا الإنسان الكريم الذي تفرح بصحبته.

ماهية العنديّة في قوله تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾

ثم انتقلت الآية فقالت: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، وهذه العنديّة لا يمكن حملها على العنديّة المكانيّة، كما نقول: جاء فلان من عند فلان. فهذه العنديّة المكانيّة لا تصحّ على الله هنا؛ لأن الناس في الدنيا والآخرة هم عند الله، فهو تعالى لا يخلو منه مكان، بل المقصود بالعنديّة هنا: الالتزام، كمن يطلب من أحد دَيناً، ويطالبه بشخص ضامن، فيقول الضامن: دَين فلان عندي. بمعنى أنه ضامن له، وملتزم بما عليه من دين.

وهذا الوعد هو المعنيُّ هنا، أي بضمان الله تعالىٰ، وهو إذا وعد وفىٰ، ولكن يا للأسف! يعدنا الله وليس لنا ثقة بما عنده، يقول تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[١]، ولكننا لا نشعر أنها لهو ولعب، ويقول: ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الغَرُورُ﴾[٢]، لكننا نترك للغَرور أنفسنا. فهو تعالى يعد، ونحن نعلم صدق وعوده لكننا يا للأسف لا نرتّب عليها أثراً.

والسبب في ذلك أن عندنا ظِلالاً باهتة من الإيمان، وليس عندنا الإيمان الذي يأخذ العمق الكافي، ذلك العمق الذي كان في زمن النبي ﷺ حينما نزل قوله تعالىٰ: ﴿لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٣] فقام له رجل من الأنصار يدعىٰ أبا طلحة فقال له: يا رسول الله روحي فداك، لدي أحسن ضيعة، وهي بيرحاء[٤] كنت ادّخرتها لنفسي، وأنا أُشهدك أنها صدقة في سبيل الله. فقال النبي ﷺ: «بخ بخ ذلك مال رابح»[٥].

في حين أن بعض الصحابة كان عندما يريد أن يُخرج الزكاة من تمره فإنه يُخرج التمر الرديء والحشف، وقد رأىٰ النبي ﷺ ذلك بعينه يوماً، فأخذ بيده حفنة من التمر والتفت إلىٰ المجتمع فقال ﷺ: «هل يقدم هذا الرجل مثل هذا التمر لأمه وأبيه لو أرادا أن يأكلا؟». قالوا: لا يا رسول الله.

---

(١) محمد: ٣٦، الحديد: ٢٠. (٢) لقمان: ٣٣، فاطر: ٥.

(٣) آل عمران: ٩٢.

(٤) بيرحا ـ بفتح أوله والراء، على وزن خَيزَلىٰ ـ ويقال: بئرحاء ـ مضاف إليه ممدود ـ ويقال: بيرحاء، وفي رواية مسلم: بريحا، وفي رواية أبي داود: باريحا. وهذا كله يدل على أنها ليست ببئر، وقيل: هي أرض لأبي طلحة، وقيل: هي موضع بقرب المسجد بالمدينة يعرف بقصر بني جديلة. معجم البلدان ١: ٥٢٤ ـ بيرحا.

(٥) مسند أحمد ٣: ١٤١، صحيح ابن حبّان ٨: ١٢٩ ـ ١٣٠، ١٦: ١٤٩ ـ ١٥١، تفسير القرآن العظيم ١: ٣٨٩.

فقال ﷺ: «فلم يقدّم هذا للمسلمين؟ أوليس المسلم أخو المسلم؟»[١].

انظر إلينا الآن، فستجد بيننا من يأكل ويتنعّم ويلبس، وعنده أب أو أمّ لا يجدون حتّىٰ رغيف الخبز، ففي هذه السنة دعاني أحد الأصدقاء في دُبي لزيارة والده ـ فقد كان أبوه كبير السنّ لا يستطيع أن يأتي إليَّ وفي نفسه الرغبة في أن يراني ـ فلبّيت الدعوة وذهبت، فوجدت أباه يسكن في بيت متواضع خالٍ من التبريد وكأنه في فرن، وعندما خرجت وبّخت هذا الصديق علىٰ تقصيره مع أبيه. فالابن يسكن في بيت فاخر، والأب في بيت بسيط خالٍ من التبريد!

المبحث الثالث: مناسبة ﴿دَارُ السَّلامِ﴾ و ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾

وفي القرآن من الالتفاتات والأسرار ما لا يعرفها إلّا صاحب الخلفيّة القرآنية، ومن هذه قوله تعالىٰ: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، ولم يقل: «عند الله» فهناك فرق بين التعبيرين، واللغة العربيّة ليس فيها مترادفات بالمعنى الدقّي أبداً، فالسيف يسمىٰ البتّار والصمصام والقاطع وهي أسماء تطلق علىٰ السيف ولكنها تختلف بعضها عن البعض الآخر فالقاطع صفة للسيف، والبتّار أمضىٰ من القاطع، وهكذا. وكذلك في أسماء الله، فهي ليست مترادفة وإنما يوجد فيها نوع تفاوت، فالربّ غير الخالق مثلاً، والربّ في هذه الآية يعطي معنىٰ التربية، أي أن دار السلام هي للمتربّي الذي نزع من قلبه الحقد، ولمن يحمل الخير في نفسه.

ثم قالت الآية: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾، والولي هو الذي يدفع الشرّ ويأتي بالخير،

---

(١) قريب منه في جامع البيان، المجلد ٢، ج ٣: ١١٧، الدر المنثور ١: ٣٤٦، ولم ينسباه إلىٰ الرسول ﷺ.

كولي اليتيم الذي يسدّد الطفل ويوجّهه، ويدفع عنه الشرّ ويجلب له الخير، ويقرّبه إلىٰ البرّ والصلاح. والإنسان كلّه ضعف وقصور، وهو قاصر وتافه وإن كان مليئاً بالغرور، وقد يتحوّل في لحظة ما إلىٰ تافه، وقد يبيع كلّ مقدّساته وكرامته بشيء من الذهب. فهو ضعيف يعصي الله من أجل رغيف، ولا تجد إلّا القليل ممّن يحمل الروح السامية والكرامة والخلق الرفيعين، فأنت تجد من يقول:

وأظمأُ إن أبدىٰ لي الماءُ مِنَّةً	ولو كان لي نَهرُ المَجَرَّة مَورِداً
ولو مَدَّ نحوي حادثُ الدَّهرِ كَفَّهُ	لَحَدَّثتْ نَفسي أنْ أمُدَّ له يَداً

ولكنك تأتي إليه فلا تجده حقّاً هكذا، فهو في وادٍ والواقع في وادٍ. فالإنسان مِلاكه الضعف، ولا يدفع عنه الضعف إلّا الله، وهو المتفضّل علىٰ عباده. ولو تضافر العلم علىٰ إعادة ضوء إلىٰ عين فقدت البصر مثلاً لما استطاع إلّا بإذنه؛ ولذا تجد النفوس الكبيرة تتّجه إلىٰ الله تعالىٰ في كلّ حال:

وما ثَمَّ إلا اللهُ في كُلِّ حَالَةٍ	فلا تَتَّكِل يَوماً علىٰ غَيرِ لُطفِهِ

وأُشير هنا إلىٰ أن التصوّف يمثّل قمّة الثقة غير المحدودة بالله، والتي تمثّل روح الإنسانيّة لولا وجود بعض الجوانب السلبيّة فيه. والنفوس الكبيرة لا تعرف الشكوىٰ أبداً، وأية مصيبة تحلّ فيها تراها يتّسع صدرها لها وتقابلها بمنتهىٰ رحابة الصدر، وفي طليعة هؤلاء أهل البيتﷺ الذين جُبلوا علىٰ الصبر عند المصائب. ويا لها من ليلة تلك التي مرّت علىٰ الحوراء زينبﷺ ومجموعة السبايا معها، فقد كانت الأجساد علىٰ الرمال ولمّا تدفن بعد، وهي تسأل الإمام السجادﷺ: لا يزال أبوك علىٰ

الرمضاء؟ والإمام السجاد عليه السلام يغالب دمعة تريد أن تنحدر من بين عينيه.

نعم كانت هي والسبايا في مثل هذه الليلة في خربة الكوفة، وقد نادت إحدىٰ جواريها فقالت لها: قفي علىٰ باب الخربة ولا تسمحي لأية امرأة أن تدخل عليَّ إلىٰ الخربة. فهي كانت ابنة الحاكم العام في هذه المدينة، فكيف تُدخل إليها وهي في هذه الحالة؟ ولسان حالها: ليست بي طاقة علىٰ الشماتة. وكانت تفرغ كلّ ألمها في الليل عند رأس الحسين عليه السلام .. تبثّ ألمها لمن عاشت معه دهراً ..إلىٰ الخدّ الذي أشبعه رسول الله لثماً وتقبيلاً:

ما يرضه الكلب ينسه	ولا ترضه العيون تنامْ
ولا طيفك يفاركني	ولا تنسّيني الأيّامْ
واللي زوّده النوحي	نوح اطفالك الأيتامْ

تقوم إلىٰ الرأس وتسكب ما يعتمل في صدرها من عواطف عنده، وتذكّره بزمن مضىٰ لها معه:

يا ثدي الرضعت وياه	الخوّه من ثدايه أمّي
ويا وجه العلىٰ ملكاه	يزول وينجلي همّي
ويا جسم الذي بِرداه	ريحة والدي وعمّي

﴿٢٢﴾

بين الوادي المقدّس والغري

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَامُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

توطئة

تتناول هذه الآية الكريمة مسير النبي موسى عليه السلام بأهله في وقت كان شاتياً شديد البرودة، وكذلك تتناول قضية الوحي والنبوّة إليه عليه السلام. وهذا هو النداء الأول الذي نودي به نبي الله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام حينما كان عائداً من مدين إلى مصر، وكما قلنا فإن الجو كان شاتياً قاسياً شديد البرودة، وكانت أهله في حالة طلق، ولذا فإنه عليه السلام راح يلتمس لها ناراً للتدفئة. وأثناء بحثه تراءت له نارٌ من بعيد، فخفَّ إليها ليقتبس منها قبساً لأهله يدفّئهم به، لكنه حينما اقترب من النار سمع صوت الله جل وعلا

---

(١) طه: ١١ ـ ١٣.

يخاطبه بآية المقام.

فالآية الكريمة تدور في هذا الإطار، وهي تحتوي على مضامين عدّة سوف أعرض لها إن شاء الله تعالى كلّ مضمونٍ في مبحث مستقل:

المبحث الأول: وجه استعمال كلمة ﴿نُوْدِيَ﴾

تقول الآية الكريمة: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ﴾ وفي هذا المقطع الشريف من الآية الكريمة نكتتان ينبغي التنبيه إليهما، وهما:

النكتة الأولى: وجه استعمال كلمة ﴿نُودِيَ﴾ مع أنها للبعيد

فأول ما يُلفت النظر في هذا التعبير القرآني الشريف هو كلمة ﴿نُودِيَ﴾؛ ذلك أن مدلول هذه الكلمة يُستعمل للمنادى البعيد، في حين أن النبي موسى عليه السلام كان قريباً من الله جل وعلا بنوعين من القرب، هما:

الأول: القرب المعنوي. فالنبي موسى عليه السلام كان في كنف الله تبارك وتعالى ورعايته، وتحت عينه وكلاءته.

الثاني: القرب المكاني. فهو عليه السلام كان إلى جانب النار التي خرج منها صوت الخطاب المقدّس إليه، أي قريباً منها.

وبناء عليه ما هو الوجه في اللجوء إلى كلمة ﴿نُودِيَ﴾، وهي لمن يُكلَّم أو يخاطَب من بعيد؟ وما هو وجه البعد الذي وُضعت له كلمة النداء المشار إليها؟

الظاهر من بعض الآراء أن وجه البعد هو بين المنزلتين؛ منزلة الإله، ومنزلة العبد. فمنزلة العبودية فيها بُعد واسع وبون شاسع عن منزلة الأُلوهية التي لا يمكن أن يرقى إليها شيء. وهذا هو المعنى الذي أراد القرآن الكريم التنبيه إليه بهذه الإشارة اللطيفة. وإلّا في واقع الأمر أن

النبي موسى عليه السلام لم يكن ببعيد عن الله جل وعلا في لحظة من لحظات حياته.

النكتة الثانية: جذبة صوفية حول الآية الكريمة

وهي عدم التذاذ النبي موسى عليه السلام بصوت غير صوت النداء المقدّس، يقول بعض المفسّرين: إن النبي موسى عليه السلام بعد أن سمع ذلك النداء الإلهي المقدّس وهو عند النار المقدّسة وفي ذلك الوادي المقدس لم يعد يلذّ له سماع أي صوت آخر غير ذلك الصوت؛ فالنغمة التي وصلته عبر ذلك الصوت ـ وهو صوت الحق ـ جعلته لا يستأنس ولا يلتذّ بأي صوت آخر سواه. ولعل في هذا الأمر جذبة من جذبات الصوفية. وتحديد هذه الجذبة ربما يكون من المفسّرين أنفسهم، وربما يكون لها واقع موضوعي. لكن على أية حال مهما يكن الأمر فإن ذلك الصوت حتماً له وقْع لا يمكن أن يكون إلا من صوت الحق، ولا يمكن لصوت آخر غيره أن يكون له ذلك الوقع نفسه.

المبحث الثاني: في معنى الربوبيّة

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿يَامُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾، وهنا يتساءل البعض عن وجه التأكيد في قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا﴾، فكان من الممكن أن يُكتفى بالقول: أنا ربك، أو: إني ربك دون الجمع بينهما. إذن فلابدّ من وجود أمر أو نكتة ينبغي الالتفات إليها في هذا التعبير القرآني الشريف، وهنا نقطتان يذكرهما المفسّرون سبباً لهذا النداء الذي نودي به كليم الله عليه السلام، هما:

النقطة الأولى: التأكيد على أنّ هذا الخطاب من الله جل وعلا

ذلك أن النبي موسى عليه السلام لم يكن ليدور في خلده أو ليظن أن صوت السماء سوف ينبعث مخاطباً إياه من نار؛ ولهذا فإن التأكيد هنا جاء ليؤكّد هذا الشيء عنده، وليحوّله من ظن إلى يقين. أي أن الصوت الذي سمعته يا موسى هو صوت الحق تبارك وتعالى، وليس صوتاً غيره.. هو صوت الخالق وصوت القدرة الإلهية المبدعة وليس صوت شيء غيره.

نشوء الصوت وحدوثه

إننا نعرف أن الصوت هو عبارة عن انحباس الهواء بين أعضاء الصوت وهي الحبال الصوتية داخل الحنجرة، وهي حبال تقطع الهواء عندما يمرّ بها؛ مما يصدر عنها هذا الصوت. والصوت بهذا المعنى لا يمكن أن يصح بحال من الأحوال على الله تبارك وتعالى؛ لأنه جل وعلا ليس بجسم ولا بمادة حتى يمكن أن يقال: إن عنده حنجرة وحبالاً صوتية يضطرب الهواء فيها فتقطعه وتحبسه، ثم يخرج منها على هيئة الصوت.

إذن فلابدّ من الصيرورة إلى القول بأن ما حدث هو أنه تعالى قد أظهر الصوت الذي يريده عن طريق بعض مخلوقاته وهي النار، فغاية ما في الأمر أنه تعالى قد أظهر الصوت عن طريق مخلوقاته. وهنا نلتفت إلى أن التأكيد المار إنما هو لهذا الهدف، وإلا فإن التعبير بأحدهما كافٍ عن التعبير بكليهما.

النقطة الثانية: تهدئة اضطراب موسى عليه السلام

فالنبي موسى عليه السلام حينما سمع الصوت اضطرب وداخله شيء من الخوف، وهنا أراد الله جل وعلا أن يطمئنه، ويُزيل عنه اضطرابه؛ ولذا

فإنه عقّبه بقوله: ﴿رَبُّكَ﴾، ذلك أن التربية تُعطي معنى الدفء العاطفي والطمأنينة. والمربي عادة هو الأبوان، فهما غالباً من يقوم بدور التربية، والأب أو الأم لا يمكن أن يحملا تجاه ابنهما إلا المودة والعاطفة والحنان والدفء؛ ولذا فإن الإنسان يحمل في أعماقه للمربي صورة مملوءة بالحنان والاحترام والإكبار. وعندما نتعامل مع علاقتنا بالأم فإننا نجد أننا نحمل في ذكرياتنا صورة مملوءة رحمةً وعطفاً وعطاء، كما أن في ذكرياتنا أيضاً تصوّراً واضحاً وكبيراً لحجر الأب عبر صورة مملوءة بالشفقة والرحمة والرأفة والمودة.

لماذا اختار الله تعالى كلمة ﴿رَبُّكَ﴾؟

وهنا فإننا نلفت النظر إلى النكتة في التعبير القرآني الشريف: ﴿رَبُّكَ﴾؛ دون (إلهك)، وهما جنبتان:

الجنبة الأولى: انتزاع الرهبة من نفس موسى عليه السلام

ذلك أنه تبارك وتعالى أراد أن ينتزع من نفس موسى عليه السلام الشعور بالرهبة والخوف والاضطراب، وهذا لا يكون مع التعبير بلفظ العبودية أو الألوهية، لأنها مناط الخوف من الله تعالى، بل إن الذي يناسبه هو لفظ الربوبية التي تعني الرحمة والتربية. فالخطاب المتوجّه إلى النبي موسى بن عمران عليه السلام يقول له: لا تضطرب؛ فأنا ربّك الذي خلقتك، وأفضت عليك الوجود والحياة، وغمرتك بالنعم، وشملتك بالرحمة في كل أبعادك؛ فأنا ربّك ومربّيك، وأنا الذي أفيض عليك رحمةً وحناناً ومودةً.

إذن فالآية الكريمة في مقام إعطائه عليه السلام لوناً من ألوان الطمأنينة والاستقرار بعد أن استشعر في قرارة نفسه تلك الرهبة وذلك الاضطراب

نتيجة الموقف الذي كان فيه . إن الإنسان حينما يضطرب أو يرتجف من نداء يسمعه فإنّه في تلك اللحظة يكون أحوج ما يكون عليه هو أن يُمد بالشعور بالطمأنينة ، ولذا فإن الله جل وعلا عبّر لنبيه موسى عليه السلام بهذا التعبير الذي هو في حقيقته كله طمأنينة وإيحاء بالمودة والشفقة .

الجنبة الثانية: أن الله تعالى هو الربّ والمربي

وتربيته تبارك وتعالى للإنسان تُتصور على نمطين:

النمط الأول: التربية التكوينية .

النمط الثاني: التربية التشريعية .

ولو أننا تتبعنا تعريف مفهوم التربية من وجهة نظر فلسفية ، ورجعنا في هذا الأمر إلى فلاسفة اليونان لوجدنا أنهم يعرّفون التربية على أنها إمداد العقل والجسم بكل ما يمكنهما تقبله . أي أنك حينما تربي أحداً فإنك إنما تمد جسمه وعقله بما يستطيعان أن يستوعباه أو أن يتقبلاه . وبتعبير آخر يعني هذا تأمين حاجات الإنسان الروحية والجسدية . والتربية الروحية أو التربية التشريعية هي التربية التي تأتي على رأس قائمة أنماط التربية التي يتلقاها الإنسان وبالدرجة الأولى منها ؛ لأنها إمداد للعقل والروح، في حين أنّ الأنماط الأُخرى هي عبارة عن إمداد للجسم وتأمين احتياجاته كافة وتوفيرها له .

وكما هو معلوم فإن الجسم يأتي بالدرجة الثانية بعد الروح؛ لأنها هي الباقية وهو الفاني .

هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فإن إمداد الجسم يشاركنا به حتى الحيوان فكما أنّ الإنسان يأكل ليتغذّى ويشرب ويتزوج وعنده خلايا تتجد يومياً فكذلك الحيوان شأنه شأننا في هذه الناحية، فهو بحاجة إلى

المأكل والمشرب والمأوى والعلاقات الجنسية التي تمدّ نوعه، كما أنه يمتاز بعين ما نمتاز به نحن من موت الخلايا اليومي وتجدّدها. وبشكل مجمل فإنّ العمليات الأيضية[١] كافّة التي تحدث في جسم الإنسان تحدث في جسم الحيوان بشكل عام من غير فرق، أو من غير اختلاف بينهما. أي أن هذا الشيء تشاركنا فيه حتى أدنى الحيوانات في سلم الرقي والتطوّر.

وعليه فمسألة إمداد الجسم تأتي بالمرتبة الثانية؛ لأن الإنسان لا يشاركه حيوان أو مخلوق آخر مما هو تحت مجال حواسنا في احتياجاته العقلية. فالإنسان متفرد بهذه الجنبة والحيوان لا يشاركه فيها أبداً.

ملازمة الروح والجسد

وربما يقول قائل: إن الروح لا يمكنها أن تمارس فعالياتها بشكل مستقل عن الجسم، فمالم يأخذ الجسم حقه من الإمداد فان الروح سوف لا تستطيع أن تأخذ حقها من الإمداد، وبالتالي من تأمين حاجاتها.

والجواب أن يقال: إن الواقع الذي لابدّ من التنبيه إليه هو أن المقصود من إمداد الجسم ليس الرغيف الذي يأكله الإنسان، وإنما هو عبارة عن وضع قابلية للجسم في الاستمرار في الحياة. أما إمداد الروح الذي هو أهم، فلأنه يعني بناء الشخصية الإنسانية المتكاملة؛ ولأنه يعني تحقيق الوجود الإنساني وليس الوجود الحيواني.

وقد ذكرت أكثر من مرة أن أرسطو كان معلّم الإسكندر، وكان

(١) أي عمليتي البناء والهدم الحيويتين.

الإسكندر في أيام حكمه اذا دخل عليه أرسطو قام له ويحترمه ويجله غاية الاحترام والإجلال ويقدره غاية التقدير، لكنه إذا دخل عليه أبوه فهو يحترمه لكنه احترام دون احترامه لمعلمه، وقد سئل ذات يوم عن السبب الذي من أجله يجلّ أُستاذه ومعلمه ويبجّله أكثر من إجلاله وتبجيله لأبيه، فقال: إن أُستاذي أخرجني من كون الظلمة إلى كون النور، وأنشأني فكراً، والإنسان إنما يكون إنساناً بفكره لا بدمه ولحمه، وهذا بخلاف حال أبي.

فهو يريد أن يقول: إن الإنسان إذا تعلّم وتثقّف ووعى أصبح يمتلك ما يضيء له طريق روحه، أما أبي فقد أخرجني من كون الموت إلى كون الفساد والشيخوخة والآلام والمآسي والمصائب، ثم بالتالي يُسلمني إلى القبر. وشتّان بين شخص يُخرج غيره من عالم الظلمات إلى النور، وبين شخص يخرجه من عالم النور إلى الظلمات.

فكأنه يقرّر أن دور الأب ليس أكثر من إخراج الوليد من بطن الأُم إلى رحم الدنيا، فيعرضه بذلك إلى الآلام والمشاكل.

وهذه النظرة في حقيقة الحال موجودة عند جماعة كبيرة من الناس، وهي أن الإنسان حينما يدخل إلى هذه الدنيا فإنه يلج عالماً مليئاً بالآلام والمشاكل والمصائب ونحن نرى في حياتنا اليومية وما تمتلئ به من مشاكل وآلام أن الكثير من الناس حينما يلج هذه الدنيا فإنه لا يكاد يخرج من ألم حتى يدخل في ألم غيره، ولا يكاد ينجو من مشكلة حتى يقع في مشكلة أُخرى، حتى إن البعض يصل به الأمر إلى أن يتمنى لو أنه لم يولد، أو أنه يتمنى الموت لعِظم ما هو فيه من مصائب ومآسٍ وآلام؛ لأن ولادته أدّت به إلى هذا اللون من التعب والرزايا في هذه الحياة، وولوج

عالم مليء بالمصائب والمصاعب والمعاناة، وكل ما يتلبّس بهذه الصفات.

إذن في واقع الامر أن الله تبارك وتعالى يمد كلّاً من العقل والجسم بكل ما يمكنهما تقبله، وأنه جل وعلا حينما عبر بهذا التعبير فلأنه يريد أن يقول لموسىﷺ: إن الذي يخاطبك ربّك، أي من خلقك وأفاض عليك الوجود والرحمة والشفقة والمودة، ولم يخاطبه بلفظ العبودية؛ لأن فيه معنى التخويف والترهيب وما يدور في هذا المدار.

إذن يتجلى لنا من خلال هذا أن المعنى المقصود في هذه الآية الشريفة هو بعث الطمأنينة في نفس موسىﷺ وعدم استمرار حالة الخوف والرهبة والاضطراب لحظة سماعه الصوت؛ لأنهﷺ لم يكن ليتصور أن صوت السماء.. صوت الرحمة والوحي سوف يخرج إليه من خلال هذه النار المتّقدة.

المبحث الثالث: في معنى تعظيم الله جلّ وعلا

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾، وهنا يتبادر إلى الأذهان سؤال هو: لماذا أمر الله تبارك وتعالى نبيه موسىﷺ بأن يخلع نعليه وهو مقبل على هذا الوادي؟ إن للمفسرين للجواب على هذا السؤال عدة آراء، نذكر منها:

الرأي الأول: أنها عادة العظماء

فهؤلاء المفسرون يرون أن الله جل وعلا إنما أمر النبى موسىﷺ بأن يخلع نعليه؛ لأن من عادة العظماء أنه إذا دخل عليه شخص فانهم يأمرونه بأن يخلع نعليه عند الباب ويدخل حافياً إعظاماً لهم؛ فلا يدخل إنسان

على عظيم وفي رجله نعل.

وقد يقول قائل: ما علاقة هذا بالله تبارك وتعالى، وهو الرب العظيم الكبير، الذي لا يتعامل مع عباده كما يتعامل الجبابرة والسلاطين المتكبرون مع رعاياهم؟

والجواب أن يقال: إن الله جل وعلا أحياناً يأخذنا بالعرف الموجود أو السائد عندنا في مجتمعاتنا، فكما أن الإنسان حينما يريد أن يعبّر عن عدم احترامه أو تقديره لإنسان ما فإنه يدخل عليه بنعله دون أن يخلعه فإنه هنا ربما ينظر إلى هذه الجنبة النفسية عند الإنسان، وهي جنبة عرفية نظر إليها رب العزة تبارك وتعالى في تعامله مع هذه الواقعة.

إنه ليس من الاحترام في شيء أن يدخل أحد على إنسان مثله وإن كان أرفع منه منزلة بالعلم أو السلطان، وهو ينتعل حذاءه؛ وهنا فإنه لابد أن يبادر إلى خلع نعله ثم الدخول عليه. وهذه علامة من علامات التقدير والاحترام السائدة في المجتمعات. ونحن هنا إنما نتكلّم عن المجتمع الذي نزلت فيه الآية الكريمة، الذي يمثّل جوّها، وعليه فهذا المفسر يقول: إنه كان من عادة العظماء ألّا يدخل عليهم أحد وهو منتعل.

مشروعية الصلاة بالنعل أو بالخف

ومما يروى هنا عن عبد الله بن السائب أنه قال: كان النبي صلى الله عليه وآله إذا أراد أن يدخل إلى الصلاة فإنه يخلع نعليه[1].

وهذه المسألة يثيرها الفقهاء، وهي: هل يجوز للإنسان أن يصلي وهو

---

(١) مسند أحمد ٣: ٤١١، سنن ابن ماجة ١: ١٤٣١/٤٦٠، سنن أبي داود ١: ٦٤٨/١٥٤، ٦٥٠، السنن الكبرى (النسائي) ٢: ٧٤، ١٧٦.

منتعل أو لا يجوز له ذلك؟ والفقهاء يجوزون ذلك إذا لم يكن في نعل الإنسان قذر، وكان من جلد حيوان مأكول اللحم ومذكى[1]. لكن الذي ينبغي أن يكون هو ألّا يصلي الإنسان بنعله مراعاة للأدب مع الله جل وعلا؛ لأنه ليس من اللياقة أن يقف بين يدي الله وفي رجليه نعلان.

إذن فلبس الخف ما دام من حيوان مأكول اللحم ومذكى وليس فيه قذر فإن الصلاة فيه جائزة وإن كانت عملية مراعاة الأدب مع الله جل وعلا تستلزم عدم فعل ذلك. ولتقريب المعنى نضرب على ذلك مثالاً هو أن الواجب في الصلاة هو ستر العورة فقط كما يذهب إليه عامة الفقهاء، لكن هل من الأدب أن يقوم الإنسان إلى الصلاة وهو عريان لا يستر إلّا عورته الشرعية؟

إن هذا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[2]، والزينة هي أن يلبس الإنسان أفخر لباسه وأن يتطيّب قبل أن يذهب إلى المسجد. وهذا الأمر يراعيه الإنسان حينما يريد أن يدخل على إنسان مثله أو حينما يزوره إنسان فإنه يأخذ أحسن ملابسه ويلبسها ثم يزور ذلك الرجل أو يستقبل ضيفه. وهذا التصرّف مع الله من باب أولى؛ لأن الله جل وعلا هو ملك الملوك ورب الأرباب، وهو الخالق المقتدر العزيز؛ لأن في هذا التصرف نوعاً من إخفاء لون من ألوان التقدير الذي يريد أن يُبرزه ذلك الإنسان تجاه ضيفه، أو تجاه الإنسان الذي يريد أن يدخل عليه، والله تبارك وتعالى أحقّ وأولى بهذا التقدير والاحترام؛ لأنه الإله المطلق.

---

(١) سنن أبي داود ١: ١٥٤/ ٦٥٠.   (٢) الأعراف: ٣١.

إذن فعلى المرء حينما يقف إلى الصّلاة وهو يعرف أنّه بين يدي الله جلّ وعلا أن يأخذ زينته لذلك، يروى أن هشام بن عبد الملك حجّ بيت الله في إحدى السنين، فلما دخل الحرم قال: ايتوني برجل من الصحابة. فقيل له: قد تفانوا. قال: فمن التابعين. قالوا: نعم. ثم أُتي بطاووس اليماني، فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه، ولم يسلم عليه بإمرة المؤمنين، ولم يكنّه، وجلس إلى جانبه بغير إذنه، ثم قال له: كيف أنت يا هشام؟

فغضب من ذلك غضباً شديداً، حتى همّ بقتله، فقيل له: أنت في حرم الله وحرم رسوله صلى الله عليه وآله، ولا يمكن ذلك. فقال له: يا طاوس ما حملك على ما صنعت؟ قال: وما صنعت؟ فاشتدّ غضبه وغيظه، وقال: خلعت نعليك بحاشية بساطي، ولم تسلّم علي بإمرة المؤمنين، ولم تكنّني، وجلست بإزائي بغير إذني، وقلت: يا هشام كيف أنت؟ فقال طاووس:

أما خلع نعلي بحاشية بساطك، فإني أخلعهما بين يدي رب العزّة كلّ يوم خمس مرات، فلا يعاتبني، ولا يغضب علي.

وأما ما قلت: لم تسلم علي بإمرة المؤمنين، فليس كل المؤمنين راضين بإمرتك، فخفت أن أكون كاذباً.

وأما ما قلت: لم تكنني، فإن الله عزّ وجلّ سمّى أنبياءه، فقال: ﴿يَا دَاوُدُ﴾[1]، ﴿يَا يَحْيَى﴾[2] ﴿يَا عِيسَى﴾[3]، وكنّى أعداءه فقال: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[4].

وأما قولك: جلست بإزائي، فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي

(١) ص: ٢٦.
(٢) مريم: ١٢.
(٣) آل عمران: ٥٥، المائدة: ١١٠.
(٤) المسد: ١.

طالب عليه السلام يقول: «إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار، فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام».

وهذا ليس غريباً عن خلق علي بن أبي طالب عليه السلام، فهو غني عن التعريف، وهو الشخصية التي مثّلت خلق الإسلام، بل هو الإسلام عينه مجسّداً على الأرض. يروى أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كان قد دخل عليه رجل فأصابته من هيبته رعدة، فقال صلى الله عليه وآله له «هوّن عليك؛ فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد»[1].

وهذا لون من الخلق النبيل الطاهر، البعيد عن التكلّف، وهو الخلق الذي أخذه علي بن أبي طالب عليه السلام من رسول الله صلى الله عليه وآله، وهذا ما يفسّر لنا قوله عليه السلام: «إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار، فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام». وشخصية أمير المؤمنين عليه السلام لا يمكن بحال من الأحوال أن يحيط بها وصف أو أن يبلغ مداها إنسان، فهذا الرجل بمقدار ما يملك من عظمة وتميّز ونبوغ نجده يتواضع حتى يلتصق بالأرض. فتواضعه في الطرف الثاني من المعادلة يوازي عظمته وتميزه في الطرف الأول منها.

فقال له هشام: عظني. قال: إني سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «إن في جهنم حيات كالقلال[2]، وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته». ثم قام وخرج[3].

وموضع الشاهد في روايتنا هذه هو خلع النعلين حيث قال له: «فإني أخلعهما بين يدي رب العزّة كلّ يوم خمس مرات، فلا يعاتبني، ولا

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١: ١٣٣، كنز العمّال ٦: ٨٨ / ١٤٩٦٥، السيرة النبويّة (ابن كثير) ٣: ٥٥٦.

(٢) في الكنى والألقاب: كالتلال.

(٣) الكنى والألقاب ٢: ٤٤١، وفيات الأعيان ٢: ٥١٠.

يغضب علي».

رجـع

إذن فالله جل وعلا إنما أمر النبي موسى عليه السلام بأن يخلع نعليه؛ لأنه تعالى راعى هذه الجنبة الاجتماعية في تصرفاتنا كما تذهب إليه هذه الطائفة من المفسّرين.

الرأي الثاني: أن في نعليه قذراً

وتذهب هذه الطائفة من المفسّرين إلى أنّ الله تبارك وتعالى إنما أمر موسى بأن يخلع نعليه لأن فيهما قذراً من الأرض قد علق فيهما، وهو تعالى لا يريد لإنسان أن يمشي على هذه الأرض الطاهرة وفي نعليه قذر.

نقد الرأي الثاني

وهذا الرأي طبعاً لا سبيل إلى قبوله أو إلى الأخذ به؛ لأنه يفترض أن الأنبياء عليهم السلام لا يلتفتون إلى هذه الناحية، وهي أنّ في نعالهم قذراً قد وطئوه على الأرض.

الرأي الثالث: أن تمسّ الأرض باطن قدميه عليه السلام

وهذه الطائفة الثالثة من المفسرين ترى أن العلّة التي من أجلها أمر الله تبارك وتعالى نبيه موسى عليه السلام بأن يخلع نعليه؛ لأنه أراد لباطن قدميه عليه السلام أن يمسّا هذه الأرض المقدّسة الطاهرة، فالقرآن الكريم يعبّر عنها بأنها مقدسة بقوله: ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ﴾، أي يا موسى، فلتلامس بقدميك هذه الأرض الطاهرة حتى تمسّك بركة هذا الوادي المقدّس.

المبحث الرابع: في تحديد موقع الوادي المقدّس

وهنا يطرح سؤال نفسه في البين حول هوية هذا الوادي المقدّس الذي

ذكره القرآن الكريم، وحول موقعه الجغرافي، وفي واقع الأمر فإن للمفسرين آراء ثلاثة حول الإجابة على هذا التساؤل:

الرأي الأوّل: أنه في بلاد الشام

وهؤلاء المفسرون حينما يذكرون موقعه فإنهم يطلقون الأمر دون أن يذكروا موقعه على وجه التحديد.

الرأي الثاني: أنه في القدس

ذلك أن القدس الشريف هو إحدى البقاع المقدسة منذ الأزل عند الأنبياءﷺ وأتباعهم؛ فهو أُولى القبلتين وثالث الحرمين.

الرأي الثالث: أنه الغري

أي النجف الأشرف. وهذا الأمر يحتاج إلى وقفة بمقدار ما يقتضيه المقام. ثم إن هذا المعنى قد تناوله الأدب والفكر والمأثورات الدينية؛ ولذا فإن الكثير من الآراء تميل إلى أن الغري الأشرف هو الوادي المقدس؛ لأنه منطقة قديمة معروفة بحضارتها ومدنيّتها. فالذي يرجع إلى تاريخ هذه المنطقة يجدها مصبّاً للحضارات.

التاريخ الحضاري لمنطقة الغري

ولعلّ كثيراً من الناس يظنّ أن النجف قد وُلدت مع دفن الإمام أمير المؤمنينﷺ فيها، مع أن الواقع خلاف ذلك؛ فتاريخ هذه المنطقة تاريخ بعيد جداً؛ فقد كان مصبّ جداول حضارية متعدّدة؛ ذلك أنها كانت منطقة مسيحيةً، وكانت بيوت الرهبان وأديرتهم منتشرة فيها، كما أنها كانت مركزاً من مراكز الدين والأدب والفكر في العالم آنذاك. وبالإضافة إلى ذلك كلّه نجد أنها كانت المركز الذي يُجلب إليه الأسرى منذ أيام

الإسكندر، وقد كانت معسكرات الأسرى ومعتقلاتهم تموج بالحركة الفكرية والعلمية؛ حيث إن أصحاب هذه المعسكرات كانوا يروّضون الأسرى الذين يأتون بهم على قبول أفكارهم ومعتقداتهم ومبادئهم؛ فكانت بهذا مصباً لجداول كثيرة من المعرفة.

الغري محطّ الأنبياء عليهم السلام

وفوق ذلك كله فإن النجف أو الغري هي محطّ الأنبياء عليهم السلام، وآثارهم فيها كثيرة، ومن الآثار النبوية فيها ما هو معروف من أن النبي ابراهيم عليه السلام قد مرّ بهذه المنطقة حينما خرج عليه السلام من بابل، وكان أهلها يُزَلزلون في كل ليلة، فلما بات النبي إبراهيم عليه السلام عندهم لم يزلزلوا تلك الليلة، بل توقّف الزلزال، فراح أهلها يتساءلون عن السبب الذي من أجله توقف الزلزال في منطقتهم، فقال لهم شيخ بات عنده النبي إبراهيم عليه السلام: والله ما دفع عنكم إلّا بشيخ بات عندي؛ فإني رأيته كثير الصلاة. فجاؤوه وعرضوا عليه المقام عندهم، وطلبوا منه أن يبقى بين ظهرانيهم؛ لأن الله تبارك وتعالى قد منع عنهم الزلزال ببركته، وبذلوا له، فقال عليه السلام: «إنما خرجت مهاجراً إلى ربّي».

وخرج حتى أتى النجف، فلما رآه رجع أدراجه، فتباشروا وظنّوا أنه رغب فيما بذلوا له، فقال لهم: «لمن تلك الأرض؟». يعني النجف، قالوا: هي لنا. فقال عليه السلام: «فتبيعونيها؟». قالوا: هي لك، فوالله ما تنبت شيئاً. فقال عليه السلام: «لا أحبّها إلّا شراء». ثم دفع إليهم مئة شاة كانت معه بها، والغنم يقال لها بالنبطية «نقيا»، وقال عليه السلام: «أكره أن آخذها بغير ثمن». فسميت «بانقيا»[1].

(١) انظر: السرائر ١: ٤٧٩، عنه في بحار الأنوار ٤١: ١٢٩، معجم البلدان ١: ٣٣١، وفي

وعندنا الكثير من المأثورات التي تُروى عن الأنبياء عليهم السلام الذين مروا بهذه المنطقة وأقاموا بها. ومعلوم أن كل نبي يمر بمنطقة فإنه يترك بصماته الخيّرة والنبيلة عليها مادام قد أقام فيها.

قدسيّة أرض الغري

وأود أن الفت النظر إلى نقطة هامة هي أن فقهاء المسلمين عامة يقولون: إن أرض المدينة أشرف من مكة، معلّلين ذلك بأنّ تراب المدينة قد لامس جسد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والرسول صلى الله عليه وآله وسلم أشرف من مكة المكرمة؛ وما لامس الأشرف فهو أشرف. وبناءً على هذا فإننا نقول: إن الغري أشرف من مكة، بدليل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[1].

وبإجماع المسلمين أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما دعا إلّا أمير المؤمنين علياً عليه السلام فاطمة عليها السلام والحسن والحسين عليهما السلام، ذلك أن علي بن أبي طالب هو نفس الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فإن ﴿أَبْنَاءَنَا﴾ يراد بها الحسن والحسين عليهما السلام، و﴿نِسَاءَنَا﴾ يراد بها فاطمة الزهراء عليها السلام، و﴿أَنْفُسَنَا﴾ يراد بها علي بن أبي طالب عليه السلام.

وبما أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام هو نفس الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، والرسول صلى الله عليه وآله وسلم أشرف من مكّة؛ إذن فإننا نخرج من هذا بنتيجة هي أن علي بن أبي طالب عليه السلام أشرف من مكّة.

وهذا الأمر يذهب إليه عدد ضخم من المفسرين؛ ولذا فإن أحد

(معجم البلدان) أن النبي إبراهيم عليه السلام ذكر أنه يحشر من ولده من ذلك الموضع سبعون ألف شهيد.

(١) آل عمران: ٦١.

الشعراء يخاطبه بقوله:

وهو في آية التباهل نفس الـ مصطفى ليس غيره إيّاها

وعلى العموم فالمراد من الوادي المقدس في الآية الكريمة هو الأرض المقدسة في الغري، وهذا المعنى قد تناوله الشاعر عبد الباقي العمري رحمه الله في قصيدته الرائعة حيث يقول:

إذا نحن زرناها وجدنا نسيمها يفوح لنا كالعنبر المتنفّسِ
ونمشي حفاةً في ثراها تَقدُّساً نرى أننا نمشي بوادٍ مُقدسِ[(١)]

كما أن عنده بيتين رائعين جداً في هذا المعنى يقول فيهما:

ولمّا سرينا للغريّ عشيّةً لمن قد ثوى فيه احتراماً وتبجيلا
ربطنا بأخفافِ المطيّ ثغورَنا فأوسعت الصحراءَ لثماً وتقبيلا

ولهذا فإن المؤرخين يذكرون أن السلطان العثماني سليمان القانوني حينما عزم على زيارة المشهد العلوي المقدّس في النجف الأشرف، ومعه كثير من وزرائه وقوّاده وعساكره، ولاحت لهم القبّة المباركة ترجّل بعض وزرائه الموالين باطناً من مسافة أربعة فراسخ، فسأله السلطان عن سبب ترجّله، فقال: هو أحد الخلفاء الراشدين، وقد نزلت تعظيماً له. فترجّل السلطان أيضاً، فقال له أحد وزرائه من الناصبين العداء لأمير المؤمنين عليه السلام: إن كلّاً منكما خليفة، واحترام الحي أولى من احترام الميت.

قياس مع الفارق

ولو أننا نظرنا إلى هذا القياس الذي حاول أن يقيس به ذلك الوزير أو

---

(١) لم نعثر عليهما لعبد الباقي العمري، بل هما للبهاء زهير في ديوانه: ١٧٧.

الشخص غير الميّال لأهل البيت عليهم السلام لوجدنا أنه قياس عجيب، فنحن نسأل: هل إن هذا القياس ينطبق على علي بن أبي طالب عليه السلام فقط أم إنه يسري على غيره؟[١] إننا نفهم كمسلمين أن الإنسان حينما يموت فإنه لا يموت منه إلّا ذلك البدن، أما روحه فهي باقية لأنها لا يطرأ عليها شيء سوى أنها تفارق ذلك البدن الترابي الظلماني الفاني. ومفارقة الروح للبدن لا يعني أن الروح تفقد قيمتها وقدسيّتها. وهذا القياس طبعاً هو قياس الحجاج وقياس خالد بن عبد الله القسري؛ حيث كان الحجاج يقول: إن المسلمين مخدوعون حين يطوفون بقبر محمد صلى الله عليه وآله، وقد تحوَّل صاحب القبر عظام بالية، ألا يطوفون بقصر عبد الملك[٢]؟

على أيّة حال تردّد السلطان في الركوب، ثم لجأ إلى الاستفتاح بالقرآن المجيد، فخرجت هذه الآية الشريفة: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾. وعندها أمر السلطان بضرب عنق الناصبي الذي عذله على ترجّله، ثم قال: قررت أن أترجّل عن ظهر جوادي وأنا منتعل، والآن لا أترجّل إلّا وأنا حافٍ[٣].

---

(١) مقولة الحجّاج حول قصر عبد الملك وقبر النبي.

(٢) الكامل في الأدب ١: ٢٢٢، وقال المبرد فيه: إن ذلك ممّا كفَّرت به الفقهاء الحجّاج، شرح نهج البلاغة ١٥: ٢٤٢.

(٣) الأنوار العلوية: ٤٢٤ ـ ٤٢٦. وفيها استشهد مؤدّب السلطان ببيتي الشاعر أبي الحسن التهامي، وهما:

تزاحم تيجان الملوك ببابه ... ويكثر عند الاستلام ازدحامها

إذا ما رأته من بعيد ترجّلت ... وإن هي لم تفعل ترجّل هامها

وهما بيتان مشهوران، لهما تخميس وتشطير للكثير من الشعراء، نذكر منها:

١ ـ تخميس السيد مهدي بحر العلوم، حيث قال:

تطوف ملوك الأرض حوله جنابه ... وتسعى لكي تحظى بلثم ترابه

المبحث الخامس: تربة الغري تربة مقدّسة

إذن فقوله تعالى: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ إنما يعني على

فكان كبيت الله بيت علا به (تزاحم تيجان الملوك ببابه

ويكثر عند الاستلام ازدحامها)

أتته ملوك الأرض طوعاً وأمّلت مليكاً سحاب الأرض منه تهلّلت

ومهما دنت زادت خضوعاً به علت (إذا ما رأته من بعيد ترجّلت

وإن هي لم تفعل ترجّل هامها)

٢ ـ وله عليه السلام مشطّراً لهما:

(تزاحم تيجان الملوك ببابه) ليبلغ من قرب إليه سلامها

ويستلم الأركان عند طوافها (ويكثر عند الاستلام ازدحامها)

(إذا ما رأته من بعيد ترجّلت) ليعلو فوق الفرقدين مقامها

(فإن فعلت هاماً على هامها علت وإن هي لم تفعل ترجّل هامها)

أعيان الشيعة ١٠: ١٦١.

٣ ـ وخمّسهما السيد زين العابدين البعلبكي فقال:

علي هو المولى فلذ بجنابِهِ وضع حرّ وجه فوق زاكي ترابِهِ

متى أشرقت أنواره من قبابِهِ (تزاحم تيجان الملوك ببابِهِ

ويكثر عند الاستلام ازدحامها)

به الشرعة الغراء رتبتها علت وظلمة ديجور الضلال به انجلت

لديه ملوك الأرض طرّاً تذلّلت (إذا ما رأته من بعيد ترجّلت

وإن هي لم تفعل ترجّل هامها)

أعيان الشيعة ٧: ١٦٢ ـ ١٦٣ / ٥٠٥.

٤ ـ وخمّسهما السيد محمد بن أحمد بن الطيّب فقال:

علي تذلّ الأُسد في عزّ غابِهِ وتخضع أملاك السما لجنابِهِ

فزر ترَ في أعتابه وقبابِهِ تزاحم تيجان الملوك ببابِهِ

ويكثر عند الاستلام ازدحامها

لميقاته لبّت وحجّت وولولت وفي طور ناديه سعت ثم هرولت

له علم للناس أنواره انجلت إذا ما رأته من بعيد ترجّلت

وإن هي لم تفعل ترجّل هامها

ضوء الرأي الثالث أن على النبي موسىﷺ أن يخلع نعليه ليمسّ باطن قدميه تراب تلك الأرض الطاهرة المقدسة كي يلتمس البركة من خلال ذلك، فحينما يلامس بدن شخص ما أرضاً مقدسة فإنه سوف تحل فيه بركتها.

وهذا مظهر من مظاهر التقدير والاحترام لهذه التربة المقدسة، وكذلك هو مظهر من مظاهر التكريم وعرفان الجميل لها، كما أن هناك نمطاً آخر من أنماط التكريم وعرفان الجميل للأرض هو لثم ثرى تلك الأرض وتمريغ الخد عليها وتعفير الجبين على ترابها، وهذا ما كان يفعله الرواد الأوائل ممن زار الإمام الحسين وممن كان يتردد عليه فهؤلاء لا يكتفون بأن يخلعوا نعالهم؛ ليلامس باطن أقدامهم تلك الأرض الطاهرة المقدسة، بل إنهم يهوون على تلك التربة الطاهرة الزكية؛ ليعفّروا جباههم بها، وليلامسوها بخدودهم وشفاههم، يقول أحد الأدباء مصوراً

---

٥ ـ وله مشطّراً لهما:

(تزاحم تيجان الملوك ببابه) وتخضع في مثوى ثراه أنامها
وتستلم الأعتاب منه ذليلة (ويكثر عند الاستلام ازدحامها)
(إذا ما رأته من بعيد ترجّلت) ونادى مناديها عليك سلامها
وقد علمت إن أذعنت جلّ قدرها (وإن هي لم تفعل ترجّل هامها)

أعيان الشيعة ٩: ٦٤ / ١٨٠.

٦ ـ وخمسهما الشيخ كاظم الأزري، فقال:

وذي مرقد شمس العلا كقبابِهِ وجبهة دار الملك دون ترابِهِ
ألم ترَه معْ عظم وسع رحابِهِ تزاحم تيجان الملوك ببابِهِ
ويكثر عند الاستلام ازدحامها
بباطنه آيات وحي تنزّلت ورسل وأملاك به قد توسّلت
لذاك سلاطين لديه تذلّلت إذا ما رأته من بعيد ترجّلت
وإن هي لم تفعل ترجّل هامها

ديوان الأزري الكبير: ٥١٥ ـ ٥١٧.

المقدسة، بل إنهم يهوون على تلك التربة الطاهرة الزكية؛ ليعفّروا جباههم بها، وليلامسوها بخدودهم وشفاههم، يقول أحد الأُدباء مصوراً ذلك الحال:

دأبتُ أزورُك في كلِّ عامِ وألثمُ تربَكَ يابنَ النبي

ويابنَ عليٍّ ويابنَ البتولِ ويابنَ ذُرا المجدِ في يثربِ

أترِبُ خدّي بعفْرِ ثَراكَ بحيثُ دماؤكَ لم تنضُبِ

بحيثُ يُلَعلِعُ ثغرُ أبي بأن يحتسي الذُّلَّ في مشرَبِ

وهامُ أبي للطغاةِ الرُّكوعَ وإن فَلَقُوا منه بالمضرِبِ(١)

وبالفعل كانت تلك الخدود تتقلّب على تراب أبي عبد الله الحسين عليه السلام لتحظى بدعاء الإمام الصادق عليه السلام لها، يقول معاوية بن وهب: استأذنت على الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام، فقيل لي: ادخل.

يقول: فلمّا دخلت عليه وجدته في مصلّاه في بيته، فجلست قربه حتى قضى صلاته، فسمعته وهو يناجي ربه تبارك وتعالى في سجوده ويقول: «اللهم إن أعداءنا عابوا عليهم خروجهم فلم ينههم ذلك عن الشخوص إلينا وخلافاً منهم على من خالفنا، فارحم تلك الوجوه التي قد غيرتها الشمس، وارحم تلك الخدود التي تقلّبت على حفرة أبي عبد الله عليه السلام، وارحم تلك الأعين التي جرت دموعها رحمة لنا، وارحم تلك القلوب التي جزعت واحترقت لنا، وارحم الصرخة التي كانت لنا. اللهم إني أستودعك تلك الأنفس وتلك الأبدان حتى نوافيهم على الحوض يوم العطش»(٢).

---

(١) ديوان المحاضر ٢: ٢٥.

(٢) الكافي ٤: ٥٨٢ ـ ٥٨٣ / ١١، ثواب الأعمال: ٩٥ ـ ٩٦.

وكان أول خد تقلب على قبر أبي عبد الله الحسين عليه السلام هو خد أُخته الحوراء زينب وخد ولده الإمام السجاد عليه السلام، ثم تتالت بعد ذلك خدود مسبيات أهل البيت عليهم السلام والأيمة الطاهرين من بعد ذلك. وكانت السبايا تحن إلى زيارات ذلك القبر فلم تهدأ حتى لاحت لهم أعلام كربلاء، وما إن وصلوا إلى أرض المعركة حتى راحوا يقومون من قبر ويجلسون عند قبر:

يـا نـازلين بكـربلا هـل عـندكم ... خـبر بـقتلانا ومـا أعـلامُها

مـا حـالُ جـثةِ ميتٍ فـي أرضِكـم ... بـقيت ثـلاثاً لا يـزار مـقامُها

بـاللهِ هـل واريـتموها فـي الثـرى ... وهل استقرّت في اللحودِ رمامُها[1]

* * *

مـا غسّـلوه ولا لفّـوه فـي كـفن ... يوم الطفوف ولا مدّوا عليه غطا

---

(١) وفيات الأئمة: ١٦٧.

﴿٢٣﴾

فلسفة الجهاد عند أمير المؤمنين عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: لمحات من جهاده عليه السلام بالسيف

الجهاد كما يُعرّفه الفقهاء هو: بذل النفس والمال في سبيل إعلاء كلمة الله[2]، وهو مشتق من الجهد والتعب الذي يبذله الإنسان في سبيل ذلك. وانطلاقاً من هذا فإن أي نشاط يستهدف إعلاء كلمة الإسلام، وخدمة دين الله يكون جهاداً. فإذا وُجد مضمون التعريف السابق للجهاد في أي عمل فإنه يعتبر جهاداً.

ولعل الجهاد هو أبرز الملامح في حياة أمير المؤمنين عليه السلام، وسوف نتناول هذا الجانب من جوانب حياته؛ لنرىٰ كيف أن الجهاد انبسط على كلّ أبعاد حياته؛ فهو مجاهد بالسيف والقلم والكدح والكدّ على العيال. ولم يكن علي عليه السلام يرى أن عياله من يدور عليهم سور بيته، إنما كان

---

(١) النساء: ٩٥.

(٢) الروضة البهية ٢: ٣٧٩.

يرى المسلمين عيالاً له. فدعنا ننظر بعض صفات الجهاد في حياته: فعلي عليه السلام لازمه الجهاد من بواكير حياته، وشاء الله له أن يقترن بالدعوة الإسلامية ولا يبعد عنها. والدعوة الإسلامية لم تكن تلاقي طريقاً سهلاً سمحاً، وإنما كانت تحتاج دائماً للجهاد؛ لما كانت تواجهه من صدّ من المشركين، فانبرى هذا الرجل للجهاد منذ أن ترعرع.

جاء الإسلام وعلي صبي، فكان يضع يده على حسامه ويمشي وراء النبي أينما ذهب، فيذود عنه المشركين المعتدين.

ثم نزلت أول سورة من القرآن الكريم، فوعاها علي بن أبي طالب عليه السلام، وخرج رسول الله صلى الله عليه وآله يبلغ بها فتبعه علي عليه السلام ويده على قائم سيفه. ومرت الأيّام، ولم يؤذَن للنبي صلى الله عليه وآله بالقتال في مكة، فمكث علي عليه السلام معه لمجرد حمايته من الأعداء، ثم بدأ الجهاد الفعلي عنده عندما وصل النبي صلى الله عليه وآله إلى المدينة، واستدعى علياً عليه السلام وطلب منه أن ينقل ظعينته إليه. ومن هنا تبدأ نقطة حاسمة في تأريخه، فهو عليه السلام خرج وهو لا يزال صبيّاً، وكانت قريش يومذاك بعنفوانها وقوتها وعددها وعديدها، فيما كان المسلمون يعدون بالأنامل، وخرج علي عليه السلام يتحداهم، عندما أمره النبي صلى الله عليه وآله أن ينقل الظعينة، فأخرج الظعينة وهو صبي لم يتجاوز العشرين ـ أو تجاوزها بسنة ـ وقبل خروجه مر على نوادي قريش، فقال لهم: «يا معشر قريش لا تقولوا: جبن ابن أبي طالب وخرج من حيث لا نشعر، ها أنا ذا خارج بظعينة محمد صلى الله عليه وآله ومن أحب منكم أن يتبعني فليفعل». فخرج وليس معه إلّا شخصان: سائق للنياق وقائد لها، وهو ثالثهم وانبرت له قريش بما تملك من جبروت وطغيان، وانبرى لهم علي عليه السلام، فاستبَقَهم وضرب عبداً لأبي جهل سبق إليه، فقده بسيفه فتراجع عنه القوم، وأقبل بظعينة النبي صلى الله عليه وآله

إلى أن دخل إلى المدينة[١]. فالنقطة الحاسمة في حياته عليه السلام ابتدأت من ذلك اليوم.

وما كادت قدمه تطأ تراب المدينة حتى تهيأ للجهاد بالسيف بأوسع ما لهذه الكلمة من معنى، دعونا نرَ ما يصفه به رسول الله صلى الله عليه وآله وقد استدعاه يوماً فقال له: يا «علي أنت يعسوب المؤمنين» أو «يعسوب المسلمين»[٢].

يقول أهل اللغة: إن اليعسوب هو ذكر النحل الذي تحتمي به جماعة النحل أو المستوطنة[٣]، ويكون أمامها. فالنبي صلى الله عليه وآله يقول لعلي عليه السلام: «أنت يعسوب المسلمين» أي يحتمي بك المسلمون. وقد كان حقاً الذائد عن الإسلام والمسلمين في غزواته وحروبه وإن أراد التاريخ أن يقف موقفاً غاية في السلبية، فمثلاً يقول أرباب السير: لما نزل علي عليه السلام إلى عمرو بن عبد ود توَّجهُ النبي صلى الله عليه وآله بقوله: «والله لضربة علي عليه السلام لعمرو ابن عبد ودّ تعدل عبادة اُمّتي إلى يوم القيامة»[٤]. ويمر الذهبي على هذه الكلمة في (ميزان الاعتدال) فيقول: لا شكّ في أن هذا الحديث موضوع؛ فلا يمكن أن تكون ضربة تعدل عبادة الاُمّة.

ويقال للذهبي: إن عشرات المصادر من مختلف كتب المسلمين ذكرتها، وبطرق موثوقة وصحيحة، ولكنها لعلي بن أبي طالب عليه السلام!

يعقب أحد علمائنا على ذلك فيقول: والله لو شهد الثقلان، وجاءت الملائكة وشهدت لَكذَّبها الذهبي.

ومن نعم الله تعالى علينا أن نجد شيئاً من سيرة علي عليه السلام في تأريخنا، لأن

---

(١) شجرة طوبى ١: ٦٤ ـ ٦٦.
(٢) المعجم الكبير ٦: ٢٦٩.
(٣) غريب الحديث ٣: ٤٣٩ ـ عسب، لسان العرب ١: ٥٩٩ ـ عسب.
(٤) اختيار معرفة الرجال ١: ٢٥٧، عوالي اللآلي ٤: ٨٦ / ١٠٢، ينابيع المودّة ١: ٤١٢ / ٥.

المتتبع إذا وقف على العقبات التي وُضعت بين الناس وبين علي بن أبي طالب عليه السلام فسيعرف ما في التأريخ من دواءٍ حالت بيننا وبين الوصول إلى ما ورد في علي عليه السلام في مختلف الأبعاد. فمن نعم الله تعالى علينا أن نحصل على شيء من الروايات التي تذكر جملة من الحقائق عن هذا الرجل العظيم الذي لم يترك له أعداؤه منقبة إلّا حاولوا أن يقلبوها مثلبة، ورحم الله من قال:

والحق يُنطِق مُنصفاً وعنيدا

يقول أحد الأُدباء:

سيّدي يا أبا تُراب عجيبٌ	**لو تأتّى لنا إليك وصولُ**
فبراكينُ الحِقدِ ألهبت التأ	**ريخَ واستلهمتْ لظاها النُّقولُ**
ولها من دمٍ بسيفك في علـ	**ـيا قريش مبرّرٌ مقبولُ**
كتبَتْها أوشالُ بدرٍ وأُحدٍ	**وإلى الآن خبلُها موصولُ**
هو صوت الأحقاد هيهات يعلو	**ولو استُنفرت إليه الطُّبولُ**
أرسَلَتْهُ السّما لأحمدَ وحياً	**في عليٍّ وجبرئيلُ الرسولُ**

فالحمدُ لله أن في التأريخ شيئاً من الضمير الحيّ الذي يفتح لنا منفذاً للوصول إلى حقيقة هذا الرجل، وإلا فقد وقف التأريخ والمؤرخون من هذا الرجل موقفاً شديد العداوة، ونحنُ نعرفُ أن التأريخ كتبه أعداء علي عليه السلام، في الفترة الملغمة التي أعقبت مقتل أمير المؤمنين عليه السلام، وماذا تنتظر من الحجاج بن يوسف والي الأُمويين على الكوفة إذا أراد أن يكتب تأريخ علي عليه السلام! الحجّاج هذا الذي يصعد على منبر الكوفة فيقول: إن هؤلاء المسلمين لا يعقلون، فهم يطوفون حول قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وليس

فيه غير العظام البالية، لم لا يطوفون بقصر عبد الملك بن مروان؟[١].

أوَتظن أن والياً مثل هذا يحمل للنبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته أو لعلي عليه السلام شيئاً من الاحترام أو التقدير؟ أوَتظن أن أمثال هذا كالزهري الذي عاش على موائد الأمويين وأموالهم وجوائزهم يستطيع أن يكتب شيئاً يُثني به على علي بن أبي طالب عليه السلام ؟

فمن النعم أن يتسرّب شيء من الحقيقة من بعض المنافذ فيما يسلط الضوء على حياة أمير المؤمنين عليه السلام وإلا فمواقفه الشجاعة لا يستطيع أن ينكرها إنسان، فقد بدأ منذ أن وطئت قدماه المدينة المنوّرة ينزل في لهوات الحرب، وعلى الصورة التي رواها لنا التأريخ.

يقول بعض المؤرخين: أهدىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي بن أبي طالب عليه السلام فرساً، فقال عليه السلام: «مالي وللخيل يارسول الله». قال صلى الله عليه وآله: «لماذا؟». قال: «إني لا أتبع مُدبراً، ولا أفر من أحد وإذا ارتديت سيفي لا أضعه إلا لمن ارتديت له السيف». ولذلك كان يمتطي بغلاً إذا نزل للحرب، فكان لا يتبع مدبراً، ولا يفر من أحد، وكانت الفرسان تتحاشاه. وقد سمعه تأريخ الحروب وهو يقول:

«قد عرف الحرب العوان أني ... بازل عامين حديث السنّ[٢]

سنحنح الليل كأني جنّي ... أستقبل الحرب بكلّ فنّ

معي سلاحي ومعي مجنّي ... وصارم يُذهب كلّ ضغنِ

---

(١) الكامل في الأدب ١: ٢٢٢، وقال المبرد فيه: إن ذلك ممّا كفّرت به الفقهاء الحجّاج، شرح نهج البلاغة ١٥: ٢٤٢.

(٢) البازل: الكامل المعرفة. المعجم الوسيط: ٥٤ - بزل. يريد عليه السلام أنه عرك الحروب وهو صغير السن. أو هو من «بزل السنّ» إذا طلع.

أمضي به كلّ عدوّ عني لمثل هذا ولدتني أمّي

ما ترقب الحرب العوان منّي»[١]

بدأت الحروب تتوالى، وهو يعسوب المسلمين أمامهم، يحملُ اللواء، ويدف إلى الحرب ويرجع وقد كلّلت جسده الأوسمة، يقول المجلسي: «مرّ عليه رسول الله صلى الله عليه وآله عند منصرفه من واقعة أُحد، فرآه ينقل الفتائل من جرح إلى جرح، وكان فيه ثمانون جرحاً. ونظر إليه كأنه مُضغة (قطعة من اللحم) موضوعة على نُطع، ومن حوله من يضمد جراحه، فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: «حقّ لمن أُصيب للّه بهذا أن يفعل الله به كذا وكذا، ويعطيه كذا وكذا». وأخذ النبي صلى الله عليه وآله يعدّد ما أعدّ الله له، فقال: «يا رسول اللّه، إني حمدتُ الله أني ما ابتعدت عنك، ولا فررتُ، وسأبقى ذلك المقاتل بين يديك». فقال النبي صلى الله عليه وآله: «إن بينكم وبين أبي سفيان موعداً، وقد أرسل لي أنه سيلاقيكم عند حمراء الأسد». فالحرب لم تنتهِ، فقال عليه السلام: «والله يا رسول اللّه، لو حملوني على الأيدي ما تركت القتال بين يديك ولا فررت عنك»، فنزلت الآية: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ﴾[٢] الآية».

انظر إلى عبارة الشيخ المجلسي رحمه الله: «كأنه مُضغة» وهو مع ذلك يداوي جراحه، ويرمي السيف إلى فاطمة عليها السلام ويقول:

أفاطمُ هاكِ السيف غير ذميمِ فلست برعديدٍ ولا بمُليمِ

لعمري لقد بالغتُ في نصر أحمدٍ وطاعة ربٍّ بالعباد رحيمِ[٣]

---

(١) الكافي ٨: ١١٢ / ٩١، ونقل بعضها كلٌّ من محمد بن سليمان الكوفي في مناقب أمير المؤمنين عليه السلام ٢: ٥٦٩، الفائق في غريب الحديث والأثر ١: ٩٥، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ١٦١، المناقب (الخوارزمي): ١٥٨.

(٢) آل عمران: ١٤٦.

(٣) الإرشاد ١: ٩٠، الأمالي (الطوسي): ١٤٣، شرح نهج البلاغة ١٥: ٣٥، المستدرك على

وأي واقعة خاضها المسلمون لم يكن لعلي عليه السلام فيها الساعد الأطول؟ أربع وثمانون غزوة ما تخلّف فيها علي عليه السلام عن ساحات الجهاد، وكان المجاهد الأول والمدافع عن حمى المسلمين. وقد رسم لنا القرآن أوقاتاً من أحرج ما مر على المسلمين، ورسم لنا التأريخ وقوف علي عليه السلام فيها ممّا وصل إلينا من بعض الضمائر الحيّة. يقول القرآن الكريم ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾[1]، في مثل هذا الموقف ينزل علي عليه السلام ليقول:

نصرَ الحجارةَ من سَفاهةِ رأيِه	ونصرتُ دينِ محمدٍ بصوابي
فضربته فتركته متجدّلاً	كالجذع بين دكادكٍ ورواب
وعففتُ عن أثوابه ولو انني	كنتُ المُجدّل بزّني أثوابي
لا تحسبنّ اللهَ خاذل دينه	ونبيّهُ يا معشر الأحزابِ[2]

فهذا الصوت الذي انطلق في الملاحم مدوياً، وذلك الساعد الذي امتد ليفري، وذلك الرمح الذي كان ينال الأبعد، وتلك الروح الكبيرة التي ما وهنت ولا ضعفت أبداً في أي مرحلة من مراحل حياتها، كل هذه سوف تبقىٰ هكذا، ويبقى صوت الجهاد مدوياً في حياة علي، ويبقىٰ علي عليه السلام السيف الذي زكته السماء بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾[3].

ولم يكن جهاد علي عليه السلام سوى ابتغاء مرضاة الله، فهل ذكر لنا التأريخ

الصحيحين ٣: ٢٤، مكارم الأخلاق (ابن أبي الدنيا): ٦٧، وغيرها كثير.

(١) الأحزاب: ١٠.

(٢) شرح الأخبار ١: ٢٩٤ ـ ٢٩٦، الجامع لأحكام القرآن ١٤: ١٣٣ ـ ١٣٤، البداية والنهاية ٤: ١٢٠ ـ ١٢١.

(٣) البقرة: ٢٠٧. وانظر الإيمان: ٣٠٣، شواهد التنزيل ١: ١٣٠ / ١٤٠ ـ ١٤١.

بأن علياً عليه السلام جاهد لنيل منزلة من المنازل؟ أو ليحوز شيئاً من الأموال؟

لقد امتدّت مرحلة الجهاد بالسيف على مدى ثمانين غزوة وكلها في سبيل الله تعالىٰ، بحيث أصبح الحديث عن جهاد علي عليه السلام لا يستأثر بالاهتمام؛ لأنه أصبح من الضروريات، فالمتحدث عنه كالمتحدث عن نور الشمس بقوله: «الشمس مضيئة».

ولذا يُعقِّب بعض العلماء على كلمة النبي صلى الله عليه وآله في علي عليه السلام: «لَضربة علي لعمرو تعدل عبادة اُمتي»، بقوله: «فلو لم يُقتل عمرو بن عبد ودّ ذلك اليوم، ولم يُهزم الأحزاب لأُصبح الإسلام في الأمس الدّابر».

فهو إذن المجاهد بالسيف، وله من جراحاته ومواقفه شواهد وشواهد لا تندثر على مدى التأريخ، ولا تمحوها الأيام، ثم يمتدُّ هذا الجهاد في قتال الناكثين والقاسطين والمارقين، يقول المؤرخون عنه يوم الجمل: نزل علي عليه السلام ودفع اللواء لولده محمد بن الحنفية وقال له «تِدْ في الأرض قدمك، عضَّ على ناجذك». فلما نزل محمد أتته رشقة من السهام فتلكأ قليلاً لتنكشف السهام، فما أحس إلّا بنَفس أبيه بين كتفيه وهو يقول: «أدركك عرق من اُمك؟». ثم أُخذ الراية فهزها، ثم قال:

« اطعن بها طعن أبيك تحمدِ لا خير في الحرب إذا لم توقدِ

بالمشرفي والقنا المسدّدِ »

ثم حمل وحمل الناس خلفه، فطحن عسكر البصرة[1].

يقول المؤرخون: كان للضرب على البَيض والهامات قَرعٌ، ونزل علي عليه السلام فما رده أحد حتى انتهى إلى الجمل فطعنه ورجع. ووقف بعد

---

(١) شرح نهج البلاغة ١: ٢٤٣.

الواقعة على مصارع أعدائه، فلم يكن يهون عليه أن ينظر إلىٰ جملة من رُفقاء السلاح الذين قادهم سوء الطالع أن يُقتلوا، ولقد قال له رسولﷺ: «ويلٌ لمن سل سيفَه عليك، وسللت سيفَك عليه».

المبحث الثاني: لمحات من جهادهﷺ بالقلم والفكر

هذا في ساحة الحرب، أما الجهاد على مستوى القلم، وفي ساحة الفكر، فبين أيدينا تأريخ المسلمين والعلوم الإسلامية، فهل ترى ـ بالله عليك ـ مكاناً خالياً من أثر لعليﷺ[1]؟ كلا، إنك تجد آثاره في كلّ مكان بالرغم مما ذكرناه سلفاً من أن الأقلام حاولت أن تُلقي ستاراً على نشاطهﷺ في كلّ أبعاد المعرفة، ولكن شاء الله لهذا الرجل أن يبقى كالشمس الطالعة لا يسترها الغربال. قال النبيﷺ لعليﷺ: «يا أبا الحسن، ليُهنك العلم، فلقد شربت العلم شرباً ونهلته نهلاً»[2]. فأخذ عليﷺ هذا العلم ليجنده للجهاد في سبيل الله.

تأمل معي قليلاً في (نهج البلاغة)، ولنمر بهذا الكتاب الذي حاول البعض أن يُبعده عن عليﷺ؛ لما فيه من جموح العبقرية، وهي محاولة من المحاولات التي كان هدفها التغطية على جهاده، فقيل: إنه منحول وليس لعليﷺ. ودعنا نمر لننظر نظريات علي بن أبي طالبﷺ، فكل خطبة من خطبه في (نهج البلاغة) تتضمن من أبعاد المعرفة ما يملأ النفس إعجاباً. وكانﷺ في حياة النبيﷺ هو المسدد، فيشير إليه النبي

---

(١) قد مرّ في ج١ ص٣٤٨ سؤال الحجّاج من الحسن وعامر الشعبي وواصل بن عطاء وعمرو ابن عبيد حول مسألة القضاء والقدر، وكيف أجابوه كلّهم بما وردهم عن أمير المؤمنينﷺ. وهذا مثل متواضع من دورهﷺ في مجال الفكر والعلوم.

(٢) الأمالي (الطوسي): ٤٩٢ / ١٠٧٧، كنز العمال ١٣: ١٧٧ / ٣٦٥٢٤.

ويُحيل السائل إليه، وذهب إلىٰ اليمن فدعا له رسول الله صلى الله عليه وآله، ومسح بيده على صدره، وما ابتعد عن ساحة المعرفة ساعة من الساعات في حياة النبي صلى الله عليه وآله.

ثم جنَّد نفسه بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله لخدمة المسلمين في حقول المعرفة، فنرى مجالس الخلفاء الثلاثة تحفل بالكثير من القضايا كان علي بن أبي طالب عليه السلام ينبري للإجابة عليها، بل إن معاوية كما ذكر ابن عبد البر في (الاستيعاب)، كان إذا نزلت به ملمة أو مسألة علمية يُرسل إلىٰ علي عليه السلام يسأله، ولا يبخل علي عليه السلام بالإجابة عليه مع ما كان بين الأُمويين وبينه عليه السلام، ولكنه عليه السلام كان يرى في ذلك نوعاً من أنواع الجهاد في ساحة المعرفة وفي سبيل الله. ولم يتوانَ في تجنيد قلمه وفكره في أيام الخلفاء أو في أيامه هو لخدمة المسلمين، حتى سُئل ابن عباس عن مقدار علمه قياساً بعلم علي عليه السلام، فقال: «كقطرة إلىٰ بحرٍ محيط»[١].

لقد أجاب علي عليه السلام عن جملة من القضايا، وبين تفسير الآيات، وترك لنا تراثاً ضخماً في هذا المجال، وبوسعك أن تعود إلىٰ (نهج البلاغة)، فترى لعلي عليه السلام رأياً في الاجتماع، وفي التربية، وفي السلوك.

يقول عليه السلام: «قيمة كل امرئ ما يحسنه»[٢]، ويقول عليه السلام: «من كانت هِمَّتُهُ بطنه كانت قيمتُه ما يخرج منها»[٣]، ويقول عليه السلام: «المرء مخبوء تحت طي لسانه»[٤] لا تحت طيلسانه.

---

(١) الصراط المستقيم ١: ١٥٥. (٢) نهج البلاغة / الحكمة: ٨١.

(٣) لم نعثر عليه، وفي عيون المواعظ: ١٢٤، أنه عليه السلام قال: «أمقت العباد إلى الله من كان همّه بطنه وفرجه».

(٤) نهج البلاغة / الحكمة ١٤٨، ٣٩٢، عيون الحكم والمواعظ: ١٨، ٢٠١.

وكان أمير المؤمنين عليه السلام يُقَيِّم أبعاد الحياة كلّها فيربطها بوجه الله عز وجل، فيضيف عليها المعنى الجهادي، ويريد لكل نشاط أن يُجنَّد في سبيل الله.

وهكذا ترك لنا ثروة ضخمة في (نهج البلاغة)، وكان يتصدّى بنفسه للإجابة، وكان يتجوّل في أسواق المسلمين منذ الصباح الباكر أيام خلافته، ثم يعود ليجلس على دكّة القضاء ويتصدى للإجابة عن مسائل ومرافعات الناس.

جاءه يوماً طفل يبكي، فسأله عليه السلام: «ما بالك؟». قال: سيدي هؤلاء الأربعة خرجوا بأبي إلىٰ السفر، ورجعوا ولم يرجع أبي، وادَّعوا أنه فُقِد، ولم يُعيدوا إليّ شيئاً من أمواله. فقال عليه السلام: «وهل ذهبت إلىٰ القضاء؟». قال: نعم، ذهبت إلىٰ شريح فطلب مني أن آتيه بشهود بينة على أنّ أبي كان معهم، ومعه كذا من الأموال. فاستشهد عليه السلام بهذا البيت:

أوردها سعدٌ وسعدٌ مشتملْ ما هكذا توردُ يا سعدُ الإبلْ

ثم قال: «أهون السقي التشريع»، وهذا مثلٌ يضرب لمن لا يُتعِب نفسه في استخراج الفكر، أو في تناول أي شيء، ومعناه أن أسهل ما في سقي الإبل وجود شريعة على حافة البئر، فإذا وُجِدت الشريعة فلا يتعب الساقي في سقي إبله. فالإمام عليه السلام يقول عن شريح: إنه لم يُتعب نفسه في استخراج الدليل والتوصل إلىٰ النتيجة. ثم قال عليه السلام: «هاتوا إليّ هؤلاء الأربعة»، فأمر بتفريقهم ثم جيء بواحدٍ فسأله: «متى خرجتم؟». قال: في يوم كذا. قال عليه السلام: «في أية ساعة؟». قال: في ساعة كذا.

ثم أخذ يسأله ويسأله وهو يجيب وشهادته تُدوَّن، إلىٰ أن أكمل

الإجابات فأخرجه وجاء بالثاني فسأله كما سأل صاحبه، وهكذا فعل بالآخرين، فاختلفت أقوال الأربعة، وعندئذ جمعهم وتوعّدهم فأقروا بقتله وأخْذِ الأموال، فاسترجع الأموال وأخذ عليهم القود[١].

كان قضاؤه كلّه مستنتجاً من القرآن الكريم، ويجري على أحسن الترتيبات الإدارية، كان عليه السلام متصدّياً للقضاء بنفسه، فلا يكاد يبارح مسجد الكوفة يوماً. أما في أيام الخلفاء فقد ذكر التاريخ لنا كمّاً هائلاً من قضاياه العجيبة، فترك لنا ثروة كبيرة في القضاء. والمتأمل في قضائه عليه السلام يستغرب من وجود الفكر النافذ في ذلك الزمان، ولكن لا غرابة واقعاً لأن علياً عليه السلام تلميذ القرآن والإسلام، فلا بد أن يكون بارعاً، فهو مجاهد بالعلم والقلم، ولا سبيل إلّا إلى الإذعان لذلك. فقد جند المعاني لتكون في طريق الله، ومن أجل كلمة الله. يقول عليه السلام في مناجاته لنوف البكالي: «**يا نوف، طوبى للزاهدين في الدنيا الراغبين بالآخرة، أُولئك قوم اتخذوا الأرض بساطاً، وترابها فراشاً، وماءها طيباً والقرآن شعاراً والدعاء دثاراً، ثم قرضوا الدنيا قرضاً على منهاج المسيح**»[٢].

المبحث الثالث: جهاده عليه السلام في ساحة الكدح على العيال

أما الجهاد في ساحة الكد والكدح، فقد وقف يجاهد في هذه الساحة أيما جهادٍ، في حين أننا ما حُدِّثنا عن رجل كان يتولى العمل في خلافته حتى يُصيب يديه المَجَل[٣]. نعم ما كان ذلك إلّا من علي عليه السلام فقد أصاب يديه المجل من كثرة العمل، فكان منذ الصباح الباكر يتناول مسحاةً له

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٢: ١٩٩، فيض القدير ١: ٥٨٨.

(٢) نهج البلاغة / الحكمة: ١٠٤. (٣) الغارات ١: ٩٢.

ويخرج إلىٰ الأرض فيصلحها ويفلحها، ويستنبط منها العيون حتى أصاب يديه المجل. كان يتناول قوته من عرقه عليه السلام، يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «والله ما كان يأكل إلّا العجوة وقليلاً من الخبز»[١]. وقد أعتق ألف مملوك من كدّ يده، فكان يستنبط العين ثم يبيعها ويشتري بثمنها عبيداً فيعتقهم[٢].

وكان عليه السلام يؤجّر نفسه في بساتين لبعض اليهود ليأخذ بضعة دريهمات، ثم يتصدق بها في سبيل الله، ويعود إلىٰ البيت لا يحمل شيئاً[٣]. وإذا احتاج إلى شيء من اللباس فإنه يقتطع من أُجور عمله ما يشتري به ثوباً من الثياب العادية.

وهكذا وقف يكد ويكدح حتى مجلت يداه وبلغ به الأمر حدّاً وقفت معه فاطمة عليها السلام يوماً على النبي صلى الله عليه وآله وهي باكية، فسألها صلى الله عليه وآله: «ما يُبكيكِ؟». قالت عليها السلام: «دخلت علي نسوة من قريش، فعيرنني بأن علياً عليه السلام فقير». فقال لها: «بنية، أما رضيت أنني زوجتك أكثرهم علماً، وأرجحهم حلماً، وأقدمهم سلماً.. لقد زوجتك سيداً في الدنيا وفي الآخرة». فطفح البشر على وجهها[٤].

وبلغ به الأمر أن انبرى له أبناء عمّه من العباسيّين فعيّروه بالفقر، فوقف مروان ابن أبي حفصة يشتم علياً عليه السلام، ويعيّره بالفقر، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله زوّج ابنته بمسكين، فوقف له الحسين بن الحجاج من شعراء الشيعة فقال:

وكـــان قـــولك بـــالزهراء فـــاطمةٍ   قـولَ امـرىء لَـهِجٍ بـالنصب مـفتونِ

---

(١) قريب منه في قرب الإسناد: ١١٣ / ٣٩١، بحار الأنوار ٦٣: ٥٦ / ١، عن الصادق عليه السلام.

(٢) انظر الهامش السابق.

(٣) المعيار والموازنة: ٢٣٨.

(٤) أسد الغابة ٥: ٥٢٠، كنز العمّال ١١: ٦٠٥ / ٣٢٩٢٦ـ٣٢٩٢٧، ١٣: ١١٤ / ٣٦٣٧٠، ولم يذكر طرف القصة.

عـيَّرتَها بـالرَّحى والحبّ تـطحنُه — لازال زادُكَ حـبّاً غـير مـطحونِ
وقـلت إن رسـولَ الله زوَّجـها — مسكـينةً بـنت مسكـين لمسكـينِ
وهي التي بـغدٍ فـي الحشـر يـخدمها — أهلُ الجنان بـحورِ الخُـرَّد العـينِ[(١)]

هكذا كان عليه السلام يكدّ ويتعب، ثم يتصدّق بما يكسبه على الفقراء والمساكين في سبيل الله، ويقنع بقليل من الخبز أو بشيء من التمر يأكله ويمسح بيده على بطنه ويقول: «من أدخله بطنه النار فأبعده الله»[(٢)].

يقول بعض أصحابه: دخلت عليه وهو في طريقه إلىٰ الحجاز، فوجدت جراباً معلقاً ومختوماً، فلما حان وقت الظهر أنزل ذلك الجراب ومد يده فيه ثمّ أخرج شيئاً من السَّويق، فقلت: يا سيدي، أراك قد أغلقته! قال عليه السلام: «أوَتظن ذلك لبخل؟ لا والله ولكن هذا طعامٌ من أرض أنا أزرعها منذ كنت بالحجاز، والآن يزرعها أهلي ثم يبعثون لي منها، وأنا آكل منه ولا اُحب أن يدخل بطني إلّا الطعام الطيب»[(٣)].

وقد حدثَنا في نهجه فقال: «أما والله لأروضن نفسي رياضة تهش معها إلىٰ القرص إذا قدرت عليه مطعوماً، وتقنع بالملح مأدوماً»[(٤)].

خلاصة البحث

لقد كان علي عليه السلام مجاهداً بالسيف والقلم والعمل، فهو سيد المجاهدين

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١١٥.

(٢) الدعوات: ١٣٨ / ٣٤٠، مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (محمد بن سليمان) ٢: ٨٢ / ٥٦٧، بحار الأنوار ٤٠: ٣٤٠ / ٢٦، كنز العمال ٣: ٧٨٢ / ٨٧٤١، تاريخ مدينة دمشق ٤٨: ٢٣٠.

(٣) لم نعثر عليه بنصه، انظر أصل الشيعة وأُصولها: ٤٨ ـ ٤٩.

(٤) حلية الأبرار ٢: ٢٣٢ / ٢٠، نثر الدرر (الوزير أبو سعيد منصور بن الحسين الآبي) ١: ٢٤٣ ـ ٢٤٤، مخطوط في دار الكتب المصرية برقم: ٢٦٠٤، وقد مرّ في ج٢ ص٣٢٩.

في سبيل الله، وقد قال تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾ لقد كان جهاده دفاعاً عن الدين وعن النبي صلى الله عليه وآله، وعن الأُمة. ولئن كان المجاهد في ميدان العمل يجاهد عن أسرة، فعلي عليه السلام كان يجاهد عن أُمة بكاملها، فيرىٰ أن المسلمين عياله وأهله. ولذلك استدعى في مثل هذه الليلة (الحادية والعشرين من رمضان) أولاده بعد أن اشتد عليه الم ضربته فقال لهم: «الله الله في اليتامىٰ لا تغبُّوا أفواههم»[1]. أي تتأخروا عنهم في ارسال الطعام فتغبّ أفواههم، أي تحدث فيها رائحة بسبب تأخر الطعام. وصل عطفُه حتى الى من ضربه، فقد أُدخل عليه في هذه الليلة عبد الرحمن بن ملجم، فرفع الإمام عليه السلام رأسه إليه قائلاً: «أي إمام كنت لك؟ ألم أُحسن إليك؟ ألم أُعطك عطاءك؟». وأخذ يعدد له ويُذكره بنعمته عليه. فقال ابن ملجم: افأنت تُنقذ من في النار؟ فأطرق علي عليه السلام ثم التفت إلىٰ الحسن عليه السلام وقال له: «اسقوه من شرابي، وأطعموه من طعامي، ولا تُمثّلوا به، إن أنا عشت فأنا ولي دمي، وإن أنا مت فاضربوه ضربة بضربة، ولا تمثلوا بالرجل فإن المثلة حرام ولو بالكلب العقور»[2].

أيتها النفس المطمئنة المجاهدة، يا نفس علي بن أبي طالب عليه السلام أطلّي علينا من عليائك .. امنحينا من العطاء الذي عندك .. احملينا على أن نسير في الطريق الذي سرت فيهِ .. ابعثي في نفوس المسلمين ما كان فيك من شفقة ورحمة، تنبسط على هذه الدنيا، وسلامٌ على نفحاتك أبا الحسن وأنت تودّع حياة الجسد، ولا تودع حياة الروح، لأنك خالدٌ:

ومثلُ علي لا يُحدّ له عمر

---

(١) نهج البلاغة / الوصية: ٤٧.

(٢) بحار الأنوار ٤٢: ٢٨٧ ـ ٢٨٨.

مرّت عليه هذه الليلة وهو في أشد حالات الألم، يقول حبيب بن عمرو والأصبغ بن نباتة في دخولهم عليه: إننا وجدناه معصباً بعصابة صفراء، والله ما ندري أوجهه أشد اصفراراً أم العصابة، يقول الأصبغ: جلست ومعي جماعة من أصحابنا، فسمعنا البكاء من داخل الدار فارتفعت أصواتنا بالبكاء، ثم خرج الإمام الحسنعليه السلام وقال: «إن أمير المؤمنينعليه السلام يقول لكم: انصرفوا يرحمكم الله»، فانصرف القوم إلّا أنا، ثم سمعت البكاء مرة أُخرى فعلا صوتي بالنحيب، فخرج الحسنعليه السلام فقال: «ألم أقل لكم: انصرفوا؟». فقلت: سيدي، إن نفسي لا تطاوعني ورجليّ لا تحملانني، فلابدّ أن أراه. فدخل الحسنعليه السلام ثم خرج، فقال: «ادخل». فلما دخلت وجدت أمير المؤمنينعليه السلام معصب الرأس، مصفرّ الوجه، وقد اشتدّت عليه حرارة السمّ، فوقعت عليه أُقبله وأبكي، فقال: «يا أصبغ لا تبكِ، إنها والله الجنّة». قلت: سيدي، أنا أعلم أنها الجنّة ولكني أبكي لفراقك. عند ذلك سمعت النساء قد علا ضجيجهن بالبكاء[١]:

يبوية من عكب عينك عسن لا طالت النه اعمار
الدنيا موحشة بعدك يوالينا وظلمه الدار
لسا بعد جرح امي باجي بالكلب نغّار
ويفجعني زماني بيك ويطفي النور بعيوني

* * *

يا مصباحنه بالليل يا خيمة هلي كلها
تجمّعنه على نورك ننام ونكعد بظلها

---

(١) الأنوار العلوية: ٣٨٢.

ولما سمع بكاءهن قال للحسن عليه السلام: «أسكتهن»، وقال لأم كلثوم: «بنية، لا تؤذيني، والله لو ترين كما أرى لما بكيتِ». فقال له الحسن عليه السلام: «وماذا ترى يا أبه؟». قال: «هذا جدّك رسول الله صلى الله عليه وآله ومعه النبيون وهم يقولون: مرحباً بك، وإن ما أمامك خيرٌ لك مما أنت فيه».

عند ذاك ارتفعت أصوات النساء مرة أُخرى، وأقبلن إلىٰ محراب أمير المؤمنين عليه السلام:

يحامي الحمه مولي الموالي   يالشلت راس الدين عالي

الليلة بكه المحراب خالي

﴿ ٢٤ ﴾

بين الطور والنجف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

من أساليب القرآن الكريم أنه إذا أقسم ببعض الأشياء أحياناً فإنما يقسم بها لهدف، ففي كل كلمة من القرآن توجد ملاكات وأهداف، ومن هذه الأهداف بيان أهميّة الأشياءالتي يقسم بها، أو بيان شرفها، أو لفت النظر إليها. فالواو في صدر الآية الكريمة هي واو القسم، وهي داخلة على قوله تعالى: ﴿الطُّورِ﴾ الذي هو كل مرتفع إذا كان ذا نبات، أما إذا كان أجردَ ليس عليه نبات فإنه يسمىٰ جبلاً[2]. والتسمية تختلف باختلاف النبات؛ فإذا كان عليه زيتون فقط يعبرون عنه بطور زيتا، أمّا إذا كان عليه أشجار متنوّعة وخضرة فإنه يسمىٰ طور سينا[3].

---

(١) الطور: ١ ـ ٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤: ٢٥٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٧: ٥٩.

المبحث الأول: الأشياء التي تناولتها الآية بالقسم

ونحن نلاحظ هنا أن القرآن الكريم قد أقسم بثلاثة أشياء:

الشيء الأول الذي أقسم به تعالىٰ هو قوله: ﴿الطُّورِ﴾، والسؤال هو: أيّ طور يُقصد به؟ وأين مكانه؟ وليعلم أن مسألة مكان الطور قد اكتسبت أهميّة؛ لما يرتبط بها من أحداث حيث إنه المكان الذي حدثت عليه مناجاة النبي موسىٰ عليه السلام، والنداء من الله في هذه المنطقة ممّا يعطي هذا الموقع شرفاً وكرامة؛ ولذلك اختلفوا في موقعه. وعند تتبّع كتب تفاسير المسلمين للمذاهب الإسلاميّة الأُخرىٰ نرى أنهم يقولون: إنه في أرض الشام، وبعضهم يقول: في القدس، وآخر يقول: في القرية التي كان فيها شعيب[١]. ولم تذكر رواية واحدة عنهم أنه كان في النجف حسبما قالت به روايات[٢] أهل البيت عليهم السلام، وهي روايات صحيحة ومعتبرة.

محاولات النيل من الأيمّة عليهم السلام

فلماذا لم تذكر هذه الروايات أنه في النجف؟ قبل الإجابة لابدّ من توضيح مقدّمة، وهي أن كلّ مسلم يؤمن بالله ورسوله إذا رأىٰ منقبة لصحابيّ يجب أن يعتزّ بها، لماذا؟ لأنهم جداول يصبّون في بحيرة الإسلام، لكن الذي حدث لفضائل الإمام علي عليه السلام أن جاء الأُمويّون بعد مصرعه ثم العباسيّون، وكان لكلّ منهم حسابه الخاصّ معه عليه السلام، ذلك أن التاريخ يحدّثنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يبعث الإمام عليّاً عليه السلام في الكتيبة فلا يرجع إلّا وقد علق الدم عليه بنياناً. وهو ممّا له تركة ثقيلة عند الأُمويّين

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القران ١٢: ١١٤، ١٧: ٥٨ ـ ٥٩، زاد المسير ٥: ٣١٨، ٧: ٢١٥، تفسير القرآن العظيم ٤: ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

(٢) انظر الميزان في تفسير القرآن ٢٠: ٣٢٠ ـ ٣٢١.

والعباسيّين. ولا ننسَ أن نذكر المثل المشهور في حالنا هذه مع العباسيّين: «اتّقِ شرّ من أحسنت إليه»، مع أن الحيوان عندما تبرّه يألفك ويقربك، غير أن الإنسان خلاف ذلك؛ إذ يوجد أُناس من المعدن الذي إذا أحسنت إليه فلن ترى منه مكافأة إلّا بالإساءة؛ لأنه يظن أن إحسانك إليه نوع من التميّز عليه فينقلب عليك. والفترة التي كتب فيها التاريخ وتفسير القرآن الكريم ابتدأت في عصر الأُمويّين والعباسيّين؛ ولهذا فإنهم إذا مرّوا بالإمام علي عليه السلام انقلبت الحسابات، فصاحب (السيرة الحلبية) مثلاً التي تشرح تاريخ الإسلام، والقاري الحنفي في (شرح الشفاء)، والآلوسي في (شرح عينيّة عبد الباقي العمري)، والحاكم في مستدركه ـ وهم جزء ممّا نصّ عليه مؤرّخونا، ومنهم الأميني في الجزء السادس من موسوعته الغديريّة[1] ـ ينصّون على أن ولادة الإمام علي عليه السلام كانت في الكعبة، والحاكم يقول: «الرواية متواترة»، أي رواها جيل عن جيل.

وكذلك جملة من المؤرّخين ذهبوا إلى أنه عليه السلام ولد في بطن الكعبة[2]، لكن الآن لم نجد لهذا ذكراً في حياة الناس، فالمفروض أنه يشار إليه؛ لأنه من رجالات الإسلام، فمثلما يشار إلى مقام إبراهيم يشار إلى هذا الرجل، فإن ذكره رصيد للإسلام. والآلوسي عندما يمر بهذه الرواية يقول: «سبحان الذي يضع الأشياء مواضعها»؛ حيث إن هذا الرجل أراد أن يردّ الجميل فطهّر البيت من الأصنام وكسرها، وأراد الله أن يكافئهُ أيضاً:

لمّا دعاك الله قدماً لأن	تولد في البيت فلبيتهْ
جزيته بين قريش بأن	طهّرت من أصنامهم بيتهْ[3]

---

(١) الغدير ٦: ٢٢، وانظر ٢: ١٥، ٣٣. (٢) مروج الذهب ٢: ٣٤٨.

(٣) الغدير ٦: ٢٣.

أما قبره فإنّ التأريخ يضع ضباباً عليه، ويقول: إنه لم يعلم النعش أين[١]. ونقول لهم: إن أهل البيت عليهم السلام يعرفون ذلك، ويزورون هذا الموقع ويشيرون إليه وينصّون عليه، ونحن عندما نريد أن نرجع لقبور الأنبياء والأولياء كيف يمكن لنا أن نهتدي إليها؟ حتماً يكون ذلك عن طريق ذراريهم. يقول صفوان الجمال: صحبت الإمام الصادق عليه السلام، ولمّا مررنا بالغريّ في النجف وقف في مكان وصلّي ركعتين، ثم انتقل إلى مكان ثانٍ وصلّى ركعتين، ثم انتقل إلى مكان ثالث وصلّى ركعتين، فقلت: سيّدي، هذه الأماكن الثلاث هل لك أن تخبرني عنها؟ فقال عليه السلام: «بلىٰ، المكان الأوّل قبر جدّي علي بن أبي طالب، والمكان الثاني موقع صلب فيه رأس الحسين في طريقهم لمّا جاؤوا به إلى الكوفة، والمكان الثالث مكان منبر القائم عليه السلام»[٢].

فكان أيمّة أهل البيت عليهم السلام لايتركون فرصة تمرّ دون الإشارة إلى موقع القبر ودعوة الناس لتجديد العهد له. غير أن التأريخ حاول أن يلفّه وولادته بحالة ضبابيّة، فكانوا لايذكرونه بخير، يقول أحدهم: ما نفعل مع هذا الرجل؛ إن أحببناه قتلنا، وإن أبغضناه كفرنا[٣].

على أيّة حال فروايات أهل البيت عليهم السلام تنصّ على أن الطور في النجف، والذي يؤيّد ذلك أن مناجاة النبي موسىٰ عليه السلام حدثت على جبل من جبال

---

(١) تاريخ بغداد ١: ١٤٨، سبل الهدىٰ والرشاد (الصالحي الشامي) ١١: ٣٠٧، ونقل ذلك عن الصفدي في (تمام المتون).

(٢) كامل الزيارات: ٨٤، تهذيب الأحكام ٦: ٣٥ / ٧١، وسائل الشيعة ١٤: ٣٩٩ / ١٩٤٥٤، دلائل الإمامة: ٤٥٩.

(٣) القول منسوب في مناقب آل أبي طالب وبحار الأنوار للشعبي، وفيه: «ما ندري ما نصنع بعلي بن أبي طالب عليه السلام: إن أحببناه افتقرنا، وإن أبغضناه كفرنا!».
مناقب آل أبي طالب ٣: ١٦، بحار الأنوار ٩٢: ٤٨١.

الجنة، وجبال الجنة ذكر رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم أنها أربعة، وذكرها المؤرخون كذلك، وهي: الجودي (الذي رست عليه سفينة نبي الله نوحعليه السلام)، وجبل أُحد، وجبل لبنان، والرابع الطور[١]. فإذا أخذنا هذه الرواية وضممنا إليها رواية أن الطور هو وادي السلام، وهو مأوى أرواح المؤمنين وأن أرواح المؤمنين تذهب إلى الجنان[٢]، تكون نتيجة الجمع بين الروايات أن هذه هي المنطقة التي حدثت فيها المناجاة. وهذا لا نعتبره دليلاً ناهضاً، لكن توجد روايات عن الإمام الباقر والإمام الصادقعليهما السلام بخصوص ذلك، ففي كتاب (فرحة الغري) وغيره من الكتب[٣] نصّ على أن الطور في الغري، وأن المناجاة حدثت فيه.

وحسبُ هذه التربة فخراً وشرفاً أنها قد حدثت عليها أُمور هامّة في تاريخ المسلمين، فهي لها دور كبير في حفظ اللغة العربية، فمدرسة اللغة العربيّة في النجف من أعمق المدارس، ويمكن الرجوع إلى المؤلّفات التي أُلّفت في هذا البلد والتي راعت حفظ اللغة، والجهد الذي انصبّ لأجل ذلك. ومن أهم الدروس التي يدرسها طالب العلم اللغة ومشتقّاتها، أي النحو والصرف والمعاني والبيان. وتوجد ريادة في النجف لتدريس العلوم الإسلامية، فآراء المذاهب الإسلاميّة تدرّس إلى جانب مذهب أهل البيتعليهم السلام بشكل مقارن من دون فرق بين مذهب وآخر، حيث يتمّ مناقشة الأحكام واستدلالاتها. في حين أننا نقرأ موسوعة إسلاميّة كبيرة فلا نجد فيها رواية لأهل البيتعليهم السلام، فلنسأل: من هم أهل البيتعليهم السلام؟ إنهم حملة القرآن، والبيت الذي هبط فيه الوحي، وفيه زغب جناح

---

(١) رواها القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١٧: ٥٨، عن نبيّنا محمدصلى الله عليه وآله وسلم.

(٢) وفيات الأئمّة: ٧٥.

(٣) الميزان في تفسير القرآن ٢٠: ٣٢٠ـ ٣٢١.

جبرئيل[1].

فالنجف احتضن رسالة الإسلام بحقّ، وفيه توجد مؤلّفات ضخمة تستعرض آراء المذاهب الإسلاميّة كـ(الخلاف) للشيخ الطوسي حيث يستعرض فيه بكلّ أدب واحترام آراء المذاهب الإسلاميّة ويشبعها ويقارنها بفقه أهل البيت عليهم السلام، وكمؤلّفات العلاّمة الحلّي والمقداد السيوري. وعندنا الفقه المقارن يدرس الآن، في حين أنك لا تجد ذلك عند غيرنا من كتّاب المذاهب الأربعة فلا يمرّ أحد منهم برأي لأهل البيت عليهم السلام. مع أن هذا في الواقع يحطّ من قيمة الكاتب نفسه؛ لأن أهل البيت عليهم السلام هم النبع الصافي[2]. فالإمام الصادق عليه السلام هو الجذر والنبع

---

(١) ورد أن للحسن والحسين عليهما السلام تعويذين حشوهما من زغب جناح جبرئيل. انظر مناقب آل أبي طالب ٣: ١٦٢، بحار الأنوار ٤٣: ٢٦٣ / ٩، ترجمة الإمام الحسن عليه السلام (ابن عساكر): ١١٣، ١١٤، ترجمة الإمام الحسين عليه السلام (ابن عساكر): ١٩٢.

(٢) روي أن الحجّاج بن يوسف الثقفيّ كتب إلى الحسن البصريّ، وإلىٰ عامر الشعبيّ، وإلىٰ عمرو بن عبيد، وإلىٰ واصل بن عطاء أن يذكروا ما عندهم وما وصل إليهم في القضاء والقدر؛ فكتب إليه الحسن البصري: أحسن ما انتهىٰ إلينا في القضاء والقدر ما سمعته عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وهو قوله: «أتظنّ أن الّذي هداك دهاك؟! إنما دهاك أسفلك وأعلاك، والله بريء من ذاك».

وكتب إليه عمرو بن عبيد: أحسن ما سمعت في القضاء والقدر قول علي بن أبي طالب عليه السلام: «لو كان الوزر في الأصل محتوماً، لكان الموزور في القضاء مظلوماً».

وكتب إليه واصل بن عطاء: أحسن ما سمعت في القضاء والقدر قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «أيدلّك علىٰ الطريق، ثمّ يأخذ عليك المضيق؟! هذا في العقل لا يليق».

وكتب إليه عامر الشعبيّ: أحسن ما سمعت في القضاء والقدر قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «كلّ ما حمدت الله عليه فهو منه، وكلّ ما استغفرت الله منه فهو منك».

فلمّا وصلت كتبهم إلى الحجّاج، وقرأ ما كتبوه إليه، قال: لقد أخذوها من عين صافية، ليس فيها كدر ولا وعر.

انظر: الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف: ٣٢٩، كنز الفوائد: ١٧٠، الميزان في تفسير

للمذاهب الإسلامية؛ لأنه تلمذ له اثنان من أيمّة المذاهب الإسلاميّة الأربعة بصورة مباشرة، والآخران بصورة غير مباشرة(١).

فمقتضى القاعدة أن هذه المزيّة لهذه التربة ينبغي أن تكون موضع اعتزاز وفخر عند المسلمين؛ لأن هذا البلد خدم الإسلام بكل معارفه، والتربة قد احتضنت الإمام علياً عليه السلام، وهو عطاء للمسلمين كافّة.

فقسم الآية بـ﴿الطُّورِ﴾ إشارة إلى فضل هذه التربة، حيث نجد روايات تقول: إن هذه التربة ضجّت إلى الله، فجعلها الله مكاناً يُعبد به. وقد خصّها الله بفضل، كما خصّ غيرها. فنحن نعتزّ بتربة المدينة لأنها مهد الرسول صلى الله عليه وآله، وكذلك نحن عندما نرىٰ هذا الرجل قد خدم الإسلام بكل ما أمكنه فإنّ التربة التي تضمّه ستصبح موضع اعتزازنا، فآثاره الروحيّة باقية إلى الآن، وهي ستبقىٰ مابقي الدهر؛ لأن الفكر والعطاء لا آمد لعمره. فمهما مرّت الدنيا فإنها لا تقضي على عطاء النبوة، وعلي رافد من روافد

القرآن ١: ١٠٣.

(١) وفيه وفي جدّه أمير المؤمنين عليه السلام، قال ابن أبي الحديد: «ومن العلوم علم الفقه، وهو عليه السلام ـ يعني أمير المؤمنين عليه السلام ـ أصله وأساسه، وكلّ فقيه في الإسلام فهو عيال عليه ومستفيد من فقهه:

أما أصحاب أبي حنيفة كأبي يوسف ومحمد وغيرهما، فأخذوا عن أبي حنيفة.

وأما الشافعي فقرأ على محمد بن الحسن، فيرجع فقهه أيضاً إلى أبي حنيفة.

وأما أحمد بن حنبل، فقرأ على الشافعي، فيرجع فقهه أيضاً إلى أبي حنيفة.

وأبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمد عليه السلام، وقرأ جعفر على أبيه عليه السلام، وينتهي الأمر إلى عليّ عليه السلام.

وأما مالك بن أنس، فقرأ على ربيعة الرأي، وقرأ ربيعة على عكرمة، وقرأ عكرمة على عبد الله بن عباس، وقرأ عبد الله بن عبّاس على علي بن أبي طالب عليه السلام.

وإن شئت رددت إليه فقه الشافعي بقراءته على مالك، كان لك ذلك.

فهؤلاء الفقهاء الأربعة.

شرح نهج البلاغة ١: ١٦.

الإسلام؛ فلا يمكن أن يموت ودنياه دنيا خالدة ستبقىٰ مابقي الدهر. يقول أحد الشعراء:

سيدي يا أبا تراب يطيب الـ ـغرس فيه وتشرئبّ الجذورُ

فالقرآن يقسم بالطور، والروايات كثيرة عن أهل البيت عليهم السلام أنه هذه البقعة.

معنى الكتاب المسطور

الشيء الثاني الذي أقسم به تعالىٰ هو قوله: ﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾، وفي تسميته بالمسطور ثلاثة آراء:

الرأي الأول: أنه تعالى عبّر عنه بالمسطور؛ لأن الملائكة تقرؤه باللوح، والناس يقرؤونه على الورق المسطور، أي في سطور.

ليس في القرآن تحريف

وهنا نقطة دقيقة، فالقرآن عندما يعبر عنه بـ﴿مَسْطُورٍ﴾ ـ أي مكتوب في سطور ـ يريد أنه لا سبيل إلى العبث به، فهو مابين الدفّتين، فإذا كانت الكتب السماويّة الأُخرىٰ قد حصل فيها عبث فالقرآن لم يحصل فيه ذلك العبث، وعليه أساطين علمائنا.

لكن هناك من يفسّر بعبث، وهناك من يقول: إن الإماميّة يقولون بوقوع التحريف في القرآن، ونحن نقول: إن القرآن مابين الدفّتين وإن وجدت روايات بهذا فهي غير معتبرة لا عندنا ولا عندهم. فليس في القرآن زيادة ولا نقيصة، فإن كان كذلك ـ أي أنه قد وقع فيه تحريف ـ فإنّ دستور الأُمّة الإسلاميّة كلّه باطل؛ ممّا يعني أنه تترتّب عليه لوازم فاسدة.

ونسأل: ما هو الهدف من القسم بالكتاب المسطور؟

والجواب: أن الهدف هو أن يدفعنا لقراءة القرآن فإنه المنبع الذي نستلهم منه كل احتياجاتنا ويغذّي أنفسنا بالخير. وكلّ الآيات لها معنىٰ نستفيد منه، فالذي يقرأ القرآن يخرج وهو يحمل الرحمة للناس والخلق، لكن بشرط أن يقرأه قراءة تدبر[1]؛ فمن هنا تُستلهم الهداية والقيم والمواقف. يروي عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال: «القرآن مأدبة الله»[2] حيث نأخذ منه النظريّات والتوجيه والهداية، ونأخذ منه حتى الأُسلوب في الكتابة والفصاحة.

الرأي الثاني: الكتاب المسطور هو كلّ الكتب السماويّة ؛ ولذلك فإن الآية نكّرته وقالت: ﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾، ولم تقل: «والكتاب المسطور». فهذا التنكير يفيد العموم أي كلّ كتاب نزل من السماء يحمل للناس الأحكام والتشريعات. ونفهم من هذا أن ديننا ليس فيه عداء للأديان الأُخرىٰ، فنحن نقرأ التوراة والإنجيل وليس لنا عداء معهم، لكن مع الأسف نقرأ لبعض حملة الأناجيل فنجد لهم مواقف عجيبة إزاء الإسلام حيث يقول أحدهم: إن محمداً مات سكرانَ فأكلته الخنازير. فهذا حقد غريب، مع العلم أن الإسلام وقف منهم غاية في الإنسانيّة فإنه لا يجد مصلحة في معاداتهم إلّا إذا كانوا يهدّدون الإنسانيّة، فالإسلام لا يقاتل أصحاب الأديان وإنما يقاتل الكافر لأنه خالٍ من المبادئ ويحارب الإسلام

(١) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبّر، ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفكّر».
وفي رواية أُخرى: «ألا لا خير في علم ليس فيه تفهّم، ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبّر».
الكافي ١: ٣٦ / ٣، معاني الأخبار: ٢٢٦ / ١.

(٢) وسائل الشيعة ٦: ١٦٨ / ٧٦٤٨، مستدرك وسائل الشيعة ٤: ٢٣٢٥ / ٤٥٦٩ عن لب اللباب للراوندي، القاموس الفقهي: ١٧، وتمامه: «فتعلّموا من مأدبته».

ويشكّل خطراً عليه. فنرىٰ الحقد على أهل البوسنة المسلمين، ومع الأسف نرىٰ المسلمين تحت هذه المطارق والتهديدات يتوزّعون أقساماً.

وأرعبتهم من الأعداء مطرقة ... فما استفاقوا لها إلّا وهم شُعَبُ

ورحم الله أحمد شوقي حيث يشكو الأُمّة في تائيّته التي يخاطب بها الخديوي عندما جاء إلى الحجّ:

إلىٰ عرفات الله ياخيرَ زائر ... عليك سلام الله في عرفاتِ

إذا زرت بعد البيت قبر محمد ... وقبّلت مثوى الأعظم العطِراتِ

فقل يارسول الله ياخيرَ مرسل ... أبثّك ماتدري من الحسراتِ[1]

فهنا يطرح بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله آلامه ومشاكله من هذه الأُمّة التي تمزّقت وعادت شيعاً.

الرأي الثالث: أن الكتاب المسطور هو كتاب الأعمال، أي الصحيفة التي تسجّل تصرّفات الإنسان فيها يوميّاً، فيسجّل عليه كل قول وفعل. ويؤيد هذا المعنىٰ، أنه عُبّر عنه بـ ﴿فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾ أي يُنشر بين يدي صاحبه يوم القيامة ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾[2].

ونسأل أيضاً: لكن لماذا يقسم به الباريء عزّ وجلّ؟

والجواب: أن الغرض واضح حيث إنه تعالى يريد أن يقول للإنسان: أنت ثمرة الوجود وسيّد الموجودات، وإني لم أخلقك عبثاً، فوراءك حساب؛ ولذا فيجب عليك أن تضع في حسابك أن هناك كتاباً يحصي عليك كل صغيرة وكبيرة. فكأن الهدف إشعار الإنسان وتنبيهه بأنه مسؤول:

---

(١) ديوان أحمد شوقي ١: ٩٨. (٢) الإسراء: ١٤.

ولو أنـــا إذا مُــتنا تُــركنا لكــان المـوت راحـة كـلّ حـيّ
ولكـــنّا إذا مُــتنا بُــعثنا ونُسأل بـعدها عـن كـلّ شـيّ

الشيء الثالث الذي أقسم به تعالىٰ هو قوله: ﴿الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾، وهو الكعبة الشريفة، فقد خطّط الله للكعبة وبنيت في عهد آدم عليه السلام باعتباره أول نبي أُرسل للبشر، وبقي مكانها معروفاً ومميّزاً إلى أن حدث الطوفان حيث رفعت، ثم بعد الطوفان أمر الله نبيّه إبراهيم عليه السلام أن يعيد بناءها، وعيّن له موضع البيت؛ ليبنيه على الأُسس السابقة: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾[1].

ونسأل أيضاً: لماذا أقسم الله به؟

والجواب: أن الكعبة أُمّنا العقيديّة ، حيث إنها المكان الذي انطلق منه شعاع الأنبياء على امتداد التاريخ الإنساني. وبعد أن تحكّمت الجاهليّة كانت الكعبة الشريفة هي المكان الذي انطلق منه صوت «لا إله إلّا الله». فالنبي صلى الله عليه وآله عندما دخل مكّة أمر بلالاً ـ وكان يحمل نبره السماء ـ فصعد وأذّن، واعتبرت قريش ذلك كارثة من الكوارث، حيث إن هذا معناه القضاء على تعدّد الآلهة. فحدث في مكّة نوع من الهرج والتأسّف، وبعضهم ولّى خارج مكة؛ كي لا يسمع صوت النداء.

فالقرآن الكريم أقسم بها؛ لأنها المنطلق، ولأننا نعود إليها في كلّ عقائدنا، ومنها انطلق الإسلام.

سبب تسميته بـ ﴿الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾

لكن لماذا عبّر عنها بـ﴿الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾؟

---

(١) الحج: ٢٦.

هناك قاعدة عند الأُصولين مفادها أن الأمر له صيغ متنوّعة، مثلاً حينما يريد الشارع أن يأمرنا بالصلاة فإنه قد يقول: «أعيدوا الصلاة»، أو يقول: «تعيدون الصلاة»، فهذان كلاهما أمر وإن كان الثاني جاء في صيغة الخبر. فـ﴿البيت المعمور﴾ أمر جاء في صيغة الخبر، حيث إنه تعالى يريد أن يقول: إن البيت ينبغي أن يعمر.

أنواع العمارة

والعمارة إما مادّيّة أو معنويّة:

فالعمارة المادّيّة أن يبنىٰ ويضاء وينظّف ويُتعاهد.

والعمارة المعنويّة أن يُتعاهد البيت بألّا يفرغ من العبادة، فإذا نقص الحجاج أو المعتمرون فإنّ الله يُكملهم من الملائكة؛ رعاية لهذه البقعة. وشرف هذه البقعة انسحب إلى المنطقة بكاملها حيث إن حدود الحرم أوسع من البيت، فجاء شرفه من هذا المكان المشرّف. والسعادة الحقيقيّة هي أمام بيت الله، يقول أحد الأُدباء:

أيـــها الغـــارقون فـــي غـــمراتٍ	نـــال مـــنها حـــتّىٰ أخسّ القـــرودِ
هـــاهنا يـــطفئ الغـــليل فـــهيّا	نـــنزل الركب عـــند نـــبع بـــرودِ
الجـــنان المـــفوّفات هـــراء	جـــنب رمـــل النـــقا ووادي القـديدِ
الســـعادات ليس إلّا بـــدرب الـ	ـــله فـــي دربـــه الكـريم السـعيدِ

فهناك السعادة الحقيقيّة حيث الكعبة الشريفة، وهي تجسّد هذا الجلال لك.

المبحث الثاني: موقف الأمويّين من البيت الحرام

لكن ماالذي صنعه الأُمويون بهذا البيت: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ

وَأمنا﴾[١]؟ لقد ضربوه بالمنجنيقات وهدموا أركانه، وسالت الدماء في قلبه، وأحرقوا أستاره، فكيف تريدنا أن نتغاضىٰ عن هذا اللون من الاعتداء على البيت الطاهر؟ فهذا الذي من أجله خرج الحسين عليه السلام من مكّة. يقول السيد الحلّي:

وقد انجلىٰ عن مكّة وهو ابنها وبه تشرّفت الحطيم وزمزمُ

لم يدرِ أين يريح بُدنَ ركابِه فكأنّما المأوىٰ عليه محرّمُ

فالحسين عليه السلام خرج من مكّة في اليوم الثامن من ذي الحجّة ـ يوم التروية ـ بعد أن حلّ إحرامه وحوّل حجّته إلى عُمرة مفردة، واستعدّ للخروج، فقيل له: ما أعجلك عن حجّك يا أبا عبد الله؟ فقال عليه السلام: «لو لم يُعجّل لأخذت»[٢].

فهو عليه السلام يخبرهم بأنه غير مستعدّ لأن يبقىٰ في البيت حتى يقتل فيه، فتنتهك حرمة الكعبة وتجرح مشاعر المسلمين. وفعلاً خرج عليه السلام وصعد المنبر وخطب خطبته الشهيرة: «خطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني عن أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف. وخير لي مصرع أنا لاقيه، كأني بأوصالي هذه تقطّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلا فيملأن مني أكراشاً جوفاً وأجربة سغباً. لا محيص عن يوم خطّ بالقلم. رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه فيوفينا أُجور الصابرين. ألا ومن كان فينا باذلاً مهجته موطّناً علىٰ لقاء الله نفسه فليرحل معنا فإني راحل مصبحاً إن شاء الله»[٣].

فهو عليه السلام إذن خرج ليحافظ على حرمة الكعبة، وكان ما أراد عليه السلام، فاحترم

(١) البقرة: ١٢٥. (٢) مثير الأحزان: ٢٨.

(٣) اللهوف في قتلىٰ الطفوف: ٣٨، كشف الغمّة ٢: ٢٣٩.

الكعبة، وخرج فلحق به صفوته وأهل بيته، فأراد الله تعويضه، فعوّضه بثلاث: جعل الدعاء مستجاباً تحت قبّته، وجعل الأيمّة في ذرّيته، وجعل الشفاء في تربته الطاهرة[١]، وخصّها بمنزلة عظيمة، فكأنّما قوله تعالى: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾[٢] في حقّها، فجعل القبر يُطاف به، وجعل له في قلب كلّ مسلم مكاناً[٣]، فهو عليه السلام يطوف في فكر كلّ مسلم يتأمّله ليستلهم أرفع القيم والمواقف من هذه التربة التي جسّد عليها أسمىٰ أنواع الفضائل.

وهكذا نجد أن الله قد جعل قبره كعبة للمؤمنين يطوفون حوله، والأصوات تنادي: «أشهد لقد اقشعرّت لدمائكم أظلّة العرش مع أظلّة الخلائق»[٤].

ونرىٰ كيف طاف التوّابون وغيرهم من بعض صحابة الرسول صلى الله عليه وآله، حيث مرّوا بهذا القبر الكريم وطافوا حوله، فجابر بن عبد الله الأنصاري يقف علىٰ القبر ويقول لابن عطية: «ضع يدي على القبر، ألمسنيه». حتىٰ إذا أحسّ ببرد ترابه صاح: «ياحسين، ياحسين». ثم قال: «حبيب لا يجيب حبيبه، وأنىٰ لك بالجواب وقد شخبت أوداجك علىٰ أثباجك، وفُرّق بين رأسك وبدنك؟ أشهد أنك من دعائم الدين وأركان المؤمنين، خامس أهل الكسا، وكيف لا تكون كذلك وقد رضعت من ثدي الإسلام، وربيت

---

(١) عدّة الداعي: ٤٨.

(٢) إبراهيم: ٣٧.

(٣) قال الشاعر:

لا تطلبوا قبر الحسيـ ـن بشرقها أو غربِ
ودعوا الجميع وعرّجوا نحوي فمشهده بقلبي

(٤) الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٣٤٢، المزار: ١٤٤.

في حجر الإيمان؟».

وفي اللحظات التي كان جابر يزور، أطلّ الإمام السجاد عليه السلام ومعه السبايا، وما كادت السبايا يلمحن قبر الحسين عليه السلام حتىٰ هرولن إليه وجلسن عنده، أخذت اللوعة مأخذها من قلوب بنات الزهراء عليها السلام، وأثّرت أثرها فيهن، وهو ما دفع الإمام السجاد عليه السلام إلى ألّا يطيل البقاء في تربة كربلاء، فلم يبقَ إلّا ثلاثة أيّام، فكلّموه في ذلك وقالوا له: إن العائلة لم تكتفِ بعد من الوداع، فلم لاتتركها لتتزود منه؟ فقال عليه السلام: «إني أرىٰ ما لاترون». قالوا: وماترىٰ؟ قال: «إني أخشىٰ على عمّتي زينب أن تموت، فإنها تقوم من قبر وتجلس عند قبر ودموعها جارية».

الفهرس الإجمالي

الفهرس التفصيلي

الفصل الأول: الرسول ﷺ

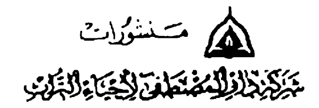
صدرت المجموعة الخامسة

الجزء ١٣ - الجزء ١٥

من

محاضرات الوائلي

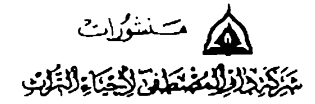
رحمه الله


منشورات
شركة دار المصطفى لإحياء التراث

صدر حديثاً دورة في ١٥ مجلداً

من كتاب

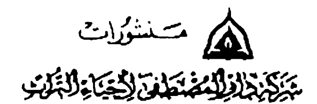




صدر حديثاً

كتاب





ترقبوا بإذن الله

صدور المجموعة السادسة

الجزء ١٦ - الجزء ١٨

مــن



